سعيد حوّى

الأساس في التفسير

المجلد السادس

وفيه تفسير المجموعة الثانية من قسم المئين
وهي سور :
الحجر ، النحل ، الإسراء ، الكهف ، مريم

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا. إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

المجموعة الثانية من قسم المثين
وتتألف من سور
الحجر ، والنحل ، والإسراء ، والكهف ، ومريم

كلمة في المجموعة الثانية من قسم المثين :

رأينا أن المجموعة الأولى من قسم المثين عَمَّقت اليقين ودلّت على النور وأخرجت من الظلمات ، ثمّ تأتي المجموعة الثانية من قسم المثين وأولها سورة الحجر التي تفصّل في مقدمة سورة البقرة من جديد تفصيلاً غير الذي فصّلته سورة يونس ، ثمّ تأتي بعد ذلك سورة النحل والإسراء والكهف ومريم فتفصّل في الآيات (٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣) من سورة البقرة .

سورة النحل تفصّل في الآية (٢١٠) وهي ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة وقُضِيَ الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ ولذلك فإن أول آية في سورة النحل هي : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه ..** ﴾ .

وسورة الإسراء تفصّل في الآية (٢١١) وهي ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ ولذلك تجد في سورة الإسراء قوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ...** ﴾ .

وسورة الكهف تفصّل في الآية (٢١٢) وهي ﴿**زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ ولذلك تجد في سورة الكهف ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾ وسورة مريم تفصّل في الآية (٢١٣) وهي ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾.ولذلك تجد في سورة مريم ﴿ **وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾ .

والتدليل على ماذكرناه هنا سيأتي بتوسع فيما بعد إن شاء الله .

إن الآيات (٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣) من سورة البقرة آتية بعد قوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنَّه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

وإذن فهي آتية في حيِّز الدعوة إلى الدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان ، ولذلك فإن السور الأربع التي جاءت تفصِّل الآيات الأربع قد عمَّقت معنى الدخول في الإسلام كله وترك اتباع - خطوات الشيطان - كما سنرى - وبما أن سورة الحجر كانت مقدمة لهذه السور الأربع فإنها ذكرت مثل هذا المعنى فقالت ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ أي أقساماً ، قبلوا قسماً وردوا قسماً ، فسورة الحجر والسور الأربعة بعدها تشكل كلاً متكاملاً ضمن قسمها وهذا سيتضح معنا بشكل أكمل عندما نستعرض سور المجموعة كلها .

☆ ☆ ☆

سورة الحجر

وهي السورة الخامسة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الثانية من قسم المئين
وآياتها تسع وتسعون آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة الحجر :

(أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم أنها نزلت بمكة وروي ذلك عن قتادة . ومجاهد . وفي مجمع البيان عن الحسن أنها مكية إلا قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ وذكر الجلال السيوطي في الإتقان عن بعضهم استثناء الآية الأولى فقط ثم قال قلت : وينبغي استثناء قوله تعالى ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين** ﴾ الآية لما أخرجه الترمذي وغيره في سبب نزولها وأنها في صفوف الصلاة ، وعلى هذا فقول أبي حيان ومثله في تفسير الخازن إنها مكية بلا خاف .. من قلة التتبع وهي تسع وتسعون آية ، قال الداني وكذا الطبرسي : بالإجماع وتحتوي – على ماقيل – على خمس آيات نسختها آية السيف .

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها مفتتحة بنحو ما افتتحت به السورة السابقة ومشتملة أيضاً على شرح أحوال الكفرة يوم القيامة ووداتهم لو كانوا مسلمين ، وقد اشتملت الأولى على نحو ذلك ، وأيضاً ذكر في الأولى طرف من أحوال المجرمين في الآخرة ، وذكر هنا طرف مما نال بعضاً منهم في الدنيا ، وأيضاً قد ذكر سبحانه في كل مما يتعلق بأمر السموات والأرض ماذكر ، وأيضاً ... فيما يتعلق بإبراهيم عليه السلام ، وأيضاً في كل من تسلية نبينا محمد ﷺ ما فيه وغير ذلك مما لايحصى ».

كلمة في سورة الحجر ومحورها :

سورة الحجر هي كالمقدمة للسور الأربع الآتية بعدها ، وهي في الوقت نفسه تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، فمحورها هو الآيات الأولى من سورة البقرة :

﴿ **الٓمٓ ۞ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ۞ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ۞ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ۞ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ۞ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ إنك لو تأملت سورة الحجر فإنك ستجد فيها : ﴿ **الٓر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين** ﴾ .

﴿ **إن المتقين في جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين * لايمسُّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين** ﴾ .

كما نجد فيها : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل** ﴾ .

﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فَظَلُّوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا** ﴾ فالسورة تفصّل في شأن المتقين ، كما تفصِّل في شأن الكافرين الذين لاينفع معهم إنذار ، إنها تفصِّل في مقدمة سورة البقرة ، مع تركيز على تفصيل أحوال الكافرين . قال صاحب الظلال :

(محور هذه السورة الأول هو إبراز المصير المخوِّف الذي ينتظر الكافرين المكذبين .. وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل سواء في ذلك القصة ، ومشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه) .

إن السورة تركز على تفصيل قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ . ولذلك فهي تدلنا على صفات هذا النوع من الكافرين الذين لاينفع معهم إنذار ، إنْ من خلال المعنى أو من خلال القصة ، وتردّ على الذين يتصورون أن الله لايعذب : ﴿ **نبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾ وتضرب الأمثلة على أنواع من تعذيبه للكافرين في الدنيا . هذا هو محور سورة الحجر الرئيسي :

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون** ﴾ إنها شرح لحال الكفار وموقفهم من الإنذار ، وهي في الوقت نفسه توجيه للنذير كيف يفعل وكيف يوجّه نذارته ، وبماذا يقابل رفضهم للإنذار ، كما أن فيها تعليلاً لهذه الحالة من الكفر الطاغي الأعمى :

لاحظ هذه التوجيهات للنذير :

﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ .

﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ .

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ .

﴿ لاتمدنَّ عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إني أنا النذير المبين ﴾ .

﴿ فاصدع بما تُؤْمر وأعرض عن المشركين ﴾ .

﴿ فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتِيَكَ اليقين ﴾ .

إنك عندما تقرأ هذه التوجيهات في محلها تجد أنّ كل توجيه منها يأتي في محله بما يخدم محور السورة وسياقها .

ومن قبل قلنا : إن أي سورة في القرآن لها محورها من سورة البقرة ، وهي تفصِّل فيه ، وفي بعض امتداداته من سورة البقرة نفسها ، فهي تجذب الشيء إلى نظيره ، وسورة الحجر تصلح أن تكون نموذجاً على ذلك ، فهي تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وفي بعض امتدادات هذه المقدمة ، بحيث يتألف من مجموع ذلك المقدمة الكاملة للسور الأربع التالية ، إن السور الأربع التالية لسورة الحجر تناقش أهم الدوافع والصوارف في شأن حمل الإسلام كله ، من ثمّ فإن سورة الحجر تفصّل في محورها من سورة البقرة ، وتفصِّل في امتداداته ضمن سياقها الخاص ليشكِّل ذلك مقدمة كاملة للسور بعدها ، فإذا كانت السور بعدها تناقش الدوافع والصوارف لحمل الإسلام كله ، فإن سورة الحجر تتحدث عن الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، كما أنها تنذر وتوجِّه وتوطِّىء ، وكل ذلك سنراه عند عرضها ، وسنعرض سورة الحجر على مجموعات بدلاً من عرضها كمقاطع للتسهيل على القارىء .

☆ ☆ ☆

المجموعة الأولى

وتمتدُّ حتى نهاية الآية (١٥) وهذه هي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟
مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)
وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ (٥) وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَّوْ مَا تَأْتِينَا
بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟
إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (١١)
كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ
(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا
سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)

التفسير :

﴿**الر**﴾ سبق الكلام عن هذه الأحرف ﴿**تلك**﴾ أي: ماتضمنته هذه السورة من الآيات ﴿**آيات الكتاب**﴾ أي: معجزات الكتاب ﴿**وقرآن مبين**﴾ أي: كثير الإبانة

المجموعة الأولى

وتمتدُّ حتى نهاية الآية (١٥) وهذه هي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا
بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟
إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾
كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا
سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

التفسير:

﴿**الر**﴾ سبق الكلام عن هذه الأحرف ﴿**تلك**﴾ أي: ماتضمنته هذه السورة من الآيات ﴿**آيات الكتاب**﴾ أي: معجزات الكتاب ﴿**وقرآن مبين**﴾ أي: كثير الإبانة

والتوضيح ، فالقرآن مبين عن الله وصفاته مبين عن الله ورسله ، مبين عن سنن الله وشرعه ودينه ، مبين عن طبيعة الإنسان وخصائص الإنسان وأدواء الإنسان وطرق علاجها ، بل إنه مبين لكل شيء يحتاجه الإنسان ﴿ **رُبَمَا يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ هذا إخبار عن الكفار أنهم سيندمون على ماكانوا فيه من الكفر ويتمنّون لو كانوا مسلمين في الدنيا ، ومتى يكون هذا ؟ هل هو عند النزع إذا كشف الحجاب ، أو يكون يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين ، أو إذا رأوا عصاة المسلمين يخرجون من النار ، أو إذا رأوا المسلمين يعبرون على الصراط ، أو إذا رأوا أهل الجنة في الجنة ، أو عند هذا كله ؟ أقوال للعلماء ، ولِمَ استعملت رُبما التي تفيد التقليل في هذا المقام مع أن تمني الإيمان والإسلام في هذه المقامات قطعي وكثير وكبير؟ الجواب : إنما جيء بـ (ربما) للإشعار بأن ماسيرونه من أهوال يشغلهم عن التمني ، وبناءً عليه يصدر الله عز وجل لرسوله ﷺ أمراً فيه إهانة لهم فيقول ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** ﴾ بدنياهم ﴿ **ويُلْههم الأمل** ﴾ أي ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن حقيقة أنفسهم وعما أمامهم وعن الحق الذي أُنزل إليك وعما كلفوا به ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ أي سوء صنيعهم ، والمعنى : اقطع طمعك من ارعوائهم لأن الإنذار وعدمه في حقهم سواء .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الآية الأولى في السورة لها صلة بالآية الأولى من سورة البقرة :

﴿ **الٓمٓ ۞ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ (سورة البقرة) ﴿ **الٓر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين** ﴾ (سورة الحجر) ثم نلاحظ الصلة المباشرة بين تتمة المجموعة وبين قوله تعالى من مقدمة سورة البقرة :

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون** ﴾ .

بدأ ذلك بقوله تعالى ﴿ **ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ۞ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ وتأتي بقية المجموعة لتعلّل سبب هذا الأمر ، ومن خلال ذلك نعرف أن الكلام في المجموعة عن نوع من الكفار لايؤثر فيهم الإنذار وكل ذلك مرتبط بمقدمة سورة البقرة .

فوائد :

١ - فهمنا من الآية أن الأكل والتمتع في الدنيا والأمل هي كل شيء بالنسبة للكافر ، وأن هذه القضايا الثلاث تشغلهم عن كل شيء ، وإذا تأملنا حال الكافرين ، وحاولنا أن نلخّص أحوالهم لم نجد أبلغ مما وصفهم القرآن به ، وفي ذلك مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني ، إذ مثل هذه الإحاطة في النفس البشرية ، وهذا البيان البليغ يخرجان عن طوق البشر ، وفي الآية تنبيه عظيم للمؤمنين على أن إيثار التلذذ والتمتع والانشغال بالآمال الكاذبة وما يؤدي إلى طول الأمل وإلى أن تصبح هذه الأخلاق عميقة الجذور في النفس والقلب ، كل ذلك ليس من أخلاق المؤمن ، كما أنّ أمر الرسول ﷺ بتركهم يشير إلى أنّ الواجب في حق هؤلاء ازدراؤهم واحتقار ماهم فيه ، وأي ازدراء أكبر من أن يؤمر المكلّف بالتبليغ أن يترك مَنْ هذا شأنه ! وفي عصرنا حيث تعتبر قضية الطعام والمتاع ميزان التقدم ، وحيث تقوم الحركات السياسية كلها على تعليق نفس الإنسان بالآمال الدنيوية ندرك أهمية هذا التوجيه في التربية الإسلامية .

٢ - رأينا اختلاف العلماء في اللحظة التي يودّ الكافرون فيها لو كانوا مسلمين ولاشك أن ندامتهم تحصل لهم في كل لحظة يتاح لهم أن يراجعوا ماهم فيه ، ومن ثم قصّ الله علينا قولهم ﴿ **ياليتنا نُردُّ ولا نكذب بآيات ربنا** ﴾ وقصّ الله علينا قولهم ﴿ **ربنا أخّرنا إلى أجل قريب ...** ﴾ وهكذا تعددت أقوال العلماء ، لأن كلاً منهم نظر إلى ماقصّه الله علينا من أمنية في مقام فذهب إلى أن الآية تريد هذا المقام ، إلا أن هناك أربعة أحاديث يذكرها ابن كثير تعتبر نصاً في الموضوع ، حديثان منها رواهما الطبراني ، وحديث رواه الطبراني وابن أبي حاتم ، وحديث منها رواه ابن أبي حاتم ، والأسانيد مختلفة ومعانيها قريبة من بعضها ، ومن ثم نكتفي بذكر الحديث الرابع الذي أخرجه ابن أبي حاتم ، وهذا هو :

« قال رسول الله ﷺ : « ومنهم - أي من المسلمين الذين أدخلوا النار - من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومَنْ في النار من أهل الأديان ، والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله ، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء .

فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى فيخرجهم إلى عين في الجنة وهو قوله ﴿ **ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

٣ - قوله تعالى ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** .. ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ **قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار** ﴾ (إبراهيم : ٣٠) وقوله ﴿ **كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون** ﴾ (المرسلات : ٤٦) ولهذا قال : ﴿ **ويلههم الأمل** ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ أي عاقبة أمرهم ولنعد إلى التفسير .

إنّه بعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن يدع هؤلاء الكافرين لما هم فيه ذكر تعليلات ذلك الأمر :

(١)

﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب** ﴾ أي مكتوب ﴿ **معلوم** ﴾ وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ ﴿ **ماتسبق من أُمّة أجلها** ﴾ المحدّد في الكتاب ﴿ **وما يستأخرون** ﴾ عن هذا الأجل المضروب.أخبر الله عز وجل أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وأنه لايؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم ، فإذا كانت سنة الله كذلك فهؤلاء الكافرون المعاندون لك يامحمد سيأتيهم أجلهم ، ومن ثَم فدعهم فيما هم فيه ونحن نتولى شأنهم .

(٢)

وعلة أخرى للأمر بتركهم : هي أقوالهم المتعنِّتة التي تخرجهم عن طور استحقاق الدعوة والإنذار ، لأن أقوالهم تخرجهم عن الاتزان والإنصاف ﴿ **وقالوا** ﴾ أي الكفار ﴿ **ياأيها الذي نُزِّل عليه الذكر** ﴾ أي القرآن الذي تدعو إليه ﴿ **إنك لمجنون** ﴾ والمعنى : إنك لتقول قول المجانين حيث تَدّعي أن الله نزّل عليك الذكر ﴿ **لوما** ﴾ أي هلا ﴿ **تأتينا بالملائكة** ﴾ أي يشهدون بصدقك ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فقوم هذا منطقهم : السباب ، واقتراح خرق نظام الكون ، لايستحقون الاهتمام وإنما الترك ، ومع ذلك فقد ردّ الله عليهم أقوالهم ﴿ **ما نُنزِّل الملائكة إلا بالحق** ﴾ أي إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق والحكمة ، إما بالرسالة وإما بالعذاب ، والعذاب له أجل والرسالة لها أهلها ﴿ **وما كانوا إذاً منظَرين** ﴾ أي لو نزلنا الملائكة ماكانوا منظرين ولما تأخر عذابهم ، هذا ردٌّ على طلبهم تنزل الملائكة ، وأما اتهامهم رسول الله ﷺ بالجنون بسبب تنزل الذكر عليه

فالردّ عليه ﴿ **إنا نحن نزّلنا الذكر** ﴾ أي القرآن ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ أي من التغيير والتبديل ، قال النسفي : وهو رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم (ياأيها الذي نُزّل عليه الذكر) ولذلك قال (إنا نحن) فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع ، وأنه هو الذي نزله محفوظاً من الشياطين ، وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل ، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتولّ حفظها ، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فوقع التحريف ، ولم يكل حفظه القرآن إلى غيره ، وقد جعل قوله (وإنا له لحافظون) دليلاً على أنه منزل من عنده آية . إذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرّق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه ، أو الضمير في (له) لرسول الله ﷺ كقوله (والله يعصمك) اهـ . فنسبة الرسول ﷺ إلى الجنون مع أن هذا القرآن من عند الله ، والأدلة قائمة على ذلك - يدل على أن هؤلاء وصلوا في الطغيان على الله ورسوله حداً لايصلح معه إلا الترك .

(٣)

﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك** ﴾ رسلاً ﴿ **في شيَع الأولين** ﴾ أي فرق السابقين ، والشيعة : الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة ﴿ **ومايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون** ﴾ وإذن لم يزل دأب الأمم الماضية الاستهزاء بالرسل ، فهؤلاء ماضون على سنن السابقين ﴿ **كذلك** ﴾ أي كما سلكنا الكفر أو الاستهزاء في شيع الأولين ﴿ **نسلكه** ﴾ أي الكفر أو الاستهزاء ﴿ **في قلوب المجرمين** ﴾ من هذه الأمة بسبب تحققهم بصفة الإجرام عقوبة لهم ﴿ **لايؤمنون به** ﴾ أي بالله أو بالذكر ﴿ **وقد خلت** ﴾ أي مضت ﴿ **سنَّة الأولين** ﴾ أي طريقتهم التي سنَّها في إهلاكهم أو في شأنهم ، ومن ثم فهؤلاء الذين هذا شأنهم ، وهذا حالهم ، لا يطمع بإسلامهم ، ومن ثم فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ...

(٤)

﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء** ﴾ أي ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء ﴿ **فظلوا فيه يعرجون** ﴾ أي يصعدون ﴿ **لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا** ﴾ أي حيّرت أوحبست من الإبصار ، أو سدّت ، أو أخذت أو شُبّه عليها ﴿ **بل نحن قوم مسحورون** ﴾ فما يحدث لنا ليس حقيقة ، والمعنى : أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم

في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ، ويسّر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا : هو شيء نتخايله لاحقيقة له ؛ لقوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق ، وناس هذا شأنهم لايقابلون إلا بالترك لأنه لافائدة من إنذارهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ **فظلوا** ﴾ إشعار بأنه حتى لو جعل عروجهم بالنهار إذ هو محل الظلول ليكونوا مستوضحين لمايرون لما كان موقفهم إلا ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ **لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا** ﴾ فيه إشعار بمزيد جرمهم بأنهم مهما يحدث لهم فإنهم يعتبرونه تسكيراً للأبصار ولذلك استعملوا أكثر من مؤكد .

نقول :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم** ﴾ قال صاحب الظلال : « وذلك الكتاب المعلوم والأجل المقسوم يمنحه الله للقرى والأمم ، لتعمل،ومن سنته جل جلاله أنه على حسب العمل يكون الأجل . فإذا هي آمنت وأحسنت وأصلحت وعدلت كان أجلها مديداً حتى تنحرف عن هذه الأسس كلها ، ولا تبقى فيها بقية من خير يرجى ، عندئذ تبلغ أجلها وينتهي وجودها ، إما إطلاقاً بالهلاك والدثور ، وأما وقتياً بالضعف والانزواء .

ولقد يقال : إن أمماً لاتؤمن ولاتحسن ولا تصلح ولاتعدل . وهي مع ذلك قوية ثرية باقية . وهذا وهم . فلابد من بقية من خير في هذه الأمم . ولو كان هو خير الخلافة في الأرض بعمارتها ، وخير العدل في حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادي والإحسان المحدود بحدودها . فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفذها فلا تبقى فيها من الخير بقية . ثم تنتهي حتماً .

إن سنة الله لاتتخلف . ولكل أمة أجل مرتب على عملها ﴿ **ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾ قال صاحب الظلال : « ويكفي تصورهم يصعدون في السماء من باب فتح لهم فيها يصعدون بأجسامهم ، ويرون الباب مفتوحاً أمامهم ، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها .. ثم هم بعد ذلك يكابرون فيقولون : لا لا . ليست هذه حقيقة . إنما أحد سكر أبصارنا

وخدَّرها فهي لاترى إنما تتخيل . ﴿ **بل نحن قوم مسحورون** ﴾ سحرنا ساحر فكل ماتراه وما نحسه وما نتحركه تهيؤات مسحور .

يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد المزري . ويتأكد أن لاجدوى من الجدل مع هؤلاء ، ويثبت أن ليس الذي ينقصهم هو دلائل الإيمان ، وليس الذي يمنعهم أن الملائكة لاتنزل ، فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة . إنما هم قوم مكابرون . مكابرون بلا حياء ، وبلا تحرج ، وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف .

إنه نموذج بشري للمكابرة يرسمه التعبير ، مثيراً لشعور الاشمئزاز والتحقير .

كلمة في السياق :

ذكرنا أن محور هذه المجموعة من سورة الحجر هو مقدمة سورة البقرة وخاصة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون** ﴾ وفي هذه المجموعة من الآيات رأينا أن الله أمر رسول الله ﷺ بقوله ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ ثم رأينا علل هذا الأمر في الفقرات الأربع التي جاءت بعد الأمر ، وقد عرفنا من الآيات مواصفات الكفار الذين أصبح الإنذار وعدمه في حقهم سواءً . وهم الذين همّهم الطعام والشراب والمتعة ، واللاهون بالأمل ، والسابُّون للرسول ، والمقترحون للآيات ، والمستهزؤون بالرسل، والمجرمون، والمؤولون للآيات إذا رأوها ، وإذن فليس كل كافر لاينذَر وإلا لتعطّل الإنذار والتبليغ ، وإنما من وصل إلى حالة من الكفر هذه مواصفاتها ، ولكوننا لانعلم – إلا بإعلام الله بالوحي وقد انقطع الوحي – أن كافراً قد أصبح كذلك فنحن مطالبون بالتبليغ والإنذار .

فوائد :

لقد رأينا أن الآية الأولى في هذه السورة تشير إلى أن في هذه السورة معجزات من معجزات هذا القرآن المبين ، وأول مانراه في المجموعة السابقة من هذه المعجزات هو هذا البيان العجيب في التصوير والعرض لمعان لاتخطر على بال بشر كقوله تعالى : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا ...** ﴾ . كما رأينا في الآيات من مظاهر الإعجاز هذا النوع الجازم من الكلام الذي ليس فيه مظهر من مظاهر الضعف البشري ، ومن ذلك هذا الجزم في قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له**

لحافظون ﴾ وإنها لمعجزة واضحة في هذه الآية إلى قيام الساعة أليس في حفظ هذا القرآن بحروفه وكلماته ولهجاته وقراءاته معجزة تتحدى على الدهر ؟ .



المجموعة الثانية

وتمتدُّ من الآية (١٦) حتى نهاية الآية (٢٢) وهذه هي :

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ
رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ
وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ
لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

التفسير :

﴿ **ولقد جعلنا في السماء** ﴾ أي خلقنا فيها ﴿ **بروجاً** ﴾ أي نجوماً أو منازل للنجوم ، أو مدارات ومسارات لها ، أو منازل للشمس والقمر بالنسبة للأرض ﴿ **وزيَّناها** ﴾ أي السماء ﴿ **للناظرين** ﴾ . ﴿ **وحفظناها** ﴾ أي السماء ﴿ **من كل شيطان رجيم** ﴾ أي ملعون ﴿ **إلا مَن استرق السمع** ﴾ أي حاول سرقة المسموع من عالم الغيب ﴿ **فأتبعه شهاب** ﴾ أي جزء من مادة النجوم ﴿ **مبين** ﴾ أي ظاهر للمبصرين ﴿ **والأرض مددناها** ﴾ بسطناها ووسعناها بالقدر الذي تحتاجه نشأة الحياة

والإنسان عليها ، ﴿ **وألقينا فيها رواسي** ﴾ أي جبالاً ثابتة تجعلها متزنة غير مضطربة ﴿ **وأنبتنا فيها من كل شيء موزون** ﴾ أي مقدر بقدر فهو موزون بميزان الحكمة لاتصلح فيه زيادة ولا نقصان بحيث لا يطغى نوع على نوع أو على بقية الأنواع ، أو جنس على جنس أو على بقية الأجناس ﴿**وجعلنا لكم فيها** ﴾ أي في الأرض ﴿ **معايش** ﴾ أي ما يعاش به والمعايش جمع معيشة ﴿ **ومن لستم له برازقين** ﴾ أي وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين من الأنعام والدواب ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾ أي وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به ﴿ **وما ننزّله إلا بقدر معلوم** ﴾ أي وما نعطيه إلا بمقدار معلوم على حسب المشيئة والحكمة البالغة والرحمة ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾ قال ابن كثير : (أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر ..) وقال النسفي : (وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب لأنها تحمل في جوفها كأنها لاقحة بها من لقحت الناقة حملت ...) . وفي الفوائد عودة على هذا الموضوع . ﴿ **فأنزلنا من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **ماءً** ﴾ . ﴿ **فأسقيناكموه** ﴾ أي فجعلناه لكم سقياً بأن أنزلناه لكم عَذْباً منتفَعاً به ﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾ أي أنتم لستم بقادرين على أن تملكوا خزائنه وتعطوه ، أو أنتم لستم قادرين حتى على خزنه . قال ابن كثير : (ويحتمل أن المراد : وما أنتم له بحافظين بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض ، ولو شاء الله تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً وحفظه في العيون والآبار والأنهار ، وغير ذلك ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم) .

أقول : ويحتمل معنى آخر يذكره المفسرون كما سنرى في سورة الفرقان ، وهو أن مجموع الماء الموجود في الأرض لايزيد ولاينقص ، ومن ثم فحبس هذا الماء على الأرض وفي جوّها ماكان ليكون لولا أن الله جعل هذه الأرض على ما هي عليه ، فالآية قد يراد بها هذا ، أي وما أنتم بحابسين هذا الماء على الأرض وجوها حتى لايفر من جو الأرض ، ولكن الله هو الذي فعل لكم ذلك . وبهذا انتهت المجموعة .

نقل : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين** ﴾ . قال صاحب الظلال :

(والبروج قد تكون هي النجوم والكواكب بضخامتها . وقد تكون هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة ،

جلاله) عن هذه الظواهر وغيرها بالتفصيل هناك . ولا نرى أن نسهب في هذه وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل : ﴿ **وزيناها للناظرين** ﴾ .

وهي لفتة هنا إلى جمال الكون ، فليست الضخامة وحدها ، وليست الدقة وحدها إنما الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعاً ، وينشأ من تناسقها جميعاً .

وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة ، وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم ، توصوص بنورها ثم يبدو كأنما تخبو ، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد .. ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم ، والكون من حوله مهوم ، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد .

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكوني ، وعمق هذا الجمال في تكوينه ، ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة : ﴿ **وزيناها للناظرين** ﴾ .

ومع الزينة الحفظ والطهارة : ﴿ **وحفظناها من كل شيطان رجيم** ﴾ لاينالها ولا يدنسها ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته . فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها ، وبالغاوين من أبناء آدم فيها . أما السماء – وهي رمز للسمو والارتفاع – فهو مطرود عنها مطارد لاينالها ولا يدنسها . إلا محاولة منه ترد كلما حاولها : ﴿ **إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين** ﴾ .

وما الشيطان ؟ وكيف يحاول استراق السمع ؟ وأي شيء يسترق ؟ كل هذا غيب من غيب الله ، لاسبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص . ولا جدوى في الخوض فيه ، لأنه لايزيد شيئاً في العقيدة ؛ ولايثمر إلا انشغال العقل البشري بما ليس من اختصاصه ، وبما يعطله عن عمله الحقيقي في هذه الحياة . ثم لايضيف إليه إدراكاً جديداً لحقيقة جديدة .

فلنعلم أن لاسبيل في السماء لشيطان ، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ ، وأن ماترمز إليه من سمو وعُلَىٰ مصون لايناله دنس ولا رجس ، ولا يخطر فيه شيطان ، وإلا طورد فطرد وحيل بينه وبين مايريد) .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين** ﴾ نقول : إن ظاهرة الشهب وتعليلها الطبيعي معروف ، ولكن كثيراً من ظواهر هذا الكون قد يكون لها علاقة بقضية غيبية تعرف عن طريق خبر المعصوم ، ومن ذلك هذه القضية ، فالنصوص القرآنية والحديثية تحدثنا أن لهذه الظاهرة صلة بمنع الشياطين من استراق خبر السماء ، والذي يبدو أن الشياطين بتركيبهم يستطيعون أن يسمعوا مالا يسمعه البشر من أمر السماء ، ومن ثم فليس لظاهرة الرجم صلة بموضوع المركبات الفضائية والأقمار الصناعية ، على أن المشتغلين في هذا الموضوع يلحظون احتمال الإصابة بالشهب ، ومن ملاحظتنا للنصوص التي تشير إلى موضوع استراق السمع ، ومن معرفتنا عن الشهب في أن نورها المتألق أثر عن اصطدام جرمها في جو الأرض ندرك أن المكان الذي يستطيع الشياطين الوصول إليه محدود ، وأن السماء الغيبية التي أخبرتنا عنها النصوص ليست كما قد يظن بعضهم أنها بعد المجرات كلها بالنسبة للأرض ، وهذا المقام الذي نحن فيه يدل على ماذهبنا إليه من أن السموات السبع التي فوقها عرش الرحمن مغيبة عنا ، فهي داخلة في عالم الغيب ، وأن كل مانراه إنما هو السماء بالمعنى اللغوي ، واقرأ هذا الحديث الصحيح الذي ذكره ابن كثير عن هذه الآية فلعله يساعدك على التحقق مما قلناه . قال

فقد روى البخاري عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان». قال علي وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان - وهو أحد رواة الحديث - بيده، وفرّج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض. فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض. وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض. فتلقى على فم الساحر أو الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا كذا، فوجدناه حقاً - للكلمة التي سمعت من السماء - ؟!.

٢ - هذه المجموعة من الآيات التي مرّت معنا تتحدث عن ظواهر كونية متعددة كلها تشير وتدل على وجود الله بما لايقبل جدلاً ، ونحن قد تحدثنا في كتابنا (الله جل

المواضيع هنا ، لأن ماتحدثنا عنه هناك نحتاج إلى أن ننقله مرات ومرات في هذا التفسير ونحن في الأصل نعتبر سلسلة الأصول الثلاثة مقدمة لهذه السلسلة (الأساس في المنهج) .

٣ - استطاع المفسرون القدامى أن يسبقوا عصرهم إلى حد مافي **فهم قوله تعالى** : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء** ﴾ . إلا أن تفصيلات كثيرة في شأن الكون في عصرنا أعطتنا تصوراً أكثر وضوحاً لهذه الآية : هذه التفصيلات تدلنا على أن في هذه السورة - زيادة على إعجازها العام - معجزات أخرى ، لقد عرف الناس في عصرنا أن السحاب أنواع ، بعضه فيه كهربائية سالبة ، وبعضه فيه كهربائية موجبة ، وأن للرياح دوراً في الجمع بين أنواع السحاب ، ولقد رأينا أن ابن كثير ذكر موضوع تلقيح الشجر بواسطة الرياح وهي قضية عرف عصرنا كثيراً من أسرارها .

كلمة في السياق :

ــ جاءت هذه المجموعة تتحدث عن أدلة وجود الله عز وجل ، وعن آيات الله الحق في هذا الكون بما تقوم به الحجة على الكافرين ، فبعد أن ذكر الله عز وجل في المجموعة الأولى موقف الكافرين من الرسالة والرسول والوحي ، جاءت هذه المجموعة لتنسف مواقف الكافرين من أساسها ، ومن هذا الجانب ندرك الصلة بين المجموعة وما سبقها .

....

ــ بعد مقدمة سورة البقرة جاء قوله تعالى ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ والملاحظ أن المجموعة التي مرّت معنا تحدثت عن الأرض والسماء والثمرات وهذا يؤكد ماذكرناه من أن سورة الحجر تفصّل في مقدمة سورة البقرة وبعض امتدادات معانيها ، فسورة الحجر لها سياقها الخاص وهي تفصّل في محورها الخاص وامتداداته لتؤدي دورها في قسمها ومع مجموعتها .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة

وتمتدُّ من الآية (٢٣) إلى نهاية الآية (٢٥) وهذه هي :

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

التفسير :

﴿ **وإنا لنحن نحيي ونميت** ﴾ هذا إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته وأنه أحيا الخلق ثم يميتهم ، وقد قرّر الله عز وجل هذا الموضوع تقريراً مؤكداً ، فظاهرة الإحياء والإماتة تدل على الله بشكل قطعي ، وقد برهنّا على ذلك في ظاهرة الحياة من كتابنا عن (الله جل جلاله) ﴿ **ونحن الوارثون** ﴾ أي : الباقون بعد هلاك الخلق كلهم ، إن صفة الإماتة المتجددة تدل على الموت النهائي ، وظاهرة الموت النهائي تدل على صفة البقاء للحي القيوم ﴿ **ولقد عَلِمْنا المستقدمين منكم** ﴾ أي من جنسكم وهم كل حي من لدن آدم ﴿ **ولقد عَلِمْنا المستأخرين** ﴾ أي من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة ، ومن كان هذا علمه كيف يُكْفَر ﴿ **وإن ربك هو يحشرهم** ﴾ أي وهو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم ﴿ **إنه حكيم** ﴾ يضع الأمور مواضعها ﴿ **عليم** ﴾ واسع العلم.ذكر قدرته على الإحياء والإماتة ، وعلمه بما مضى وما هو آت ، ثم ذكر الحشر ، وختم بوصف ذاته بالحكمة والعلم ، فعرفنا على حكمة الحشر ووقوعه ، وعرّفنا على ذاته ، فكيف يكفر به الكافرون ، وكيف لايطيع رُسَلَه المستهزؤون .

فوائد :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **ولقد عَلِمْنا المستقدِمِين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ أقوال كثيرة للمفسرين ، وقد اخترنا لك من هذه الأقوال ما اعتبرناه هو القول الأقوى ، وهو الذي نقله ابن كثير عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وبعد أن ذكر ابن كثير هذا نقل اتجاهاً آخر هو الذي غلب على مفاهيم الأكثرين . فلننقل ماذكره ابن كثير ، ثم نعلّق عليه . قال ابن كثير بعد أن ذكر القول الأول ومن ذهب إليه قال : وروى ابن جرير ... عن مروان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ وقد ورد فيه حديث غريب جداً فروى ابن جرير عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ امرأة حسناء - قال ابن عباس لا والله مارأيت مثلها قط - وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا - يعني لئلا يروها وبعضهم يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فأنزل الله ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ وكذا رواه أحمد ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما ، وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحدّاني وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما ، وحكي عن ابن معين تضعيفه ، وأخرجه مسلم وأهل السنن ، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة ، وقد رواه عبدالرزاق ، عن جعفر بن سليمان ، عن عمرو بن مالك ، وهو النّكري أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم** ﴾ في الصفوف في الصلاة ﴿ **ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ليس فيه لابن عباس ذكر ، وقد قال الترمذي هذا أشبه من رواية نوح بن قيس والله أعلم . وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر عن أبيه أنه سمع عون بن عبدالله يذاكر محمد بن كعب في قوله ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ أنها في صفوف الصلاة فقال محمد بن كعب ليس هكذا ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم** ﴾ الميت والمقتول ﴿ **المستأخرين** ﴾ من يخلق بعد ﴿ **وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم** ﴾ فقال عون بن عبدالله : وفقك الله وجزاك خيراً » .

نلاحظ من هذا النقل الذي نقلناه عن ابن كثير أكثر من معنى :

٢ - من خلال النقاش الذي ناقش فيه ابن كثير هذا الاتجاه في التفسير ، نعرف أهمية الاختصاص في العلوم الشرعية ، وأن أهل الاختصاص في كل علم هم أدق الناس نظراً فيه ، فالمفسر ، والفقيه ، وعالم الحديث ، وعالم التوحيد ، وعالم الأخلاق ، لكل من هؤلاء في اختصاصه نظرات تفوق نظر غير المختص . فالذين يريدون أن يلغوا كل شيء فلا فقه ، ولا مذاهب ، ولاعلم توحيد ، ولا علم سلوك ، ولا ولا بدعوى العودة إلى الكتاب والسنة ، أمثال هؤلاء تروج دعواهم ، حيث لاعلم ، فإنه ما من أحد من أصحاب الاختصاصات الشرعية تكلم في اختصاصه إلا ضمن الكتاب والسنة ، وضمن أدق معايير الفهم للكتاب والسنة .

٣ - في هذه المجموعة تدليل على وجود الله عز وجل من خلال ظاهرة الحياة ، كما أن فيها تدليلاً على اليوم الآخر من خلال التعريف على الله وصفاته ، فمن عرف علم الله وقدرته على الخلق ، والإعادة ، وحكمته ، أدرك أن اليوم الآخر من حيث الإمكان ممكن ، ومن حيث ضرورة تحقيق العدل فهو ضروري .

كلمة في السياق :

تأتي المجموعة التي مرّت معنا مكمّلة للمجموعة السابقة عليها ، من حيث إقامتها الحجة على الكافرين ، وهذا هو محلها بالنسبة لسياق سورة الحجر ، وهذا الذي يربطها بشكل مباشر بمحورها من مقدمة سورة البقرة .

ولكن المجموعة ، مع هذا ، تفصّل في امتدادات المحور من سورة البقرة ، فلنتذكر بعض ما مرّ معنا من قبل :

بعد مقدمة سورة البقرة التي ذكرت المتقين والكافرين والمنافقين جاء قوله تعالى ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ ثم بعد آيات جاءت آيتان تقيمان الحجة على الكافرين بظاهرتي الحياة والعناية : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ، هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾ ولقد جاءت المجموعة التي مرّت معنا تتحدث عما تحدثت عنه الآية الأولى من هاتين الآيتين ، فتحدثت عن الإحياء والإماتة ، والرجوع إلى الله ، فإذا ما عرفنا أنه بعد آيتي البقرة تأتي قصة آدم ، وأنه بعد هذه المجموعة من سورة الحجر تأتي قصة آدم ، أدركنا الدور الذي تؤديه سورة الحجر ، إنها

تذكّر بالمعاني الرئيسية في سورة البقرة التي أوصلت إلى قوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾ إنها تذكر بالمعاني نفسها ، لتوصل إلى المعاني التي وردت في السور الأربع اللاحقة ، التي تفصّل في الدوافع والصوارف التي تؤثر في حمل الإسلام كله .

من هذا ندرك أن لسورة الحجر سياقها الخاص وأنها مرتبطة ارتباطا مباشراً بمحورها من سورة البقرة . وأنها تفصّل . في امتدادات هذا المحور على ترتيب وروده في سورة البقرة . وأنّها تأخذ محلها ضمن قسمها (قسم المئين) وأنها تؤدي دوراً خاصاً ضمن مجموعتها في قسم المئين .

وهذا بعض مافي القرآن من إعجاز ، وبعض مافي سورة الحجر من معجزات .

المجموعة الرابعة

وتمتدُّ من الآية (٢٦) حتى نهاية الآية (٤٨) وهذه هي :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ
مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن
صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ
سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ
مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ
أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ
رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ
مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا
عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

نقول :

١ - قال صاحب الظلال بمناسبة ورود قصة آدم عليه السلام في سورة الحجر : (ولقد مرت بنا هذه القصة معروضة مرتين من قبل . في سورة البقرة ، وفي سورة الأعراف . ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص ، في معرض خاص ، في جو خاص . ومن ثم اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع ، واختلفت طريقة الأداء ، واختلفت الظلال ، واختلف الإيقاع . مع المشاركة في بعض المقدمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف . تشابهت مقدمات القصة في السور الثلاث ؛ في الإشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض وإلى استخلافه فيها :

ففي سورة البقرة سبقها في السياق : ﴿ **هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً . ثم استوى إلى السماء فسواهُنّ سبع سماوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ . وفي سورة الأعراف سبقها : ﴿ **ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ماتشكرون** ﴾ .

وهنا سبقها : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء**

موزون * وجعلنالكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ﴾ .

ولكن السياق الذي وردت فيه القصة في كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض ..

في البقرة كانت نقطة التركيز في السياق هي استخلاف آدم في الأرض التي خلق الله للناس مافيها جميعاً : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ .. ومن ثم عرض من القصة أسرار هذا الاستخلاف الذي عجبت له الملائكة لما خفي عليهم سره : ﴿ **وعَلَّمَ آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : ياآدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ؟** ﴾ . ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره . وسكنى آدم وزوجه الجنة . وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها . ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها ، بعد تزويده بهذه التجربة واستغفارهما وتوبة الله عليهما .. وعقب على القصة بدعوة بني إسرائيل لذكر نعمة الله عليهم والوفاء بعهده معهم ، فكان هذا متصلاً باستخلاف أبيهم الأكبر في الأرض ، وعهده معه والتجربة لأبي البشر .

وفي الأعراف كانت نقطة التركيز في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ، وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها . حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى . ففريق منهم يعودون إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه . وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود .. ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره . وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث ، ليغوي أبناء آدم الذي من أجله طرد . ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلون من ثمرها إلا شجرة واحدة ، هي المحظور الذي تبتلى به الإرادة والطاعة . ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل ، وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه ، وإهباطهم إلى الأرض جميعاً للعمل في أرض المعركة الكبرى : ﴿ **قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ .. ثم تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع كرة أخرى . وعرضهم في الساحة الكبرى مع التفصيل والحوار . ثم انتهى فريق إلى الجنة وفريق إلى النار : ﴿ **ونادى أصحابُ النار أصحابَ**

الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ وأسدل الستار .

فأما هنا في هذه السورة فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصيلة في كيان الإنسان .. ومن ثم نصّ ابتداءً على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ونفخه فيه من روحه. وخلق الشيطان من قبل من نار السموم . ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافاً من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون . وطرده ولعنته . وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته . وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلَصين . إنما سلطانه على من يدينون له ولا يدينون لله . وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولاتفصيل . تبعاً لنقطة التركيز في السياق . وقد استوفت بيان عنصري الإنسان ، وبيان سلطة الشيطان .)

٢ – وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾ قال صاحب الظلال:(وقد كان ما قاله الله . فقوله تعالى إرادة . وتوجه الإرادة ينشىء الخلق المراد . ولانملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني . فالجدل على هذا النحو عبث عقلي . بل عبث بالعقل ذاته ، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم . وكل ماثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل مايثور إن هو إلا جهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده ، وإقحام له في غير ميدانه ، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان ، وهو سفه في إنفاق الطاقة العقلية ، وخطأ في المنهج من الأساس... بينما العقل الإنساني ليس مدعواً أصلاً للفصل في الموضوع. لأن الله يقول : إن هذا قد كان . ولا يقول : كيف كان . فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشري أن ينفيه . وكذلك هو لايملك أن يثبته بتفسير من عنده – غير التسليم بالنص – لأنه لايملك وسائل الحكم . فهو حادث والحادث لايملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته . ولا على الأزلي في خلقه للحادث وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية – وهي أن الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في أي صورة . يكفي ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفهاً في غير مجاله المأمون)

التفسير :

﴿ **ولقد خلقنا الإنسان** ﴾ أي أصله وهو آدم عليه السلام ﴿ **من صَلْصَال** ﴾ أي من طين يابس غير مطبوخ ﴿ **من حمإ** ﴾ أي من طين أسود متغير ﴿ **مسنون** ﴾ أي مصور . فالإنسان خلق من طين أسود مصور قد يبس . قال النسفي : وفي الأول كان تراباً ، فعجن بالماء طيناً ، فمكث فصار حمأ ، فخلص فصار سلالة ، فصوّر ويبس فصار صلصالاً ... .

﴿ **والجانَّ** ﴾ أي أبا الجن ، كآدم للناس ﴿ **خلقناه من قبل** ﴾ أي من قبل آدم ﴿ **من نار السَّمَوم** ﴾ أي من نار الحر الشديد النافذ في المسام ﴿ **وإذ** ﴾ أي واذكر إذ ﴿ **قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون** ﴾ في إعلام الملائكة ماذا سيخلق تشريف للملائكة ، وتعليم لخلقه أن يعلموا بفعلهم من يستأهل الإعلام ﴿ **فإذا سويته** ﴾ أي أتممت خلقه ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾ أي وجعلت فيه الروح وأحييته ، وإضافة الروح إلى ذاته تشريف لها كقولنا بيت الله ﴿ **فقعوا له ساجدين** ﴾ أي اسقطوا على الأرض ساجدين أي اسجدوا له ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ لأنهم لايعصون الله ما أمرهم ﴿ **إلا إبليس أبىٰ** ﴾ أي امتنع واستكبر ﴿ **أن يكون مع الساجدين** ﴾ وهل إبليس من الملائكة أو لا؟ قولان للعلماء ومذهب الحسن أنه ليس من الملائكة ﴿ **قال ياإبليس مالك** ﴾ في ﴿ **ألا تكون مع الساجدين** ﴾ أي : أيُّ غرض لك في إبائك السجود ﴿ **قال لم أكن لأسجد** ﴾ أي لايصح مني أن أسجد ﴿ **لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون** ﴾ رفض أمر الله بعلة باطلة ، وهكذا شأن كل رافض لأمر الله ﴿ **قال فاخرج منها** ﴾ أي من السماء أو من الجنة ﴿ **فإنك رجيم** ﴾ أي : مرجوم مطرود من رحمة الله أي ملعون ﴿ **وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾ أتبعه الله لعنة لاتزال متصلة به ، لاحقة له ، متوافرة عليه إلى يوم القيامة . قال النسفي : «ضرب يوم الدين حداً للعنة لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم ، والمراد به إنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السمٰوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب ، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما يُنسىٰ اللعن معه » ﴿ **قال رب** ﴾ فهو إذن معترف بالربوبية لله ، معترف بوجود الله ، فليس كل من اعترف بوجود الله وربوبيته مؤمناً مسلماً ناجياً ﴿ **فأنظرني** ﴾ أي فأخرني ﴿ **إلى يوم يُبعثون** ﴾ سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت لأنه لايموت يوم البعث أحد ، فلم يجب إلى ذلك وأنظر إلى آخر أيام

التكليف ، ومن ثم كان الجواب ﴿ **قال فإنك من المنظَرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ أي يوم القيامة وكلامه يدل على أنه كان عالماً أن هناك ساعة وبعثاً ، فهو مؤمن في الظاهر بالله واليوم الآخر ، ومع ذلك حكم الله بكفره لأنه اعترض على حكم الله ﴿ **قال رب بما أغويتني** ﴾ أي فبإغوائك إياي ﴿ **لأزيِّننَّ لهم** ﴾ أي المعاصي ﴿ **في الأرض** ﴾ أي في الدنيا ، وقد علم الخبيث أن بني آدم مقرهم الأرض من قوله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ . ﴿ **ولأغوينَّهم** ﴾ أي ولأضلنهم ﴿ **أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾ استثنى المخلَصين لأنه علم أن كيده لايعمل فيهم ولايقبلونه منه ، وهكذا أقسم الخبيث أن يحبب لأبناء آدم المعاصي ، ويرغّبهم فيها ، ويزعجهم إليها إزعاجاً ﴿ **قال هذا صراط عليَّ مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتَّبعك من الغاوين** ﴾ أي هذا طريق حق عليَّ أن أراعيه وهو ألا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته ﴿ **وإن جهنم لموعدهم** ﴾ أي لموعد الغاوين ﴿ **أجمعين** ﴾ ﴿ **لها سبعة أبواب لكل باب منهم** ﴾ من أتباع إبليس ﴿ **جزء مقسوم** ﴾ أي نصيب معلوم مقرّر ، ثم لما ذكر حال أهل النار عطف عليه ذكر أهل الجنة ﴿ **إن المتقين** ﴾ أي الذين اتقوا مايجب اتقاؤه مما نهوا عنه ﴿ **في جنات وعيون** ﴾ ﴿ **ادخلوها** ﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿ **بسلام** ﴾ أي سالمين أو مسلماً عليكم ، تسلم عليكم الملائكة ، ﴿ **آمنين** ﴾ أي من الخروج منها والآفات فيها ، آمنين من كل خوف وفزع ، لا إخراج ولا انقطاع ولا فناء ﴿ **ونزعنا مافي صدورهم من غل** ﴾ الغل : هو الحقد الكامن في القلب ، أي إن كان لأحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة وطيّب قلوبهم ، ويدخل في ذلك تطهير قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ، نزع من القلوب الغل وألقى فيها التوادّ والتحابّ ، فالمتحابون في الله في الدنيا لهم من أخلاق أهل الجنة ونعيمها نصيب ﴿ **إخواناً** ﴾ دل ذلك على أن الأخوة والغل متنافيان ، فليحرص المسلم أن يطهِّر قلبه من الغل في علاقته مع المؤمنين ﴿ **على سُرُرٍ متقابلين** ﴾ أي ينظر بعضهم إلى بعض ﴿ **لايمسُّهم فيها** ﴾ أي في الجنة ﴿ **نصَب** ﴾ أي تعب ﴿ **وماهم منها بمخرَجين** ﴾ وهذا من تمام النعمة ، وأي نعمة أعظم من الخلود في النعيم .

قال صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قال : رب بما أغويتني لأزيِّننَّ هم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾ .

وبذلك حدّد إبليس ساحة المعركة . إنها الأرض : ﴿ **لأزيّنَّ لهم في الأرض** ﴾ وحدد عُدَّته فيها إنه التزيين . تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه . وهكذا لايجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمّله ، وتظهره في غير حقيقته وردائه فليفطن الناس إلى عدة الشيطان ؛ وليحذروا كلما وجدوا في أمرٍ تزيينا ، وكلما وجدو من نفوسهم إليه اشتهاء . ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك . إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان – بشرطه هو – على عباد الله المخلَصين من سبيل ﴿ **ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾ والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ، ويجردها له وحده ويعبده كأنه يراه . وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان .

هذا الشرط الذي قرره إبليس – اللعين – قرره وهو يدرك أن لاسبيل إلى سواه ، لأنه سنة الله ، أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه وأن يحميه ويرعاه . ومن ثم كان الجواب ﴿ **هذا صراط عَليّ مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا مَن اتبعك من الغاوين** ﴾ هذا صراط . هذا ناموس . هذه سنة . وهي السنة التي ارتضتها الإرادة قانوناً وحكماً في الهدى والضلال . ﴿ **إن عبادي** ﴾ المخلَصين لي ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ، ولا تملك أن تزين لهم ، لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك في حمى ، ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة وهم يعلقون أبصارهم بالله ، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله ، إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين . فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزءاً من عباد الله المخلصين . إن الشيطان لايتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع . فأما من يخلصون أنفسهم لله . فالله لايتركهم للضياع . ورحمة الله أوسع ، ولو تخلفوا فإنهم يثوبون من قريب .

فوائد :

١ – بمناسبة ذكر خلق آدم والجان في هذه المجموعة نذكر الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد عن عائشة عن رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » .

٢ – من قوله تعالى : ﴿ **قال رب بما أغويتني لأُزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين * قال هذا صراط عليّ مستقيم * إن عبادي ليس**

لك عليهم سلطان ﴾ نعلم أن سلاح الشيطان التزيين والإغواء : تزيين الشهوات ، تزيين المعاصي ، تزيين الدنيا ، تزيين المنكر ، تزيين الحال السيء . الإغواء عن الحق ، الإغواء عن صراط الله ، الإغواء عن السنن . ومن تتمة الآيات نعلم أن عباد الله المخلَصين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وعباد الله وردت صفاتهم في أكثر من مكان في القرآن كقوله تعالى ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً** ﴾ (الفرقان : ٦٣) وقد فصّلنا ذلك في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) فليراجع .

وأما المخلصون : فهم من اجتمع لهم العلم والعمل والإخلاص فأخلصوا . قال الحسن البصري : (الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم) . فإذا كان المخلصون على خطر عظيم ، فمن هم مظنة النجاة ؟ .

الجواب : المخلَصون . والطريق إلى التحقق بصفة المخلَصين هو الإكثار من تذكر الدار الآخرة . قال تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ . (صٓ : ٤٥ - ٤٦) فبقدر مايتذكر إنسان الآخرة يقرب من هذا المقام .

٣ - ذكر ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ **إلا من اتّبعك من الغاوين** ﴾ كلاماً رواه ابن جرير عن يزيد بن قسيط ولم يرفعه إلى رسول الله ﷺ وخلاصته : أن ابن آدم يغلب الشيطان بالاستعاذة منه بالله ، وأن الشيطان يغلب ابن آدم عند الغضب والهوى وهي معان صحيحة ، فلنحذر من الغضب والهوى ، ولنكثر من الاستعاذة بالله من الشيطان .

٤ - بمناسبة قوله تعالى عن النار : ﴿ **لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ قال ابن كثير : « أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه - أجارنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في درك بقدر عمله) .

أقول : وتفصيلات هذا الموضوع لم نطالب بعلمها . وما نقلناه هنا من أقوال إنما نقلناه لمجرد استكمال التصورات عن اليوم الآخر من خلال ما ورد من أقوال السلف ، ولا يلزمنا في هذا الباب إلا ما ورد في كتاب ربنا وما ثبت عن رسولنا عليه الصلاة

والسلام .

٥ - عند قوله تعالى : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً على سُرُر متقابلين * لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرَجين** ﴾ قال ابن كثير :

(وقد روى سعيد في تفسير :حدثنا ابن فضالة عن لقمان عن أبي أمامة قال : لايدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله مافي صدره من غل ، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري . وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبوالمتوكل الناجي أن أباسعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال : « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذّبوا ونقُّوا أذن لهم في دخول الجنة » وقال ابن جرير حدثنا الحسن حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا هشام عن محمد - هو ابن سيرين - قال استأذن الأشتر على علي رضي الله عنه وعنده ابن طلحة فحبسه ثم أذن له ، فلما دخل قال : إني لأراك إنما حبستني لهذا ؟ قال : أجل ، قال : إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني قال : أجل،إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى : ﴿ **ونزعنا مافي صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا الحسن بن محمد حدثنا أبو معاوية الضرير ، حدثنا أبو مالك الأشجعي ، حدثناأبو حبيبة (مولى لطلحة) قال : دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال : إني لأرجو أن يجعلني الله وإياك من الذين قال الله ﴿ **ونزعنا مافي صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ .

ولنا تعليق على موضوع (الغل) نقول :

إن الشيطان قد يحرّش بين المؤمنين ، فيقع بينهم مايقع ، فإذا دخلوا في طور سيء جرهم ذلك إلى ماهو أسوأ ، وهكذا ، فإذا كانت لهم نية صالحة في قضية يحتملها الاجتهاد فإنه يرجىٰ للجميع النجاة ، ولكن بعد وقفة ، أفلا تكفي هذه الوقفة كي يبتعد الإنسان عن كل موطن يؤدي إلى أن يكون في قلبه غل على إخوانه ، أو أن يكون سبباً في إيجاد غل في قلب غيره عليه .

كلمة في السياق :

١ - لهذه المجموعة صلة بما قبلها من حيثيات متعددة ، فقد ذكر فيها خلق

الإنسان ، بعد أن ذكر فيما قبلها خلق الحياة والأشياء ، وإذا كانت المجموعة الأولى في السورة قد تحدثت عن الكافرين ، فإن في المجموعات الثانية والثالثة والرابعة إقامة حجة على الكفر والكافرين .

٢ - إن المجموعة التي مرّت معنا عللت لظاهرتي الهداية والضلال بما يعرف معه سبب الكفر الذي حدثتنا عنه المجموعة الأولى كما رسمت طريق الاهتداء .

٣ - إن مجيء قصّة آدم عليه السلام في سورة الحجر يشبه مجيء قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة ، من حيث إن المعاني التي سبقت قصة آدم عليه السلام هنا قد جاء شبهها في قصة آدم هناك ، كما أن الخاتمتين متشابهتان في أن كلّاً منهما تحدثت عن الناجين والهالكين ، لكن في القصة هنا معان هي محل التركيز في سياق سورة الحجر .

٤ - رأينا أن المحور الأساسي لسورة الحجر هو مقدمة سورة البقرة ، وخاصة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ والملاحظ أن سورة الحجر بعد أن وصفت الكافرين وأقامت عليهم الحجة تأتي مجموعة فيها لتقول : ﴿ **نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾ إن هناك ناساً يستبعدون أن يعذّب الله أحداً لجهلهم بجلال الله ، ولذلك تأتي المجموعة اللاحقة من السورة لتصحح مفاهيم هؤلاء .

٥ - جاء الأمر الأول لرسول الله ﷺ في السورة في قوله تعالى : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ وهو أمر للنذير أن يعرض عن الكافرين لعدم فائدة الإنذار في حقهم ، وفي المجموعة اللاحقة يأتي أمران جديدان للنذير : ﴿ **نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم * ونبئهم عن ضيف إبراهيم** ﴾ . فهناك أمر بالإخبار عن رحمة الله ونعمته ، وهناك أمر بالإخبار عن ضيوف إبراهيم الآتين بالبشارة لإبراهيم وبالعذاب لقوم لوط ، وهذا يفيد أن على النذير أن يبين لعباد الله مايعرفون به الله ، وذلك ينفع هؤلاء وتقوم به الحجة على أولئك فلنر المجموعة الخامسة .

المجموعة الخامسة

وتمتدُّ من الآية (٤٩) إلى نهاية الآية (٨٤) وهذه هي :

* نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾
وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ
وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ
أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ
﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ
فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ
ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾
وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ
ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ

فَعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ
﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ
أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ
مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

نقل :

قال صاحب الظلال تعليقاً على ورود القصص في هذا السياق :

(هذا القصص يساق بعد مقدمة : ﴿ **نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾ فيجيء بعضه مصدقاً لنبأ الرحمة ، ويجيء بعضه مصدقاً لنبأ العذاب .. كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة فيصدق ماجاء فيها من نذير : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ، وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ .. فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل .. وكذلك يصدق هذا القصص ماجاء في مطالع السورة في شأن الملائكة حين يرسلون : ﴿ **قالوا : ياأيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ، ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين** ﴾ .

فتبدو السورة وحدة متناسقة ، يظاهر بعضها بعضاً .. وذلك مع ماهو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادراً ، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن تنزل متتالية تواليها في

المصحف . ولكن ترتيب هذه الآيات في السور ترتيب توقيفي ، فلابد من حكمة في ترتيبها على هذا النسق .

التفسير :

لما أتم الله عز وجل ذكر الوعد والوعيد في نهاية قصة آدم عليه السلام أتبعه بقوله : ﴿ **نبىء عبادي** ﴾ أي أخبر عبادي ﴿ **أني أنا الغفور الرحيم** ﴾ أي أني ذو مغفرة وذو رحمة ﴿ **وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾ أي وأني ذو عذاب أليم ، وقد جاء هذا عقب ماتقدم من الوعد والوعيد في نهاية قصة آدم تقريراً لما ذكر ، وتمكيناً له في النفوس ، وعباده هم الذين مرّ ذكرهم بقوله : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ وهكذا اتضح كيف يكون الموقف من الكافرين ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ لأنهم ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون** ﴾ أما عباد الله فهؤلاء يربون على مقامَيْ : الخوف والرجاء ، وعلى معرفة سنن الله ومن ثم ﴿ **ونبئهم عن ضيف إبراهيم** ﴾ أي وأخبر أمتك عن أضياف إبراهيم ، لأن هذا الإخبار يدلهم على سنة الله في أوليائه ، وعلى سنته في أعدائه في الدنيا بعد أن عرفوا من قصة آدم عليه السلام ونهايتها سنته في أوليائه وأعدائه في الآخرة ، كما أن في هذا الإخبار تعريفاً لهم على سنته في إنزال الملائكة الذي اقترحه الكافرون في أول السورة ، فهو ينزلهم إما لتكريم رسول أو لتعذيب المكذبين ، وفي المجموعة تذكير وتدليل على أنه شديد العقاب ، وأنه غفور رحيم ، كما أن في هذا الإخبار إعجازاً إذ يتحدث عن دقائق ماكانت لتذكر لولا أن هذا القرآن من عند الله ﴿ **إذ دخلوا عليه** ﴾ أي على إبراهيم ﴿ **فقالوا سلاماً** ﴾ أي نسلم سلاماً ﴿ **قال إنا منكم وَجِلُون** ﴾ أي خائفون ، وقد ذكر في مكان آخر رده للسلام وتقديمه للطعام وسبب خوفه منهم وذلك عندما رأى أيديهم لاتصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة ﴿ **قالوا لاتوْجَل** ﴾ أي لاتخف ﴿ **إنا نبشرك بغلام عليم** ﴾ أي إسحق ، والمعنى إنك مُبشَّر آمن فلا تَوْجل ﴿ **قال** ﴾ متعجباً من أن يكون ذلك مع كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿ **أبشَّرْتموني على أن مسني الكِبَر فبم تبشِّرون** ﴾ أي أبشرتموني مع مس الكبر بأن يولد لي ؟ أي إن الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر فبأي أعجوبة تبشرونني ، وفهمنا كلمة الأعجوبة من ما الاستفهامية بقوله ﴿ **فبم** ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿ **قالوا بشَّرناك بالحق** ﴾ أي باليقين الذي لالبس فيه ﴿ **فلا تكن من القانطين** ﴾ أي من الآيسين من ذلك ، فأجابهم

بأنه ليس يقنط فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ماهو أبلغ من ذلك ﴿ **قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾ أي إلا المخطئون طريق الصواب ، أي لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها ، ثم شرع يسألهم عما جاؤوا له ﴿ **قال فما خطبكم** ﴾ أي فما شأنكم ﴿ **أيها المرسلون** ﴾ أي أيها الملائكة المرسلون من الله ﴿ **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ أي قوم لوط ﴿ **إلا آل لوط** ﴾ أي إلا أهله المؤمنين ﴿ **إنا لمنجُّوهم أجمعين** ﴾ ﴿ **إلا امرأته** ﴾ فإنها ليست من المؤمنين ﴿ **قَدَّرنا إنها لمن الغابرين** ﴾ أي المهلكين في العذاب وإنما قالوا قدرنا ، والمقدر الله لقربهم من الله ، وتكليفهم منه بذلك ﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون** ﴾ أي لاأعرفكم ﴿ **قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون** ﴾ أي ماجئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه سرورك ، وتشفيك من أعدائك وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه ، أي يشكون ويكذبونك ﴿ **وأتيناك بالحق** ﴾ أي باليقين من عذابهم ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ أي في الإخبار بنزوله بهم ﴿ **فأسر بأهلك بِقِطْع من الليل** ﴾ أي في آخر الليل ، أو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل ﴿ **واتبع أدبارهم** ﴾ وسر خلفهم وامش وراءهم يكون أحفظ لهم ولتكون مطّلعاً عليهم وعلى أحوالهم ﴿ **ولا يلتفت منكم أحدٌ** ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما حلّ بهم من العذاب والنكال ، والحكمة في ذلك لئلا يروا ماينزل بقومهم من العذاب فيرِقُّوا لهم في موضع لاتجوز فيه الرقة ، أو جعل النهي عن الالتفات من أجل مواصلة السير وترك التواني والتوقف ، لأن من يلتفت لابد له من أدنى وقفة ﴿ **وامضوا حيث تؤمرون** ﴾ أي حيث أمركم الله بالمضي إليه . وتدعي التوارة الحالية المحرَّفة أن المكان الذي ذهب إليه هو صوغر- بلد قريبة من سدوم- وعمورة قريتي قومه اللتين عذبتا ﴿ **وقضينا إليه** ﴾ أي وأوحينا إليه وحياً مبتوتاً مقضياً ﴿ **ذلك الأمر** ﴾ وهو ﴿ **أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** ﴾ أي وقت الصباح ودابرهم آخرهم أي يستأصلون عن آخرهم حتى لايبقى منهم أحد ﴿ **وجاء أهل المدينة** ﴾ تذكر التوراة الحالية أن سكن لوط كان في سدوم ، وأن مجيء الملائكة إليها وأن رجالها جميعاً جاؤوا إلى لوط ﴿ **يستبشرون** ﴾ أي فرحين بالملائكة طمعاً منهم في ركوب الفاحشة ﴿ **قال** ﴾ أي لوط ﴿ **إن هؤلاء ضيفي فلا تَفْضَحون** ﴾ أي بفضيحة ضيفي ، لأن من أساء إلى ضيفي فقد أساء إليّ ﴿ **واتقوا الله ولا تخزون** ﴾ أي ولا تذلوني وتهينوني بإذلال ضيفي وإهانته . قال ابن كثير : وهذا إنما قاله لهم قبل أن يُعلم بأنهم رسل الله كما قال في سورة

هود ، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله ، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم ، ولكن الواو لاتقتضي الترتيب ولاسيمّا إذا دلّ دليل على خلافه » .

﴿ **قالوا أو لم ننْهَكَ عن العالمين** ﴾ أي : أوَما نهيناك أن تضيف أحداً ، أوْ أوَما نهيناك عن أن تجير أحداً أو تدفع عنه ، فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفُرُوج المباحة ﴿ **قال هؤلاء بناتي** ﴾ أي أزواجكم فالنّبي أب لقومه ، أو أنه عرض عليهم أن يزوجهم بناته ، وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزاً ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾ أي إن كنتم تريدون قضاء الشهوة ، فلتكن فيما أحلّ الله دون ما حرّم ، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء ، وماذا سيصبحهم من العذاب المستقر - نعوذ بالله من الغفلة - ولهذا قال الله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ **لَعَمْرُكَ إنهم لفي سكرتهم** ﴾ أي في غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ الذي هم عليه ، والصواب الذي يُدْعَوْنَ إليه ﴿ **يعمَهُون** ﴾ أي يتحيرون ويترددون ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ وهي ماجاءهم من الصوت القاصف ﴿ **مشرقين** ﴾ أي داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس . قال ابن كثير : وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم ، وقد تقدم الكلام عن السجيل في سورة هود بما فيه كفاية ﴿ **فجعلنا عَالِيَها** ﴾ أي عالي قرى قوم لوط ﴿ **سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ أي حجارة من طين مستحجرة قوية شديدة ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتَوَسِّمِين** ﴾ أي المتفرسين المتأملين ، وسمي المتفرس المتأمل متوسماً لأنه كأنه يعرف باطن الشيء بسمة ظاهرة ، والمعنى : إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسّمه بعين بصره وبصيرته فيه معجزات كثيرة ﴿ **وإنها** ﴾ أي هذه القرى يعني آثارها ﴿ **لِبسَبيل مقيم** ﴾ أي ثابت يسلكه الناس لم يندرس بَعْدَ وهُمْ يبصرون تلك الآثار ، قال ابن كثير : « أي وإن قرية سدوم التي أصابها ماأصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع مسالكه مستمرة إلى اليوم » أي من أراد التوسم فإنه ميسر له ﴿ **إن في ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ هي للمتوسمين آيات وللمؤمنين آية ، والمعنى : إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله . وحتى لايفهم فاهم أن هذه حادثة مفردة وليست سنة مطردة . قال تعالى : ﴿ **وإن كان** ﴾ أي وإنه كان ﴿ **أصحاب الأيكة** ﴾ أي قوم شعيب ،

والأيكة : الشجر الملتف ﴿ **لظالمين** ﴾ بشركهم بالله ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿ **وإنهما** ﴾ أي قرى قوم لوط ، وقرية شعيب . قال ابن كثير : وقد كانوا قريباً من قوم لوط ، بَعْدَهم في الزمان ومسامتين لهم بالمكان ، ولهذا قال : وإنهما ﴿ **لبإمام مبين** ﴾ أي لبطريق واضح مسلوك مطروق ، وقد مرّ معنا في سورة الأعراف تحقيق مكان قوم شعيب ﴿ **ولقد كَذَّب أصحابُ الحجر** ﴾ هم ثمود ، والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام ، وآثارهم لازالت قائمة مدهشة ﴿ **المرسلين** ﴾ كذبوا صالحاً نبيهم عليه السلام ، ومن كَذَّب برسول فقد كَذَّب بجميع المرسلين ﴿ **وآتيناهم آياتنا** ﴾ كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شِرْب ولهم شِرْب يوم معلوم . وفي ذلك آيات تدل على صدق صالح عليه السلام ﴿ **فكانوا عنها** ﴾ أي عن الآيات ﴿ **معرضين** ﴾ أي أعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها ﴿ **وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين** ﴾ أي ينقبون في الجبال بيوتاً آمن ، لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم ، ومن نقب اللصوص ، أو كانوا ينحتونها من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطراً وعبثاً ، أو آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميهم ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ أي بالعذاب ﴿ **مُصْبِحِين** ﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع من قول صالح لهم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴿ **فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون** ﴾ من بناء البيوت الوثيقة ، واقتناء الأموال النفيسة ، وما كانوا يستقبلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنّوا بمائها عن الناقة ، حتى عقروها لئلا تضيّق عليهم في المياه .

فسنة الله إذن جارية في إهلاك من كذّب رسله ، ولكن لكل شيء أجل عنده ، وقد ذكرنا في مقدمة تفسير هذه المجموعة صلتها بما قبلها ، ولنذكر هنا صلة هذه المجموعة بالمجموعة الأولى من السورة .

في أول السورة نجد ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ ثم ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم * ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ وهذه المجموعة التي مرّت معنا فيها تمثيل على هذا الإهلاك التمتع والأمل . وكنا قد ذكرنا إلى ما يشير إلى عمق الصلة بين أواسط السورة وبدايتها ونهايتها ، وكلّ ذلك ضمن محور السورة ، وبما يحقق كون السورة مرتبطة بما بعدها من السور ، ولعلّ

هذا مظهر من مظاهر ما أشارت إليه الآية الأولى في السورة من كون هذه السورة فيها من معجزات هذا القرآن .

نُقول من الظلال :

١ - قال صاحب الظلال تعليقاً على قصتي إبراهيم ولوط في سورة الحجر :

(وقد وردت هذه الحلقة من قصة إبراهيم وقصة لوط عليه السلام في مواضع متعددة بأشكال متنوعة ، تناسب السياق الذي وردت فيه . ووردت قصة لوط وحده في مواضع أخرى .

وقد مَرَّت بنا حلقة من قصة لوط في الأعراف ، وحلقة من قصة إبراهيم ولوط في هود .. فأما في الأولى فقد تضمنت استنكار لوط لما يأتيه قومه من الفاحشة ، وجواب قومه : ﴿ **أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ وإنجاءه هو وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وذلك دون ذكر لمجيء الملائكة إليه وائتمار قومه بهم . وأما في الثانية فقد جاءت قصة الملائكة مع إبراهيم ولوط مع اختلاف في طريقة العرض . فهناك تفصيل في الجزء الخاص بإبراهيم وتبشيره وامرأته قائمة . وجداله مع الملائكة عن لوط وقومه . وهو مالم يذكر هنا . وكذلك يختلف ترتيب الحوادث في القسم الخاص بلوط في السورتين .. ففي سورة هود لم يكشف عن طبيعة الملائكة إلا بعد أن جاءه قومه يهرعون إليه وهو يرجوهم في ضيفه فلا يقبلون رجاءه ، حتى ضاق بهم ذرعاً وقال قولته الأسيفة : ﴿ **لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد** ﴾ . وأما هنا فقدم الكشف عن طبيعة الملائكة منذ اللحظة الأولى ، وآخرها حكاية القوم وائتمارهم بضيف لوط . لأن المقصود هنا ليس هو القصة بترتيبها الذي وقعت به ، ولكن تصديق النذير ، وأن الملائكة حين ينزلون فإن القوم لاينظرون ولا يمهلون) .

٢ - وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون** ﴾ :
(والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة . يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة ، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية . هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر - فوق المنكر ذاته - شيء بشع لايكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع . فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، ويتخفى بمرضه ،

ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس . وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية . بل حين تكون شرعية . وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك . بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير) .

٣ - وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ :

(وقد خسف بقرى لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل أو البراكين وتصاحبها أحياناً ظاهرة الخسف وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيح في الأرض . ويقال : إن بحيرة لوط الحالية وجدت بعد هذا الحادث . بعد انقلاب عمورة وسدوم في باطن الأرض ، وهبوط مكانها وامتلائه بالماء .

وقرى لوط في طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس . وفيها عظات لمن يتفرس ويتأمل ، ويجد العبرة في مصارع الغابرين . وإن كانت الآيات لاتنفع إلا القلوب المؤمنة المتفتحة المستعدة للتلقي والتدبر واليقين :

﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين** ﴾)

٤ - وعلّق صاحب الظلال على ورود قصتي قوم شعيب وقوم صالح في سورة الحجر فقال : وقد فَصَّل القرآن قصة شعيب مع قومه : أهل مدين وأصحاب الأيكة في مواضع أخرى . فأما هنا فيشير إشارة إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقاً لنبأ العذاب في هذا الشوط ، ولإهلاك القرى بعد انقضاء الأجل المعلوم الوارد في مطالع السورة . ومدين والأيكة كانتا بالقرب من قرى لوط . والإشارة الواردة هنا ﴿ **وإنهما لبإمام مبين** ﴾ قد تعني مدين والأيكة ، فهما في طريق واضح غير مندثر ، وقد تعني قرية لوط السالفة الذكر ، وقرية شعيب ، جمعهما لأنهما في طريق واحد بين الحجاز والشام ، ووقوع القرى الدائرة على الطريق المطروق أدعى إلى العبرة ، فهي شاهد حاضر يراه الرائح والغادي . والحياة تجري من حولها وهي دائرة كأن لم تكن يوماً عامرة . والحياة لاتحفلها وهي ماضية في الطريق .

أما أصحاب الحجر فهم قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وهي ظاهرة إلى اليوم . فقد نحتوها في الصخر في ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والأيد والحضارة ....) .

ثم علّق على قوله تعالى : ﴿ **وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين** ﴾ فقال :

(وهذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال ، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقي لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا .. شيئاً يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف . هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة . فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور . وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع .. وهاهم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم في ديارهم الحصينة آمنون . فإذا كل شيء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين موهون . فما شيء من هذا كله بواقيهم من الصيحة . وهي فرقعة ريح أو صاعقة ، تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين) .

الفوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ..** ﴾ قال ابن كثير : وذكر في نزولها مارواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال : مرّ رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : « اذكروا الجنة واذكروا النار » . فنزلت : ﴿ **نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ...** ﴾ رواه ابن أبي حاتم وهو مرسل . وروى ابن جرير بسنده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال : « ألا أراكم تضحكون » . ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال : « إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال يامحمد إن الله يقول لك لِمَ تُقنط عبادي ﴿ **نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ...** ﴾ .

٢ – وبمناسبة حكايته تعالى ما أمر به لوط يوم أمر بالخروج : ﴿ **واتَّبع أدبارهم** ﴾ لفت النظر ابن كثير أن رسولنا عليه الصلاة والسلام كان يفعل هكذا يقدم أصحابه أمامه قال ابن كثير : « وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو إنما يكون ساقة يزجي

الضعيف ويحمل المنقطع[١] » . أقول : بل سنته الدائمة عليه الصلاة والسلام ذلك أنه كان يقدم أصحابه أمامه ويقول : « خلوا ظهري للملائكة »)

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ نقل ابن كثير بعض الأحاديث عن فراسة المؤمن قال :

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ النبي ﷺ : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وروى ابن جرير .. عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :« اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله » . وعن ابن جرير أيضاً .. عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله» .

وروى ابن جرير أيضاً .. عن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ : « إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم » . ورواه الحافظ أبوبكر البزار ...

٤ - وعند قوله تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ قال ابن كثير : « أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض . قال عمرو بن مالك النّكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال : ماخلق الله وماذرأ ومابرأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ يقول وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿ **إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ رواه ابن جرير . وقال قتادة: في سكرتهم أي: في ضلالهم ﴿ **يعمهون** ﴾ أي يلعبون . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ **لعمرك** ﴾ لعيشك ﴿ **إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ يترددون) .

---

(١) يزجي الضعيف : أي يسوقه حتى يلحق بالركب . والمقطع : هو المنفرد .

المجموعة السادسة

وتمتدُّ من الآية (٨٥) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (٩٩) وهذه هي :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ
فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ
مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟
ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ
﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ
يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾
وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

التفسير :

﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق** ﴾ أي إلا خلقاً ملتبساً بالحق ، لا باطلاً وعبثاً ، أو إلا بسبب العدل والإنصاف اللذين سيكتملان يوم الجزاء

على الأعمال ﴿ **وإن الساعة لآتية** ﴾ أي وإن القيامة لآتية ، وسميت القيامة ساعة لتوقعها كل ساعة . وذكر مجيء الساعة في هذا المقام فيه إشارة إلى أن الله ينتقم لك فيها من أعدائك أيها الرسول، ويجازيك على حسناتك ، ويجازيهم على سيئاتهم ، فإنه ماخلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك ، ومن ثم فسوف يعلم هؤلاء الكافرون ومن ثم ذرهم ، ومن ثم ﴿ **فاصفح الصفح الجميل** ﴾ أي فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء ﴿ **إن ربك هو الخلاق العليم** ﴾ الخلاق الذي خلق كل شيء ، العليم بحالك وحالهم فلا يخفى عليه مايجري بينكم ، وهو يحكم بينكم ، وفي هذا تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ؛ فإنه الخلاق الذي لايعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزّق من الأجساد وتفرّق في سائر الأقطار ، وفي هذا تثبيت لرسول الله ﷺ أن يطمئن فيذر ويصفح .

في أول السورة قال لرسوله ﷺ : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ وههنا قال له ﴿ **فاصفح الصفح الجميل** ﴾ .

﴿ **ولقد آتيناك سبعاً** ﴾ أي سبع آيات وهي الفاتحة ﴿ **من المثاني** ﴾ هي من التثنية وهي التكرير لأن الفاتحة مما يتكرر في الصلاة ، أو من الثناء لاشتمالها على ماهو ثناء على الله ﴿ **والقرآن العظيم** ﴾ أي ماوراء الفاتحة لأن اسم القرآن يقع على البعض كما يقع على الكل ، ويحتمل أن يكون ذكر الفاتحة تشريفاً . ثم ذكر القرآن كله بما في ذلك الفاتحة ، وبناء على هذه النعمة العظيمة ﴿ **لاتمدنَّ عينيك** ﴾ أي لاتطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له ﴿ **إلى ما متَّعنا به أزواجاً** ﴾ أي أصنافاً ﴿ **منهم** ﴾ أي من كفارهم الأغنياء ، أي لاتتمنَّ أموالهم وما متعوا به من النساء وغير ذلك ، يعني قد أوتيت النعمة العظمىٰ التي كل نعمة - وإن عظمت - فهي إليها حقيرة وهي القرآن العظيم ، فعليك أن تستغني به ، ولا تمدنَّ عينيك إلى متاع الدنيا ﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾ أي إن لم يؤمنوا حرصاً منك على أن يتقوّىٰ بمكانهم الإسلامُ والمسلمون ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ أي وتواضع لمن معك من المؤمنين فقراء وأغنياء ﴿ **وقل** ﴾ للناس جميعاً ﴿ **إني أنا النذير المبين** ﴾ أي بيّن النذارة أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بمن كذّب وتولى . وهكذا تتحدد المواقف من الكافرين : ﴿ **ذرهم** ﴾ ﴿ **فاصفح** ﴾ ﴿ **لاتمدن عينيك** ﴾ ﴿ **ولاتحزن عليهم** ﴾ ﴿ **وقل إني أنا النذير** ﴾ كما تتحدّد من المؤمنين ﴿ **نبىء عبادي ...** ﴾ . ﴿ **واخفض جناحك ...** ﴾ ولنعد إلى السياق :

﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عِضين * فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ فَهْمُ هذه الآيات على غاية من الأهمية ، لأنها تَعَرَّضَت لداء الأمم السابقة مع كتبها ، وهو داؤنا اليوم ، كما أن فهمها مُهِم لبناء الأمرين اللاحقيْن عليها ، وللتدليل على أن سورة الحجر مقدمة للسور اللاحقة ضمن السياق القرآني العام .

﴿ **كما** ﴾ أي مثلما ، وأين نعلق هذه الكاف ؟ يذهب النسفي إلى أنها متعلقة بقوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ كما ﴿ **أنزلنا على المقتسمين** ﴾ والمقتسمون كما روى البخاري عن ابن عباس هم أهل الكتاب جَزَّؤوه أجزاءً فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، فصار المعنى : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ، كما أنزلنا على أهل الكتاب كتباً ، فآل أمرهم إلى أن جَزَّؤوا كتبهم واقتسموها ، فَطَبَّقوا بعضها وأهملوا بعضاً آخر ، ولذلك قال ﴿ **الذين جعلوا القرآن** ﴾ أي الكتاب المنزَّل عليهم ، لأن القرآن كما يطلق على كتابنا يطلق على الزبور والإنجيل والتوارة ، وقد رأينا دليل ذلك في سورة الرعد ﴿ **عضين** ﴾ أي أجزاءً آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، عملوا ببعض وتركوا بعضاً ، بتواطؤ العلماء والزعماء ﴿ **فوربك لنسألنَّهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عما عملوه ، مفرطين في شأن كتبهم اعتقاداً وعملاً ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ من الشرائع كلها والشعائر كلها فاجهر به وأظهره .

ولنقف وقفة :

عرفنا من الآيات السابقة أن داء الأمم السابقة الكفر ببعض كتبها والإيمان ببعض ، وقد أصاب هذا الداء أمتنا قديماً وحديثاً ، ومن ثَم وحتى لاتقع هذه الأمة في هذا الداء ، أمر الله رسوله ﷺ أن يجهر بكل ما أنزل إليه ، وأن يعرض عن المشركين ، فأشعرنا بذلك أنه من الشرك التسليم لبعض الكتاب ورفض بعضه ، فإذا اتضح هذا وعرفنا أن السور اللاحقة لسورة الحجر تفصّل في حيز قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كَافَّة** ﴾ أي في الإسلام جميعاً ، ندرك أن ذكر هذا المعنى هنا له مغزى خاص فيما له علاقة في السياق القرآني العام .

ولنعد إلى السياق : ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ يقال صدع بالحجة ، إذا تكلّم بها جهاراً

أي أحدث في الباطل صدعاً بالأوامر التي أمرك الله بها كلها ﴿ **وأعرض عن المشركين** ﴾ استهانة بهم واحتقاراً لشأنهم ، وقد دلّت الآية في هذا السياق أن داء الأمم السابقة في تفريق الكتب لايداويه إلا جهر أهل الحق بالحق كله ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ أي بلّغْ ما أنزل إليك من ربك ، ولا تلتفت إلى المشركين ، الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله بالاستهزاء والتحقير ، ولا تخفهم ؛ فإن الله كافيك إياهم ، وحافظك منهم ، إن هذه الآية جاءت بعد الأمر بالصدع ، فهي وعد من الله عز وجل لرسوله ﷺ ، وتطمين وتثبيت بأنه معه إذا بلّغ ﴿ **الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون** ﴾ عاقبة أمرهم يوم القيامة ، دلّ ذلك على أنه لايستهزىء برسول الله ﷺ إلا مشرك كافر ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون** ﴾ فيك ، أو في القرآن ، أو في الله ﴿ **فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين** ﴾ أي فافزع فيما نابك إلى الله بالذكر الدائم وكثرة السجود ؛ يكفك الله ويكشف عنك الغم ﴿ **واعبد ربك** ﴾ أي وَدُمْ على عبادة ربك ﴿ **حتى يأتِيَكَ اليقين** ﴾ أي الموت يعني : مادمت حياً فاشتغل بالعبادة ، دلّ ذلك على أن باب العبادة واسع ، فكل عمل هو طاعة لله عبادة ، حتى المباح إذا رافقته نية صالحة ، ومعنى الآيات الثلاثة : وإنا لنعلم يامحمد أنك يحصل لك من أذاهم ضيق صدر وانقباض فلا يهمنَّك ذلك ، ولا يثنينّك عن إبلاغك رسالة الله ، وقابل ذلك بالتسبيح والسجود ، فإن الله يفرج عنك ، واستمر على عبادة الله حتى تموت ، دلّ ذلك على أن رجل الدعوة إذا لم يقابل الإيذاء بالسجود والتسبيح فإنه لايستطيع الاحتمال والاستمرار ، فالسجود والتسبيح هما زادا رجل الدعوة .

ملاحظة :

مما يفيد في تحديد مكانة سورة الحجر بالنسبة لما بعدها أن نشير إلى هذا التشابه بين سورة الحجر وسورة الأعراف .

لاحظ خاتمة الأعراف ﴿ **واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون** ﴾ ولاحظ خاتمة سورة الحجر ﴿ **فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ .

ثم لاحظ تعدد ورود كلمة ﴿ **لقد** ﴾ ﴿ **ولقد** ﴾ في السورتين بشكل يلفت

النظر . ثم لاحظ المعاني :

في سورة الأعراف : ﴿ **ولقد مكّنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش** ... ﴾ ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا** ... ﴾ .

وفي سورة الحجر : ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجاً** ... **والأرض** ... **وجعلنا لكم فيها معايش** ... ﴾ . ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون** ... ﴾ .

فسورة الحجر تقوم بدور سورة الأعراف ، كما سنرى - في حيثية من الحيثيات .

كلمة في المجموعة الأخيرة وفي سورة الحجر :

١ - بدأت سورة الحجر بالكلام عن الكافرين ، وأمرت رسول الله ﷺ أن يتركهم ، ثمّ أقامت عليهم الحجة بخلق الكون والحياة والإنسان ، وعلّلت لضلالتهم ، وذكرت استحقاقهم العذاب ، واستحقاق المتقين النعيم ، وعلّلت لذلك ، بأن الله شديد العقاب ، وأنه غفور رحيم ، وذكرت نموذجاً دنيوياً على رحمته في قصة إبراهيم عليه السلام ، وذكرت نماذج دنيوية على تعذيبه في قصة لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر ، ثمّ عللت لتعذيبه وإنعامه بأنه ماخلق السمٰوات والأرض إلا بالحق ، ثمّ هو قد أنزل القرآن ، فكيف يترك الناس سدى ، وبناء عليه فإن على الرسول النذير أن يعمل ، وأن يعلن ، وأن يتخذ مواقف ، وأن يرد على مواقف ، ومن تأمل هذه المعاني كلها رأى السورة على غاية من الوحدة والانسجام ، وعلى غاية من الترابط والتسلسل .

٢ - يلاحظ أن مابين بداية السورة وخاتمتها صلات :

في بدايتها : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** .. ﴾ . وفي نهايتها ﴿ **فاصفح الصفح الجميل** ﴾ . وفي بدايتها ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ وفي نهايتها ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ وكما أن هناك تلاحماً بين البداية والنهاية فهناك تلاحم مابين النهاية والوسط :

في الوسط ﴿ **ولقد جعلنا في السماء بروجاً** ﴾ وفي النهاية ﴿ **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق** ﴾ فالسورة على غاية من الانسجام في سياقها الخاص .

٣ - والسورة تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، فهي محورها : تفصّل في الفلاح

الذي سيناله أهل التقوى ، وتفصِّل في أن الله هو مُنزل القرآن ، وتفصِّل في ضرورة اتباع القرآن ، وتفصِّل في أحوال الكافرين ، وفيما يستحقون من عذاب في الدنيا والآخرة ، وتفصّل فيما ينبغي أن يكون عليه حال النذير من إعراض ، أو تبليغ ، أو تسبيح ، أو سجود ، أو عبادة .

نُقول من الظلال :

١ - قال صاحب الظلال رابطاً بين قوله تعالى ﴿ **وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ...** ﴾ وبين الآية التي جاءت بعدها ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ :

والمهم أن وصل هذا النص بآيات خلق السماوات والأرض ومابينهما بالحق والساعة الآتية لاريب فيها ، يشي بالاتصال بين هذا القرآن ، والحق الأصيل الذي يقوم به الوجود وتقوم عليه الساعة . فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق ، وهو يكشف سنن الخالق ، ويوجه القلوب لإدراكها ، ويكشف أسباب الهدى والضلال ، ومصير الحق والباطل ، والخير والشر ، والصلاح والطلاح . فهو من ذلك الحق ومن وسائل كشفه وتبيانه . وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذي خلقت به السماوات والأرض ، ثابت ثبوت نواميس الوجود ، مرتبط بتلك النواميس . وليس أمراً عارضاً ولا ذاهباً . إنما يبقى مؤثراً في توجيه الحياة وتصريفها وتحويلها ، مهما يكذب المكذبون ، ويستهزىء المستهزؤون . ويحاول المبطلون الذين يعتمدون على الباطل وهو عنصر طارىء زائل في هذا الوجود .

ومن ثم فإن من أوتي هذه المثاني وهذا القرآن العظيم ، المستمد من الحق الأكبر ، المتصل بالحق الأكبر .. لايمتد بصره ولاتتحرك نفسه لشيء زائل في هذه الأرض من أعراضها الزوائل . ولايحفل بمصير أهل الضلال ، ولا يهمه شأنهم في كثير ولا قليل . إنما يمضي في طريقه مع الحق الأصيل : ﴿ **لا تمدّنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين * وقل : إني أنا النذير المبين** ﴾ .

٢ - وعند قوله تعالى : ﴿ **لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم** ﴾ قال صاحب الظلال : (وليس المقصود هو أن يقنع المحرومون بحرمانهم ويدعوا المتمتعين لمتاعهم ، حين تختل الموازين الاجتماعية وينقسم المجتمع إلى محرومين ظلماً ومتمتعين بغياً ، فالإسلام الذي يقوم على الحق ، ويقرر أن الحق هو قوام هذا الوجود لايرضى

الظلم أصلاً . إنما هو معنى خاص في هذا السياق . للموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذي مع الرسول ، والمتاع الصغير الذي يتألق بالبريق وهو ضئيل في الطريق إلى توجيه الرسول ﷺ إلى إهمال القوم المتمتعين ، والعناية بالمؤمنين فهؤلاء هم أتباع الحق الذي جاء به والذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما ؛ وأولئك هم أتباع الباطل الزائل الطارىء على صميم الوجود) .

٣ - وقد ربط صاحب الظلال بين قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ فقال بمناسبة هذا السياق :

لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم .. كما أنزلنا على المقتسمين فلست بدعاً من الرسل الذين آتيناهم الكتاب ، فأصل الكتاب واحد ، ومُنزله واحد ، وكل الكتب نزلناها نحن ، فما يجوز أن ينكر بعضها من أنزلنا عليهم من قبل . فالذي ينزل الكتب هو أعلم بحاجة الناس في كل عصر . وهؤلاء الذين فرقوا القرآن وجعلوه عضين (جمع عضة وهو الجزء ، من عضى الشاة أي فصل بين أعضائها) واقتسموه : قسماً مقبولاً وقسماً مردوداً .. هؤلاء حالفوا عن مقتضى إعطائهم الكتاب ﴿ **فَوَربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ وما وراء السؤال معروف .

فوائد :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ أقوال ذكرنا أرجحها في صلب التفسير ، فهناك من ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني : السبع الطُوَل على خلاف في السابعة ، هل هي يونس ؟ أو الأنفال وبراءة ؟ وهناك من ذهب إلى أن السبع المثاني التي تتكرر في القرآن هي الأمر والنهي ، والتبشير والإنذار ، والأمثال ، والنعم ، والأخبار ، وهناك قول بأنها الفاتحة ، وقد ورد في ذلك أكثر من حديث مذكور عند الكلام عن سورة الفاتحة . وبعد أن ذكر ابن كثير حديثين في هذا المقام قال (فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم ، ولكن لاينافي وصف غيرها من السبع الطُوَل بذلك ، لما فيها من هذه الصفة ، كما لاينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً كما قال تعالى : ﴿ **الله نَزَّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثاني** ﴾ من وجه ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضاً . كما أنه عليه الصلاة والسلام لما

سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فأشار إلى مسجده . والآية نزلت في مسجد قباء فلا تنافي ؛ فإن ذكر الشيء لاينفي ذكر ما عداه ، إذا اشتركا في تلك الصفة والله أعلم) .

٢ - الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ وبين مابعدها ﴿ **لاتمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ...** ﴾ واضحة إذ المعنى: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عماهم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » إلى أنه يستغني به عما عداه . قال ابن كثير : (وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث) . والخطاب وإن توجه إلى رسول الله ﷺ فهو خطاب لكل فرد من أمته . قال ابن عباس فيها : « نهي الرجل أن يتمنى مالصاحبه » وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لاتمدن عينيك ...** ﴾ أخرج ابن أبي حاتم بسنده كما ذكره ابن كثير عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ولم يكن عند النبي ﷺ أمر يصلحه . فأرسل إلى رجل من اليهود : « يقول لك محمد رسول الله أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب » قال لا إلا برهن . فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال : « أما والله إني لأمين مَنْ في السماء وأمين مَنْ في الأرض ، ولئن أسلفني أوباعني لأؤدين إليه » . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿ **لاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا** ﴾ إلى آخر الآية كأنه يعزيه عن الدنيا .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقل إني أنا النذير المبين** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الموجود في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إنما مثلي ومثل مابعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : ياقوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذّبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ماجئت به ، ومثل من عصاني وكذّب ماجئت به من الحق » .

٤ - رجحنا أثناء التفسير مارواه البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ وهو الذي لايحتمل غيره وذكرنا هناك أن هناك اتجاهات أخرى في تفسير المقتسمين . ومن ذلك تفسير المقتسمين بأنهم الذين تحالفوا

على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، ومن ذلك تفسير العضين بالسحر ، على لغة قريش ، وفي ذلك يذكر ابن إسحق رواية عن ابن عباس هي بمثابة سبب نزول؛ لأننا رأينا أن ابن عباس في الرواية الصحيحة عنه قد فسر الآيات بما اعتمدنا هناك ، وعلى هذا وفي حالة صحة مانقله ابن إسحق عن ابن عباس يكون سبب النزول مما يدخل ضمن عموم الآية من باب : خصوص السبب لايمنع عموم اللفظ ، أو أن ماذكره ابن إسحق عن ابن عباس كان تأريخاً لنزول الآية وليس تفسيراً لها ، ويكون بعض ما في كلام ابن إسحق من كلامه هو لامن كلام ابن عباس ، وعلى كلٍ فهذه رواية ابن إسحق:

أخرج ابن إسحق بسنده الذي ذكره ابن كثير عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا شرف فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولاتختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، فقالوا : وأنت ياأبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل أنتم قولوا لأسمع ، قالوا : نقول : كاهن؟ قال : ماهو بكاهن ، قالوا : فنقول : مجنون؟ قال : ماهو بمجنون ، قالوا : فنقول : شاعر؟ قال : ماهو بشاعر ، قالوا : فنقول : ساحر؟ قال ماهو بساحر . قالوا : فماذا نقول؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، فتفرقوا عنه بذلك وأنزل الله فيهم ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** .. ﴾ .

٥ - وفي تفصيل قوله تعالى : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ نذكر هذه الروايات :

روى الترمذي وأبويعلى الموصلي وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي ﷺ ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين** ﴾ قال : « عن لا إله إلا الله » . وقال عبدالله بن مسعود والذي لا إله غيره مامنكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر . فيقول : ابن آدم ماذا غَرَّكَ مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ .

٦ - قال ابن مسعود : مازال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ فخرج هو وأصحابه .

٧ - **عند قوله تعالى** : ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ ذكر ابن كثير ما أخرجه البزار عن يزيد بن درهم عن أنس . قال : سمعت أنساً يقول في هذه الآية ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر** ﴾ قال : مَرّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل - قال : أحسبه قال: فغمزهم - فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا . كما ذكر ماذكره ابن إسحق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : كان عظماء المستهزئين خمسة نفر ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم : من بني أسد بن عبدالعزى بن قصي الأسود بن أبي رفعة كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه فقال : « اللهم اعم بصره وأثكله ولده » . ومن بني زهرة الأسود بن عبد يغوث ابن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، ومن بني سهم ابن عمر بن هصيص بن كعب بن لؤي العاص بن وائل بن هشام ابن سعيد بن سعد ، ومن خزاعة الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن ملكان . فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ إلى قوله ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبِّح بحمد ربك وكن من الساجدين** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ياابن آدم لاتعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » . ثم ذكر ابن كثير من رواه غير أحمد ثم قال : ولهذا كان رسول الله ﷺ « إذا حزبه أمر صلى » .

٩ - هناك اتجاه يتجه إليه بعض كفرة الصوفية في تفسير قوله تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ إذ يفسرون اليقين بمعرفة الله ، ويزعمون أنه متى حصّل الإنسان هذه المعرفة سقط عنه التكليف ، وابن كثير يركز في هذا المقام على التفسير الصحيح لهذه الآية ثم يرد على هذا الاتجاه وهذا كلامه .

(وقوله تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ روى البخاري ... عن سالم قال : الموت . وسالم هذا هو سالم بن عبدالله بن عمر كما روى ابن جرير عن سالم بن عبدالله ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ قال: الموت . وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة

وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيره والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ **لم نكُ من المصلين * ولم نكُ نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذِّب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين** ﴾ (المدثر : ٤٣ - ٤٧) وفي الصحيح من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء - امرأة من الأنصار - أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت أم العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ: « وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقلت : بأبي وأمي يارسول الله فمن؟ فقال : « أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير » ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً ، فيصلي بحسب حاله ، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا الموت ، كما قدمناه ولله الحمد والمنة . والحمد لله على الهداية ، وعليه الاستعانة والتوكل ، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها ؛ فإنه جواد كريم) .

أقول : ويظهر أن هذا الاتجاه الذي رده ابن كثير موجود قديماً وأصحابه كفار بلاشك ، ومن ثم نجد الجنيد يقول عن ناس يتركون الصلاة لأنهم في زعمهم قد وصلوا قال : نعم وصلوا ولكن إلى سقر .

ولازال هذا النوع من الصوفية الكفرة موجودين حتى الآن . وحكم الله فيهم أن يقتلوا أو يتوبوا .

كلمة في سورة الحجر وعلاقتها بالسور التي بعدها :

تشبه سورة الحجر سورة الأعراف من ناحيتين :

١ - في أسلوبها ، وكثير من مضامينها ، ومعانيها ، وكلماتها .

٢ - وفي كون مابعد سورة الأعراف تفصيل لمعنى ضارب في أعماق سورة البقرة ، ونحن عندما نفتش عن محاور للسور الأربعة بعد الحجر فإننا نراها في الآيات التالية :

﴿ ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم * هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة وقُضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾ « هذه محور سورة النحل » .

﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ « هذه محور سورة الإسراء » .

﴿ زُيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ « هذه محور سورة الكهف » .

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ « هذه محور سورة مريم » .

هذه الآيات الأربع جاءت في سياق أمر من أهم الأوامر وهو الدخول في الإسلام كله ، وفي سياق نهي هو الانتهاء عن اتباع خطوات الشيطان ، ولقد ذكرنا أثناء تفسير سورة البقرة كيف أن كل معنى من معاني هذه الآيات الأربع يخدم هدف هذا الأمر والنهي ، ولكن خدمته لهذا الأمر والنهي يحتاج إلى تفصيل شامل ، ومن ثم جاءت سور كاملة تفصِّل هذه الآيات .

ولذلك فإن سورة الحجر من هذه الحيثية تعتبر مقدمة لهذه السور ، وهذه السور الخمس بمجموعها تشكل مجموعة مربَّية على هذه المعاني القرآنية .

ومن ثم نلاحظ ورود قوله تعالى في سورة الحجر : **﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾** وهو معنى له صلة بالدخول في الإسلام كله ، ثمّ إن سورة الحجر قد فصَّلت قطاعات كثيرة في سورة البقرة هي بمثابة المقدمة لقوله تعالى : **﴿ ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾** .

وهكذا فإن سورة الحجر مقدمة للسور الأربع التي تفصّل الآيات الداخلة في حيز هذه الآية وهذا شيء ليس لنا عليه دليل إلا المعاني .

بين يدي السور الأربع التالية :

مرّ معنا من قبل أن كلّ سورة تأتي بعد سورة البقرة لها محورها من سورة البقرة ، وأن السورة تفصّل في محورها وفي امتدادات معاني هذا المحور من سورة البقرة ، وقد رأينا نماذج كثيرة على ذلك ، وقد آن الأوان أن نذكر جديداً في موضوع الوحدة القرآنية .

....

إنك تجد آية من آيات سورة البقرة قد أتت محوراً لسورة من السور ، كآية ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ... ﴾ فهذه الآية كما رأينا جاءت محوراً لسورة إبراهيم عليه السلام ، ولو أنك رجعت إلى هذه الآية في سورة البقرة لوجدتها آتية في سياق قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولا خلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون** .. ﴾ لقد رأينا أثناء عرضنا لسورة البقرة أن المقطع الثاني من القسم الثالث يبدأ بهذه الآية وقد جاء في سياقها قوله تعالى : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾ فهذه الآية تخدم سياق مقطعها وقسمها ، فهي آتية في حيز معيَّن ، والملاحظ أن الآية الآتية في حيز ما ، عندما تأتي كمحور لسورة ، فإن السورة في هذه الحالة تفصّل بما يخدم تفصيل المحور مراعىً في ذلك محل هذا المحور في سياقه ، لاحظ كمثال على ذلك أن سورة إبراهيم قد ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلال** ﴾ .

لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لابيع فيه ولاخلة ولا شفاعة** ﴾ .

فسورة إبراهيم تفصّل محورها الآتي في حيّز قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم** ... ﴾ .

يبدأ القسم الثالث من أقسام سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا ادخلوا**

في السلم كافَّة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ ثم تأتي بعد ذلك مباشرة أربع آيات تخدم هذا المعنى الذي بدأ به هذا القسم. وسنرى أن السور الأربع الآتية كل منها يفصّل في آية من هذه الآيات فتكون كل منها محوراً لسورة من السور الأربع.

ولكن كما رأينا فكل آية من هذه الآيات آتية في حيّز الأمر بالدخول في الإسلام كله، وفي حيز النهي عن اتباع خطوات الشيطان، ولذلك فإن كل سورة من السور الأربع تفصّل محورها المرتبط بسياقه من سورة البقرة، فهي تفصّل آيه في الحيّز الذي جاءت فيه، ولذلك فإننا نجد في السور الأربع ماله صلة بتعميق التمسك في الإسلام كله، وبتعميق البعد عن متابعة خطوات الشيطان، زيادة على مافي السور الأربع من تفصيل للآية التي هي محور السورة.

وسنرى ذلك واضحاً إذا جاءت مناسبته فلنبدأ عرض سورة النحل.



سورة النحل

وهي السورة السادسة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الثانية من قسم المئين
وآياتها مائة وثمان وعشرون آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة النّحل :

« وتسمىٰ كما أخرجه ابن أبي حاتم سورة النعم قال ابن الفرس : لما عدد الله تعالى فيها من النعم على عباده ، وأطلق جمع القول بأنها مكية ، وأخرج ذلك ابن مردويه عن ابن عباس . وابن الزبير رضي الله عنهم ، وأخرج النحاس من طريق مجاهد عن الحبر أنها نزلت بمكة سوىٰ ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله ﷺ من أحد ، وفي رواية عنه أنها كلها مكية إلا قوله تعالى : ﴿ **ولا تشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً** ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ **بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ وروىٰ أمية الأزدي عن جابر بن زيد أن أربعين آية منها نزلت بمكة ، وبقيتها نزلت بالمدينة ، وهي مائة وثمان وعشرون آية ، قال الطبرسي وغيره : بلا خلاف ، والذي ذكره الداني في كتاب العدد أنها تسعون وثلاث ، وقيل أربع ، وقيل خمس في سائر المصاحف ، وتحتوي على المنسوخ ، قيل على أربع آيات بإجماع ، وعلى آية واحدة على اختلاف فيها ، وسيظهر لك حقيقة الأمر في ذلك إن شاء الله تعالى ، ولما ذُكر في آخر السورة السابقة المستهزؤون المكذبون له ﷺ ابتدي هنا بعد قوله تعالى : ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ بقوله عز وجل : ﴿ **أتىٰ أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾ المناسب لذلك على ماذكر غير واحد في معناه وسبب نزوله . وفي البحر بيان وجه الارتباط أنه تعالىٰ لما قال : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين** ﴾ كان ذلك تنبيهاً على حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا فقيل : ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ فإن المراد به على قول الجمهور يوم القيامة ، وذكر الجلال السيوطي أن آخر الحجر شديدة الالتئام بأول هذه ، فإن قوله سبحانه : ﴿ **واعبد ربك حتىٰ يأتيك اليقين** ﴾ الذي هو مفسر بالموت ظاهر المناسبة بقوله سبحانه هنا : ﴿ **أتىٰ أمر الله** ﴾ وانظر كيف جاء في المتقدمة ﴿ **يأتيك** ﴾ بلفظ المضارع وفي المتأخرة ﴿ **أتى**﴾ بلفظ الماضي لأن المستقبل هنا سابق على الماضي كمّا .

كلمة في سورة النحل ومحورها :

تأتي سورة النحل تفصيلاً لقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقُضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ الآتية في حيز قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ۝ فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا**

أن الله عزيز حكيم ﴾ فإذا كانت آية ﴿ **هل ينظرون ....** ﴾ جاءت معانيها لتخدم معنى الدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان فإن سورة النحل جاءت تفصيلاً لهذا كله .

ومن ثم نلاحظ في سورة النحل مثل قوله تعالى : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه ....** ﴾ وهو يصل بسبب إلى قوله تعالى ﴿ **إلا أن يأتيهم الله .... وقضي الأمر** ﴾ . فإذا عرفنا أن هذه أول آية في سورة النحل أدركنا الصلة بين السورة والآية . كما نجد في سورة النحل قوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم** ﴾ وهو يصل بسبب إلى الآية التي هي محور هذه السورة ، كما نجد في سورة النحل :﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ وهي تصل بسبب إلى قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافّة** ﴾ ونجد قوله تعالى فيها ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾ وهي تصل بسبب إلى الأمر بالدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان .

....

وإذن فمن الآن نستطيع أن نقول :

جاءت الآية ﴿ **هل ينظرون ....** ﴾ في سورة البقرة لتخدم الأمر بالدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان ... لأن من لا يؤمن بالله وباليوم الآخر وما يكون فيه لا يطبق الإسلام كله ولا يترك اتباع خطوات الشيطان وكيف يفعل ذلك ؟ وفيه ما فيه من ترك لذاذات وشهوات ، وتأتي سورة النحل لتفصّل مقاطعها في كل ما يحتاجه هذا المعنى من تفصيلات : إنّ في تصوير ما سيحدث يوم القيامة ، أو في التدليل على وجود الله الذي يعتبر الإيمان باليوم الآخر فرع الإيمان به ، أو في التدليل على اليوم الآخر ، أو في التذكير به ، أو فيما ينبغي على أهل الإيمان بالله واليوم الآخر من التزام كامل بالأوامر والنواهي ، مع تفصيلات لبعض هذه الأوامر والنواهي ، تميّز مواقف هذه الأمة المؤمنة بالله واليوم الآخر ، مع تفصيلات تطمئن المسلم في دنياه وأخراه ، مع توجيهات للداعية لهذا الدين ، إلى غير ذلك مما سنراه .. مما يخدم الآية المفصّلة في الحيّز الذي جاءت هي لخدمته .

....

تتألف سورة النحل من قسمين رئيسيين :

القسم الأول يمتد من أول السورة حتى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي** ... ﴾ وهو تسع وثمانون آية ، والقسم الثاني من قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ... ﴾ إلى نهاية السورة وهو تسع وثلاثون آية .

القسم الأول يضع الأساس النظري .

والقسم الثاني يبني على الأساس النظري فيأمر وينهى ويوجّه ويؤدّب .

والقسم الأول ثلاثة مقاطع والقسم الثاني مقطع واحد يتألف من مقدمة هي آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ . ثم من خمس مجموعات . ولنبدأ عرض السورة .

القسم الأول

ويتألف من ثلاثة مقاطع
ويمتدّ من أول السورة حتى نهاية الآية (١٨) وهذا هو :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ
فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ
تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ
رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا
تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾
هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ
لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ

مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

التفسير :

﴿ **أتى أمر الله** ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن اقتراب الساعة ودنوّها معبّراً بصيغة الماضي الدالّ على التحقيق والوقوع لا محالة ، والمراد بأمره : أمره بقيام الساعة ، والتعبير بالماضي عن المستقبل مستعمل عند العرب ويفيد بلاغياً التحقيق . فقوله تعالى هنا ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ يفيد أن أمره بمنزلة الآتي الواقع لقرب وقوعه ﴿ **فلا تستعجلوه** ﴾ أي فلا تستعجلوا الله فإن الله لا يعجل لعجلة أحد ، أو فلا تستعجلوا عذاب الله إذا جاء أمره ، والخطاب للكافرين لأنهم هم الذين يستعجلون قرب ما تباعد فإنه آت وكأن قد .

ثم إنه تعالى نزّه نفسه عن إشراكهم به غيره ، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد فقال : ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ تبرّأ جلّ وعزّ عن أن يكون له شريك وعن إشراكهم ، واتصال هذا المعنى باستعجالهم النابع عن استهزائهم وتكذيبهم يدل على أن ذلك من الشرك ، فلو عرفوا الله ووحّدوه لأسلموا له ، ولم يستعجلوا ويستهزؤوا ويكذّبوا ، ومن هنا نفهم أن التوحيد أوسع بكثير مما يظنّه الجاهلون ، كما سنرى ﴿ **ينزّل الملائكة بالروح** ﴾ أي بالوحي أو بالقرآن وهو من الوحي ، وسمي الوحي والقرآن روحاً لأنه يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ، أو لأنه يحيي القلوب

الميتة ﴿ **من أمره على من يشاء من عباده** ﴾ وهم الأنبياء ﴿ **أن أنذروا** ﴾ أي لينذروا ﴿ **أنه لا إله إلا أنا** ﴾ هذه هي محور دعوة الأنبياء والرسل ، وهذا محور الوحي كله التوحيد ، فكل وحي أنزله الله إنما هو من أجل تقرير التوحيد وتأكيده وتفهيمه وتعليمه ، فدعوة الرسل من بدايتها إلى نهايتها ، وكل ما شرع الله لعباده إنما هو من أجل تقرير هذه الحقيقة وتوكيدها ، والقرآن الكريم الذي هو أعظم كتاب منزل إنما هو من أوله لآخره شرح لهذه الحقيقة ، وتعليم لها ، وتذكير بها ، وحماية لها ﴿ **فاتقون** ﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري ، وإذ كان الوحي كله من أجل التوحيد ، فقد بدأت الآيات تعرّفنا على الله ، وتؤكّد وحدانيته ، وتدلّنا عليه وعلى أنّه واحد ﴿ **خلق السمٰوات والأرض بالحق** ﴾ لا للعبث ، ومن كان هذا فعله الذي هو آثار صفاته يتعالى عن أن يشرك به غيره لذلك قال : ﴿ **تعالى عمّا يشركون** ﴾ هو المستقل بخلق السمٰوات والأرض وحده ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده فكيف يشركون به غيره ، وهو خالقهم ، وخالق كل ما يحتاجون إليه ، مما ستأتي تفصيلاته ، ألا إنها الخصومة لله رب العالمين ، ومن ثم نجد السياق يقرّر : ﴿ **خلق الإنسان من نطفة** ﴾ أي مَهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج ﴿ **فإذا هو خصيم مبين** ﴾ أي إذا هو يخاصم ربه تعالى ، ويكذّبه ، ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً ، وهو وصف للإنسان بالوقاحة والتمادي في كفران النعمة ، ومن رأى آلاف الكتب التي تطرح يومياً في عصرنا ، وكلها خصومة لله ، وإنكار لوجوده ، أدرك الوصف ، والآية كما هي إنكار على الإنسان ، فإن فيها تدليلاً على الله ، فإن هذا الإنسان الذي أصله هذه النطفة في حقارتها وصغرها ، هو هذا المنطيق المجادل المخاصم ليس لبني البشر فحسب بل لله رب العالمين .

ولقد قال صاحب الظلال عند هذه الآية ﴿ **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ : (ويالها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير ، بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم ، الذي يخاصم خالقه فيكفر به ، ويجادل في وجوده ، أو في وحدانيته . وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة ، فهكذا يصوره التعبير ، ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير ، لتبدو المفارقة كاملة ، والنقلة بعيدة ، ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين : مشهد النطفة المهينة الساذجة ، ومشهد الإنسان الخصيم المبين وهو إيجاز مقصود في التصوير) .

وهكذا نجد أن السورة بدأت بتبيان أن استعجال العذاب شرك ، ثم بينت أن الرسل بعثوا بالتوحيد ، ثم بدأت تقرر أدلة التوحيد إجمالاً وتفصيلاً لا من خلال ظاهرة الخلق وظاهرة العناية، إذ كل شيء مسخَّر للإنسان ، فمن الذي فعل هذا كله إلا الله الواحد الأحد .

﴿ **والأنعام** ﴾ أي الإبل والبقر والغنم والماعز ﴿ **خلقها** ﴾ فليس ثَم خالق غيره ﴿ **لكم فيها دفء** ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها تلبسون وتفترشون وغير ذلك ﴿ **ومنافع** ﴾ في نسلها ودرّها ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾ لحماً ﴿ **ولكم فيها** ﴾ زيادة على ما مَرَّ ﴿ **جمال** ﴾ فالمتعة في النظر إليها نعمة كذلك ﴿ **حين تُريحون** ﴾ أي وقت رجوعها من المرعى فإنّها تكون أمدّه خواصر وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسنمة ﴿ **وحين تسرحون** ﴾ أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى . قال النسفي : (منَّ الله تعالى بالتجمل بها ، كما منّ بالانتفاع بها ، لأنه من أغراض أصحاب المواشي ، لأن الرعيان إذا روّحوها بالعشي ، وسرّحوها بالغداة ، تزيّنت بإراحتها وتسريحها الأفنية ، وفرحت أربابها وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس ، وإنما قدمت الإراحة على التسريح لأن الجمَال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع) .

﴿ **وتحمل أثقالكم** ﴾ أي أحمالكم الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿ **إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس** ﴾ .

والمعنى وتحمل الإبل أحمالكم إلى بلد لم تكونوا واصلين إليه لو لم تخلق الإبل إلا بجهد ومشقة ، لأنكم ستضطرون أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم في الحج والعمرة والغزو والتجارة ، وما جرى مجرى ذلك ، فخفّف الله عنكم بأن خلقها لكم تستعملونها أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل ﴿ **إن ربكم لرؤوف رحيم** ﴾ حيث رحمكم بخلق هذه ، ويسّرلكم الاستفادة منها ، وكما خلق لكم الأنعام فقد خلق لكم غيرها ﴿ **والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة** ﴾ أي خلقها للركوب وللزينة ﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾ للركوب والزينة ، ويدخل في ذلك السيارات والطيارات والقطارات والسفن وغير ذلك .

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **ويخلق مالاتعلمون** ﴾ . :(يعقّب بها على خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال ، وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة .

ليظل المجال مفتوحاً في التصور البشري لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة ، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة ، وخارج حدود الزمان الذي يظلهم ، فوراء الموجود في كل مكان وزمان صور أخرى ، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم ، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد ، أو حين تكتشف ، فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها . ولا يقولوا : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها ، وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها .

إن الإسلام عقيدة مفتوحة مَرِنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ، ومقدرات الحياة كلها ، ومن ثم يهيء القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخّض عنه القدرة ، ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل . استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة .

ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان . وستجِدّ وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان . والقرآن يهيء لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجر ﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾) .

....

وفي وسط الحديث عن نعم الله المادية على الإنسان نبّه على الطرق المعنويّة الدينية إذ هي أعلى أنواع النعم ، وكثيراً ما يقع في القرآن مثل هذا إذ يعبر بك السياق من أمر حسي إلى أمر معنوي مناسب ، ثم يعود السياق إلى ما كان عليه وذلك أسلوب في التربية آثاره جليلة ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ قال الزجاج : (معناه وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم ، والدعاء إليه بالحجج) . والسبيل القصد هو الطريق المستقيم والخط المستقيم هو أقرب بُعد بين نقطتين ﴿ **ومنها جائر** ﴾ أي ومن الطرق حائد مائل زائغ عن الاستقامة . قال ابن عباس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، فطريق الحق بيانه على الله وكل طريق إلا طريقه ظالمة مائلة زائفة زائغة حائدة لاتوصل إليه فهي مضيعة ، والأعمال فيها مردودة ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال : ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ أي خلق فيكم الهداية كما بيّنها لكم ، ولكنه أمضى فيكم سنته وأقام عليكم الحجة .

ثم يعود السياق إلى تعداد النعم الحسيِّة ﴿ **هو الذي أنزل من السماء** ﴾ قال ابن كثير : وهو العلو ﴿ **ماءً لكم منه شراب** ﴾ أي جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً ﴿ **ومنه شجر** ﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ﴿ **فيه تسيمون** ﴾ أي ترعون أنعامكم ﴿ **ينبت لكم به** ﴾ أي بالمطر إذ الأنهار والعيون والآبار كل ذلك أصله مطر ﴿ **الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات** ﴾ بأن يخرجها من الأرض بهذا الماء ﴿ **إن في ذلك لآية** ﴾ أي دلالة . وحجة على وجوده ووحدانيته ﴿ **لقوم يتفكَّرون** ﴾ فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته وعنايته وإرادته ، أما الذين لا يتفكرون فهؤلاء وحدهم الذين لا يرون ، فمن تفكّر رأى ، وإن هؤلاء الذين يلحدون مصيبتهم أنهم لا يتفكرون ، ولا يشعرون أنهم لا يتفكرون بل يظنون أنفسهم أنهم مفكرون ، ثمّ عدّد الله نعماً عظيمة وجسيمة أخرى على هذا الإنسان : ﴿ **وسخَّر لكم الليل والنهار** ﴾ للسكن والإبصار وغير ذلك ﴿ **والشمس والقمر** ﴾ كل منهما يؤدي وظيفته في المساعدة على صلاحية الحياة للاستمرار ﴿ **والنجومُ مسخَّرَات بأمره** ﴾ لخدمة هذا الإنسان ، إن الكرة الأرضية جزء من المجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية جزء من المجرّة ، والمجرّة جزء من هذا الكون الواسع ، فالنجوم تخدم وجود هذا الإنسان على الأرض بأشكال شتى ، ومن ذلك اهتداء الإنسان في ظلمات البر والبحر بها ﴿ **إن في ذلك لآيات** ﴾ أي لدلالات واضحات وليس آية واحدة ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ لقوم عندهم عقل يحكّمونه فيعرفون الظاهرة وما تدّل عليه ، وذكر العقل بعد ذكر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم للإشارة على أن الدلالة في هذه على القدرة أبهر والشهادة فيها على الكبرياء والعظمة أبين ومن ثمّ فيكفي أن يكون للإنسان عقل حتى يعرف الله بذلك ﴿ **وما ذرأ لكم في الأرض** ﴾ أي وما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وسهل وجبل وغير ذلك ﴿ **مختلفاً ألوانه** ﴾ لكل ألوانه الكثيرة التي تثير إحساسات الشعور بالجمال والمتعة والتفكير عند الإنسان ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يذَّكَّرون**﴾ آلاء الله ونِعَمه فيشكرونها ، ونلاحظ في أكثر من مكان في هذه الآيات أن الله يمنّ على الإنسان بما خلق مما يثير إحساسات المشاعر الجمالية التي هي نعمة من نعمه تعالى ، فأن يخلق كل شيء للإنسان ، وأن يخلق هذا الإنسان بحيث يستفيد من هذا الكون بكل أنواع الاستفادة من الإحساس بجماله إلى غير ذلك ، فهذا كله يدل على الله بشكل قطعي ، وتفصيلات هذا في كتابنا (الله جل جلاله) ﴿ **وهو الذي سخَّر البحر** ﴾

العظيم المتلاطم الأمواج المخيف ، يمنُّ الله على عباده بتذليله وتيسيره ﴿ **لتأكلوا منه لحماً طرياً** ﴾ فلحم حيواناته أكثر أنواع اللحوم طراوة ﴿ **وتستخرجوا منه حِلْية** ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿ **تلبسونها** ﴾ أي تلبسها نساؤكم لكم ، وإنّما يتزيّن من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم ﴿ **وترى الفلك** ﴾ أي السفن ﴿**مواخر فيه** ﴾ أي جواري تجري فيه جرياً ، وتشق الماء شقاً ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ بالتجارة والتصدير والاستيراد ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ الله على ما أنعم عليكم به ﴿ **وألقىٰ في الأرض رواسي** ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ **أن تميد بكم** ﴾ أي لئلا تضطرب ، ومن المعروف الآن في علم الجيولوجيا أنه لولا الجبال لكانت تمزقات القشرة الأرضية والبراكين والزلازل من الكثرة بحيث تستحيل الحياة ﴿ **وأنهاراً** ﴾ أي وجعل فيها أنهاراً ﴿ **وسُبلاً** ﴾ أي طرقاً ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ أي إلى مقاصدكم ﴿ **وعلامات** ﴾ أي وجعل فيها علامات وهي معالم الطرق وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغير ذلك ﴿ **وبالنجم هم يهتدون** ﴾ أي وبالنجم خصوصاً هم يهتدون ، وهل المراد به نجم واحد فيكون نجم القطب ، أو كل جنس النجم فيكون المراد كل النجوم ؟ المرجح الثاني ، وهداية الإنسان في صحرائه وبحره وأرضه بواسطة النجم شيء معروف على تفارت بين الناس في هذا الموضوع ، ومن المعلوم أن الدول البحرية تصدر كتباً سنوية ليستطيع البحارة بواسطة آلات معينة أن يعرفوا مكانهم من خلال مواقع النجوم في اللحظة التي هم فيها ﴿ **أفمن يخلق** ﴾ وهو الله ﴿ **كمن لا يخلق** ﴾ كغيره ممّن سمّوهم آلهة ﴿ **أفلا تذكَّرون** ﴾ فتعرفون أن العبادة لا تنبغي إلا له إقراراً وشكراً ، ثم نبّه على كثرة نعمه وإحسانه فقال : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ أي لا تضبطوا عددها ، ولا تبلغه طاقتكم ، فضلاً أن تستطيعواالقيام بحقها من أداء الشكر ، وإنّما أتبع ذلك ماعدّد من نعمه تنبيهاً على أن ما وراءها لا ينحصر ولا يعدّ ﴿ **إن الله لغفور رحيم** ﴾ أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذّبكم لعذّبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنّه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازي على اليسير ، قال ابن جرير في ذلك : إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة ، وهكذا قررت الآيات وحدانية الله من خلال تقرير أنه الخالق وحده ، وأنّه هو الذي سخّر كل شيء لصالح الإنسان ، فقامت الحجة على وجوده بذلك ، وعلى استحقاقه وحده العبادة شكراً له .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بتقرير أن يوم القيامة آت ، ونَزَّهت الله عن الشرك ، وبيَّنَت أن الرسل بعثوا بالتوحيد . ثم ذكرت بعض ما خلق الله ، وعدّدت نعمه ، وفي ذلك برهان على التوحيد ، ومن ثَم برهان على اليوم الآخر ، وهكذا وضعت هذه الآيات الأساس الأول في فهم قضية التوحيد التي تبنى عليها طاعة الله في كل ما أمر ، والتي هي الأساس لفهم قضية اليوم الآخر المؤيد الأول لهذا التوحيد في مدلوله الواسع الذي منه الدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان ، إن الآيات التي مرّت معنا أفهمتنا أن الله سيقيم القيامة ، والذي فعل هذا كله حري أن يُطاع في كل أمر ، وأن يتبع دينه كله شكراً له ، فلنتذكر أن الآية التي هي محور سورة النّحل قالت : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله تُرجع الأمور** ﴾

إن هذه الآية جاءت بعد الأمر بالدخول في الإسلام ، وترك اتباع خطوات الشيطان ، فكأنها تقول : ادخلوا في الإسلام ، واتركوا خطوات الشيطان ، فها هي القيامة قد قامت ، فهل تنتظرون قيامها لتعقلوا ؟ إنّه لا ينفعكم وقتذاك عمل ، وههنا بدأ هذا المقطع بالتذكير أن أمر الله آت ليطالبنا بعد ذلك بالتوحيد والشكر اللذين يقابلهما الشرك والكفران : الأولان إسلام ، والآخران من اتّباع خطوات الشيطان .

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أتى أمر الله** ...... ﴾ ذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس ، فما تزال ترتفع في السماء ، ثم ينادي مناد فيها : يا أيها الناس فيقبل الناس بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟ فمنهم من يقول نعم ومنهم من يشك ، ثم ينادي الثانية : ياأيها الناس فيقول الناس بعضهم لبعض هل سمعتم ؟ فيقولون نعم : ثم ينادي الثالثة : يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رسول الله ﷺ « فو الذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً ، وإن الرجل ليمدّن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً – قال : ويشتغل الناس » .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بشر بن جحاش قال : بصق رسول الله ﷺ في كفه ثم قال : يقول الله تعالى : ابن آدم : أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سوّيتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق ؟ وأنّى أوان الصدقة ؟ » .

٣ ــ تثور مسائل فقهية بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون** ﴾ فقد دلّ النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال فما حكم إنزاء الحمر على الخيل ؟ وما حكم أكل لحم الخيل خاصة وقد ذكرت مع نوعين حرّم الله أكل لحومها ، فممن ذهب إلى حرمة أكل لحم الخيل أبو حنيفة وحجته الآية ، بأن الله علّل خلقها للركوب والزينة ، ولم يذكر الأكل بعدما ذكره في الأنعام ، ومنفعة الأكل أقوى ، والآية سيقت لبيان النعمة ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضع المنّة أدنى النعمتين ويترك أعلاهما ، وذهب بقية الأئمة إلى جواز ذلك ، وقد تحدث ابن كثير عن الموضوعين اللذين ذكرناهما عند الآية فقال : (هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ، يمتن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير ، التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فَصَلَها من الأنعام وأفردها بالذكر استدلّ من استدل من العلماء ممّن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها ، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ، ومن وافقه من الفقهاء ، بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهي حرام ، كما ثبتت به السنة النبوية ، وذهب إليه أكثر العلماء ، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير بسنده عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكان يقول : قال الله تعالى : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون** ﴾ فهذه للأكل ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها** ﴾ فهذه للركوب ، وروى الإمام أحمد في مسنده ... عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير . وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث صالح بن يحيى بن المقدام — وفيه كلام — به ، وروى الإمام أيضاً ... عن المقدام بن معد يكرب قال : غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة فقرم[١] أصحابنا إلى اللحم ، فسألوني رَمَكَة[٢] ، فدفعتها إليهم ، فحبلوها :— أي ربطوها بالحبل — ليذبحوها وقلت :

(١) الصائفة : أي في الصيف . وقرم : أي اشتاقوا .
(٢) الرمة : القدس .

مكانكم حتى آتي خالداً فأسأله ، فأتيته فسألته فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر ، فأسرع الناس في حظائر يهود ، فأمرني أن أنادي الصلاة جامعة ، ولا يدخل الجنة إلا مسلم . ثم قال : « أيها الناس : إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود ، ألا لا يحل أموال المعاهدين إلا بحقها ، وحرام عليكم لحوم الحمر الأهلية ، وخيلها وبغالها ، وكل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير » .

٤ ــ من المعجزات الموجودة في الآيات السابقة ما ورد في قوله تعالى : ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون** ﴾ هذه المعجزة متضمّنة في قوله تعالى ﴿ **ويخلق مالاتعلمون** ﴾ فبعد أن ذكر أدوات الركوب المعروفة وقت نزول هذا النص ، أشارت الآية إلى مركوبات للإنسان ستخلق لا يعلمها الإنسان حين نزول النص ، وهذا الذي رأيناه في عصرنا أكثر من أي عصر مضى ، وإذ كان القرآن خطاباً لكل عصر ، فهذا يفيد أن ما سيخلقه مما يركبه الإنسان ويكون زينة له سيكون متطوراً يأتي في العصور اللاحقة ما لا يعلمه أهل العصور السابقة .

ولننتقل إلى المقطع الثاني ويتألف من ست مجموعات ومقدمة ، ومن ثم فسنعرض كل مجموعة من مجموعاته على حدة

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويتألف من مقدمة وست مجموعات ويمتد من الآية (١٩) إلى نهاية الآية (٦٤) وسنعرضه على أجزاء بسبب طوله بادئين بعرض مقدمة المقطع .

مقدمة المقطع الثاني

وتمتد من الآية (١٩) إلى نهاية الآية (٢٣) وهذه هي :

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ
شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾
إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

التفسير :

﴿ **والله يعلم ماتسرون وما تعلنون** ﴾ يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وفي الآية وعيد يفيد أنّه تعالى سيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة ، إن خيراً فخير ؛ وإن شراً فشر ﴿ **والذين يدعون من دون الله** ﴾ أي والآلهة الذين يدعونهم الكفار ﴿ **لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلَقون** ﴾ ومن كان كذلك كان عبداً لا رباً ، فكيف إذا كان زيادة على ذلك ميتاً ﴿ **أموات غير أحياء** ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿ **وما يشعرون أيّان يبعثون** ﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة ، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ ! إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء ، وهكذا نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين أحياءً لا يموتون ، عالمين بوقت البعث ، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون أموات جاهلون بالبعث ، ومعنى ﴿ **أموات غير أحياء** ﴾ :

أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياءً غير أموات ، أي غير جائز عليهم الموت ، بينما هم بالعكس من ذلك إما أموات على الحقيقة ، أو يمكن أن يطرأ عليهم الموت ، والضمير في (يبعثون) للداعين ، أي لا تشعر هذه الآلهة المزعومة متى تبعث عَبَدَتُهم ، وفيه تهكُّم بالمشركين ، وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم ؟ وفيه دلالة على أنّه لابد من البعث ﴿ **إلهكم إله واحد** ﴾ أي ثبت بما مرّ أنّ الإلهية لا تكون لغير الله ، ﴿ **فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم مُنكِرَة** ﴾ أي للوحدانية ﴿ **وهم مستكبرون** ﴾ عن الإقرار بالوحدانية ، وعن مضموناتها ، وعن عبادة الله ﴿ **لا جَرَمَ** ﴾ أي حقاً ﴿ **أن الله يعلم ما يسرُّون وما يعلنون** ﴾ أي سرهم وعلانيتهم أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين** ﴾ وهم الذين أشركوا به غيره .

قال صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿**إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون** ﴾ : « فالذين لا يسلّمون بهذه الحقيقة ، ولا يؤمنون بالآخرة - وهي فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله - هؤلاء لا تنقصهم البراهين ، إنما تكمن العلة في كيانهم وفي طباعهم . إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات ، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول . فالعلة أصلية ، والداء كامن في الطباع والقلوب .

والله الذي خلقهم يعلم ذلك منهم . فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون . يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم . ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين** ﴾ فالقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلم . ومن ثم فهم مكروهون من الله لاستكبارهم الذي يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون .

كلمة في السياق :

هذه الآيات مقدمة لمجموعات المقطع الثاني ، وهي امتداد للمقطع السابق من حيث إنها تقرر وحدانية الله ، وتقرر مجيء اليوم الآخر ، وتقيم الحجة على المشركين وتتوعدهم وتصفهم بالمستكبرين ، وأن الله لا يحبهم ، وبعد هذه المقدمة تأتي المجموعة الأولى في هذا المقطع وهي تحدد موقف المستكبرين من القرآن ، وما يستحقون بسبب ذلك ، وموقف المؤمنين من القرآن وما يستحقون بسبب ذلك ، ومن ثَم فالمجموعة هذه تحدّد جزاء من

دخل بالإسلام كله ، وجزاء من اتبع خطوات الشيطان ، وهكذا تسير السورة شيئاً فشيئاً في التربية على الدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان من خلال التعريف على الله ، والتحذير مما أعده الله لمن استكبر عن الدخول في دينه . فلنر المجموعة الأولى من المقطع الثاني .

المجموعة الأولى من المقطع الثاني

وتمتدُّ من الآية (٢٤) إلى نهاية الآية (٣٤) وهذه هي :

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ
كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ
(٢٥) قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ
إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٧) ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ
أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
(٢٨) فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)
* وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١)

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

التفسير :

﴿ **وإذا قيل هم** ﴾ أي لهؤلاء المستكبرين الذين لا يحبهم الله ﴿ **ماذا أنزل ربكم** ﴾ أي أيّ شيء أنزل ربكم ﴿ **قالوا أساطير الأولين** ﴾ أي أحاديث الأولين وأباطيلهم ، أي لم ينزل شيئاً ، إنما هذا الذي يُتلىٰ علينا أساطير الأولين ، والأساطير : جمع أسطورة ، وهي الخرافة ، هذا منطق المستكبرين قديماً ، وهو منطقهم حديثاً ، فالقلوب واحدة ، والمرض واحد ، وإنما يعبّر كل جيل عن الماهية بأسلوبه الخاص ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾ أي قالوا ذلك إضلالاً للناس ؛ فحملوا أوزار – أي أثقال – ضلالهم كاملة ، وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم ، وهو وزر الإضلال ، لأن المُضِل والمُضَل شريكان ، والذين أضلّوهم بغير علم هم الذين لا يعلمون أنّهم ضُلّال . قال مجاهد في الآية : أي يحملون أثقال ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً . قال ابن كثير : كما جاء في الحديث ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » ﴿ **ألا ساء ما يَزِرُون** ﴾ أي ألا ساء الحمل حملهم ﴿ **قد مَكَر الذين من قبلهم** ﴾ يعني أنهم فعلوا ما فعل هؤلاء من الاستكبار عن اتّباع الرسل والصدّ عن سبيل الله ، ونشر الدعايات الكاذبة عنه ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾

أي اجتثه من أصله وأبطله ، دلّ هذا على أنهم أقاموا بناءً على فلسفتهم الباطلة ، كما تقوم اليوم أحزاب الكفر والضلال على فلسفات كافرة ، كلها يُراد به الكيد للإسلام والمسلمين ، ولقد رأينا الكثير من هؤلاء كيف ينهار بناؤهم ، ويخرّعليهم مابنوه فيكون ضدّهم ويحطّمهم ﴿ **فخرَّ عليهم السقف من فوقهم** ﴾ أي سقط عليهم السقف الذي

بنوه ﴿ **وأتاهم العذاب** ﴾ أي في الدنيا ﴿ **من حيث لا يشعرون** ﴾ أي من حيث لا يحتسبون ، ولا يتوقعون ، ولقد رأيناها إذ سلط على أمثال هؤلاء في بلادنا أخلص أتباعهم فساموهم العذاب ، وهكذا ضرب الله مثلاً لهؤلاء الذين يحتالون كل حيلة في إضلال الناس ، وإحالتهم إلى الكفر بكل وسيلة ، وبعد أن بيّن ما يفعل بهم في الدنيا بيّن ما يفعل بهم في الآخرة ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم** ﴾ أي يذلّهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا ، فيظهر فضائحهم ، وما كانت تكنّه ضمائرهم وما كانوا يسرونه من المكر فيخزيهم على رؤوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرّعاً وموبّخاً ﴿ **ويقول أين شُركاءِيَ الذين كنتم تشاقُّون فيهم** ﴾ أي تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ، وتحاربون وتعادون في سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ ﴿ **قال الذين أوتوا العلم** ﴾ أي في ذلك المقام ، والذين أوتوا العلم هم الأنبياء والعلماء الربانيون الذين كانوا يدعون هؤلاء المستكبرين ويعظونهم ، فلا يلتفتون إليهم ويشاقّونهم ، هؤلاء السادة في الدنيا والآخرة ، المخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، هؤلاء يقولون في هذا المقام ﴿ **إن الخزي** ﴾ أي الفضيحة ﴿ **والسوء** ﴾ أي العذاب ﴿ **على الكافرين** ﴾ تغطيهم وتحيط بهم ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة** ﴾ أي تقبض أرواحهم ﴿ **ظالمي أنفسهم** ﴾ بالكفر بالله والإشراك به ﴿ **فألقوا السَّلَم** ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ **ماكُنَّا نعمل من سوء** ﴾ متبرئين من أفعالهم ، وهل هذا الإلقاء عند الاحتضار ، وهذا القول للملائكة عند قبض الروح ، أو هو حالهم يوم يبعثون ؟ قولان للعلماء ﴿ **بلىٰ** ﴾ أي كنتم تعملون السوء ﴿ **إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ وهل هذا من كلام الملائكة لهم عند قبض الروح ، أو من قول العلماء لهم في عرصات القيامة ، أو من كلام الله لهم رداً عليهم ؟ أقوال للعلماء ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ هذا يرجح أن الإلقاء والقول والردّ كان في عرصات القيامة وإن كان يحتمل قبل ذلك كما سنرى من تعليق ابن كثير على نهاية الآية ﴿ **فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ قال ابن كثير : (أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسَمُومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم) .

كلمة في السياق :

لاحظنا في مقدمة هذا المقطع أن كلمة المستكبرين وردت أكثر من مرة ﴿ **قلوبهم**

منكرة وهم مستكبرون ﴾ ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين** ﴾ وفي ما مرّ معنا من المجموعة انصب الكلام على هؤلاء المستكبرين وختم به ﴿ **فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ فالمجموعة التي نحن فيها ترتبط بما قبلها ارتباطاً تاماً كما رأينا ، كما أنها ترتبط بما بعدها ، ومجموعات هذا المقطع كلها مترابطة ، والمقطع كله مرتبط بما قبله وما بعده كما سنرى ، والآن لنتذكر شيئاً : قلنا : إن سورة النحل تفصل آية من سورة البقرة واقعة في حيّز قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ فسورة النحل تفصّل في حيز هذا الأمر وهذا النهي ، وقد لاحظنا أن هذا المقطع بآياته التي مرت معنا قد ركز على استنكار الاستكبار وهو الخُلق الأول من أخلاق الشيطان ، والخطوة الأولى من خطاه . والآن لاحظ شيئاً آخر :

قلنا : إن سورة النحل تفصِّل لتخدم قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ فلنلاحظ أن الآيات التي فسرناها من هذه المجموعة ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **فألقوا السلم** ﴾ إن السلم الذي فرض عليهم أن يدخلوا فيه كله فاستكبروا عنه ، سيعطونه كاملاً يوم القيامة ، ولكن لا ينفعهم ، فإذا لاحظنا ماورد من كلام عن الكبر الذي هو سبب خطوة الشيطان الأولى في رفضه للسجود لآدم ، ومجيء كلمة السَّلَم في هذا السياق ندرك أن اتجاهنا صحيح في العرض ، ولله الحمد والمنة ، ونعوذ به أن نقول على كتابه ماليس لنا به علم .

فائدة :

إن موضوع الكبر من أدقّ المواضيع المتغلغلة في السلوك البشري ، وقد فسّر الرسول ﷺ الكبر بأنه غمط الناس وبطر الحق ، فأي موقف للإنسان رفض فيه حقاً مع معرفة أنه حق ، أو انتقص خَلْق الله ، فإنه بذلك يكون سالكاً خطوات الشيطان ، ومن غَمْط الناس مانراه من استكبار الكثيرين عن الأخذ عن العلماء الربانيين أو طاعتهم أو التواضع لهم ، إذ إن الله عز وجل جعل التواضع لعباده تواضعاً له ، وهذا هو امتحانه الأكبر ، إن إبليس لم يستنكف عن عبادة الله ، ولكن عندما كلفه ربه بالسجود لمخلوق مثله ظهر كبره وكفره ، وكثيرون من الخلق - تجدهم - على غاية من العبادة ، ولكنهم يأنفون من طاعة غيرهم ومن اتباعه ، ولو كان في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين ، ومن ثم نجد المسلمين لا يلتقون إلا قليلا على عمل جماعي منظم لصعوبة انقياد بعضهم لبعض ،

مع أنهم يعطون أعداء الله من الانقياد- أحياناً - مالا يعطونه لرسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وكل ذلك مظهر من مظاهر الكبر ، واتباع لخطوات الشيطان ، إلا من عصم ربي وحفظ ممن يحررون مواقفهم فيمنعهم من الاتباع أو الانقياد ، أو العمل المشترك مانع شرعي محرر ، ولنعد إلى تفسير المجموعة :

فبعد أن بيّن الله عز وجل موقف المستكبرين مما أنزل ، وعقوبتهم الدنيوية والأخروية على هذا الموقف يخبرنا الله عز وجل عن موقف أوليائه ممّا أنزل وما يكافؤهم به في الدنيا والآخرة : ﴿ **وقيل للذين اتقوا** ﴾ الشرك واتباع خطوات الشيطان ﴿ **ماذا أنزل ربكم** ﴾ أيّ شيء أنزل ربكم ﴿ **قالوا خيراً** ﴾ أي قالوا : أنزل خيراً أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ، هذا هو موقفهم مما أنزل الله : ثناء عليه ؛ فاستحقوا خيري الدنيا والآخرة ، ومن ثم أخبر الله عما يعدهم به فقال :﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة** ﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا ، أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة ﴿ **ولَدارُ الآخرة خير** ﴾ أخبر بأن دار الآخرة خير أي : من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، وإحسان العبد إنما يكون بالإيمان والعمل الصالح ، وقد عَرَّف الله المحسنين في أكثر من مكان في كتابه ، وفي الفوائد كلام . والحسنة التي يعطيها الله مكافأة في الدنيا قد تكون أمناً وطمأنينة ، وقد تكون نصراً وفوزاً ،وقد تكون كل ذلك مع غيره ، ومن ثم نكّرها فقال (**حسنة**) ثم وصف الدار الآخرة فقال : ﴿ **ولَنِعْم دار المتقين جنات عدن** ﴾ فجنات عدن هي دار المتقين ،والعدن : الإقامة ﴿ **يدخُلونها** ﴾ فلنحرص على التحقق بالتقوى لندخلها ﴿ **تجري من تحتها الأنهار** ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿ **لهم فيها ما يشاؤون** ﴾ قال ابن كثير : وفي الحديث : «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم ، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم ، حتى إن منهم لمن يقول : أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك» . ﴿ **كذلك يجزي الله المتقين** ﴾ أي مثل هذا الجزاء يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله ، ثم أخبر تعالى عن حال المتقين عند الاحتضار أنهم طيبون ، أي مخلَصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة فقال :﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين** ﴾ أي طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر ﴿ **يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ أي بعملكم ، فالملائكة تسلّم عليهم وتبشرهم بالجنة ، وقد مر معنا من قبل أن نسمة المؤمن تدخل الجنة بعد الموت ،والدخول الكامل بالجسم والروح إنما يكون بعد البعث .

ثم ختم الله هذه المجموعة بهاتين الآيتين : ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ۞ فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ وقبل أن نفسرهما نحب أن نذكر كلمة حول السياق .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة النحل هو قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ . الآتي في حيز قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم ...**﴾ .

وقد رأينا أن المجموعة التي بين أيدينا حدثتنا عن مآل الذين يرفضون الدخول في السلم في الدنيا ، وعن مآل الذين يدخلون فيه بقبولهم كتابه . ورأينا أن الذين يرفضون كتاب الله هم المستكبرون الذين يتبعون خطوات الشيطان ، ثم تأتي هاتان الآيتان وفي الآية الأولى منهما شبه بآية البقرة لدرجة اتحاد بعض الألفاظ لتختم بهما هذه المجموعة ، فهذا دليل كذلك على أن اتجاهنا في فهمنا للوحدة القرآنية ، والسياق العام صحيح والحمد لله .

فلنفسر الآيتين : ﴿ **هل ينظرون** ﴾ أي هؤلاء المستكبرون المشركون ، نلاحظ أن الخطاب عاد كما بدأ في أول المجموعة فكما بدأت المجموعة بخطاب المستكبرين ، بضمير الغائب : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا** ... ﴾ فالآن يتجه الخطاب إليهم بضمير الغائب ﴿ **إلا أن تأتيهم الملائكة** ﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المستكبرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم فيكون حالهم كما وصف الله منذ قليل ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم** ... ﴾ ومن ثم ندرك أن ما ورد من قبل إنما هو تفصيل يخدم هذه الآية . ﴿ **أو يأتي أمر ربك** ﴾ قال ابن كثير في تفسيرها : أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال ، ويشهد له أول آية في السورة ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل ذلك الفعل ﴿ **فعل الذين من قبلهم** ﴾ فتمادوا في الشرك والاستكبار والمكر حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ **وما ظلمهم الله** ﴾ أي فيما أذاقهم لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله ، وإنزال كتبه ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله ﴿ **فأصابهم سيئات ما عملوا** ﴾ أي فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ﴿ **وحاق بهم ما**

كانوا به يستهزؤون ﴾ أي وأحاط بهم جزاء استهزائهم .

كلمة في السياق :

رأينا أن مقدمة هذا المقطع هي امتداد في معانيها للمقطع الأول ، ورأينا ما بين المقدمة والمجموعة الأولى من ترابط . والآن لنرى ما بين المجموعة التي مرت معنا ، وما بين المقطع الأول من ترابط :

لاشك أنك لحظت الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة** .... ﴾ وبين قوله تعالى في نفس المجموعة ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة** ... ﴾ والآن تذكر الصلة بين أول السورة التي هي بداية المقطع الأول : ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ وبين آية ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك** ﴾ . فإذا تذكرت هذه الصلة تعرف الارتباط بين المجموعة الثانية ، والمقطع الأول ، ثم إذا تذكرت أن قوله تعالى ﴿ **فلا تستعجلوه** ﴾ فيه إشارة إلى استعجالهم العذاب من باب الاستهزاء ، وختم هذه المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون** ﴾ تدرك الصلة بشكل أعمق بين هذه المجموعة والمقطع الذي سبقها ، وكل ذلك ضمن السياق القرآني العام.

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين** ﴾ أقول : إن كلمات الإحسان والتقوى معرّفتان كثيراً في القرآن الكريم . وفي كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) . تعريف دقيق من خلال النصوص القرآنية والحديثية لموضوعي التقوى والإحسان ، ولكون هذين المقامين قد علّق الله على التحقق فيهما ما علّق ، فإنه من المستحسن أن يرجع الإنسان إلى ذلك الكتاب ، وباختصار فإن الإحسان : فعل الأحسن في مصطلح الشرع ، مع الإخلاص لله فيه ، في حالة شعورية عليا يراقب فيها الإنسان الله عز وجل . قال عليه الصلاة والسلام لما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وأما التقوى : فهي مَلَكة في القلب تتكوّن من سلوك طريق معين ، وتنتج إذا وجدت آثار معينة ، وعلامتها معاني محددة ، وقد جمعنا في موضوعها صفحات كثيرة في كتابنا المشار إليه .

٢ - هناك معارك عنيفة تدور حول تأويل آيات وأحاديث الصفات ما بين المعتزلة

والأشاعرة ، وما بين الأشاعرة وبعض الحنابلة والمحدثين ، وهناك معارك عنيفة جداً بين كل المسلمين وفرق الباطنية في التأويل الذي يشتطون فيه حتى لا يبقوا كلمة قرآنية في محلها .

والملاحظ أن أشد الناس حرباً للتأويل يضطرون لتأويل بعض النصوص بصرفها عن ظاهرها الحرفي إلى غيره بسبب من الأسباب ، وإذن فلابد من تأويل ولكن إذا توفرت شروط معينة ، كأن يكون هناك ضرورة للتأويل ، وكأن يكون المتأول من الراسخين في العلم ، وكأن يكون التأويل بما لا يجعل النصوص تتناقض ، وكأن يكون ضمن ما تتحمله لغة العرب ، نقول هذا بمناسبة مرور آية ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك** ﴾ فهذه الآية وسورتها تفصلان قوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة** ﴾ فالأشاعرة يؤولون قوله تعالى ﴿ **إلا أن يأتيهم الله** ﴾ بتقدير كلمة الأمر هنا ، أي إلا أن يأتيهم أمر الله في ظلل من الغمام والملائكة ، وقد أخذوا ذلك من آية النحل التي ذكرت كلمة الأمر ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك** ﴾ غير أن الآخرين يردون بأنّ سورة البقرة استعملت حرف العطف الواو الذي يقتضي الجمع وههنا استعمل حرف العطف (أو) الذي يفيد مجيء أحد المذكورين، مما يشير إلى أن المقامين بينهما شيء من الاختلاف ، وأنا أميل في هذه الأمور إلى ترك التأويل احتياطاً ، مع مراعاة جانب التنزيه كفريضة واجبة .

ولننتقل الآن إلى المجموعة الثانية في هذا المقطع الذي هو المقطع الثاني : ولنقدم لها بكلمة

رأينا أن مقدمة هذا المقطع قد انتهت بقوله تعالى : ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين** ﴾ . ثم رأينا المجموعة الأولى تقول : ﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾ أي للمستكبرين ﴿ **ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾

والآن تأتي المجموعة الثانية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أشركوا** ﴾ أي المستكبرون أنفسهم . وسنرى أن كل مجموعة من مجموعات هذا المقطع مبدوءة إما بقَوْلَة للمستكبرين أو بموقف . فالصلة إذن بين مقدمة المقطع ، وبين كل مجموعات المقطع على غاية الوضوح ، وعلامة البداية لكل مجموعة واضحة ، وعلامة البداية والنهاية للمقطع كله واضحة كما سنرى ، وهكذا فإن المجموعة الثانية المؤلفة من ثلاث آيات تتضمن قولًا للمشركين ورداً عليه :

المجموعة الثانية من مجموعات المقطع الثاني

وتمتد من الآية (٣٥) إلى نهاية الآية (٣٧) وهذه هي :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

التفسير :

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا من دونه من شيء ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ممّا لم ينزل به سلطاناً ، وهذا الكلام يقوله واحد من ثلاثة : إما إنسان يريد أن يحمل الله مسؤولية أفعاله ليبرىء نفسه من أي فعل ؛ أو إنسان يريد أن يحتج بمشيئة الله على جواز ما يفعله ، فكون الله شاء يعني عنده أنّه أباح ، أو إنسان يقول هذا الكلام استهزاءً بالمؤمنين الذين يؤمنون بأن كل شيء بمشيئة الله فهؤلاء يستهزؤون بالمؤمنين ، مدّعين أن ما يفعلونه صحيح لأنه مشيئة الله ، وهي اتجاهات خاطئة لأن مشيئة الله لاتنافي مسؤولية الإنسان ، ولأن هناك فارقاً بين مشيئة الله ورضاه ، فكل شيء بمشيئته ، ولكن ليس كل شيء بأمره ، وهو موضوع سنتحدث عنه في الفوائد ، وقد ردّ الله عليهم أبلغ ردّ بأكثر من حجة :

« الرَّدُّ الأول : ﴿ **كذلك فعل الذين من قبلهم** ﴾ أي كذّبوا الرسل وحرموا الحلال وقالوا مثل هذه الأقوال فماذا حدث لهم ؟ لقد عذّبهم الله غير ظالم لهم ، كما قال تعالى في الآيتين السابقتين : ﴿ **وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** « **فأصابهم سيئات ما عملوا** ... ﴾ فتعذيب من قبلهم الذين قالوا مثل قولهم دليل على بطلان أقوالهم التي عرضناها لأن الله لا يظلم أحداً .

الردُّ الثاني : ﴿ **فهل على الرُّسُل إلا البلاغ المبين** ﴾ أي ليس على الرسل إلا أن يبلغوا الحق بمنتهى البيان الذي به تقوم الحجة ، وهذه الكلمة هي الرد الثاني على اتجاهاتهم ، فإذا كان صحيحاً ماذهبوا إليه فلمَ يبعث الله الرسل ؟ ويأمرهم بالبلاغ ؟ ثمّ قرّر الله عزّ وجلّ أنّه قد بعث في كل أمة رسلاً من أجل التوحيد وترك اتباع الطاغوت ، فكيف يكون هذا فعله ثمّ يدّعون أنّ في الشرك واتباع الشيطان رضاه . ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله** ﴾ أي وَحِّدوه ﴿ **واجتنبوا الطاغوت** ﴾ أي الشيطان ، أي اجتنبوا طاعته واتباع خطواته ، ثم وضع الله مسألة المشيئة في إطارها الصحيح فقال : ﴿ **فمنهم من هدى الله** ﴾ لاختياره الهدى واستحقاقه له بدليل نهاية الآية ﴿ **ومنهم من حَقَّت عليه الضلالة** ﴾ أي لزمته لاختياره لها واستحقاقه ذلك ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِّبين** ﴾ حيث أهلكهم الله وأخلى ديارهم عنهم ، فعقوبته لهم دليل على إنكاره عليهم ؛ وإلا لم يعاقبهم؟ لا كما زعموه في فهمهم لموضوع المشيئة . صحيح أن كل شيء بمشيئة الله ، ولكن هذا لا ينفي اختيار الإنسان ، ولذلك سمّى الله هؤلاء بالمكذّبين ، وكلمة مكذّب اسم فاعل ، لقد اختار هؤلاء طريق الضلال فأضلّهم الله قال ابن كثير : (فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على أَلْسِنَةِ رُسله ، وأما مشيئته الكونية — وهي تمكينهم من ذلك قدراً — فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة) ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم ﴿ **إن تحرص على هداهم فإنّ الله لا يهدي من يُضل** ﴾ أي لا يهدي من اختار الضلال ، يدل على ذلك القراءة المتواترة التي تفتح ياء يضل ، أو لايهدي من أضل في مواقفه غيره ، أو لايهدي من استحق الإضلال ، فإن مجموع القراءات الواردة في هذا النص تحتمل مجموعة الأوجه ، وما من وجه إلا وهو يعبر عن معنى صحيح .

لهذا الموضوع ﴿ **وما لهم من ناصرين**﴾ يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم ، ويدفعون عذابه الذي أعدّ لهم، وينقذونهم من عذابه ووثاقه وهكذا انتهت هذه المجموعة .

فوائد :

إن من أدق مواضيع المعرفة معرفة شمول الإرادة الإلهية ، ومعرفة أن الإنسان مختار ، وأنه لاتنافي بين عموم الإرادة الإلهية واختيار الإنسان ، وأن صفة الإرادة لله غير أوامره وغير رضاه ، فالله يأمر ولايرضى إلا عما يأمر به ، فهناك تلازم بين الرضا والأمر ، وليس هناك تلازم بين الرضى والإرادة ، إن كل شيء بإرادة الله ، وهذا لا يتنافى مع اختيار الإنسان ؛ لأن قدرة الله على وفق إرادته ، وإرادته على وفق علمه ، والعلم كاشف لا مجبر . فالله عز وجل علم أزلاً أن فلاناً سيفعل ، وعلمه ليس مجبراً ، فأراد ذلك ، فأبرزه بقدرته ، فكونه أراده وأبرزه بقدرته لا يعني أنه أجبر ، لأنه لو لم يرده لم يكن ، ولو لم يبرزه لم يوجد فهو وحده الخالق ، على أن ما ذكرناه من ترتيب الإرادة على العلم إنما هو لمجرد الإفهام ، وليس هناك من ترتيب في الأزل ، فالله علم أزلاً وأراد أزلاً .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة النحل هو الآية التي تنذر الكافرين في سياق الأمر بالدخول في الإسلام ، وترك اتباع خطوات الشيطان ، وفي هذه المجموعة التي مَرّت معنا نسف لحجة من حجج الكافرين ، وبيان أن كل الرسل قد بعثوا بعبادة الله واجتناب الطاغوت ، والأمر بالعبادة دعوة إلى الدخول في السلم ، والأمر باجتناب الطاغوت ، نهي عن طاعة الشيطان واتباع خطواته ، وهكذا أدّت هذه المجموعة دورها ضمن سياق السورة ، وقد رأينا في مقدمة الكلام عنها محلها الخاص ضمن السياق الخاص لسورة النحل ، والآن تأتي مجموعة ثالثة في هذا المقطع ، وتبدأ بذكر موقف للكافرين ، وهو : ﴿ **وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم لا يبعث الله من يموت** ... ﴾ ثمّ تردّ عليه ، فالمجموعة الجديدة تنسجم مع سياق السورة ، فما دامت السورة تفصّل الآية التي تنذر الكافرين باليوم الآخر إن لم يدخلوا في الإسلام كله ، فإنّ ذلك يقتضي كلاماً عن هذا اليوم الذي ينكره الكافرون ، لقد كانت مقدمة هذا المقطع حديثاً عن المستكبرين . ثم جاءت المجموعة الأولى فذكرت موقفاً لهم وردَّت عليه . ثم جاءت المجموعة الثانية فذكرت موقفاً وردَّت عليه ، ثم تأتي المجموعة الثالثة الآن فتذكر موقفاً وترد عليه . وهذه هي المجموعة وتتألف من خمس آيات :

المجموعة الثالثة

وتمتدُّ من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (٤٢) وهذه هي :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ : (ولقد كانت قضية البعث دائماً هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله رسله للناس ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب .

وهؤلاء المشركون من قريش أقسموا بالله جَهْد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور . يرون هذا البعث أمراً عسيراً بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات .

وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى .. وغفلوا عن القدرة الإلهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم . وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئاً ، فيكفي أن تتوجه الإرادة إلى كون الشيء ليكون .

وغفلوا كذلك عن حكمة الله في البعث . وهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه . فالناس

يختلفون حول الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر . وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه في هذه الأرض لأن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل ، وألا يحل بهم عذابه الفاصل في هذه الديار ، حتى يتم الجزاء في الآخرة ويبلغ كل أمر تمامه هناك .

والسياق يرد على تلك المقولة الكافرة ، ويكشف ما يحيط بها في نفوس القوم من شبهات فيبدأ بالتقرير : ﴿ **بلى . وعداً عليه حقاً** ﴾ ومتى وعد الله فقد كان ما وعد به لا يتخلف بحال من الأحوال ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ حقيقة وعد الله .

وللأمر حكمته : ﴿ **ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** ﴾ فيما ادعوا أنهم على الهدى ؛ وفيما زعموا من كذب الرسل ، ومن نفي الآخرة ؛ وفيما كانوا فيه من اعتقاد ومن فساد .

والأمر بعد ذلك هَيِّن ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون** ﴾ والبعث شيء من هذه الأشياء يتم حَالَماً تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء) .

التفسير :

﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت** ﴾ قال النسفي : معطوف على ﴿ **وقال الذين أشركوا** ﴾ وهذا يؤكد ماذهبنا إليه من كون هذه بداية مجموعة وتلك بداية مجموعة والمعنى : أنهم حلفوا فأقسموا بالله جَهد أيمانهم ، أي اجتهدوا في الحلف وغلّظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت ، فقد استبعدوا ذلك ، وكذّبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك ، وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم ﴿ **بلى** ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿ **وَعْداً عليه حقاً** ﴾ أي لابد منه لأنه لا يخلف الميعاد ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أنهم يبعثون أو يجهلون ، فلجهلهم يخالفون الرسل ، ويعتون في الكفر ، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿ **ليبيِّن لهم** ﴾ أي للمكلفين ﴿ **الذي يختلفون فيه** ﴾ من كل شيء ﴿ **وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** ﴾ في أيمانهم وأقسامهم ومواقفهم ، هذه هي الحكمة الأولى للبعث التي يسجلها الرد الأول على المنكرين ، ثم يقول تعالى : ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لايعجزه شيء في الأرض ولافي السماء وإنما قوله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه ، فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون ، إنّه تعالى لايحتاج إلى تأكيد

فيما يأمربه فإنه تعالى لايمانَع ولا يخالَف ، والمعنى أن إيجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة ، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من بعض المقدورات ؟ ثم يكمل الله الرد فيقول : ﴿ **والذين هاجروا في الله** ﴾ أي في حقه ولوجهه ﴿ **من بعد ما ظُلموا** ﴾ فأوذوا في الله ، ومنعوا من عبادة الله وحده ﴿ **لنبوِّئنهم في الدنيا حسنة** ﴾ أي تبوئة حسنة مأوى ورزقاً ﴿ **ولأجر الآخرة أكبر** ﴾ مما أعطوا في الدنيا ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ أي لو يعلم الذين كفروا لعملوا لذلك ، ولرغبوا في الدين ، ولكنهم جهلة ، ثم وصف الذين يستأهلون هذا المقام فقال : ﴿ **الذين صبروا** ﴾ على مفارقة الأوطان وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ أي يفوضون الأمر إلى ربهم ، ويرضون بما أصابهم في دين الله ، اجتمع لهم الصبر والتوكل ، فأحسن الله لهم العاقبة في الدنيا والآخرة . وبهذا تم الرد الأول ، والسؤال الآن ما علاقة الكلام عن الصابرين المتوكلين المهاجرين بالرد ؟ الجواب إن حكمة البعث هي أن يعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فينالوا جزاءهم ، وكذلك أن ينال من تحمّل في دين الله جزاءه الكريم من الله ، ومن ثَم كانت الآيتان الأخيرتان جزءاً من الرد ، إلا أنهما عُرضتا هذا العرض ليحملا مع كونهما ردا معنى مستقلاً هو التهييج على الهجرة ، والصبر ، والتوكل .

فائدة :

مما قاله ابن كثير بمناسبة الآيتين الأخيرتين :

(يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان ، رجاء ثواب الله وجزائه . ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم : عثمان بن عفان ، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ، ابن عم الرسول ﷺ ، وأبو سلمة بن عبد الأسود في جماعة قريب من ثمانين ، ما بين رجل وامرأة ، صدّيق وصديقة ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، فوعدهم الله تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ **لنبوّئنهم في الدنيا حسنة** ﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة : المدينة . وقيل : الرزق الطيب قاله مجاهد ، ولا منافاة بين القولين ، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوّضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئاً عوّضه الله بما هو

خير له منه ، وكذلك وقع ؛ فإنهم مكّن الله لهم في البلاد وحكّمهم على رقاب العباد ، فصاروا أمراء حكاماً ، وكل منهم للمتقين إماماً ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا ، فقال : ﴿ **ولأجر الآخرة أكبر** ﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادّخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ، ولهذا قال هشيم ، عن العوام ، عمن حدثه : أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادّخر لك في الآخرة أفضل ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿**لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿**الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون**﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

ولننتقل إلى المجموعة الرابعة ، وتتألف من ثمان آيات .

المجموعة الرابعة

وتمتدُّ من الآية (٤٣) إلى نهاية الآية (٥٠) وهذه هي :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ
ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى
تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ
وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩

ملاحظة :

لاحظنا أن كل مجموعة من المجموعات السابقة تسجل موقفاً للكافرين وترد عليه ، وفي كل مرة كانت تذكر الموقف بشكل صريح ، ثم ترد عليه ، أما هذه المجموعة فلم تسجل الموقف صراحة بل ردت عليه ، ومن خلال الرد عرفنا هذا الموقف ، وهذا الموقف هو ما ذكره ابن كثير فقال :

قال الضحاك عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ أنكر العرب ذلك أو من أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله ﴿ **أكان للناس عجباً**

أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ الآية (يونس : ٢) وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ يعني سلوا أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ (يوسف : ١٠٩) ليسوا من أهل السماء كما قلتم » .

هذا هو الموقف الذي ترد عليه الآيات ، وهكذا نجد أن مجموعات المقطع - وإن كانت تسجيلاً لمواقف الكافرين ورداً عليها ، إلا أنها - تسجل هذه المواقف بأساليب متنوعة .

التفسير :

﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم** ﴾ فهي سنة الله إذن في أن يرسل رجالاً من البشر ﴿ **فاسألوا أهل الذكر** ﴾ أي أهل الكتاب ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً ، وسمّي الكتاب ذكراً لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿ **إن كنتم لا تعلمون** ﴾ أن هذه سنة الله في هذه القضية ﴿ **بالبينات والزبر** ﴾ البينات : المعجزات : والزبر : الكتب . والمعنى : أرسلوا بالمعجزات والكتب ، وهما علامتان على الرسالة ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر** ﴾ أي القرآن وهو كتاب ومعجزة بآن واحد فاجتمعت لك به علامتا الرسالة ﴿ **لتبيّن للناس ما نُزِّل إليهم** ﴾ من ربهم لعلمك بما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه ، واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق ، وسيد ولد آدم فتفصّل لهم ما أجمل ، وتبين لهم ما أشكل ﴿ **ولعلهم يتفكرون** ﴾ في تنبيهاته فينتبهوا ، دل هذا على أن مما ينبغي أن يحرص عليه قارىء القرآن التفكر ، لأنه بذلك يكون قد حقق حكمة من حكم إنزال هذا القرآن ، وبعد أن ردّ الله شبهتهم ، وأقام عليهم الحجة ، هدّدهم واصفاً إياهم بأنهم يمكرون السيئات بموقفهم هذا في إثارة الشبهة حول الرسول ﷺ والقرآن :

﴿ **أفأمِنَ الذين مكروا السيئات** ﴾ أي مكروا المكرات السيئات في محاربة الله ورسوله وكتابه ، بمواقفهم وأقوالهم ، ودعاء الناس إلى ذلك ، وحملهم الناس على هذا المكر ﴿ **أن يخسف الله بهم الأرض** ﴾ كما فعل بمن تقدمهم ﴿ **أويأتيهم العذاب من حيث لايشعرون** ﴾ أي بغتة من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم ﴿ **أو يأخذهم في تَقَلُّبهم** ﴾ أي في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهية في

ليلهم ونهارهم ﴿ **فما هم بمعجزين** ﴾ أي فإنهم لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه ، ﴿ **أو يأخذهم على تخوُّف** ﴾ أي متخوفين وهو أن يهلك أحداً قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون متوقعون وهو خلاف حالة ﴿ **من حيث لا يشعرون** ﴾ . قال ابن كثير في تفسيرها : أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ، ثم قال تعالى : ﴿ **فإن ربكم لرؤوف رحيم** ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، فهو يحلم عنكم مع استحقاقكم ، والمعنى : أنه إذا لم يأخذكم مع ما فيكم فلرأفته ورحمته ، فكفّوا إذن عن مكركم السيئات ، وآمنوا برسول الله ، وادخلوا في دينه ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، وبعد أن أنذرهم لفت نظرهم إلى خضوع الأشياء كلها له ، وفي ذلك ترغيب لهم أن يوافقوا الأشياء فلا يشذوا عنها ، وأن يشاركوا الملأ الأعلى بكمالاته ﴿ **أوَ لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يَتَفَيَّؤُ ظلاله** ﴾ أي ترجع ظلاله من موضع إلى موضع ﴿ **عن اليمين والشمائل** ﴾ أي ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشياً ﴿ **سُجَّداً لله** ﴾ أي هذه الظلال خاضعة له تعالى : ﴿ **وهم داخرون** ﴾ أي صاغرون ، أي الأشياء نفسها خاضعة صاغرة ، كما أن ظلالها ساجدة ، والمعنى : أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها ، بحيث ترجع الظلال من جانب ، إلى جانب منقادة لله تعالى ، غير ممتنعة عليه فيما سخّرها له من التفيؤ ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً صاغرة منقادة لأفعال الله فيها ، غير ممتنعة ، أو لم يروا ذلك ؟ أي : أولم يرواخضوع الأشياء كلها لله فيخضعوا ويسلموا ﴿ **ولله يسجد ما في السمٰوات وما في الأرض من دابة والملائكة** ﴾ فملائكة السمٰوات والأرض تسجد ، ودواب الأرض والسمٰوات ساجدة ﴿ **وهم لا يستكبرون** ﴾ عن السجود له تعالى والخضوع ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾ فهم خاضعون خائفون ﴿ **ويفعلون ما يُؤمرون** ﴾ فهم مطيعون .

فإذا كانت الأشياء كلها خاضعة ساجدة ، وإذا كان الملائكة ساجدين خائفين مطيعين ، فما بال هؤلاء لا يسجدون ولا يخافون ولا يطيعون أي فما لهم لا يدخلون في السلم كافة .

كلمة في السياق :

١ - سجلت هذه المجموعة موقفاً للمستكبرين، وردت عليه، ووعظتهم، ولفتت نظرهم وهذا يذكّرنا بمقدمة المقطع الثاني، ويذكّرنا بأن هذه المجموعة استمرار لمجموعاته.

٢ - جاء في أول السورة قوله تعالى: ﴿**ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**﴾ .. وقد جاءت هذه المجموعة لتناقش استغراب من استغرب أن يوحي الله إلى بشر، وتأتي المجموعة التالية مبدوءة بقوله تعالى: ﴿**وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين**﴾ فالمجموعتان السابقة واللاحقة إذن مرتبطتان بالمقطع الأول أيّ رباط، ارتباط التوحيد بالرسالة، وارتباط التوحيد باليوم الآخر، كما ورد في مقدمة هذا المقطع: ﴿**إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون**﴾ فالمجموعتان السابقة واللاحقة مرتبطتان بالمجموعة قبلهما التي ردَّت على منكري اليوم الآخر، والمجموعات الثلاث مرتبطة بمقدمة المقطع أيّ ارتباط، والمقطع الثاني مرتبط بالمقطع الأول بروابط كثيرة، والمجموعات الثلاث تخدم السياق الكلي للقرآن، فتخدم الآية التي هي محور السورة في حيزها من سورة البقرة، فتعمّق معنى الإنذار باليوم الآخر، وتعمّق معنى الدخول في السلم كافة، وكل ذلك في تداخل لا يحيط بجماله وكماله إلا الله، وقبل أن نذكر فوائد هذه المجموعة نذكر المجموعة الخامسة، ونفسرها للارتباط الكامل بينها وبين المجموعة السابقة، حتى لتكادان أن تكونا مجموعة واحدة: يتقرر في أولاها الوحي والرسالة، ويتقرر في الثانية التوحيد، ثمّ نذكر بعد ذلك بعض الفوائد المتعلقة بالمجموعتين.

المجموعة الخامسة :

وتتألف من خمس آيات ، وتمتد من الآية (٥١) إلى نهاية الآية (٥٥) وهذه هي :

* وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾

ملاحظة :

رأينا أن كل مجموعة في هذا المقطع تسجل موقفاً وتردّ عليه ، إلا أنه في المجموعة الرابعة ردت على موقف دون تسجيله فعلم من الرد ، وهذه المجموعة تقرر موضوعاً هو تصحيح لأفظع انحرافات المستكبرين وهو الشرك ، ونلاحظ أن هذا التصحيح جاء عقب لفت النظر في آخر آيات المجموعة الرابعة إلى خضوع الأشياء كلها لله .

التفسير :

﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين** ﴾ بإعطاء غير الله خصائص الإلهية من عبادة أو طاعة استقلالية أو حاكمية ﴿ **إنما هو إله واحد** ﴾ فلا تنبغي العبادة بمعانيها كلها إلا له ، فله السجود ، وله الخضوع ، وله الطاعة ، وله الانقياد ؛ لأنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿ **فإياي فارهبون** ﴾ أي فخافوني وحدي ، ومن التركيب نفهم أنه لا يجوز أن يكون في قلب الإنسان رهبة إلا من الله ، وإذا وجدت بحكم الجبلة فعليه أن يدافعها ﴿ **وله ما في السموات والأرض وله الدين** ﴾ أي الطاعة ﴿ **واصباً** ﴾ أي واجباً ثابتاً دائماً خالصاً ، وإذ كان الأمر كذلك ، له ملك كل شيء ، وعلى كل

شيء طاعته . فكيف يُتقى غيره ! ومن ثم قال : ﴿ **أفغير الله تتقون** ﴾ أي تخافون وتحذرون ، وتخافون وقاية أنفسكم منه ، ثم أخبر تعالى أن ما بالعباد من رزق ونعمة ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه ثم قال : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ أي وأيّ شيء اتصل بكم من نعمة : عافية ، وغنى ، وخصب ، فهو من الله فكيف تشركون معه غيره ! ﴿ **ثم إذا مسّكم الضُّرُّ** ﴾ من مرض وفقر ، وجدب ، وخذلان ، ومصائب وخوف ، وغير ذلك ﴿ **فإليه تجأرون** ﴾ أي ترفعون أصواتكم إليه بالدعاء والاستغاثة ، أي فما تتضرّعون إلا إليه ؛ لعلمكم الفطري أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألونه ، وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به ﴿ **ثم إذا كشف الضُّرَّ عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون** ﴾ يوحّدون في الشدائد ، ويشركون في الرخاء ، أقام الحجة على التوحيد أولاً بالوحي ، ثم بخضوع كل شيء له إذ ما من شيء يشذ عن النظام الذي خلقه ، ثم بكون النعم كلها منه ، فهو الذي أوجدها وسخرها وأنعم بها ، ثم بالالتجاء إليه وحده عند الشدة لما ركبت عليه الفطرة البشرية ، وهكذا ردّت هذه المجموعة الشرك . وعرّفت التوحيد ، ثم ختمت بقوله تعالى ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ كأن هذا جواب سؤال هو : ما غرض هؤلاء من الشرك ؟

الجواب : هو كفران النعمة التي آتاهم الله إياها ، فهم يشركون لمجرد الكفران ، تذكر أوائل السورة ﴿ **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ وبعد أن بين الله غرضهم الخبيث المريض من الشرك أوعدهم فقال : ﴿ **فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ أي اعملوا ما شئتم ، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ، فسوف تعلمون عاقبة ذلك ، بعد أن أقام عليهم الحجّة ، وبيّن سبب شركهم الذي لا يقبله عقل سليم ، هدّدهم هذا التهديد الشديد فمن لم تؤثر فيه الحجة فلعل الوعيد يفيده .

قال صاحب الظلال :(هذا النموذج الذي يرسمه التعبير هنا : ﴿ **ثم إذا مسّكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون** ﴾ .. نموذج متكرر في البشرية . ففي الضيق تتوجه القلوب إلى الله ، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه . وفي الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألواناً من الزيغ تبدو في الشرك به وتبدو كذلك في صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله .

ولكن يلجأ إلى بعض مخاليقه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة ؛ بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله ، أو بغير هذه الحجة في بعض الأحيان . كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من مرض أو شدة أو كرب ..)

فوائد المجموعتين :

١ - من قوله تعالى : ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانُزّل إليهم**﴾ نفهم أن من مهمات رسول الله ﷺ تبيان الكتاب ، ومن ثَم فإن كل أفعاله ﷺ وأقواله وأحواله بيان للكتاب ، حتى إن المتتبِّع ليستطيع أن يرجع كل ما أثر في السنة عنه عليه الصلاةوالسلام إلى موضوع البيان ، ومن ثم فإن الكتاب لايفهم بدون السنة ، فنحن لا نعرف كيف ننفّذ الكثير من أوامر الله ، كأوامره بالصلاة والزكاة والصوم والحج ، ولا نستطيع أن نفهم الحدود في الكثير من النواهي ، كالربا وأكل أموال الناس بالباطل ، وغير ذلك إلا من خلال السنة ، فهي الشرح العملي والنظري للكتاب ، فهناك تلازم كامل بين الكتاب والسنة ، فمن لم يعرف السنة لا يستطيع أن يفهم الكتاب ، ومن ثم فإننا جعلنا هذه السلسلة (الأساس في المنهج) تشتمل على ثلاثة أقسام الأساس في التفسير والأساس في السنة وفقهها والأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص . وما يصاب المسلمون بشيء أفظع من جهل بالكتاب والسنّة إنك لا تعرف حدود وقيود ما أمر الله به ونهى ، ولا تعرف وضع الأمور في مواضعها ، إنْ في التصور أو في السلوك ، إلا من خلال السنة الشارحة للكتاب ، ومن ثَم تسمىٰ السنة في القرآن بالحكمة ، حتى إن الشافعي يرى أن كل حكمة مقرونة بالكتاب في القرآن إنما يُراد بها السنة ، فلا تقف همتك دون استيعاب الكتاب والسنة

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿**فإن ربكم لرؤوف رحيم**﴾ يذكر ابن كثير حديثين في الصحيحين :

أ - « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ب - « إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿**وكذلك أخذ**

ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ .

٣- قال الله تعالى: ﴿**ولله يسجد مافي السموٰت وما في الأرض من دابة والملائكة**﴾ يفهم من ظاهر الآية أن في السمٰوات دواب ، كما في الأرض دواب ، وفي عصرنا يزداد الكلام عن احتمالات وجود حياة في أجرام كجرم أرضنا ، ونحن الآن لا نستطيع أن نجزم بشيء ، ولكن على فرض اكتشاف جرم فيه حياة فإن الآية يمكن أن تحمل عليه ، أما إذا لم يتبين مثل ذلك فالآية تحمل على أن المذكور فيها يراد به دواب الجنة والله أعلم .

ولننتقل إلى المجموعة السادسة في هذا المقطع وهي المجموعة الأخيرة ، وهي كسابقاتها تسجل مواقف للمستكبرين ، وتردّ عليها ، وبهذه المجموعة ينتهي هذا المقطع الذي يتألف من مقدمة وست مجموعات ، فإذا اعتبرنا المقدمة مجموعة يكون المقطع مؤلفاً من سبع مجموعات .

المجموعة السادسة

وتمتد من الآية (٥٦) إلى نهاية الآية (٦٤) وهذه هي :

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ
﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم
بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ
مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ
مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ
وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ
لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

التفسير :

قال صاحب الظلال : (﴿ **ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم** ﴾ فإذا هم يحرّمون على أنفسهم بعض الأنعام لا يركبونها أو لا يذوقون لحومها . أو يبيحونها

للذكور دون الإناث – كما أسلفنا في سورة الأنعام – باسم الآلهة المدّعاة ، التي لا يعلمون عنها شيئاً ، إنما هي أوهام موروثة من الجاهلية الأولى والله هو الذي رزقهم هذه النعمة التي يجعلون مما لا يعلمون نصيباً منها ، فليست هي من رزق الآلهة المدعاة لهم ليردوها عليها ، إنما هي من رزق الله ، الذي يدعوهم إلى توحيده فيشركون به سواه .

وهكذا تبدو المفارقة في تصورهم وفي تصرفهم على السواء .. الرزق كله من الله . والله يأمر ألا يعبد سواه ، فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة . وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه . وبهذا تَتَبدّى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة .

وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت ، يجعلون نصيباً من رزق الله لهم موقوفاً على ما يشبه فعل الجاهلية . ما يزال بعضهم يطلق عجلاً يسميه « عجل السيد البدوي » يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد ، ولا ينتفع به أحد ، حتى يذبح على اسم السيد البدوي لا على اسم الله ، وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله ، ولا باسم الله ، ولكن باسم ذلك الولي ، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقهم الله ، وهو حرام نذره على هذا الوجه ، حرام لحمه ولو سمي اسم الله عليه لأنه أُهِلَّ لغير الله به .

﴿ **تالله لتسألن عما كنتم تفترون** ﴾ بالقسم والتوكيد الشديد فهو افتراء يحطم العقيدة من أساسها لأنه – يحطم فكرة التوحيد) .

ونعيد تفسير هذه الآية بعد أن رأينا كلام صاحب الظلال فيها : ﴿ **ويجعلون لما لا يعلمون** ﴾ أي لآلهتهم أي ويجعلون لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر ﴿ **نصيباً مما رزقناهم** ﴾ الله يرزقهم ، ويجعلون قسماً منه لآلهتهم الباطلة ؛ تقرباً إليها ، بل يفضلونها على جنابه سبحانه ﴿ **تالله لتسألُنَّ عمَّا كنتم تفترون** ﴾ أي تكذبون في أنها آلهة ، وأنها أهل للتقرب إليها . أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه وليجازيهم عليه أوفر الجزاء في نار جهنم . فهذا أول موقف من مواقف المستكبرين في هذه المجموعة : يسجل ويرد عليه بآن واحد ، إذ يتقربون بما رزقهم الله لمن لا يشعر بفعلهم أصلاً ، فأي حماقة وأي ظلم وأي جهل ؟ ثم يخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ؛ فعبدوها معه ، فأخطأوا خطأ فظيعاً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ،

ولا ولد له ، ثم أعطوه من يعتبرونه أخس القسمين من الأولاد وهم في مفاهيمهم الجاهلية لايرضونها لأنفسهم ، ثم زادوا على ذلك أن عبدوها ، وهذا هو الموقف الظالم الثاني للمستكبرين في هذه المجموعة ﴿ **ويجعلون لله البنات** ﴾ فيقعون بذلك كما مر بثلاثة من أفظع أنواع الكفر ﴿ **سبحانه** ﴾ عن قولهم وإفكهم أي تنزيهاً لذاته من نسبة الولد إليه ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ، يجعلون لهم البنين ، ويجعلون لله البنات سبحانه . ثم ذكر الله عز وجل نظرتهم إلى البنات ، ممّا يدل على أن تصورهم عن الذات الإلهية في غاية الفساد ، فهم يختارون لأنفسهم الذكور ، ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، لدرجة أن الواحد منهم إذا بُشِّر بالأنثى يكاد يهلك ، أليس هذا يدل على أنهم يضعون الله في المقام الأدنى من مقام أنفسهم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ **وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظَلَّ وجهه مُسوَدّاً** ﴾ أي كئيباً مغتمّاً فهو أسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس ﴿ **وهو كظيم** ﴾ أي ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن ، مملوء حنقاً على المرأة ﴿ **يتوارىٰ من القوم** ﴾ أي يكره أن يراه الناس؛ فيستخفي منهم ﴿ **من سوء ما بُشِّرَ به** ﴾ أي من أجل سوء المبشَّر به ، ومن أجل تعييرهم ﴿ **أيمسكه على هون أم يدسُّه في التراب** ﴾ أي ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بُشِّر به على هون وذل ، أم يئده ، بأن يدفنها حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية ؟ أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟! ﴿ **ألا ساء ما يحكمون** ﴾ أي بئس ما قالوا وبئس ما قسموا ، وبئس ما نسبوه إليه ، حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف فما أسوأ محاكمتهم وما أسوأ حكمهم ؟.

قال صاحب الظلال بمناسبة هذه الآية :

(ومن عجب أن ينعق الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية - في مسألة المرأة ، نتيجة لما يرونه في هذه المجتمعات المنحرفة ولا يكلف هؤلاء الناعقون اللامزون أنفسهم أن يراجعوا نظرة الإسلام ، وما أحدثته من ثورة في التطورات والأوضاع وفي المشاعر والضمائر وهي بعد نظرة علوية لم تنشئها ضرورة واقعية ولا دعوة أرضية ولا مقتضيات اجتماعية أو اقتصادية . إنما أنشأتها العقيدة الإلهية الصادرة عن الله الذي كرم الإنسان ، فاستتبع تكريمه للجنس البشري تكريمه للأنثى . ووصفها بأنها شطر النفس البشرية ، فلا تفاضل بين الشطرين الكريمين على الله .) .

﴿ للذين لايؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْء ﴾ أي صفة النقص أي صفة السوء ، وهي هنا الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهنَّ خشية الإملاق ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه ، ومن ذلك الغنى عن العالمين ، والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الغالب في تنفيذ ما أراد ﴿ الحكيم ﴾ في إمهال العباد ﴿ ولو يؤاخذ الله الناسَ بظلمهم ﴾ أي بكفرهم ومعاصيهم ﴿ ما ترك عليها من دابة ﴾ أي لأَهْلَكَ جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم ، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر ويُنظِر إلى أجل مسمى ﴿ ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى وقت مسمى عنده تقتضيه الحكمة ، أو إلى يوم القيامة ، وإذن فهو لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً ، دلّت الآية على أن المستكبرين يستحقون العقوبة بسبب ظلمهم ، لولا أن حكمة الله اقتضت الإنظار ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ فهو آت مهما أُنظروا ، فكل آت قريب ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ يكرهون البنات ويجعلونها لله ، ويكرهون أن يكون لأحدهم شريك في ماله ويجعلون لله شريكاً في ملكه ، ويكرهون أن يستخف أحد برسلهم وهم يستخفون برسل الله ويستهزؤون بهم ويكرهون أراذل المال ويجعلونها له ، ويجعلون لأصنامهم أكرمها ، فقد أقاموا الله بالمقام الأدنى من أنفسهم وأصنامهم ﴿ وتصف ألْسنتهم الكذب ﴾ أي ويقولون الكذب مع ذلك وهو ﴿ أن لهم الحسنى ﴾ أي عند الله ، وإن كان ثمّ معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى وهي الجنة ، إن كان البعث حقاً ، فهم يفعلون ما يفعلون ، ويظلمون ما يظلمون ، ويسبّون الله ما يسبّون ، وينسبون لله جل شأنه من الصفات الدنيا ما ينسبون ، ومع ذلك يعتبرون أن لهم مقاماً عنده يؤهلهم لخيري الدنيا والآخرة ﴿ لا جرَمَ ﴾ أي حقاً ، ﴿ أن لهم النار ﴾ فهي التي يستحقونها ﴿ وأنهم مفرَطون ﴾ أي مقدَّمون عنده، ولكن إلى النار معجّلون إليها ، ثم ختم الله هذه المجموعة ، وهذا المقطع كله بآيتين : ﴿ تالله ﴾ يقسم بذاته الكريمة ﴿ لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ أي أرسلنا رسلاً إلى من تقدمك من الأمم ﴿ فزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ﴾ من الكفر والتكذيب والاستهزاء وأمثال ما مر معك ، فلا تعجب من تزيين أعمال هؤلاء لهؤلاء على سوئها ﴿ فهو وليُّهم اليوم ﴾ أي فالشيطان قرين الكافرين في الدنيا ، المتولي لإضلالهم بالغرور ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في القيامة ، دلت الآية على أن مواقف المستكبرين التي مرّت معنا كلها من تزيين الشيطان واتباع خطواته . ثم قال الله لرسوله ﷺ ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب ﴾ أي القرآن ﴿ إلا لتبيِّن لهم ﴾ أي للناس

﴿ **الذي اختلفوا فيه** ﴾ فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ **وهدى** ﴾ للقلوب والعقول ﴿ **ورحمة** ﴾ لمن تمسك به ، ومن ثم قال ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ فهو هدى لقلوبهم وعقولهم وسلوكهم ، ورحمة لهم في كل حال . فالقرآن فيه بيان لكل شيء ، ولكن يستفيد منه المؤمنون ، فهو رحمة لهم وهدى ، وبهذا انتهت المجموعة السادسة ، وانتهى بها المقطع الثاني . وقد دلنا على انتهائه أنه جاءت بداية جديدة تشبه بدايته . فقد بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **والله يعلم ما تسرُّون وما تعلنون** .... ﴾ والآن يأتي قوله تعالى : ﴿ **والله أنزل من السماء ماءً** .... ﴾ فهذه بداية المقطع الثالث .

ملاحظة حول السياق :

لاحظ أنه قد جاء في وسط هذه المجموعة قوله تعالى :
﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السوْء ولله المثل الأعلى** ﴾ مما يشعرنا أنّ هذه المواقف للكافرين سببها كفرهم بالآخرة ، فالكفر بالآخرة هو سبب هذه الجرأة على الله . لاحظ صلة هذا بمقدمة المقطع ﴿ **إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون** ﴾ ثم لاحظ أنّ المقطع أفهمنا بآيته قبل الأخيرة أن مواقف الكافرين إنما هي من تزيين الشيطان لهم ، فإذا تذكرنا أن المجموعات الستة في المقطع قد تحدثت عن مواقف للمستكبرين ، وإذا تذكّرنا أن الكبر هو خُلُق الشيطان الأول ، أدركنا أن المقطع كان حديثاً عن خطوات الشيطان التي نهينا عن اتباعها ، وإذا تذكّرنا الكلام الكثير عن اليوم الآخر في المقطع ، وإذا تذكرنا ختم المقطع بقوله تعالى : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ أدركنا صلة المقطع بمحور السورة ، وبحيز محور السورة من البقرة ، إذ يأمر بالدخول في السِّلم كافّة ، وإذا تذكّرنا هذه الآية ، وتذكَّرنا الآية الثانية من سورة النحل ﴿ **ينزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾ أدركنا الصلة ما بين مقاطع السورة

....

ومن كل ما مرّ معنا ندرك ارتباط سلامة التصور عن الذات الإلهية بسلامة التصور عن اليوم الآخر ، بموضوع الدخول في الإسلام كله ، بموضوع عدم اتباع خطوات الشيطان ، وعلى عكس ذلك ، فإنه يترتب على فساد التصور عن الله واليوم الآخر ؛

اتباع لخطوات الشيطان وعدم دخول في السلم كله .

فوائد :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى** ﴾ يذكر ابن كثير بعض الآثار والأحاديث التي تفيد تعدي أثر ظلم الظالم ، وعدل العادل لغيرهما . قال ابن كثير : (قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص أنه قال : كاد الجُعَل[١] أن يعذب بذنب بني آدم وقرأ الآية ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة** ﴾ روى الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة قال : قال عبد الله : كاد الجعل أن يهلك في جحره بخطيئة بني آدم . وروى ابن جرير ... عن أبي سلمة قال : سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ؛ قال: فالتفت إليه فقال : بلى والله حتى إن الحبارى[٢] تموت في وكرها بظلم الظالم . وقال ابن أبي حاتم ... عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ (لعلهم ذكروا زيادة العمر) فقال : « إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة ، يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر » .

ملاحظة :

رأينا أن المقطع الثاني بدأ بكلمة (والله) وكذلك المقطع الثالث يبدأ بنفس الكلمة إنه من خلال هذه العلامة ، ومن خلال المعاني حدّدنا مقاطع السورة .

---

(١) الجُعَل : حيوان يشبه الخنفاء .

(٢) الحُبارى : طائر يشبه الإوزة إلى حد كبير .

المقطع الثالث

ويمتد من الآية (٦٥) إلى نهاية الآية (٨٩) وهذا هو :

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ
فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ
تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ
﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ
مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ
خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ
شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا
ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ
ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم
بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ
يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا
رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ
أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا
تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن
جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا
وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ
ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ
تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا
رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟
مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ
ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

التفسير :

﴿ **والله أنزل من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ فتلك نعمة من أجلّ نعمه تعالى ﴿ **إن في ذلك لآيةً** ﴾ أي لدلالة واضحة على الله وقدرته وعنايته ﴿ **لقوم يسمعون** ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه ، ويسمعونه سماع إنصاف وتدبّر ، لأنّ من لم يسمع بقلبه فكأنه لا يسمع ﴿ **وإن لكم في الأنعام** ﴾ أي في الإبل والغنم والبقر والماعز ﴿ **لعبرةً** ﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ﴿ **نسقيكم مما في بطونه** ﴾ أي بطون النعم ﴿ **من بين فرث** ﴾ أي فضلات ﴿ **ودم لبناً** ﴾ أي نسقيكم من بين هذا وهذا لبناً ﴿ **خالصاً** ﴾ لا أثر فيه لدم ولا فرث ، لافي اللون ولا في الطعم ولا في الرائحة ﴿ **سائغاً للشاربين** ﴾ سهل المرور في الحلق ، وفي هذه الآية معجزة عظيمة زائدة على الإعجاز العام في القرآن ، سنراها في الفوائد ، ولما ذكر الله نعمته على خلقه باللبن وكونه شراباً سائغاً ثنّى بتذكير الناس بما يتخذونه من أشربة مما خلق ، والفعل فعله ، من أجل أن يحرّك في أنفسهم الشعور بنعم

الله ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب** ﴾ أي من عصيرها ﴿ **تتخذون منه سَكَراً** ﴾ أي خمراً ﴿ **ورزقاً حسناً** ﴾ كالخل والدبس والنقيع ، وفي الآية كلام كثير سنراه في الفوائد ﴿ **إن في ذلك لآيةً** ﴾ أي لدلالة واضحة على الله الذي خلق لهذا الإنسان ما خلق ، ولكن هذه الآية يدركها أصحاب العقول ، لذلك قال : ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ وناسب ذكر العقل ههنا لذكر السَكَر الذي حرّمه الله على هذه الأمة صيانة لعقولها . ثم ذكَر الله تعالى بآية أخرى ونعمة أخرى ﴿ **وأوحى ربك** ﴾ أي ألهم وهدى وأرشد ﴿ **إلى النحل** ﴾ ﴿ **أن اتخذي من الجبال بيوتاً** ﴾ تأوين إليها ﴿ **ومن الشجر ومما يعرِشون** ﴾أي مما يعرش الناس ، أي يرفعون من سقوف البيوت ، أو ما يبنون للنحل من الأماكن التي تعسل فيها ﴿ **ثم كُلي من كل الثمرات** ﴾ أي وألهمها أن كلي من كل الثمرات ﴿ **فاسلكي سُبل ربك** ﴾ : أي فإذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك ، فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل الله لا تضلين فيها ﴿ **ذُللاً** ﴾ أي مذللة لك أي مسهّلة عليك ، فهي ترعى حيث شاءت ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها ﴿ **يخرج من بطونها شراب** ﴾ هو العسل ﴿ **مختلف ألوانه** ﴾ منه أبيض وأصفر وأحمر ، وخروجه من بطونها يكون عن طريق فمها ﴿ **فيه** ﴾ أي في العسل ﴿ **شفاء للناس** ﴾ لم يقل فيه الشفاء للناس لأنه ليس شفاءً من كل داء ، بل فيه شفاء للناس من أدواء تعرض لهم ، وقد ألفت المؤلفات الكثيرة ، شرقية وغربية في العسل كدواء كما سنرى في باب الفوائد ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي في مجموع ما مَرَّ من هداية النحل ، إلى الشفاء بما يخرج منه ﴿ **لآية** ﴾ ولكن ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ أما الذي لا يتفكر فإنه قد أعمته الألفة عن رؤية الآية فلم يعد يشعر بما تدلّ عليه ، ثم قال تعالى : ﴿ **والله خلقكم** ﴾ فتذكروا نعمته عليكم في ذلك ﴿ **ثم يتوفاكم** ﴾ فاعرفوه بصفة الإحياء والإماتة ﴿ **ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر** ﴾ أي إلى أخسه وأحقره وهو الهرم ﴿ **لكي لا يعلم بعد علم شيئاً** ﴾ أي لينسى ما يعلم ، أو لئلا يعلم زيادة علم على علمه ﴿ **إن الله عليم قدير** ﴾ عليم بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل ، أو إلى الإفناء من الإحياء ، قدير على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء ، بعد أن ذكّرهم في الآيات السابقة على هذه الآية بمجموعة من نعمه عز وجل ذكّرهم هنا بكمال قدرته وتصرفه ، وعجزهم وقهرهم تحت سلطانه؛ ليدركوا افتقارهم في كل حال إليه ، فهم مفتقرون إلى نعمه ، مفتقرون إليه ، ثم قال تعالى ﴿ **والله فَضّل بعضكم على بعض في الرزق** ﴾ رزق هذا أكثر من هذا ، وجعل هذا مالكاً وهذا مملوكاً ، وهذا لا يملك شيئاً .

وسنرى حكمة ذلك في باب الفوائد ﴿ **فما الذين فضّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم** ﴾ أي فما الذين فضّلوا بالرزق - وهم الملاك - برادي رزقهم أي : بمعطين رزقهم لمملوكيهم ﴿ **فهم فيه سواء** ﴾ أي فيستووا مع عبيدهم في الرزق ، ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ هذه حجتهم وفلسفتهم ذكرها الله عز وجل في عدم رد ما فضلوا به على مماليكهم أنهم لو فعلوا لجحدوا نعمة الله عليهم الذي فضّلهم على غيرهم ، وبهذا أقام الله الحجة على المشركين فهو مثل ضربه الله لهم معناه : أنتم لا ترضون أن تسووا بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمتُ به عليكم ، ولا تجعلونهم فيه شركاء ، ولا ترضون ذلك لأنفسكم ، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء ، وتعتقدون أنني راض عن ذلك . والآية تحتاج إلى كلام كثير سنراه في الفوائد .

وهكذا بدأت هذه المجموعة بالتذكير بنعم الله ثم بالتذكير بقهره ، ثم بإقامة الحجة على المشركين لتحرير التوحيد ، والآن تعود للتذكير بالنعمة ، وتقرير التوحيد بآن واحد ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحَفَدَة** ﴾ . قال ابن كثير : « يذكر الله تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم . ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر الله تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة : وهم : أولاد البنين) ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ أي من المطاعم والمشارب ، وهذا من كمال نعمته عليكم ، وإذ كان الأمر كذلك فكيف تشركون . ومن ثم قال : ﴿ **أفبالباطل** ﴾ الباطل هو الشيء الذي لا حقيقة له ﴿ **يؤمنون** ﴾ أي يصدّقون ﴿ **وبنعمة الله** ﴾ التي يحسونها ويتنعَّمُون بها ﴿ **يكفرون** ﴾ يضيفونها إلى غيره ولا ينسبونها إليه ، وهذا دأب المشركين خلال العصور ، ومن ذلك ملاحدة عصرنا الذين يخلعون على الطبيعة خصائص الإلهية ، ويجعلونها هي الخالقة الرازقة .

وبعد أن ذكّر الله بنعمه ، وأقام الحجة على المشركين أخبر عن المشركين ، وماذا يفعلون ؟ ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السمٰوات والأرض شيئاً** ﴾ فالله هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده ، وغيره لايملك أن يرزق أدنى شيء ﴿ **ولا يستطيعون** ﴾ أي لا يملكون الرزق ، ولا يمكنهم أن يملكوه ، ولا يتأتى ذلك منهم ، ومن كان كذلك فكيف يُعْبَد ؟ ولا شك أن الذين يعبدون من دون الله ما يعبدون

يفلسفون ذلك ويموّهونه ، ويحاولون تقريبه إلى الأذهان بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره ، ثم ضرب الله مثلين لإبطال شركهم وإقامة الحجة عليهم .

المثل الأول : ﴿ **ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه مِنَّا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون** ﴾ أي مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرّف ، وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه ما يشاء ، فهل يستوي هذا مع هذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيّناً لا يجهله إلا غبي ، قال الله تعالى : ﴿ **الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ بأن الحمد والعبادة لله . قال مجاهد عن هذا المثل : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا ؟

المثل الثاني : ﴿ **وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء** ﴾ الأبكم : هو الذي وُلد أخرس فلا يفهم ولا يُفهم ﴿ **وهو كَلٌّ** ﴾ أي ثقل وعيال وكلفة ﴿ **على مولاه** ﴾ أي على من يلي أمره ويعوله ﴿ **أينما يوجِّهْهُ** ﴾ أي يبعثه ﴿ **لا يأتِ بخير** ﴾ فلا تنجح مساعيه ، فحيثما يرسله ويصرفه في مطلب أو حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجاح ﴿ **هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل** ﴾ أي ومن هو سليم الحواس نفّاع ذو كفايات ، مع رشد وديانة ، فهو يأمر الناس بالعدل والخير ﴿ **وهو** ﴾ أي في نفسه ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أي على سيرة صالحة ودين قويم ، وهذا مثل آخر للوثن وللحق تعالى ، يعني : أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ، ولا يقدر على شيء بالكلية ، فلا مقال ولا فعال ، وهو مع هذا كَلّ على مَن يتولاه ، والله عز وجل يفيض على عباده من آثار رحمته ، فينزل وحياً ويرسل رسلاً ، وينزل كتباً تعرّف الناس على العدل الخالص ، وله الصفات العليا والأسماء الحسنى ، فكيف يشرك المشركون ؟ ولمّا كان هذان المثلان قد ذكرا من باب تقريب المعاني إلى الأذهان ، وقد يترتب عليه في الأذهان الكليلة تصور لا يليق بالعظمة ، أتبع الله ذلك بآية تتحدث عن عظمة الله بما يخلع القلوب ﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ أي يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه ﴿ **وما أمر الساعة** ﴾ في قرب كونها ، وسرعة

قيامها ، مع أنها تغيير لنظام الكون كله ﴿ **إلا كلمح البصر أو هو أقرب** ﴾ أي إلا كرجع طرف أو الأمر أقرب من ذلك . وفسر بعضهم (أو) هنا بمعنى بل . والمعنى بل أمر الساعة أقرب من لمح البصر ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، وهذا بعض مقدوراته . أخبر تعالى بذلك عن كمال علمه في علمه غيب السمٰوت والأرض ، واختصاصه بعلم الغيب ، فلا اطّلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء ، وعن كمال قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

ثم يعود السياق إلى تعداد نعم الله .

﴿ **والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ فهذه وسائل الإدراك ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ أنه جل جلاله ركّب فيكم هذه الأشياء لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه ، واجتلاب العلم الذي يوصل إلى شكر المنعم ، وعبادته والقيام بحقوقه ، فماذا فعل الناس فيها ؟ استعملها الكثيرون فأفادتهم ، ولكن لم يحققوا بها ما خلقت له ، وهو الوصول إلى الشكر ، والقليل هم الذين شكروا ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ (سبأ : ١٣) ثم لفت نظرهم إلى آيات من آيات الله ﴿ **ألم يروا إلى الطير مسخّراتٍ** ﴾ أي مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك ﴿ **في جوّ السماء** ﴾ أي في هواء السماء والمراد بها السماء لغةً وهي جهة العلو ﴿ **ما يمسكهن** ﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿ **إلا الله** ﴾ بقدرته فإنه الخالق لكل شيء ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ فالمؤمن هو الذي يرى آيات الله في هذه الظاهرة ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ السكن : هو الذي يسكن إليه الإنسان ، وينقطع إليه من بيت أو إلف لما يسببه له ذلك من سكينة ﴿ **وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً** ﴾ المراد بذلك قباب الجلود وهي معروفة قديماً ، ويدخل في ذلك بيوت الشعر كذلك ، لأنها من جلود الأنعام ﴿ **تستخفونها يوم ظعنكم** ﴾ أي ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل ، والظعن : الارتحال . مَنَّ الله عليهم بالخيام التي يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها في إقامتهم في السفر والحضر ، ومن ثم قال : ﴿ **ويوم إقامتكم** ﴾ أي قراركم في منازلكم ، والمعنى أنها خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر ﴿ **ومن أصوافها** ﴾ أي أصواف الغنم ﴿ **وأوبارها** ﴾ أي وأوبار الإبل ﴿ **وأشعارها** ﴾ أي وأشعار المعز ﴿ **أثاثاً** ﴾ أي متاعاً

للبيت ولكم . فالأثاث يطلق على البسط والثياب وحاجيات البيوت ﴿ **ومتاعاً إلى حين** ﴾ أي وشيئاً ينتفع به إلى مدة من الزمان أي إلى أجل مسمى ، ووقت معلوم . وفي الآية إشارة إلى معنى سنراه في الفوائد ﴿ **والله جعل لكم ممّا خلق ظلالاً** ﴾ كالأشجار والسقوف ﴿ **وجعل لكم من الجبال أكناناً** ﴾ الأكنان جمع كن : وهو ما سترك من كهف أو غار ، وفسّرها ابن كثير : بالحصون والمعاقل وهو معنى أدق وأعم ، والنّعمة فيه أظهر ، وخاصة في الحرب ﴿ **وجعل لكم سرابيل** ﴾ السرابيل هي القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن ﴿ **تقيكم الحر** ﴾ أي والبرد إلا أنه سبحانه اكتفى بأحد الضدين لأن الوقاية من الحر قد لا يتفطن إليها الإنسان ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ أي ودروعاً من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم في قتالكم ، والبأس : شدة الحرب ، والسربال : عام يقع على ما كان من حديد أو غيره ﴿ **كذلك يتمُّ نعمته عليكم** ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ، ﴿ **لعلكم تسلمون** ﴾ أي تسلمون لله فتؤمنون وتنقادون وتدخلون في دينه ولنتنبه جيداً إلى قوله تعالى : ﴿ **لعلكم تسلمون** ﴾

كلمة حول السياق :

رأينا أن محور هذه السورة هو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله تُرجع الأمور** ﴾ الآتية في حيّز قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ فهذه السورة تذكّر الإنسان باليوم الآخر من أجل أن يدخل في الإسلام كله ، ويترك خطوات الشيطان ، والتذكير باليوم الآخر يقتضي تذكيراً بالله ؛ لأنّ من لم يؤمن بالله حق الإيمان ، ويعرفه حق المعرفة ، لا يؤمن باليوم الآخر .

وقد رأينا أنّ هذا المقطع قد سار معدِّداً نعم الله ، ومعرّفاً على الله حتى آخر آية عرضناها لينهيها بقوله : ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ .

فهذه الخاتمة تذكرنا بأن الله ما أنعم على هذا الإنسان هذه النعم الكبيرة إلا من أجل الإسلام ، فإذا لم يسلم الإنسان لله فإنه لا يكون قد أدى شكر الله ، ولا يكون قد حقق الحكمة من وجوده الذي سخر الله له كل شيء ، وقد أنزل الله هذا الإسلام من أجل أن يدخل فيه الإنسان دخولاً كاملاً ، بتطبيقه جميعه ، فمن لم يدخل في الإسلام كله فإنه لم

يحقق الشكر ، ومن ثم نجد التناقض الكبير الذي عليه أكثر الخلق .

ولنعد إلى السياق :

﴿ **فإن تولوا** ﴾ أي أعرضوا عن الدخول في الإسلام كله ﴿ **فإنما عليك البلاغ المبين** ﴾ أي فلا تَبِعَةَ عليك في ذلك ، لأن الذي عليك هو التبليغ الظاهر الواضح الكامل البيان ، وقد كان ﴿ **يعرفون نعمة الله** ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ، وهو المتفضِّل به عليهم ﴿ **ثم ينكرونها** ﴾ بأفعالهم حيث يرفضون الدخول في الإسلام كله ﴿ **وأكثرهم الكافرون** ﴾ أي وأكثرهم الجاحدون أي غير المعترفين ، فهم بين اثنين : إما إنسان يعترف بالنعم ولا يبني عليها الدخول الكامل في الإسلام ، أو إنسان يجحد أصلاً نعمة الله كهؤلاء الملحدين الذين لا يؤمنون بالله أصلاً ، فضلاً عن أن يدخلوا في دينه ، وفي سبب نزول هذه الآية يذكر ابن أبي حاتم بسنده إلى مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ فقال الأعرابي : نعم ، قال ﴿ **وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً** ﴾ الآية قال الأعرابي نعم ، ثم قرأ عليه ، كل ذلك يقول الأعرابي : نعم . حتى بلغ ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ فولّى الأعرابي فأنزل الله ﴿ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها** ﴾

ولنعد إلى الكلام عن السياق :

رأينا كيف خدم هذا المقطع حتى الآن موضوع الدخول في الإسلام كله ، وهو الموضوع الذي تخدمه هذه السورة ، وتخدمه الآية التي هي محور هذه السورة من سورة البقرة ، ومضمونها التذكير باليوم الآخر ، كطريق لإيصال الإنسان إلى الدخول في الإسلام كله ، ومن ثم نلاحظ أن هذا المقطع يختتم بمجموعة آيات : أول آية فيها مبدوءة بقوله تعالى :﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ...** ﴾ وآخر آية فيها مبدوءة بنفس المطلع ﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيداً** ﴾ ونلاحظ أن الآية الأخيرة قد ختمت بقوله تعالى :﴿ **ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ وفي هذا الختام الذي يذكر الله فيه أنه ما من قضية من قضايا الوجود إلا ولله فيها الحكم الحق - وما خالفه ضلال وقد بيّنه في كتابه ، أو بيّن الطريق إلى الوصول إليه في كتابه ، ومجموع هذه الأحكام هي الإسلام الذي أمر الله بالدخول فيه ، ومن هذا ندرك أن

المجموعة الآتية تخدم بشكل مباشر محورها من سورة البقرة وهو آية ﴿ **هل ينظرون** .... ﴾ وبما يحقق حيّزها وهو ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة** ...﴾ بشكل مباشر .

فلنر المجموعة الأخيرة من هذا المقطع :

﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيداً** ﴾ يشهد عليها وهو رسولها ، أي : واذكر يوم نحشر من كل أمة نبياً يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب ، والإيمان والكفر ﴿ **ثم لا يؤذن للذين كفروا** ﴾ أي في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، والمعنى أنّه لاحجة لهم ولذلك لايؤذن لهم بالاعتذار ، دلّل بعدم الإذن على أنه لا حجة لهم ولا عذر ﴿ **ولاهم يُستعتَبون** ﴾ أي ولا يسمح لهم بالاسترضاء ، أي لايقـال لهم أرضوا ربكم لأن الآخرة ليست بدار عمل ، وذلك مقام رهيب ، الأنبياء هم الشهود على الكافرين ، والكافرون يُمنعون الكلام ، فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ، ولا بالإدلاء بحجة ﴿ **وإذا رأى الذين ظلموا** ﴾ أي الذين كفروا وأشركوا ﴿ **العذاب** ﴾ بأن يدخلوا النار ﴿ **فلا يخفف عنهم** ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ أي ولاهم يمهلون قبله لايؤخر عنهم ولا يفتر ﴿ **وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم** ﴾ أي الذين يعبدونهم في الدنيا ﴿ **قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا** ﴾ أي آلهتنا التي جعلناها شركاء ﴿ **الذين كنا ندعـو** ﴾ أي نعبد ﴿**من دونك** ﴾ فتبرأت منهم آلهتهم أحوج ما يكونون إليها ﴿ **فألقَوْا إليهم القول إنكم لكاذبون** ﴾ أي قالت لهم الآلهة : كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كَذّبتهم آلهتهم لأنها كانت جماداً لاتعرف مَنْ عبدها ، أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهـة ؛ تنزيهاً لله عن الشرك ﴿ **وألقَوْا إلى الله يومئذٍ السَّلَم** ﴾ إلقاء السلم يعني : الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ، أي وألقى الذين كفروا يومئذ السلم لله بأن استسلموا لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، أسلموا حيث لا ينفعهم إسلامهم ، وتركوا الإسلام حين كانوا مكلفين به ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أي وبطل عنهم ما كانوا يفترون ، من أن لله شركاء ، وأنهم ينصرون ويشفعون ، لقد ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير ، ثم بين الله عز وجل جزاء الذين جمعوا بين الكفر والصد عن سبيل الله فقال : ﴿ **الذين كفروا** ﴾ في أنفسهم . ﴿**وصدوا عن سبيل الله** ﴾ أي وحملوا غيرهم على الكفر ومنعوهم من الدخول في الإسلام ﴿ **زدناهم عذاباً فوق**

العذاب ﴾ أي عذاباً على كفرهم ، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق ﴿ **بما كانوا يفسدون** ﴾ أي بسبب كونهم مفسدين في الأرض بصد الناس عن سبيل الله ، وإبعاد الناس عن الإسلام ﴿ **ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم** ﴾ أي واذكر يوم نبعث في كل أمة نبيّهم شهيداً عليهم من جنسهم ﴿ **وجئنا بك** ﴾ يا محمد ﴿ **شهيداً على هؤلاء** ﴾ أي على أمتك أي اذكر ذلك اليوم وهَوْله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، ثم ذكر الله ما شرّف به رسوله ﷺ في الدنيا من إنزال هذا القرآن عليه ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً** ﴾ أي مبيّنا ﴿ **لكل شيء** ﴾ من أمور الدين والدنيا . قال ابن مسعود : (قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء) فما من قضية من القضايا التي يحتاجها الإنسان كفرد والإنسانية كلها - إلا ولله فيها الحكم الحق ، ومجموع هذه الأحكام هي الإسلام . وفي الفوائد تفصيل حول هذا الموضوع ، ثم أكمل الله وصف كتابه بعد أن بين أنه تبيان لكل شيء فقال : ﴿**وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ فكما أن القرآن فيه تبيان لكل شيء ففيه كذلك دلالة إلى الحق ، ورحمة للمسلمين وبشارة لهم بالجنة ، وهكذا استقر المقطع على تبيان أن الإسلام تفصيله في هذا القرآن الذي فيه بيان كل شيء ، وفيه الهدى والرحمة والبشارة للمسلمين ، وبهذا انتهى المقطع .

الفوائد :

١ - في قوله : ﴿ وإن لكم في الأنعام لَعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾

معجزة زائدة على الإعجاز العام الموجود في هذا القرآن ، هذه المعجزة تتمثل في كون القرآن تحدث عن موضوع لم يُعرَف بمنتهى الدقة العلمية على ما حدّث به القرآن إلا بعد قرون ، فالحديث عنه في القرآن بهذه الدقة يدل على أن هذا القرآن من عند الله فلنر الموضوع : إن آلية تشكل الحليب كما يتحدث عنه العلم الحديث على الشكل التالي : بعد أن يتمثل الطعام ، ويصل إلى الأمعاء ، تمتص الزغيبات المعوية ما فيه من غذاء ، مبقية الفضلات - وهي الفرث - في الأمعاء ، فيلقي الغذاء في الدم ، وهذه أول تصفية ، ثمّ يمر الدم وهو يحمل الغذاء على الغدد اللبنية فتفرز هذه الغدد الحليب من الدم ليذهب إلى الثدي ، وتلك التصفية الثانية ، وهكذا من بين فرث ودم يخرج الحليب ، هذا الذي ذكره القرآن قبل أن يصل العلم إلى مثل هذه الدقة في تحديد آلية

الوصول إلى الحليب يدل بما لا يقبل جدلاً على أنّ منزل هذا القرآن هو العليم بكل شيء .

قال صاحب الظلال : (وقد بقي هذا كله سراً إلى عهد قريب ، وهذه الحقيقة العلميةَ التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر ، وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها ، فضلاً عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة . وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل . ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن : فالبشرية كلها كانت تجهل يومذاك هذه الحقيقة .

والقرآن عَبْر هذه الحقائق العلمية البحتة - يحمل أدلة الوحي من الله مع خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه الخصائص ويقدرها ، ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين) .

٢ - أول آية نزلت تشير إلى الخمر غامزة منها هي قوله تعالى ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً** ﴾ إذ عطفت الرزق الحسن على السَّكَر ، والعطف يقتضي التغاير ، فدل ذلك على أن السَّكَر ليس من الرزق الحسن ، فكانت غمزة في الخمر ومقدمة لتحريمه ، وللعلماء استنباطات من الآية :

قال ابن كثير بعد أن ذكر الآية :(دلّ على إباحته شرعاً قبل تحريمه ودل على التسوية بين المسكر المتّخذ من النخل والمتخذ من العنب ، كما هو مذهب مالك والشافعي ، وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتّخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل ، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك).

٣ - وعند قوله تعالى عن العسل : ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾ قال ابن كثير :(روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه فقال : « اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : يارسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ، قال : « اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً . ثم جاء فقال : يارسول الله ما زاده إلا استطلاقاً فقال رسول الله ﷺ : « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً فبرىء).

قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت ، فأسرعت في الاندفاع ، فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ﷺ عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام ؛ وفي الصحيحين من حديث هشام بن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل ، هذا لفظ البخاري ، وفي صحيح البخاري من حديث سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كَيَّة بنار ، وأنهى أمتي عن الكي » . وروى البخاري ... عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن كان في شيء من أدويتكم – أو يكون في شيء من أدويتكم – خير : ففي شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لدغة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوي » . ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر به . وروى الإمام أحمد ... عن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله ﷺ : « إن كان في شيء شفاء : فشرطة محجم ، أو شربة عسل ، أوكية تصيب ألماً وأنا أكره الكي ولا أحبه » . ورواه الطبراني عن هاورن بن سلول المصري عن أبي عبد الرحمن المقري عن عبد الله بن الوليد به . ولفظه « إن كان في شيء شفاء : فشرطة محجم » وذكره وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه . وروى الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه .... عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن » . وهذا إسناد جيد تفرّد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً . وقد رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان هو الثوري به موقوفاً وله شبه .

٤ ــ بمناسبة الكلام عن النحل والعسل نقول : إن الكتب التي ألفت عن عجائب النحل ومملكته في عصرنا لا يمكن إحصاؤها ، والكتب والمقالات التي كتبت عن الاستطباب بالعسل لا تكاد تحصى ، وقد ألفت في ذلك رسائل جامعية وصدرت أبحاث علمية طبية عن جهات متخصصة كثيرة في هذا العالم ، بحيث أصبح محل العسل في العلاج الطبي مشتهراً شهرة تبلغ حدّ البديهية في كل مكان في العالم ، وندر أن تدخل مكتبة من المكتبات إلا وتجد فيها كتاباً عن العسل والنحل ، وفي هذه الفائدة أحب أن أنقل لك فقرات تزيد الإيمان من كتاب « النحلة تسبح الله » لمؤلفه محمد حسن الحمصي حفظه الله :

قال عن النحلة :

« إنها لربما تطير بضعة كيلو مترات ، بل لربما وصلت في طيرانها هذا حول الخلية إلى حدود دائرة نصف قطرها أحد عشر كيلو مترات ثم تعود إلى خليتها من غير أن تضل »

« لقد وهب الله النحلة من حاسة الشمّ ما تستطيع به أن تميز الرائحة الخاصة بمجموعتها »

« إن الدلالة على مكان يحتاج إلى أمرين اثنين : أولهما التعبير عن المسافة ، وثانيهما التعبير عن الاتجاه ، فللتعبير عن المسافة .. تلجأ إلى نوعين من الرقص : أحدهما الرقص الدائري ، والآخر الرقص الاهتزازي ، وللتعبير عن اتجاه مصدر الغذاء بالنسبة للخلية ، فإن الرقص الدائري يدل على أن الغذاء قريب ، وحول الخلية (في حدود ٥٠ متراً) يمكن للشغالة رؤيته بمجرد طيرانها من الخلية ، فلا حاجة لتحديد الاتجاه . أما في حالة بُعْد مصدر الغذاء فإن اتجاه الحركة المستقيمة في (الرقص الاهتزازي) يشير إلى اتجاه مصدر الغذاء ، ويصنع مع الخط الشاقولي – تقريباً – الزاوية التي يصنعها الطريق مع الشمس . فتحفظ النحلات الشغالات مقدار هذه الزاوية . وتنطلق من مقرها متقيدة بالاتجاه المطلوب والمسافة المطلوبة . وهناك تعثر على نبع فياض من الرحيق .

والغريب في الأمر أن النحل يستعمل الشمس كبوصلة للوصول إلى مسكنه أو بستان عمله ، تماماً كما يفعل الإنسان .

...... فجعلت (يد الصانع الحكيم) لكل نحلة ثلاث عيون بسيطة تؤلف مثلثاً رأسه إلى الأعلى ، تستعملها للرؤية ضمن المسافات القريبة ، داخل الخلية ، أو لدى فحص

الأزهار التي تأخذ منها الرحيق وحبوب اللقاح في الحقول .

كما جعلت لكل نحلة زوجاً من العيون المركبة ، الكبيرة الحجم ، تستعملها للرؤية البعيدة ، الواسعة النطاق .

فالنحلة الملكة تتألف العين المركبة لديها من ٤٩٠٠ عديسة متساوية في الحجم ، وموزعة توزيعاً تستطيع معه الرؤية من جميع الاتجاهات . وذلك حتى تستطيع أن تحدد طريقها أثناء طيرانها السريع ، عندما تخرج للتلقيح .

أما النحلة الشغالة فإن عينها المركبة تتألف من ٦٣٠٠ عديسة متساوية في الحجم ، وموزعة توزيعاً تستطيع معه الرؤية من جميع الاتجاهات في نفس الوقت .

وأما النحلة الذكر فإن عينها المركبة تتألف من ١٣٠٩٠ عديسة . عدد كبير لاشك ، وسيزداد استغرابنا عندما ما نعلم أن العديسات العلوية أكبر من السفلية . ولكن دهشتنا هذه ستزول عندما نعلم أن مهمة الذكر تتطلب هذه الدقة في البصر . إن مهمته الوحيدة - كما نعلم - هي التقليح . ولذلك فهو مزود بعينين مركبتين قادرتين على متابعة النحلة الملكة أثناء طيرانها أينما ذهبت .

....إنها طائرة تستطيع أن تغير اتجاه طيرانها تغييراً مفاجئاً ، بل إنها تستطيع أن تحول اتجاه طيرانها ، تحويلاً مفاجئاً ، من الأمام إلى الخلف .

....إنها على الرغم من صغر حجمها ، وضعف جسمها ، ورقة أجنحتها الشفافة تستطيع أن تطير بسرعة فائقة نسبياً . حتى إن سرعتها لتصل إلى حدود ٣٠كم في الساعة . وهي سرعة عظيمة إذا ما قورنت بصغر أجنحتها وقوتها المحدودة .

....كما أن القدرة الإلهية أودعت في جناح النحلة إمكانية تذبذب بالغ السرعة يصل في الطيران السريع إلى أربعمائة ذبذبة في الثانية الواحدة .

إنه لشيء مدهش حقاً أن تبلغ حركة جناح النحلة علواً وانخفاضاً ٤٠٠ مرة في الثانية الواحدة . »

وقال المؤلف تحت عنوان(العسل دواء شاف) مستفيداً من الرسائل الطبية الإسلامية حول فوائد العسل العلاجية مايلي:

« وقبل أن نخوض في عرض الآراء العلمية ، للاستطباب بالعسل لا نرى بأساً في أن

نلقي نظرة سريعة على أوصاف العسل .

من المتعارف عليه أن للعسل أربعة ألوان هي :

١ ــ العسل الأبيض .

٢ ــ العسل الكهرماني الفاتح .

٣ ــ العسل الكهرماني .

٤ ــ العسل الكهرماني الداكن (الغامق) .

ولقد أشار المولى سبحانه إلى اختلاف ألوان العسل في الآية الكريمة ﴿ **ثم كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه** ﴾ .

ولكأني بهذه الآية الشريفة ، وهي تربط بين اختلاف ألوان العسل من جهة واختلاف الثمر الذي يرعى النحل زهوره ، واختلاف الأراضي التي يسلكها النحل من جهة أخرى ... تشير إلى حقيقتين علميتين ، عن سبب اختلاف ألوان العسل :

أولى هاتين الحقيقتين العلميتين : أن اختلاف مرعى النحل يؤثر تأثيراً كبيراً في لون العسل .. وذلك لأن نوعية الرحيق وقف على نوعية الأزهار التي يرعاها النحل .

وثاني الحقيقتين العلميتين : أن اختلاف تركيب التربة الكيماوي بين بقاع الأرض المختلفة .. يؤدي إلى اختلاف لون العسل .. ذلك أن رحيق الأزهار يعتمد اعتماداً كبيراً على ما يمتصه النبات من المعادن التي في التربة .. وحيث كانت كمية المعادن تختلف باختلاف بقاع الأرض .. فإن من الطبيعي لذلك أن يختلف لون العسل .

وأما الحقيقة العلمية الثالثة ، في اختلاف لون العسل ، والتي لم تشر إليها الآية القرآنية المارة الذكر ، فهي أن اختلاف لون العسل يعتمد أيضاً على الأقراص الشمعية المستعملة في الخلية .

.. فإذا كانت هذه الأقراص جديدة أعطت عسلاً فاتح اللون .. وإذا كانت قديمة أعطت عسلاً داكناً .

ولكن التمحيص في هذه الحقيقة العلمية المؤثرة في لون العسل .. يدلنا على عظمة القرآن ، كما يشير إلى بلاغته التي اقتضت أن يعطي من الحقائق العلمية ما يتطلبه

الموقف ، وبصورة بالغة اللطف .. حتى يتمكن الإنسان من تفهمها وهضمها تماماً .

ذلك أن هذه الحقيقة العلمية الثالثة ، المؤثرة في لون العسل .. على الرغم من صحتها .. فهي ذات تأثير عارض ليس بطبيعي .. إذ إن اختلاف الأقراص الشمعية بين القدم والجدة ، إنما مرده إلى ما يحدثه الإنسان اليوم ، الذي يضع الأقراص القديمة في خلية النحل ..

أما عسل النحل .. كما يصنعه النحل .. دون أن تتدخل فيه يد الإنسان الطمّاع .. فإنه لا يتأثر مطلقاً بهذه الحقيقة العلمية الثالثة .. لأنه لا أثر لها ، ولا وجود لها ، في الأحوال الطبيعية .

ومن أجل ذلك لم تشر الآية الكريمة إلى هذا الأمر مطلقاً ؛ لأنها تعالج قضية العسل ، كما ينتجه النحل ، وفقاً للوحي الإلهي .

التركيب الكيماوي للعسل :

ومهما يكن من أمر اختلاف لون العسل فإنه بجميع ألوانه يحتوى على المركبات التالية :

١ ـــ الغلوكوز – سكر العنب – (الحقيقة أن الموجود في العسل من السكر هذا إنما هو الغلوكوز (سكر العنب) والفركتوز (سكر الفاكهة) وتركيبهما الكيماوي واحد ، لذلك عددناهما مركباً واحداً ؛ غير أنه تجدر الملاحظة – كما يقول الدكتور ظافر العطار – أن الفركتوز لا يحتاج إلى الأنسولين لحرقه) : وهو يوجد بنسبة ٧٥ ٪ وهو السكر الأساسي الرئيسي الذي تسمح جدران الأمعاء بمروره إلى الدم على عكس بقية الأنواع من السكاكر – وخاصة السكر الأبيض المعروف علمياً بسكر القصب – التي تتطلب من جهاز الهضم إجراء عمليات متعددة من التفاعلات الكيماوية ، والاستقلابات الأساسية ، حتى تتم عملية تحويله إلى سكاكر بسيطة أحادية كالغلوكوز – يمكن للدم امتصاصها من خلال جدر الأمعاء .

هذا وإن سكر (الغلوكوز) الذي في العسل .. بالإضافة إلى كونه سهل الامتصاص .. فإنه سهل الادخار .. ذلك أنه يتجه بعد الامتصاص إلى الكبد مباشرة فيتحول إلى غلوكوجين ، يتم ادخاره فيه لحين الحاجة .. فإذا ما دعت الضرورة

لاستخدامه .. يعاد إلى أصله (غلوكوز) يسير مع الدم ، ليستخدم كقوة محركة في العضلات .

ومن الملاحظ أن القيمة الحرارية للعسل مرتفعة جداً ، لاحتوائه على الغلوكوز .. وقد ثبت أن كيلو غراماً واحداً من العسل يعطي ٣١٥٠ حريرة (كالوري) .

٢ ــ بعض الأحماض العضوية بنسبة ٠,٠٨ ٪ ثمانية إلى عشرة آلاف .

٣ ــ كمية قليلة من البروتينات .

٤ ــ عدد لا بأس به من الخمائر الضرورية لتنشيط تفاعلات الاستقلاب في الجسم ، وتمثيل الغذاء .. ونستطيع أن نتبين الأهمية الكبرى لهذه الخمائر التي توجد في العسل إذا ما عرفنا وظائفها المبينة فيما يلي :

أ ــ خميرة (الأميلاز) : وهي تحول النشاء الذي في الخبز ومختلف المواد النشوية إلى سكر عنب (غلوكوز) .

ب ــ خميرة (الأنفزتاز) : وهي التي تحول سكر القصب (السكر العادي) إلى سكاكر أحادية (غلوكوز وفراكتوز) يمكن امتصاصهما في الجسم .

ج ــ خميرتا (الكاتالاز) و(البيروكسيداز) : الضروريتان في عمليات الأكسدة والإرجاع التي تتم في الجسم .

د ــ خميرة (الليباز) : الخاصة بهضم الدسم والمواد الشحميه .

٥ ــ أملاح معدنية بنسبة ٠,١٨ ٪ وعلى الرغم من ضآلة نسبتها ، فإن لها أهمية كبرى ، تجعل العسل غذاء ذا تفاعل قلوي ، مقاوماً للحموضة ، له أهمية كبرى في معالجة أمراض الجهاز الهضمي المترافقة بزيادة كبيرة في الحموضة (والقرحة) .

ومن أهم العناصر المعدنية التي في العسل : البوتسيوم والكبريت والكالسيوم والصوديوم والفوسفور والمغنزيوم والحديد والمنغنيز .. وكلها عناصر معدنية ضرورية لعملية بناء أنسجة الجسم الإنساني وتركيبها .

٦ ــ كميات قليلة من الفيتامينات .. لها وظائف حيوية (فيزيولوجية) مهمة ، نفصلها على الشكل التالي :

أ ــ فيتامين ب[١] : وهو موجود بنسبة ٠,١٥ ٪ لكل كيلو غرام من العسل وله دور أساسي في عمليات التمثيل الغذائي داخل الجسم ، ولا سيما بالنسبة للجملة العصبية .

ب ــ فيتامين ب[٢] : ويوجد بنسبة ١,٥ ملغ/ كغ .. وهي النسبة نفسها التي يوجد بها في لحم الدجاج .. وهو يدخل في تركيب الخمائر المختلفة التي تفرزها الغدد في الجسم .

ج ــ فيتامين ب[٣] : بنسبة ٢ ملغ/ كغ .. وهو فيتامين مضاد لالتهابات الجلد .

د ــ فيتامين ب[٥] : بنسبة ١ ملغ / كغ .

هـ ــ فيتامين ث : المضاد للنزيف .

و ــ فيتامين ج : بسنبة ٥٠ ملغ/ كغ .. وهو يزيد من مناعة الجسم ومقاومته للأمراض .

٧ ــ حبيبات غروية وزيوت طيارة ، تعطيه رائحة وطعماً خاصاً .

٨ ــ مواد ملونة تعطيه لونه الجميل .

الخواص العلاجية للعسل :

بعد أن تعرفنا على التركيب الكيماوي للعسل ، وأهمية مركباته للإنسان نستطيع أن نخوض في خواصه العلاجية ، مع شيء من الإيجاز والتبسيط .

ويمكننا أن نجمل ذلك في الملاحظات التالية :

أولاً : إن أهم خواص العسل أنه وسط غير صالح لنمو البكتريات (الجراثيم) والفطريات .. لذلك فهو قاتل للجراثيم ، مبيد لها أينما وجد . على عكس ما شاع في الولايات المتحدة منذ ثلاثين سنة من أن العسل ينقل الجراثيم ، كما ينقلها الحليب بالتلوث .

ولقد قام الطبيب الجراثيمي (ساكيت) باختبار أثر العسل على الجراثيم بالتجربة العملية . فزرع جراثيم مختلف الأمراض في العسل الصافي .. وأخذ يترقّب النتائج .

ولشد ما كانت دهشته عظيمة .. عندما رأى أن أنواعاً من هذه الجراثيم قد ماتت خلال بضع ساعات في حين أن أشدها قوة تستطيع البقاء حية خلال بضعة أيام .

لقد ماتت طفيلات الزحار (الديزنتريا) بعد عشر ساعات من زرعها في العسل .. وماتت جراثيم حمى الأمعاء (التيفوئيد) بعد أربع وعشرين ساعة .. وجراثيم التيفوس (أو على الأصح العامل المرضي للتيفوس) ماتت بعد ثمان وأربعين ساعة .. أما جراثيم الالتهاب الرئوي .. فقد ماتت في اليوم الرابع .. وهكذا لم تجد الجراثيم في العسل إلا قاتلاً ومبيداً لها .

كما أن الحفريات التي أجريت في منطقة الجيزة بمصر .. دلت على وجود إناء ، فيه عسل ، داخل الهرم ، مضى عليه ما ينوف على ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام .. وعلى الرغم من مرور هذه المدة الطويلة جداً ، فقد ظل العسل محتفظاً بخواصه لم يتطرق إليه الفساد .. بل إنه ظل محتفظاً بالرائحة المميزة للعسل .

ثانياً : إن العسل الذي يتألف بصورة رئيسية من الغلوكوز (سكر العنب) يمكن استعماله في كل الاستطبابات المبنية على الخواص العلاجية للغلوكوز كأمراض الدورة الدموية ، وزيادة التوتر ، والنزيف المعوي ، وقروح المعدة ، وبعض أمراض المعي في الأطفال ، وأمراض معدية مختلفة مثل التيفوس ، والحمى القرمزية ، والحصبة وغيرها .. بالإضافة إلى أنه علاج ناجع للتسمم بأنواعه .

هذا .. وإن وجوده المستمر ، في خلايا الكبد ، وبنسبة ثابتة تقريباً ، يشير إلى دوره المفيد ، في تحسين وبناء الأنسجة والتمثيل الغذائي .

ولقد استعمل الغلوكوز حديثاً ، وعلى نطاق واسع ، ليزيد من مقاومة الكبد للتسمم .

ثالثاً : في علاج فقر الدم :

يحتوى العسل على عامل فعال جداً له تأثير كبير على الخضاب الدموي (الهيموغلوبين) ولقد جرت دراسات حول هذا الأمر في بعض المصحات السويسرية أكدت التأثير الفعال للعسل على خضاب الدم حيث ازداد قوام الخضاب في الدم من ٥٧٪ إلى ٨٠٪ في الأسبوع الأول أي بعد أسبوع واحد من المعالجة بالعسل . كما لوحظت زيادة في وزن الأطفال الذين يتناولون العسل تفوق الزيادة في الأطفال الذين لا يُعطَوْن عسلاً .

رابعاً : العسل يسرع في شفاء الجروح :

لقد ثبت للدكتور (كريتسكي) أن العسل يسرع في شفاء الجروح .. وعلل ذلك بأن العسل يزيد في كمية (الفلوتاتيون) التي يفرزها الجرح .. تلك المادة التي تنشط نمو الخلايا وانقسامها (الطبيعي) .. الأمر الذي يسرع في شفاء الجروح .

ولقد دلت الإحصائيات التي أجريت في عام ١٩٤٦ على نجاعة العسل في شفاء الجروح .. ذلك أن الدكتور : (س . سمير نوف) الأستاذ في معهد تومسك الطبي .. استعمل العسل في علاج الجروح المتسببة عن الإصابة بالرصاص في ٧٥ حالة .. فتوصّل إلى أن العسل ينشط نمو الأنسجة لدى الجرحى الذين لا تلتئم جروحهم إلا ببطء .

وفي ألمانيا يعالج الدكتور (كرونيتز) وغيره آلاف الجروح بالعسل وبنجاح ، مع عدم الاهتمام بتطهير مسبق ، والجروح المعالجة بهذه الطريقة تمتاز بغزارة إفرازاتها إذ ينطرح منها القيح والجراثيم .

وينصح الدكتور (بولمان) باستعمال العسل كمضاد جراحي للجروح المفتوحة .. ويعرب عن رضاه التام عن النتائج الطيبة التي توصّل إليها في هذا الصدد لأنه لم تحدث التصاقات أو تمزيق أنسجة أو أي تأثير عام ضار .

خامساً : العسل علاج لجهاز التنفس :

استعمل العسل لمعالجة أمراض الجزء العلوي من جهاز التنفس .. ولا سيما — التهاب الغشاء المخاطي وتقشره ، كذلك تقشر الحبال الصوتية وتم المعالجة باستنشاق محلول العسل بالماء الدافىء بنسبة ١٠٪ خلال ٥ دقائق .

وقد بين الدكتور (كيزلستين) أنه من بين ٢٠ حالة عولجت باستنشاق محلول العسل .. فشلت حالتان فقط .. وظهر التحسن في ثماني عشرة حالة .. في حين أن الطرق العلاجية الأخرى فشلت فيها جميعاً .. وهي نسبة عالية في النجاح كما ترى .

ولقد كان لقدرة العسل المطهرة واحتوائه على الزيوت الطيارة أثر كبير في أن يلجأ معمل ماك (MAK) الألماني إلى إضافة العسل إلى مستحضراته المضادة للسعال ، الأمر الذي أدى إلى زيادة تأثير هذه المستحضرات بشكل ملموس .

هذا ويستعمل العسل ممزوجاً بأغذية وعقاقير أخرى كعلاج للزكام .. وقد وجد أن

التحسن السريع يحدث باستعمال العسل ممزوجاً بعصير الليمون بنسبة نصف ليمونة في ١٠٠ غ من العسل .

سادساً : العسل وأمراض الرئة :

استعمل ابن سينا العسل لعلاج السل في أطواره الأولى .. كما أن الدكتور (ن . يوريش) أستاذ الطب في معهد كييف يرى أن العسل يساعد العضوية في كفاحها ضد الإنتانات الرئوية كالسل ، وخراجات الرئة ، والتهابات القصبات وغيرها .. وعلى الرغم من أن البيانات الكثيرة للعلماء دليل على وجود خواص مضادة للسل في العسل ولكن من المؤكد أن العسل يزيد من مقاومة الجسم عموماً .. الأمر الذي يساعد على التحكم في العدوى .

سابعاً : العسل وأمراض القلب :

عضلة القلب .. التي لا تفتأ تعمل باستمرار على حفظ دوران الدم ، وبالتالي تعمل على سلامة الحياة .. لابد لها من غذاء يقوم بأودها .

وقد تبين أن العسل ، لوفرة ما فيه من (غلوكوز) يقوم بهذا الدور .. ومن هنا وجب إدخال العسل في الطعام اليومي لمرضى القلب .

ثامناً : العسل وأمراض المعدة والأمعاء :

إن المنطلق الأساسي لاستعمال العسل كعلاج لكافة أمراض المعدة والأمعاء المترافقة بزيادة في الحموضة ، هو كون العسل غذاء ذا تفاعل قلوي ، يعمل على تعديل الحموضة الزائدة .

ففي معالجة قروح المعدة والأمعاء .. ينصح بأخذ العسل قبل الطعام بساعتين أو بعده بثلاث ساعات .

وقد تبيّن أن العسل يقضي على آلام القرحة الشديدة ، وعلى حمو الجوف والقيء ، ويزيد من نسبة هيموغلوبين الدم عند المصابين بقروح المعدة والاثنى عشر .

ولقد أثبتت التجربة اختفاء الحموضة بعد العلاج بشراب العسل ، كما أظهر الكشف بأشعة رونتجن (التصوير الشعاعي) اختفاء التجويف القرحي في جدار المعدة ، لدى عشرة مصابين بالقرحة من أصل أربعة عشر مريضاً .. وذلك بعد معالجتهم بشراب

العسل ، لمدة أربعة أسابيع .. وهي نسبة في الشفاء عالية معتبرة .

تاسعاً : العسل وأمراض الكبد :

إن كافة الحوادث الاستقلابية تقع في الكبد تقريباً .. الأمر الذي يدل على الأهمية القصوى لهذا العضو الفعال ..

وقد ثبت بالتجربة .. أن (الغلوكوز) الذي هو المادة الرئيسية المكونة للعسل ، يقوم بعمليتين اثنتين :

١ ــ ينشط عملية التمثيل الغذائي في الكبد .

٢ ــ ينشط الكبد لتكوين الترياق المضاد للبكتريا .. الأمر الذي يؤدي إلى زيادة مقاومة الجسم للعدوى .

كما أنه تبين أن للعسل أهمية كبيرة في معالجة التهابات الكبد والآلام الناتجة عن حصوات الطرق الصفراوية .

عاشراً : العسل وأمراض الجهاز العصبي :

إن هذه الخاصة نابعة أيضاً من التأثير المسكن للغلوكوز في حالات الصداع والأرق ، والهيجانات العصبية .. ولقد لاحظ الأطباء الذين يستعملون العسل في علاج الأمراض العصبية ، قدرته العالية على إعطاء المفعول المرجو .

حادي عشر : العسل للأمراض الجلدية والارتيكاريا (الحكة) :

نشر الباحثون العاملون في عيادة الأمراض الجلدية ، سنة ١٩٤٥ ، في المعهد الطبي الثاني ، في موسكو .. مقالة عن النجاح في علاج سبعة وعشرين مريضاً ، من المصابين بالدمامل والخراجات .. تم شفاؤهم بوساطة استعمال أدهان العسل كمراهم .

ولا يخفى ما للأدهان بالعسل من أثر في تغذية الجلد ، وإكسابه نضارة ونعومة .

ثاني عشر : العسل وأمراض العين :

استعمل الأطباء في الماضي العسل كدواء ممتاز لمعالجة التهابات العيون ، واليوم وبعد أن اكتشفت أنواع كثيرة من العقاقير والمضادات الحيوية ، لم يفقد العسل أهميته .. فقد دلت الإحصائيات على جودة العسل في شفاء التهابات الجفون والملتحمة ، وتقرح

القرنية ، وأمراض عينية أخرى .

ومن أكثر المتحمسين للاستطباب بمراهم العسل ، الأساتذة الجامعيون في منطقة (أوديسا) في الاتحاد السوفيتي ، وخصوصاً ، الأستاذ الجامعي « فيشر » والدكتور « ميخايلوف » .. حتى إن تطبيب أمراض العين بمراهم العسل انتشر في منطقة (أوديسا) كلها .

وقد كتب الدكتور ع . ك أوساولكو مقالاً ضمنه مشاهداته وتجاربه في استعمال العسل لأمراض العين ، وقد أوجز النتائج التي توصل إليها في النقاط التالية :

١ ـــ يبدي العسل – بدون شك – تأثيراً ممتازاً على سير مختلف آفات القرنية الالتهابية ، فكل الحالات المعندة على العلاجات العادية ، والتي طبقنا فيها المرهم ذا السواغ العسلي تحسنت بسرعة غريبة ، كما أن عدداً من حادثات التهاب القرنية على اختلاف منشئه ، أدى تطبيق العسل صرفاً فيها إلى نتائج علاجية طيبة .

٢ ـــ يمكننا أن ننصح باستعمال العسل كسواغ من أجل تحضير معظم المراهم العينية باعتبار أن للعسل نفسه تأثيراً ممتازاً على سير جميع آفات القرنية ..

٣ ـــ من المؤكد أن ما توصلنا إليه من نتائج يدعو المؤسسات الصحية كافة والتي تتعاطى طب العيون أن تفتح الباب على مصراعيه لتطبيق العسل على نطاق واسع في معالجة أمراض العيون .

ثالث عشر : العسل ومرض السكر :

نشر الدكتور (دافيدوف) الروسي عام ١٩١٥ خلاصة لأبحاثه في استعمال العسل لمرض السكر .. فبين ما خلاصته أن استعمال العسل لمرض السكر مفيد جداً في الحالات التالية :

١ ـــ كنوع من الحلوى ليس منها ضرر .

٢ ـــ كمادة غذائية تضاف إلى نظام المريض الغذائي .. لأن المريض إذا تناول العسل ، لا يشعر بعده بأي رغبة في تناول أي نوع من الحلوى الممنوعة عليه .. وهذا عامل مهم في الوقاية .

٣ ـــ كمادة مانعة لوجود مادة (الأسيتون) الخطرة في الدم ، إذ إن ظهور

(الأسيتون) في الدم يحتم استعمال السكريات ، واتباع نظام أكثر حرية في الغذاء ، على الرغم من مضارها للمريض ، وذلك للحيلولة دون استمرار وجوده ، والعسل باعتباره مادة سكرية يعمل على الحؤول دون وجوده .

٤ ــ كمادة سكرية لا تزيد ، بل على العكس تنقص ، من إخراج سكر العنب ، وإطراحه ، وقد تم تفسير ذلك علمياً بعد أن تم اكتشاف (هرمون) مشابه (للأنسولين) في تركيب العسل الكيميائي .

هذا وقد بين الدكتور (لوكهيد) الذي كان يعمل في قسم الخمائر بأوتاوا ، عاصمة كندا أن بعض الخمائر المقاومة للسكر وغير الممرضة للإنسان تظل تعيش في العسل .

رابع عشر : العسل واضطرابات طرح البول :

يرى الدكتور (ريمي شوفان) أن الفركتوز (سكر الفواكه) - الذي يحتوي العسل على نسبة عالية منه - يسهل الإفراز البولي أكثر من الغلوكوز (سكر العنب) ، وأن العسل أفضل من الاثنين معاً ، لما فيه من أحماض عضوية ، وزيوت طيارة وصباغات نباتية تحمل خواص فيتامينية .

ولئن كثر الجدل حول العامل الفعال الموجود في العسل الذي يؤدي إلى توسيع الأوعية الكلوية ، وزيادة الإفراز الكلوي (الإدرار) إلا أن تأثيره الملحوظ لم ينكره أحد منهم ، حتى إن الدكتور (ساك) بيّن أن إعطاء مائة غرام ثم خمسين غراماً من العسل يومياً أدى إلى تحسين ملموس ، وزوال كل من التعكر البولي والجراثيم العضوية .

خامس عشر : العسل والأرق وأمراض الجهاز العصبي :

لقد أثبتت المشاهدات السريرية الخواص الدوائية للعسل في معالجة أمراض الجهاز العصبي : فقد بين البروفسور (ك . بوغوليبوف) و(ف . كيسيليفا) نجاح المعالجة بالعسل لمريضين مصابين بداء الرقص (وهو عبارة عن تقلصات عضلية لا إرادية تؤدي إلى حركات عفوية في الأطراف) ففي فترة امتدت ثلاثة أسابيع أوقفت خلالها كافة المعالجات الأخرى ، حصل كل من المريضين على نتائج باهرة ، لقد استعادا نومهما الطبيعي ، وزال الصداع ، ونقص التهيج ، والضعف العام .

سادس عشر : العسل ومرض السرطان :

لقد ثبت لدى العلماء المتخصصين أن مرض السرطان معدوم بين مربي النحل المداومين على العمل بين النحل .

ولكنهم حاروا في تفسير هذه الظاهرة .

فمال بعضهم إلى الاعتقاد بأن هذه المناعة ضد مرض السرطان ، لدى مربي النحل .. مردّها إلى سم النحل .. الذي يدخل مجرى الدم باستمرار ، نتيجة لما يصابون به من لسع النحل أثناء عملهم .

ومال آخرون إلى الاعتقاد بأن هذه المناعة هي نتيجة لما يتناوله مربو النحل من العسل المحتوي على كمية قليلة من الغذاء الملكي ، ذي الفعالية العجيبة ، وكمية أخرى من حبوب اللقاح .

ولقد مال كثير من العلماء إلى الرأي الثاني .. خصوصاً بعد ما تم اكتشافه من أن نحل العسل ، يفرز العناصر الكيماوية على حبوب اللقاح ، تمنع انقسام خلاياها .. وذلك تمهيداً لاختزانها في العيون السداسية ، إن هذه المواد الكيماوية الغريبة ، التي تحدّ من انقسام حبوب اللقاح ، والتي يتناولها الإنسان بكميات قليلة جداً مع العسل .. لربما كان لها أثر كبير في الحد من النمو غير الطبيعي لخلايا جسم الإنسان .. وبالتالي منع الإصابة بمرض السرطان .

وعلى كل حال .. ما زالت الفكرة مجرد شواهد وملاحظات .. لم يبت العلم فيها بشيء شأنها في ذلك شأن الكثير من الملاحظات التي لم يبت فيها .. ولا يزال مرض السرطان لغزاً يحير الأطباء .. ويجهد الدارسين .

سابع عشر : العسل والأمراض النسائية :

إقياء الحامل ، وحالات الغثيان التي تصاب بها ، أمور أَرَّقت الأطباء ، لقد أجهدهم إيجاد الدواء المناسب ، حتى إن الطب النفسي قد خاض غمار تطبيب هذه الحالات ، على الرغم من عدم جدواه في ذلك ، بسبب طول مدة المعالجة ، وغلاء كلفته المادية .

ولقد توصل حديثاً بعض العلماء إلى استعمال حقن وريدية تحتوي على ٤٠٪ من محلول العسل - الصافي - كان لها أثر فعال في الشفاء .

هذا وقد تبين أن إدخال العسل في الراتب الغذائي للمرأة الحامل يؤدي دوراً كبيراً في

مساعدتها أثناء فترة الحمل .

ثامن عشر : العسل غذاء مثالي :

إن العسل غذاء مثالي لجسم الإنسان ، يقيه الكثير من المتاعب ، التي تجلبها له بقية الأغذية الاصطناعية الأخرى .

وإن القيمة الغذائية للعسل تكمن في خاصيتين اثنتين متوافرتين فيه :

١ ــ إن العسل غذاء ذو تفاعل قلوي .. يفيد في تطرية وتنعيم جهاز الهضم .. وتعديل شيء من الحموضة الناتجة عن الأغذية الأخرى .

٢ ــ إن العسل يحتوي على مضادات البكتريا (الجراثيم) .. فهو بذلك يحمي الأسنان من نقص الكالسيوم ، وبالتالي يحول دون النخر ، على نقيض السكاكر الأخرى ، التي تتحلل بقاياها بوساطة البكتريا ، الأمر الذي يؤدي إلى تكوين أحماض ، منها حمض اللبن ، الذي يمتص الكالسيوم من الأسنان تدريجاً .. فيحدث النخر فيها .

تاسع عشر : العسل غذاء جيد للأطفال والناشئين :

فهو يعمل على تغذية الطفل ، ولقد جرب الأثر الفعال للعسل على الأطفال في بعض المصحات السويسرية حيث جرى تقسيم الأطفال إلى ثلاث فئات : قُدِّم للفئة الأولى نظام غذائي اعتيادي ، وقُدّم للفئة الثانية النظام السابق نفسه مضافاً إليه العسل وقدّم للفئة الثالثة النظام الغذائي نفسه للفئة الأولى مع إضافة أدوية مختلفة عوضاً عن العسل لزيادة الشهية أو لرفع نسبة الخضاب .

فأعطت الفئة الثانية التي أعطيت عسلاً أحسن النتائج بالنسبة للحالة العامة ، وأعلى زيادة في الوزن ، وأعلى نسبة لخضاب الدم ، ويرى الدكتور (زايس) أن المواد الفعالة في العسل التي تؤثر على قوام الخضاب هي ما يحويه العسل من مواد معدنية كالحديد والنحاس والمنغنيز .

العشرون : العسل يقاوم الشيخوخة ، ويؤخر ظهور أعراضها ، بفضل ما يحويه من عناصر سهلة الهضم والامتصاص ، وبتأثير ما به من غذاء ملكي ، يشتمل على بعض الهرمونات المنشطة .

الحادي والعشرون : العسل مفيد ، لتزويد أصحاب الأعمال ، بكفاءة المجهود اللازم

لتأدية عملهم الشاق ، وبصورة خاصة يحتاج إليه الرياضيّون بعد الانتهاء من تدريباتهم الشاقة لسهولة امتصاصه ، واتحاد مواده القلوية مع حمض اللبن الذي يحدث الشعور بالتعب والإرهاق .

عسل النحل والمواد السكرية :

بعد هذه النظرة العجلى في الخواص العلاجية للعسل لا بأس في أن نلقي نظرة سريعة على مزايا عسل النحل بالنسبة للسكر .

ذلك أن عسل النحل يتصف بكثير من المزايا ، إذا ما قورن بالمواد السكرية المستعملة ، ويمكننا أن نجمل تلك المزايا بالملاحظات التالية :

١ — إن تمثيل عسل النحل في الجسم سهل وسريع .

٢ — لا يضر عسل النحل بالكلى ولا يسبب تلف أنسجتها .

٣ — يزود عسل النحل الفرد بأعظم وحدات النشاط بأقل صدمة للجهاز الهضمي .

٤ — لا يسبب اضطرابات في الأغشية الرقيقة للقناة الهضمية .

٥ — يساعد الرياضيين على استعادة قواهم سريعاً بعد المجهود الشاق .

٦ — له تأثير طبيعي كامن ويجعل عملية الإخراج سهلة .

ومما يلفت النظر أن تناول كميات كبيرة من عسل النحل بدلاً من أي مادة حلوة ثانية ، لا يحدث أي ضرر للجسم ، بل نجد أن النفع منه أكيد ، وقد وجد أن العسل وسط صالح يساعد على حفظ الفيتامينات ، في حين أنه وسط غير صالح للجراثيم بل مبيد لها .

٥ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر** ﴾ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه البخاري عند تفسيره هذه الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدْعو : « أعوذ بك من البخل والكسل ، والهرم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة القبر ، وفتنة الدجّال ، وفتنة المحيا والممات » .

٦ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ يقول ابن كثير : (والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح وقيل الدماغ) .

أقول : إن كثيراً من الناس يغلطون بين العقل الذي عليه مدار التكليف والعقل الذي يقبل التكليف ويلتزم به ، فهذا طور فوق ذلك الطور ، والعقل في الاصطلاح الشرعي : قد يطلق على هذا أو على هذا ، كما أن كثيرين من الناس يغلطون في موضوع القلب في الاصطلاح الشرعي ، إن هناك القلب الحسي الذي ينبض بالدم ، وهناك قلب مرتبط به نوع ارتباط هو الذي يتحدث عنه الشارع وهو صاحب التعمق بالإيمان ، أو بالكفر ، أو بالمرض ، أو بالسلامة ، وهذا القلب مقرّه الصدر لا الدماغ ، فقد حدّد الله مكانه بقوله تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ (الحج : ٤٦) هذا القلب هو مركز العقل الذي يقبل التكليف ، ويتفاعل معه ، وعنه تنبثق الإرادة الحميدة إن كان سليماً ، ولقد تكلّمنا - عن مثل هذه الشؤون تفصيلاً في كتابنا (تربيتنا الروحية) فليراجع ، لأن فيه تصحيحاً للكثير من المفاهيم ، إن للدماغ محله في المحاكمات ، ومن ثمّ اعتبره بعضهم هو العقل ، وللقلب محله في القرارات ومن ثمّ اعتبره بعضهم هو العقل ، والأمر فيه تفصيلات ، وله حيثيات ، وهناك مصطلحات لغوية وشرعية وعرفية يجب أن يحسب لها حسابها في فهم هذا الموضوع ، كما أن هناك حقائق علمية ينبغي أن تعرف ، وعلى ضوء ذلك كله يفهم محل الدماغ ، ومحل القلب ، في قضية العقل .

٧ - ذكر ابن كثير بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سرابيل تقيكم الحر** ﴾ قول عطاء الخراساني وهو : « إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً** ﴾ . وما جعل من السهل أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين** ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى قوله : ﴿ **وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد** ﴾ (النور : ٤٣) لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ **سرابيل تقيكم الحر** ﴾ وما تقي من البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر .

والذي أقوله : إن هذا القرآن خاطب البشر كلهم بما يسع البشر جميعاً ، ومن إعجازه أن هذا الخطاب للبشر كان من الإعجاز بحيث وسع العصور والأقوام بما يقربهم ولا يبعدهم ، وبما يألفون ، لا بما ينكرون ، ومن ثم نجد أهل كل عصر فهموا القرآن

بثقافة عصرهم ، ولم يجدوا فيه مستنكراً ، وهكذا ، ومن ثم فإنه ما دام يخاطب العرب أولاً فإن العربي يشعر أنه يخاطب من حيث يعرف .

٨ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون** ﴾ يقول ابن كثير : « فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، فيشرف عنق منها على الخلائق ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه فتقول : إنيّ وُكِّلت بكل جبار عنيد ، الذي جعل مع الله إلهاً آخر وبكذا ، وبكذا ، وتذكر أصنافاً من الناس كما جاء في الحديث ، ثم تنطوي عليهم وتتلقّطهم من الموقف كما يتلقط الطائر الحب . قال الله تعالى : ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * ، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً * ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً** ﴾ . (الفرقان : ١٢ - ١٤) وقال تعالى : ﴿ **ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً** ﴾ . (الكهف : ٥٣) وقال تعالى : ﴿ **لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردّها ولا هم ينظرون** ﴾ (الأنبياء : ٤٩ ، ٥٠) .

٩ ـــ عند قوله تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ قال النسفي : (أي : من أمور الدين ، أما في الأحكام المنصوصة فظاهر وكذا فيما ثبت بالسنة ، أو بالإجماع ، أو بقول الصحابة ، أو بالقياس ، لأن مرجع الكل إلى الكتاب ، حيث أمرنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعته بقوله تعالى : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ ، وحثنا على الإجماع فيه بقوله : ﴿ **ويتبع غير سبيل المؤمنين** ﴾ وقد رضي رسول الله ﷺ لأمته باتباع أصحابه بقوله : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرف الاجتهاد والقياس ، مع أنه أمرنا به بقوله : ﴿ **فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ فكانت السنة والإجماع وقول الصحابي والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب فتبين أنه كان تبياناً لكل شيء) اهـ .

أقول : وإن أعظم ما وقع فيه المسلمون من أخطاء خطآن :

الخطأ الأول : هو نسيانهم أنه ما من قضية من قضايا الوجود إلا ولله فيها الحكم الحق ، وأنه لا يسع المسلم أن يخرج عن حكم الله أو يتخلى عنه ، ونتج عن هذا أن كثيراً من أبناء المسلمين - حكومات وأفراداً - أخذوا يستوردون الأفكار والعادات والقوانين

والدساتير بدون قيود .

الخطأ الثاني : أنه قد غاب عن كثير من المسلمين أن القرآن إنما كان تبياناً لكل شيء ، بأن ذكر الحكم صراحة ، أو دلّ على الطريق الذي يسلك للوصول إلى الحكم من سنة أو قياس أو إجماع ، ومن ثم قامت مدارس الاجتهاد التي تضع نظريات استنباط الحكم ، وألفت الكتب الكثيرة التي تتحدث عن الأحكام ، فأخطأ بعض الناس بأن نظروا إلى عمل الأئمة المجتهدين ومدارسهم على أنه خارج عن الدين ، أو زائد عليه .

نقول :

١ ـــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والله فَضّل بعضكم على بعض في الرزق** ﴾ قال صاحب الظلال :

« واللمسة الثانية في الرزق . والتفاوت فيه ملحوظ . والنص يرد هذا التفاوت إلى تفضيل الله لبعضهم على بعض في الرزق . ولهذا التفضيل في الرزق أسبابه الخاضعة لسنة الله . فليس شيء من ذلك جزافاً ولا عبثاً . وقد يكون الإنسان مفكراً عالماً عاقلاً ، ولكن موهبته في الحصول على الرزق وتنميته محدودة ، لأن له مواهب في ميادين أخرى . وقد يبدو غبياً جاهلاً ساذجاً ولكن له موهبة في الحصول على المال وتنميته . والناس مواهب وطاقات . فيحسب من لا يدقق أن لا علاقة للرزق بالمقدرة ، وإنما هي مقدرة خاصة في جانب من جوانب الحياة . وقد تكون بسطة الرزق ابتلاء من الله ، كما يكون التضييق فيه لحكمة يريدها ويحققها بالابتلاء .. وعلى أية حال فإن التفاوت في الرزق ظاهرة ملحوظة تابعة لاختلاف في المواهب – وذلك حين تمتنع الأسباب المصطنعة الظالمة التي توجد في المجتمعات المختلفة – والنص يشير إلى هذه الظاهرة التي كانت واقعة في المجتمع العربي ؛ ويستخدمها في تصحيح بعض أوهام الجاهلية الوثنية التي يزاولونها ، والتي سبقت الإشارة إليها . ذلك حين كانوا يعزلون جزءاً من رزق الله الذي أعطاهم ويجعلونه لآلهتهم المدعاة . فهو يقول عنهم هنا : إنهم لا يردون جزءاً من أموالهم على ما ملكت أيمانهم من الرقيق . (وكان هذا أمراً واقعاً قبل الإسلام) ليصبحوا سواءً في الرزق ، فما بالهم يردون جزءاً من مال الله الذي رزقهم إياه على آلهتهم المدّعاة ؟ ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ فيجازون النعمة بالشرك . بدل الشكر للمنعم المتفضل الوهاب ؟ »

٢ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ألم يروْا إلى الطير مسخّرات في جَوِّ السماء** ﴾ قال

صاحب الظلال : (ومشهد الطير مسخرات في جو السماء مشهد مكرور ، قد ذهبت الألفة بما فيه من عجب ، وما يتلفت القلب البشري عليه إلا حين يستيقظ ، ويلحظ بعين الشاعر الموهوب . وإن تحليقة طائر في السماء لتستجيش الحس الشاعر إلى القصيدة حين يلمسه . فينتفض للمشهد القديم الجديد .. ﴿ **ما يمسكهن إلا الله** ﴾ بنواميسه التي أودعها فطرة الطير ، وفطرة الكون من حولها ، وجعل الطير قادراً على الطيران ، وجعل الجو من حولها مناسباً لهذا الطيران . وأمسك بها الطير لا تسقط وهي في جو السماء : ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ .. فالقلب المؤمن هو القلب الشاعر ببدائع الخلق والتكوين ، المدرك لما فيها من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر . وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق ، بالإيمان والعبادة والتسبيح ، والموهوبون من المؤمنين هبة التعبير ، قادرون على إبداع ألوان من روائع القول في بدائع الخلق والتكوين ، لا يبلغ إليها شاعر لم تمس قلبه شرارة الإيمان المشرق الوضيء » .

٣ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ قال صاحب الظلال :

(والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشرَّدون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة . وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب ، وظل السكن ليس غريباً عن ظل الغيب ، فكلاهما فيه خفاء وستر . والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة .

ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت ، بمناسبة هذا التعبير الموحي : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ .. فهكذا يريد الإسلام البيت مكاناً للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري ، هكذا يريده ، مريحاً تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة ، أو باطمئنان مَن فيه بعضهم لبعض ، وبسكن من فيه كل إلى الآخر : فليس البيت مكاناً للنزاع والشقاق والخصام . إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام .

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته ، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه . فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان ، ولا يقتحمه أحد - بغير حق - باسم السلطان ، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب ، ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم

أو غيبة ، فيروع أمنهم ، ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت ، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق) .

ولننتقل إلى القسم الثاني في السورة :

فبعد أن أقام الله الحجة على الخلق بوجوب الدخول في الإسلام كله ، وذكّرهم بما أعده للكافرين والمسلمين يوم القيامة ، وأقام الحجة على مجيء يوم القيامة ، يأتي القسم الثاني ليقرّر ويوجِّه ويربي ، ويذكّرهم بجوانب من الإسلام ينبغي الدخول فيها ، فهو يبني على ما سبقه في السورة ، ويفصّل في موضوع الدخول في الإسلام كله ، ويفصِّل في موضوع اجتناب اتباع خطوات الشيطان ، ويذكر أشياء كثيرة سنرى محل كل منها في السياق .

....

يبدأ القسم بقوله تعالى ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ... ﴾ إنه بعد هذه الجولات الطويلة التي حدثتنا عن الله عز وجل :

﴿ **هو الذي أنزل من السماء** .. ﴾
﴿ **وهو الذي سخّر البحر** ... ﴾
﴿ **والله يعلم ما تسرون وما تعلنون** .. ﴾
﴿ **والله أنزل من السماء ماءً** .... ﴾
﴿ **والله خلقكم ثمّ يتوفاكم** ... ﴾
﴿ **والله فَضّل بعضكم على بعض** ... ﴾
﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً** ... ﴾
﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم** ... ﴾
﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ... ﴾
﴿ **والله جعل لكم مما خلق ظلالاً** ... ﴾

بعد هذا الحديث الطويل عن الله عز وجل ، يأتي القسم الثاني في السورة مُبتَدئاً بقوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ... ﴾ فالله الذي عرفتموه والذي هذا شأنه يأمركم بالعدل والإحسان ..

القسم الثاني

ويتألف من مقدمة هي آية واحدة وخمس مجموعات ، وسنعرضه على أجزاء لطوله .

مقدمة المقطع

وهي الآية (٩٠) وهذه هي :

* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

التفسير :

بعد أن حدثنا الله تعالى عن كتابه أنه تبيان لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين يأتي قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمر بالعدل** ﴾ في كل شيء ، في أداء الحقوق ، والقيام بالواجبات ، فيحدد الحقوق ، ويحدد الواجبات ، في السياسة ، والاقتصاد والاجتماع ، فلا عدل إلا ما أمر به ، ولا يتحقق العدل في الحياة البشرية إلا بإقامة كتابه وسنة رسوله ﷺ ﴿ **والإحسان** ﴾ وهو معنى زائد على العدل . فالعدل في كل شيء حسن والإحسان فعل الأحسن ﴿ **وإيتاء ذي القربي** ﴾ أي وإعطاء ذي القرابة بأن توصل رحمه وهي وإن كانت جزءاً من العدل ونوعاً من الإحسان إلا أنها مقصودة بذاتها في شريعة الله ﴿ **وينهى عن الفحشاء** ﴾ أي عن الذنوب المفرطة في القبح ﴿ **والمنكر** ﴾ أي ما تنكره العقول السليمة والفطر المستقيمة ﴿ **والبغي** ﴾ وهوالعدوان على الناس ، سواء كان العدوان مادياً كأكل أموالهم ظلماً . أو معنوياً بالتطاول على الناس كِبْراً أو عُجْباً ﴿ **يعظكم** ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أي تتعظون بمواعظ الله .

كلمة في السياق :

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى ﴿ **ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ فجاءت تلخص مقاصد هذا القرآن بأن الله في قرآنه يأمر بكذا وينهى عن كذا .....

فكتابه تبيان للعدل والإحسان ، وصلة الرحم ، وتبيان للفحشاء والمنكر والبغي . فالصلة بين هذه الآية وما قبلها واضحة .

وإذا نظرنا إلى الآية من خلال السياق الكلي للقرآن ، فإننا نجد الآية تفصيلاً لقوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾ أي في الإسلام جميعاً الذي هو عدل وإحسان وصلة رحم ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ التي هي فحشاء ومنكر وبغي كما قال تعالى عن الشيطان ﴿ **إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ .

فالآية إذن تفصّل الأمر الذي جاءت السورة لخدمته ، وتفصّل النهي الذي جاءت السورة لتوضيحه

ولنعد إلى السياق :



المجموعة الأولى من القسم الثاني

وتمتد من الآية (٩١) إلى نهاية الآية (٩٧) وهذه هي

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ
عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا
مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ
مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن
يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ
قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾
وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ
حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

بين يدي المجموعة :

بعد مقدمة القسم الثاني تأتي المجموعة الأولى ، وهي شديدة الارتباط بالسياق المباشر لها من حيث إنها آمرة بالعدل ، ناهية عن الفحشاء والمنكر ، ومن حيث كونها تبياناً

وهدى ، ومن حيث إنها مختومة بالبشارة للمسلمين ، فهي مرتبطة ببداية القسم الثاني ، ونهاية القسم السابق .

كما أنها مرتبطة بالسياق الكلي للقرآن في كونها مفصِّلة لحيز محورها من سورة البقرة . يأمر الله عز وجل فيها بالوفاء بالعهود ، والمواثيق ، والمحافظة على الأيْمان المؤكَّدة :

التفسير :

﴿ **وأوْفوا بعهد الله إذا عاهدتم** ﴾ وأعظم العهود هو البيعة لرسول الله ﷺ ثم لخلفائه الراشدين ولأئمة العدل . ويدخل في الآية كل عهد التزم به المسلمون ﴿ **ولا تنقضوا الأيْمان بعد توكيدها** ﴾ بعد توثيقها وتأكيدها باسم الله ، والمراد بالأيْمان هنا : الأيْمان الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيْمان التي هي واردة على حث أو منع ﴿ **وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً** ﴾ أي شاهداً ورقيباً ، لأن الكفيل راع لحال المكفول به ، مهيمن عليه ﴿ **إن الله يعلم ما تفعلون** ﴾ ومن ذلك بركم وحنثكم فيجازيكم به ﴿ **ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً** ﴾ أي ولا تكونوا في نقض الأيْمان كالمرأة التي تنحي على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته ، فتجعله أنقاضاً ﴿ **تتخذون أيْمانكم دَخَلًا بينكم** ﴾ أي خديعة ومكراً ومفسدة وخيانة ﴿ **أن تكون أمة هي أربىٰ من أمة** ﴾ أي بسبب أن تكون أمة هي أزيد عدداً وأوفر مالًا من الأمة التي عاقدتموها . قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز ، فَنهُوا عن ذلك ﴿ **إنما يبلوكم الله به** ﴾ أي إنما يختبركم الله بكونهم أربى لينظر - وهو أعلم - أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكّدتم من أيمان الحلف ، أم تغترون بالكثرة أو بالثروة فتنقضون وتنكثون ﴿ **وليبيننَّ لكم يوم القيامة** ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب ﴿ **ما كنتم فيه تختلفون** ﴾ فاحذروا أن تخالفوا دين الله وشرعه ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم** ﴾ أيها الناس ﴿ **أمةً واحدة** ﴾ حنيفة مسلمة متصافية أي لوفّق بينكم ولما جعل اختلافاً ، ولا تباغض ولا شحناء ﴿ **ولكن يضل من يشاء** ﴾ أي من علم منه اختيار الضلالة ﴿ **ويهدي من يشاء** ﴾ أي من علم منه اختيار الهداية ، ومن ثم لم تكونوا أمة واحدة ، واقتضى ذلك تحالفات وعهوداً ، وغير ذلك ﴿ **وَلَتُسألُنَّ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **عَمَّا كنتم تعملون** ﴾ أي عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير

والقطمير ، ثم كرر النهي عن اتّخاذ الأيْمان دخلاً بينهم ، تأكيداً عليهم وإظهاراً لشناعة الفعل فقال ﴿ **ولا تتخذوا أيْمانكم دَخَلاً بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها** ﴾ أي فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها ﴿ **وتذوقوا السوء** ﴾ في الدنيا قبل الآخرة ﴿ **بما صددتم عن سبيل الله** ﴾ أي بصدودكم عن سبيل الله ، وخروجكم من الدين ، أوبصدكم غيركم ، إما لاسْتِنَانه بكم ، أو لرؤية الكافر فسادَكم فيظنه فساداً في دينكم فيترك دين الله ، حذّر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دَخَلًا لئلا تزل قدم بعد ثبوتها . وهذا مَثل لمن كان محلّ الاستقامة فحاد عنها ، وزلّ عن طريق الهدى بسبب الأيْمان الحانثة المشتملة على الصدود عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين فانصدَّ بسببه عن الدخول في الإسلام . ثم قال تعالى ﴿ **ولكم عذاب عظيم** ﴾ أي في الآخرة ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلًا** ﴾ أي لا تقاضوا عن الأيْمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ؛ فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خيراً له ﴿ **إنما عند الله هو خير لكم** ﴾ أي ثواب الله وجزاؤه خير لمن رجاه ، وآمن به ، وألزم نفسه به ، وحفظ عهده رجاءَ موعوده ، ولهذا قال : ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ ثم علل ذلك فقال : ﴿ **ما عندكم** ﴾ أي من أعراض الدنيا ﴿ **ينفد** ﴾ أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود ومحصور متناهٍ ﴿ **وما عند الله** ﴾ من خزائن رحمته ﴿ **باق** ﴾ أي لا ينفد أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع له فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ **ولنجزينّ الذين صبروا** ﴾ على مشاق الإسلام ﴿ **أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ هذا قسم منه تعالى مؤكّد أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي ويتجاوز عن سيئها . ثم وعد الله من آمن وعمل صالحاً بالحياة الطيبة في الدنيا ، والجزاء الحسن فقال : ﴿ **من عمل صالحاً** ﴾ العمل الصالح : هو العمل الموافق لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ﴿ **من ذكر أو أنثى** ﴾ من بني آدم ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ أي وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، شرط الإيمان ، لأن أعمال الكفار غير معتد بها ﴿ **فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ أي في الدنيا قال ابن كثير : (والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت) . ﴿ **ولنجزينّهم أجرهم** ﴾ أي في الآخرة ﴿ **بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

نقول :

١ ـــ قال صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تتخذوا أيْمانكم دَخَلاً بينكم**

أن تكون أمة هي أربىٰ من أمة ﴾ : أي بسبب كون أمة أكثر عدداً أو قوة من أمة . وطلباً للمصلحة مع الأمة الأربىٰ . ويدخل في مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقاً لما يسمى الآن (مصلحة الدولة) فتعقد دولة معاهدةً مع دولة أو مجموعة دول ، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أربى أو مجموعة دول أربى في الصف الآخر ، تحقيقاً لمصلحة الدولة ، فالإسلام لا يقرّ مثل هذا المبرر ، ويجزم بالوفاء بالعهد ، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدخل . ذلك في مقابل أنه لا يقر تعاهداً ولا تعاوناً على غير البر والتقوى . ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم والفسوق والعصيان ، وأكل حقوق الناس ، واستغلال الدول والشعوب .. وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية ، وبناء الدولة الإسلامية ، فنعم العالم بالطمأنينة والثقة ، والنظافة في المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام .

والنص هنا يحذّر من مثل ذلك المبرر ، وينبه إلى أن قيام مثل هذه الحالة : ﴿ **أن تكون أمة هي أربى من أمة** ﴾ هو ابتلاء من الله لهم ، ليمتحن إرادتهم ووفاءهم وكرامتهم على أنفسهم ، وتحرجهم من نقض العهد الذي أشهدوا الله عليه : ﴿ **إنما يبلوكم الله به** ﴾ .

٢ ــ وقال صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تتخذوا أيمانكم دَخلاً بينكم** ... ﴾ (واتخاذ الأيمان غشاً وخداعاً يزعزع العقيدة في الضمير ، ويشوّه صورتها في ضمائر الآخرين : فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قَسَمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها . وهو في الوقت ذاته يشوّه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخَل ، ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيء الذي يضربه للمؤمنين بالله .

ولقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم في وعدهم ، ومن إخلاصهم في أيمانهم ، ومن نظافتهم في معاملاتهم . فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم) .

٣ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِيَنَّه حياة طيبة** ﴾ قال صاحب الظلال : (وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض . لايهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال . فقد تكون به ،

وقد لا يكون معها . وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية : فيها الاتصال بالله ، والثقة به ، والاطمئنان إلى رعايته ، وستره ورضاه . وفيها الصحة والهدوء ، والرضى والبركة ، وسكن البيوت ومودات القلوب . وفيها الفرح بالعمل الصالح ، وآثاره في الضمير ، وآثاره في الحياة .. وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل ، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله .

وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة .

وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون في الدنيا ، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات . فما أكرمه من جزاء) .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن هذه الآيات أمرت بالعدل ، ونهت عن الظلم ، وبينت حكم الله في قضية ، وهَدَت المسلمين إلى أمر رشد في موضوع ، وبشّرت المسلمين بما لهم عند الله في الدنيا والآخرة ، فارتباط هذه المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين * إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء** ... ﴾ .

إن ارتباطها بما قبلها واضح ، فهي وعظ ، وفيها أمر ونهي ، وفيها هدى وبشرى وبيان .

وأما ارتباطها بمحورها من سورة البقرة فإنها تحدثت عن جزء من الإسلام ، ونهت عن بعض خطوات الشيطان .

ولو أنك فتّشت عمّا تعطف عليه قوله تعالى : ﴿ **وأوْفوا بعهد الله** ... ﴾ لما وجدته في سورة النحل ، ولكنك لو وضعت هذه الآيات بعد قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

﴿ **وأوْفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيْمان بعد توكيدها** ... ﴾ . لرأيت الارتباط واضحاً ، ولعله مما يزيد الربط وضوحاً هو ما ذكر ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى بريدة في قوله تعالى :﴿ **وأوْفوا بعهد الله إذا عاهدتم** ﴾ . قال : نزلت في

بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام فقال : « ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم** ﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿ **ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾ البيعة ، لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام » .

فالدخول في الإسلام ترافقه بيعة لرسول الله ﷺ ، وأعلى ما يجب الوفاء به من العهود والأيمان هذه البيعة ، والآيات - وإن كانت تشمل هذه الحالة وغيرها - إلا أن هذه الحالة داخلة فيها ، ومن ثم فالصلة بين الدخول في السِّلم ، والوفاء بالعهود واضحة .

فلننتقل إلى المجموعة الثانية في هذا القسم .



المجموعة الثانية من القسم الثاني

وهي تمتد من الآية (٩٨) إلى نهاية الآية (١٠٣) وهذه هي :

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ
وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ
ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ
وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

بين يدي المجموعة الثانية :

لقد كانت خاتمة القسم الأول وبداية القسم الثاني من سورة النحل هو قوله تعالى : **﴿ ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين * إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون ﴾** . تأمل صلة ذلك بالمجموعة الثانية ابتداءً وانتهاءً : **﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون * وإذا بَدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما يُنَزِّل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنمايُعلِّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾** .

فالصلة بين هذه الآيات ونهاية القسم السابق واضحة والصلة بينها وبين ما قبلها مباشرة كذلك وواضحة .

فالآية السابقة عليها ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ...** ﴾ فالآيات تتحدث عن عمل صالح وعن إيمان .

التفسير :

﴿ **فإذا قرأت القرآن** ﴾ أي فإذا أردت قراءة القرآن ﴿ **فاستعذ بالله من الشيطان** ﴾ أي إبليس ﴿ **الرجيم** ﴾ أي المطرود أو الملعون ، هذا أمر الله تعالى لعباده إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم . وهذا ندب ليس بواجب . حكى الإجماع على ذلك ابن جرير وغيره من الأئمة ﴿ **إنه ليس له** ﴾ أي للشيطان ﴿ **سلطان** ﴾ أي تسلط وولاية ﴿ **على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكَّلون** ﴾ أي لمن اجتمعت له صفتا الإيمان والتوكل . فالمؤمن المتوكل لا يقبل من الشيطان وساوسه ﴿ **إنما سلطانه على الذين يتولَّوْنه** ﴾ فيقبلون وساوسه ﴿ **والذين هم به** ﴾ أي بسببه ﴿ **مشركون** ﴾ أو أنهم أشركوه في عبادة الله ، ثم ذكر شبهتين للكافرين حول القرآن . الشبهة الأولى حول النسخ ، والشبهة الثانية حول أن يكون لهذا القرآن مصدر بشري :

١ ــ ﴿ **وإذا بَدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزِّل** ﴾ تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ﴿ **قالوا** ﴾ لرسول الله ﷺ وعنه ﴿ **إنما أنت مفتر** ﴾ أي كذاب ، فإذا رفع الله آية وأثبت غيرها ورأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها جعلوا ذلك حجة ضد رسول الله ﷺ ، والله تعالى له الأمر المطلق ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة ومن ثم قال : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ الحكمة في النسخ ﴿ **قل نزَّله روح القدس** ﴾ أي جبريل عليه السلام ، أي الروح المقدس . والمقدس : المطهر من المآثم ﴿ **من ربك** ﴾ أي من عنده وأمره ﴿ **بالحق** ﴾ أي نزّله ملتبساً بالحكمة ﴿ **ليثبت الذين آمنوا** ﴾ بهذا القرآن ﴿ **وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ فهو من ناحية يثبت أهل الإيمان ، ومن ناحية هو يهديهم ويبشرهم ، وإذا تذكرنا نهاية القسم السابق وهذه النهاية ، رأينا الصلة بين هذه المجموعة وتلك ، مع أن هذه الآية زادت وصفاً وهو كون هذا القرآن بما فيه من إعجاز ومعجزات وتذكير ووعظ يُثَبِّت أهل الإيمان

٢ ـ ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً ﷺ إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض قريش ، وكان بياعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمي اللسان ، لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه ، فلهذا قال الله تعالى رداً عليهم في افترائهم ذلك ﴿ **لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** ﴾ أي القرآن أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل » .

أقول : لم تزل هاتان الشبهتان هما عماد ما يتمسك به الكافرون ضد القرآن ، فقد ألف المستشرقون والمبشرون والأحبار آلاف الكتب في الطعن في الإسلام بسبب وجود الناسخ والمنسوخ ، وادّعوا أن لهذا القرآن مصادر بشرية منها أهل الكتاب الموجودون في جزيرة العرب . وقد ردّ القرآن على هاتين الشبهتين . وأقرب رد يقال : هو أن النسخ موجود في التوراة والإنجيل ، فكيف ينكرونه على القرآن ؟ وأن الموجودين في جزيرة العرب من أهل الكتاب ما كان عندهم ما يقدمونه أصلًا ، والقرآن يحكم عليهم وعلى غيرهم . وبهذا تنتهي المجموعة الثانية من هذا المقطع ، بعد أن قررت الاستعاذة عند التلاوة ، وبيّنت صفات الذين لا سلطان للشيطان عليهم . وصفات الذين للشيطان عليهم سبيل . وردت أكبر شبهتين يدّعيهما الكفار حول هذا القرآن . وقد رأينا الصلة ما بين هذه المجموعة وما قبلها ، وما بينها وبين نهاية القسم السابق ، وبداية القسم الثاني . فلنر الصلة بينها وبين محور السورة .

كلمة في السياق :

إن محور السورة آت في سياق قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

وكتاب الإسلام القرآن . وقد ذكرت هذه المجموعة أدب تلاوة هذا القرآن . وردت شبهات حوله ، وحددت صفات الذين يتبعون خطوات الشيطان ، وصفات الذين ليس للشيطان عليهم سبيل .

فالصلة بين هذه المجموعة ومحورها من سورة البقرة واضحة .

المجموعة الثالثة من القسم الثاني

وهي تمتدّ من الآية (١٠٤) إلى نهاية الآية (١١٣) وهذه هي :

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي
ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن
كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن
شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ
مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ * يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا
وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ
كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ
فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ
رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

بين يدي المجموعة الثالثة :

هذه المجموعة تتحدث عن الذين لا يؤمنون بآيات الله ، والذين يفترون الكذب على الله . وتتحدث عن الردة عن الإسلام ، والإكراه على ترك الإسلام ، وعما يغفر الله به لمن فتن عن دينه .

والصلة بين هذه المجموعة وما قبلها مباشرة واضحة ، فما قبلها كلام عن شُبه الكافرين حول هذا القرآن . وهذا كلام عن الذين لا يؤمنون بهذا القرآن . والصلة بين هذه الآيات وبين نهاية القسم السابق واضحة . فتلك حديث عن القرآن والمسلمين ، وهنا حديث عن القرآن والذين لا يؤمنون ، ونؤخر الكلام عن الصلة بين هذه المجموعة ومحورها من سورة البقرة إلى ما بعد تفسير المجموعة .

التفسير :

﴿ **إن الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **لا يهديهم الله** ﴾ ما داموا مختارين للكفر ﴿ **ولهم** ﴾ أي في الآخرة ﴿ **عذاب أليم** ﴾ على كفرهم . أخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بالله ، وما أرسل به رسَله ، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة ﴿ **إنما يفتري الكذب** ﴾ على الله ﴿ **الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾ أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ؛ لأنه لا يترقب عقاباً ﴿ **وأولئك هم الكاذبون** ﴾ أي على الحقيقة ، الكاملون في الكذب الذين لا يقيّدهم قيد ، وهو ردّ لقولهم ﴿ **إنما أنت مفتر** ﴾ وقولهم ﴿ **إنما يعلّمه بشر** ﴾ فالآية رد على الشبهتين السابقتين ، ومن ثم فالصلة كاملة بين هذه المجموعة وما قبلها مباشرة قال ابن كثير :

« أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب ، لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿ **الذين لا يؤمنون بآيات الله** ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس ، وأبرهم وأكملهم علماً وعملًا ، وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم ، بحيث لا يُدعىٰ بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل » .

﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ أي إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه ﴿ إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ، ووافق المشركين بلفظه ، مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى . وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله ، فهو مستثنى من الأحكام التي لها علاقة بالمرتدين ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ أي طاب به نفساً واعتقده ﴿ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك ﴾ أي الغضب والعذاب ﴿ بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ أي بسبب إيثارهم الدنيا على الآخرة ﴿ وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي ولأن سنته أنه لا يهدي القوم الكافرين ما داموا مختارين للكفر ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾ أي الكاملون في الغفلة لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها ﴿ لاجَرَمَ ﴾ أي لابد أي حقاً ﴿ أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ثم بيَّن الله عز وجل أن هؤلاء الذين أكرهوا على الكفر إذا هاجروا وجاهدوا وصبروا فإن الله سيغفر لهم فقال : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ﴾ أي بالعذاب والإكراه على الكفر ﴿ ثم جاهدوا ﴾ المشركين بعد الهجرة ﴿ وصبروا ﴾ على الجهاد ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة ﴿ لغفور ﴾ لهم ﴿ رحيم ﴾ بهم يوم معادهم ، يغفر لهم ما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية ، رحيم لا يعذبهم على ما قالوا في حالة الإكراه ﴿ يوم ﴾ أي إن الله لغفور رحيم لهم يوم ﴿ تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ أي يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره ليس أحد يحاجّ عن أحد ، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿ وتُوفّىٰ كل نفس ما عملت ﴾ أي تعطى جزاء عملها من خير أو شر وافياً ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ولا يزاد على ثواب الشر .

وهكذا بينت هاتان الآيتان أن علامة عدم اطمئنان القلب بالكفر عند الإكراه هو الهجرة والجهاد إذا تيسرت ظروف ذلك .

وقبل أن نكمل تفسير المجموعة الثالثة نحب أن نذكر كلمة حول السياق ثمّ نتابع التفسير .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة النحل هو التذكير باليوم الآخر في معرض الأمر بالدخول في

الإسلام كله ، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان ، وعملية الدخول في الإسلام ترتبط بها قضية الإكراه على ترك الإسلام ، فإذا حدث فما الحكم وما المخلص ؟ . كما ترتبط بها قضية الردة ، فإذا حدثت فما العقوبة ؟ .

وقد جاءت هذه المجموعة مبينة لهذه القضايا ، ومبينة مَن هم الذين عندهم استعداد للردة وهم الكاذبون . فصلة المجموعة بمحور السورة من البقرة واضح . وبمناسبة الكلام عن الفتنة ، والإكراه على ترك الإسلام ، يضرب الله مثلًا لهؤلاء الذين يفتنون الناس عن دينهم ، ويبين ما هو جزاؤهم . فلنعد إلى التفسير :

﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة** ﴾ أي : من القتل والسبي ﴿ **مطمئنة** ﴾ أي : لا يزعجها خوف ، لأن الطمأنينة مع الأمن ، والانزعاج والقلق مع الخوف . ﴿ **يأتيها رزقها رغداً** ﴾ أي واسعاً ﴿ **من كل مكان** ﴾ أي من كل بلد ﴿ **فكفرت** ﴾ أي فكفر أهلها ﴿ **بأنْعُم الله** ﴾ أي بنعَمِه ﴿ **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾ أي بدّلهم بحاليهم الأولين خلافهما : الجوع بدل الرزق الرغد ، والخوف بدل الأمن ﴿ **بما كانوا يصنعون** ﴾ أي بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم ﴿ **ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه** ﴾ جاحدين نعمة الله عليهم بهدايتهم إلى دينه على يد الرسول ﷺ ﴿ **فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾ أي أخذهم العذاب في حال تلبسهم بالظلم ، جعل الله هذه القرية التي هذه حالها مثلًا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، ويمكن أن يكون المراد بهذه القرية قرية من قرى الأولين كانت هذه حالها فضربها الله مثلًا . والأكثرون على أنها مكة ، ضُربت مثلاً لكل من يفتن المؤمنين ويكذّب رسل الله ، والجوع الذي أصابهم وجد يوم دعا عليهم رسول الله ﷺ بسبع كسني يوسف ، والخوف الذي أصابهم بسبب سرايا الرسول ﷺ وجيوشه ، والعذاب الذي نزل بهم هو ما أصابهم يوم بدر ، والعبرة لعموم اللفظ كما نعرف ، فهذا المثل في هذا المقام تحذير لمن يرتد ، ولمن يفتن المسلمين عن دينهم ، ولمن يكذب رسل الله عليهم الصلاة والسلام .

☆ ☆ ☆

المجموعة الرابعة من القسم الثاني

وهي تمتد من الآية (١١٤) إلى نهاية الآية (١١٩) وهذه هي :

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ
أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

بين يدي المجموعة :

المجموعة الرابعة فيها نموذج على أمر الله بالعدل ونهيه عن المنكر ، ومن ثم فلها صلة بمقدمة المقطع من هذه الحيثية ، ولها صلة بذكر النعم ، وموضوع الجوع قبلها ، وهي مجموعة توجيهية لمن دخل في السلم ، وترك اتباع خطوات الشيطان في موضوع من أهم المواضيع كما سنرى ، فهي مرتبطة بسياق السورة . ومحور السورة .

تفسير المجموعة :

﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إيَّاهُ تعبدون ﴾ فالعبادة إذن تقتضي الشكر على الحلال الطيب ، أما المفهوم الخاطىء الذي يجعل العبادة قرينة الحرمان وتحريم الطيبات والمباح ، فإنه مفهوم كافر أو غالٍ وليس هو المفهوم

الإسلامي في هذا الموضوع . ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم . فهذه التي يجب الامتناع عنها ﴿ **إنما حرَّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهِلَّ لغير الله به** ﴾ أي ذبح على غير اسم الله ، و(إنما) في اللغة تفيد الحصر ، ومن خلال الحصر نعرف أن الآية قالت إن المحرّم هو هذا دون البحيرة والسائبة وأخواتها مما حرَّموه بأهوائهم ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عاد** ﴾ أي فمن احتاج من غير بغي ولا عدوان ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ أي يغفر عند الاضطرار ، ولا يعاقب رحمة منه تعالى . ثم نهى الله تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حلّلوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم فقال : ﴿ **ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب** ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي ، أو أحلّ شيئاً مما حرم الله ، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه ، ثمّ توعّد على ذلك فقال : ﴿ **إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون** ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فمتاع قليل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم كما قال : ﴿ **متاع قليل** ﴾ أي منفعتهم فيما هم عليه من الكذب على الله منفعة قليلة ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ وعذاب ذلك عظيم عند الله ، دلّ ذلك على أنّ التحريم والتحليل بالهوى كفر . وبعد أن ذكر الله تعالى ما أحلّ لهذه الأمة ، وما حرم عليها ، وما رخّص فيه عند الضرورة ؛ توسعة على هذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر ، ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرّمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج فقال : ﴿ **وعلى الذين هادوا حَرَّمنا ما قصصنا عليك من قبل** ﴾ أي في سورة الأنعام . ﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أي فاستحقوا ذلك ، أي استحقوا ما حرمناه عليهم عقوبة لهم على معاصيهم كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ **فَبِظُلْم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً** ﴾ ثم أخبر تعالى هذه الأمة عن سنته في حق العصاة : أن من تاب منهم إليه تاب الله عليه تكرماً وامتناناً ﴿ **ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة** ﴾ أي عملوا السوء جاهلين غير متدبرين للعاقبة ؛ لغلبة الشهوة عليهم ، مرادهم لذة الهوى لا عصيان المولى ﴿ **ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي ، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿ **إن ربك من بعدها** ﴾ أي من بعد التوبة ، أو من بعد

الغفلة التي أعقبت توبة ﴿ **لغفور** ﴾ بتكفير ما أكثروا قبل من الجرائم ﴿ **رحيم** ﴾ بتوثيق ما وثّقوا بعد من العزائم .

كلمة في السياق :

إن موضوع التحريم والتحليل من أخطر المواضيع في الحياة البشرية ، ومن ثمّ فإن الله عز وجل هو الذي يحل ويحرم . وقد جعل الله عز وجل التحريم والتحليل النابعيْن عن الهوى من عمل الشيطان ، فقال في سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ فإذا فهمنا هذه الآية عرفنا محل المجموعة التي مرت معنا في السياق العام والسياق الخاص :

فبالنسبة للسياق العام :

فإن هذه السورة آتية لتفصّل في حيز قوله تعالى ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ ومن خطوات الشيطان تحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، ومن الدخول في السلم أن تُحل ما أحل الله ، وأن تشكر الله على ما أحل ، ومن الدخول في السلم أن تتوب إذا عصيت ، فهذا محل هذه المجموعة في السياق العام .

وأما محلّها في سياق قسمها :

فإننا رأينا أن مقدمة القسم هي ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ .

ورأينا أن الشيطان يأمرنا بالسوء والفحشاء في موضوع التحريم والتحليل ، كما مر معنا في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ...** ﴾ وهذه المجموعة من الآيات بينت لنا ما حرم الله علينا ، وما حرم على من قبلنا ، فما زاد على ذلك مما لم تحرمه السنة فمن فعل الشيطان وأمره ، أي من الفحشاء والمنكر الذي ينهى الله عنه ، وما كان ضمن حدود الله فهو العدل الذي يأمر الله به . فمجموعة الآيات التي مَرّت معنا نموذج على ما يأمر الله به من العدل ، وعلى ما ينهى عنه من الفحشاء والمنكر والبغي . فالصلة بين المجموعة وسياقها ضمن قسمها واضحة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الخامسة من القسم الثاني

وتمتدُّ من الآية (١٢٠) إلى نهاية الآية (١٢٨) أي إلى نهاية السورة وهذه هي :

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا
لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ
سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ
فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ
وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

بين يدي المجموعة :

هذه هي المجموعة الأخيرة في هذا القسم ، وبها تختم السورة ، فهي خاتمة للسورة والقسم . ولنقدم لها بمقدمة ذات علاقة بالسياق :

١ ــ إن المحور الذي تخدمه هذه السورة هو الدخول في الإسلام كله ، ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء ، وهو إمام في الإسلام ، والإسلام الذي أنزل على

محمد ﷺ إنما هو استمرار لإسلام إبراهيم عليه السلام .

٢ - الإسلام دعوة عالمية وتحاربه قوى كافرة ، فما هي آداب الدعوة إلى الإسلام ؟ وما هو أدب العقوبة إذا عاقبنا ؟ وما هي خصائص الدعاة ؟ .

٣ - إن الله يأمر بالعدل ويأمر بالإحسان ، ما هو المثل لذلك ؟ فإذا وجدنا أن هذه المعاني تتعرض لها المجموعة الأخيرة من هذا القسم أدركنا صلة هذه المجموعة بقسمها . وأدركنا صلة هذه المجموعة بالمحور فَتَدَبَّرْ الآن تفسير المجموعة .

التفسير :

﴿ **إن إبراهيم كان أُمّة** ﴾ أي إنه كان وحده أمة من الأمم ؛ لكماله في جميع صفات الخير ﴿ **قانتاً لله** ﴾ أي خاشعاً مطيعاً ﴿ **حنيفاً** ﴾ أي مائلًا عن الأديان إلى ملة الإسلام ﴿ **ولم يَكُ من المشركين** ﴾ نفى عنه الشرك تكذيباً لكفار قريش لزعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ﴿ **شاكراً لأنعُمِه اجتباه** ﴾ أي اختصه واصطفاه للنبوة ﴿ **وهداه إلى صراط مستقيم** ﴾ أي إلى الإسلام لله وحده بالعبادة والشريعة ﴿ **وآتيناه في الدنيا حسنة** ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج إليه في إكمال حياته الطيبة ، من نبوة وأموال وأولاد ، وذكر حسن ، وخلود على ألسنة أهل التوحيد ، وقبول في قلوب الناس جميعاً ﴿ **وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾ أي لمن أهل الجنة .

هذا هو النموذج للمسلم الكامل ، وما أعطاه الله نموذج للحياة الطيبة التي وعدها عباده الصالحين .

هذا النموذج مستجمع لخصال الخير : خاشع ، مطيع ، مائل عن كل دين إلا دين الإسلام ، مُوحِّد ، شاكر للنعمة ، مستقيم على صراط الله ، صالح ، وجزاؤه الحياة الطيبة في الدنيا ، والجزاء الحسن في الآخرة .

هذا هو النموذج الكامل للمسلم ، والنموذج الكامل للدخول في الإسلام كله ، ومن ثم جعله الله قدوة لرسوله محمد ﷺ وهذا كذلك من إكرامه في الدنيا ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ قال ابن كثير : أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿ **أن اتبع مِلّة إبراهيم حنيفاً** .. ﴾ وقال النسفي : في (ثم) تعظيم منزلة نبينا عليه الصلاة والسلام

وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته .

وإذن فالنموذج للمسلم الكامل إبراهيم عليه السلام ، وبعثة رسولنا عليه الصلاة والسلام إنما هي تجديد لدين إبراهيم ، وإحياء له في التوحيد والقدوة ، ولما كان عند اليهود (عقدة السبت) لدرجة أنهم يرفضون أي دين لا يعظم السبت ، ويعتبرون عدم تعظيم السبت علامة على بطلان أي دين ، بيّن الله عز وجل في هذا المقام هذا الموضوع ، واختيار هذا المقام لتبيان هذا الموضوع ؛ لأن إبراهيم لم يكن جزءاً من عمله تعظيم السبت ، ولأن هذا المثال نموذج على ما يمكن أن يجادل فيه بعض الخلق ، والأمر اللاحق هو توجيه حول قضية الدعوة والجدال فيها . فمجيء هذا الموضوع في هذا المقام مفهوم الحكمة ، وهو بيان لموقف الإسلام من السبت . فليس السبت جزءاً من إسلامنا ، ولا من شريعتنا ، ولا مما أمر الله به أمتنا .

﴿ **إنما جُعِل السبتُ** ﴾ أي فرض ﴿ **على الذين اختلفوا فيه** ﴾ أي على اليهود ، وهل اختلافهم فيه سابق على فرضيته أو بعد فرضيته بأن حفظه بعضهم وضيعه آخرون ، أو الاختلاف فيه هو بعد بعثة المسيح عليه السلام ؟ أقوال ، وفي كل الأحوال يكون المعنى إنما فرض السبت على بني إسرائيل ، ويدخل فيه أن بعضهم عظمه وبعضهم لم يعظّمه ، كما فعلت القرية التي مسخ الله قسماً من أهلها . ويمكن أن يكون المراد — والله أعلم — أن الله ألزمهم بيوم يعظمون الله فيه ، واختار لهم الجمعة دون إلزام ، فطرح بعضهم فكرة السبت ، فرفضها قوم وقبلها آخرون ، فألزمهم الله إياها ، وسنتعرض للموضوع في الفوائد ﴿ **وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ إن كان في التعظيم وعدمه ، فيكون المعنى : وهو يحكم بينهم يوم القيامة ، فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله ، وإن كان في اليوم المفضّل فإن المعنى : أن الله سيبين للجميع أن اليوم المفضّل عنده هو الجمعة . ثم يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ وارث ملة إبراهيم عليه السلام . الداعية إلى الإسلام ، وهو خطاب لكل فرد من أمته يعلّمه كيفية الدعوة إلى الإسلام : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك** ﴾ قال النسفي : إلى الإسلام ﴿ **بالحكمة** ﴾ أي بالمقالة الصحيحة المحكمة ، وهو الدليل الموضح للحق ، المزيل للشبهة ، أو بالخطاب المناسب لكل إنسان بحسبه ﴿ **والموعظة الحسنة** ﴾ قال ابن كثير : أي بما فيه (أي القرآن) من الزواجر والوقائع بالناس ، وذكّرهم بها ليحذروا بأس الله . وقال النسفي في تفسير الموعظة الحسنة : وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها ، وتقصد ما ينفعهم فيها .

وقد يكون المراد بالحكمة والموعظة الحسنة القرآن . أي ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة ، وقد يراد بالموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرهبة ، والإنذار بالبشارة ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، وهو ردّ على من يأبى المناظرة في الدين ولكن من يستطيع مثل هذا المقام في الجدال ؟؟ وهو التزام الطريقة الحسنى فيه ، رفقاً وليناً بما يعظ النفوس ، ويوقظ القلوب ، ويجلو العقول ، والجدال غالباً ترافقه إثارة ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ أي قد علم الشقي منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغ منه ، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات ، فإنه ليس عليك هداهم ، إنما أنت نذير عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ، فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحِيَل ، ولمّا كانت الدعوة إلى الله تُقابَل في كثير من الأحيان بالإيذاء قال تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ أي إن صُنع بكم صنيع سوء : من قتل ، أو نحوه ، فقابلوه بمثله ، ولا تزيدوا عليه ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ أي ولئن صبرتم لَصبركم خير لكم ، فالمماثلة في استيفاء الحق عدل ، والصبر إحسان ، ثم قال لرسوله ﷺ الذي مقامه دائماً الإحسان ﴿ **واصبر** ﴾ هذا عزم من الله على رسوله ﷺ بالصبر ليدلل أن مقام الصبر هو الأرقى ﴿ **وما صبرك إلا بالله** ﴾ أي بتوفيقه وتثبيته ، هذا إخبار منه تعالى بأن الصبر لا يُنال إلا بمشيئة الله وإعانته وقُوَّته ﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾ أي على الكفار إن لم يؤمنوا ، أو على من خالفك ؛ فإن الله قدّر ذلك ، أو على المؤمنين وما فُعل بهم ، فإنهم وصلوا إلى مطلوبهم ﴿ **ولا تك في ضَيْق** ﴾ أي في غَمٍّ ﴿ **مما يمكرون** ﴾ أي من مكرهم . والمعنى : ولا يضيقن صدرك من مكرهم ، فإنه لا ينفذ عليك مهما أجهدوا أنفسهم في عداوتك ، وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ، ومؤيدك ومظهرك ، ومظفرك بهم . وهذا كله مفهوم من الآية الأخيرة ﴿ **إن الله مع الذين اتقَوْا والذين هم محسنون** ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ، ومعونته وهديه ، وهذه مَعِّية خاصة ، والذين اتقوا : هم الذين يجتنبون المحرمات . والمحسنون : هم الذين يفعلون الطاعات ، فهؤلاء الله وليُّهم ، فهو ولي من اجتنب السيئات ، وفَعل الطاعات ، وقد قالوا : من اتقى في أفعاله ، وأحسن في أعماله ، كان الله معه في أحواله . ومعيته : نصرته في المأمور ، وعصمته من المحظور .

وواضح أن الآيات الأخيرة قد وضعت دستوراً للدعوة والدعاة ، وقد تحدث صاحب الظلال في أجواء هذا الدستور فقال :

(إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله . لا لشخص الداعي ولا لقومه . فليس للداعي من دعوته إلا أن يؤدي واجبه لله ، لا فضل له يتحدث به ، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به ، وأجره بعد ذلك على الله .

والدعوة بالحكمة ، والنظر في أحوال المخاطَبين وظروفهم ، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة لا يثقل عليهم ، ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ، والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها . فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة ، فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه .

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية . فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة . ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتي بخير من الزجر واالتأنيب والتوبيخ .

وبالجدال بالتي هي أحسن . بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له ولا تقبيح حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق ، حتى لا تشعر بالهزيمة . وسرعان ما يختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها .

والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها ، والاهتداء إليها . في سبيل الله ، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر .

ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين . فلا ضرورة للّجاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله .

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل

بالحجة . فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير ، فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزازاً لكرامة الحق ، ودفعاً لغلبة الباطل ، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع ، فالإسلام دين العدل والاعتدال ، ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به** ﴾ .

فالدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها ، فلا تهون في أنفس الناس . والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد ولا يثق أنها دعوة الله . فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها ، والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة لله ، والعزة لله جميعاً . ثم إنهم أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس ، وقيادة البشرية إلى الطريق القويم ، فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقَبون فلا يعاقِبون ، ويُعتدىٰ عليهم فلا يردون ؟! .

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل ، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر ، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان ، في الحالات التي قد يكون العفو فيها الصبر أعمق أثراً ، وأكثر فائدة للدعوة . فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر . فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها ، فالقاعدة الأُولى هي الأَوْلَى .

ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال ، وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة ، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه : ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * واصبر وما صبرك إلا بالله** ﴾ .

فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس ، والاتجاه إليه هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره .

ويوصي القرآن الرسول ﷺ – وهي وصية لكل داعية من بعده – ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون ، فإنما عليه واجبه يؤديه ، والهدى والضلال بيد الله ، وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال . وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله ، فالله حافظه من المكر والكيد ، لا يدعه للماكرين الكائدين ، وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئاً لنفسه) .

كلمة في السياق :

صلة هذه المجموعة بمقدمة هذا القسم واضحة : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكَّرون** ﴾ وما أمر الله به في هذه المجموعة من اتباع إبراهيم عليه السلام ، ومن طرق الدعوة إلى الله ، والمماثلة بالعقوبة أو الصبر ، والحض على الصبر ، كلها من نوع الأمر بالعدل والإحسان .

وصلة هذه المجموعة بمحور السورة من البقرة واضحة ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾ فإبراهيم عليه السلام هو قدوة الداخلين في الإسلام كله ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن** ﴾ ، ونحن مأمورون باتباعه ، وليس السبت جزءاً من الإسلام . والدعوة إلى الإسلام لها طريقها الخاص بها ، ومقابلة الاعتداء بمثله جائزة ، والصبر أجود ، ومع الصبر لا ينبغي أن يكون حزن أو ضيق من مواقف الآخرين وعليهم ، هذه كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموضوع الدخول في الإسلام كله ، إن في وعد الله بتأييد المتقين المحسنين ونصرتهم ، أو بالبشارة بمعيته لمن يدخل في دينه الذي هو عدل وإحسان وإيتاء ذي القربى ، والذي هو ترك للفحشاء والمنكر والبغي .

وهكذا نلاحظ من خلال المجموعات الخمس التي مرت معنا ، وارتباطها بمقدمة القسم الثاني ، ونهاية القسم الأول ، وصلة القسم الثاني كله بمحور السورة من سورة البقرة ، نلاحظ من خلال هذا كله كيف أن الإنسان إذا لم يدرك السياق الخاص للسورة ، وارتباط السورة بمحورها ، لا يستطيع أن يعرف محلّ الآية ، أو المجموعة في الوحدة العامة للسورة ، وضمن الوحدة القرآنية العامة . وإن حرصنا على إبراز هذا المعنى جعلنا نؤخِّر الكلام عن بعض فوائد ما مَرّ معنا حتى لا ينقطع الكلام عن السياق ، وقد آن الأوان لنتكلم عن فوائد حول القسم الذي مَرّ معنا :

الفوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإيتاء ذي القربى** ﴾ يروي ابن كثير الحديث « ما من ذنب أجدر أن يعجِّل الله عقوبته في الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي ، وقطيعة الرحم » .

٢ ــ الكلام عن آية ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ... ﴾ كثير ، إذ هي أجمع

آية في القرآن ، وهٰذا يقرؤها كل خطيب على المنبر في آخر خطبته لتكون عظة جامعة ، وقد نقل ابن كثير في هذا المقام أحاديث وآثاراً ننقلها مع حذف الأسانيد :

روى الشعبي عن شُتَيْر بن شَكَل : سمعت ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ الآية . وقال سعيد عن قتادة قوله : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ الآية ليس من خلق حسن - كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه - إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيء ، كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، إنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها (قلت) القائل ابن كثير وهٰذا جاء في الحديث : « إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها » وقال الحافظ أبو نعيم في كتاب (معرفة الصحابة) ... عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال : بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه! قال : فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه ، فانتدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفي ، وهو يسألك مَن أنت وما أنت ؟ فقال النبي ﷺ : « أما مَن أنا ، فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله » . قال : ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ الآية . قالوا : ردّد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألناه عن نسبه ، فوجدناه زاكي النسب ، وسطاً في مضر - أي شريفاً - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها . فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناباً . وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد ... عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون فكشر[1] إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « ألا تجلس ؟ » فقال : بلى . قال : فجلس رسول الله ﷺ مستقبله ، فبينما يحدثه إذ شَخَص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء ، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض فتحرَّف رسول الله ﷺ على جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره ، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له وابن مظعون ينظر ، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة ، فأتبعه بصره حتى توارى

---

(١) - كشر : أي تبسم حتى بدت أسنانه .

في السماء ، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى . فقال : يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة : فقال : « وما رأيتني فعلت ؟ » قال : رأيتك تشخص بصرك إلى السماء ، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتني فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك . قال : قال : « وفطنت لذلك ؟ » فقال عثمان : نعم . قال رسول الله ﷺ : « أتاني رسول الله (يعني جبريل) آنفاً وأنت جالس » . قال : رسول الله ؟؟ قال : « نعم » قال : فما قال لك ؟ قال : « ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ » الآية . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ . وروى الإمام أحمد ... عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ » الآية » .

أقول : والرواية الأخيرة تدل على أن ترتيب القرآن توقيفي ، فالله عز وجل هو الذي أمر بترتيبه على ما هو عليه .

٣ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأوْفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيْمان بعد توكيدها** ﴾ نذكر ما رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من شرط لأخيه شرطاً لا يريد أن يفي له به فهو كالمدلي جاره إلى غير منعة » . أي مثل المورط جاره إلى موقف ليس له فيه حماية .

٤ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قُوّة أنكاثاً** ﴾ قال ابن كثير : قال عبد الله بن كثير : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده . وهذا القول أرجح وأظهر ، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا .

٥ ـ تفسير الحياة الطيبة التي وعدها الله من آمن وعمل صالحاً في الحياة الدنيا ، فيه أكثر من قول . قال ابن كثير : والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت . وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة . وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه ، وقال علي بن طلحة عن ابن عباس : إنها هي السعادة ، وقال الحسن ومجاهد وقتادة : لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة ، وقال الضحاك : هي الرزق الحلال والعبادة

في الدنيا ، وقال الضحاك أيضاً : هي العمل بالطاعة والانشراح بها . والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله . كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه » ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرىء به . وروى الترمذي والنسائي ... عن فضالة بن عبيد : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قد أفلح من هدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به » . وروى الإمام أحمد ... عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعمه بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً » انفرد بإخراجه مسلم . وقال النسفي : المؤمن مع العمل الصالح - موسراً كان أو معسراً - يعيش عيشاً طيباً ، إن كان موسراً فظاهر ، وإن كان معسراً فمعه ما يطيب عيشه - وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى - وأما الفاجر فأمره بالعكس ، إن كان معسراً فظاهر ، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يهنأ بعيشه . وقيل الحياة الطيبة القناعة ، أو حلاوة الطاعة ، أو المعرفة بالله ، وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله ، والإعراض عما سوى الله »

٦ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ...** ﴾ قال ابن كثير : والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارىء قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر . ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة واحتجا بهذه الآية . ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً ، ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي ، والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة والله أعلم .

٧ ـــ في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلِّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** ﴾ قال ابن إسحق في السيرة : كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما كان يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له جبر ، عبد لبعض بني الحضرمي فأنزل الله ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلِّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** ﴾ وكذا قال عبد الله بن كثير ، وعن عكرمة وقتادة : كان اسمه يعيش . وروى ابن جرير ... عن ابن عباس

قال : كان رسول الله ﷺ يعلم قَيْناً بمكة ، وكان اسمه (بلعام) وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلّمه بلعام فأنزل الله هذه الآية ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** ﴾ وقال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما فكان ﷺ يمرُّ بهما ، فيقوم فيسمع منهما ، فقال المشركون يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية . وقال الزهري عن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد ذلك عن الإسلام وافترى هذه المقالة قبّحه الله .

٨ ـ عند قوله تعالى ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ قال ابن كثير : « وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مُكرَهاً ، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزلت هذه الآية . وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك .

وروى ابن جرير ... عن أبي عبيدة بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ . فقال النبي ﷺ : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان . قال النبي ﷺ : « إن عادوا فعد » .

ورواه البيهقي بأبسط من ذلك ، وفيه أنه سب النبي ﷺ ، وذكر آلهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله : ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير قال : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان فقال : « إن عادوا فعد » وفي ذلك أنزل الله ﴿ **إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ ولهذا اتفق العلماء على أن المكرَه على الكفر يجوز له أن يوالي؛ إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ،ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها . رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه

إرباً وهو ثابت على ذلك . وروى الإمام أحمد .. عن أيوب عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حَرّق ناساً ارتدّوا عن الإسلام ، فبلغ ذلك ابن عباس . فقال :لم أكن لأحرقهم بالنار . إن رسول الله ﷺ قال : « لا تعذبوا بعذاب الله » . فبلغ ذلك علياً فقال : ويح أم ابن عباس . رواه البخاري .

وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن أبي بردة قال : قدم على أبي موسى معاذٌ بن جبل باليمن ، فإذا رجل عنده ، قال : ما هذا ؟ قال : رجل كان يهودياً فأسلم ثم تهوَّد ، ونحن نريده على الإسلام منذ - قال : أحسبه - شهرين فقال : والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه . فضربت عنقه فقال : قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال : « من بَدَّل دينه فاقتلوه » وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر . والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله . كما ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة عبد الله ابن حُذافة السهمي - أحد الصحابة - : أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له : تنصّر وأنا أشركك في ملكي ، وأزوجك ابنتي ، فقال : لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت ، فقال : إذاً أقتلك ، فقال : أنت وذاك ، قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموا قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية ، فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر - وفي رواية - ببقرة من نحاس فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها فرفع في البكرة ليلقى فيها ، فبكى ، وطمع فيه ودعاه ، فقال له : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة ، تلقى في هذه القدر الساعة في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله ، وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : مامنعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك فيَّ ، فقال له الملك : قَبِّل رأسي وأنا أطلقك فقال : وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال : نعم . فقبل رأسه ، فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حق على كل مسلم أن يقبِّل رأس عبدالله بن حذافة ، وأنا أبدأ . فقام فقبَّل رأسه رضي الله عنهما .» .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً** ﴾ ذكر ابن كثير ما قاله ابن

مسعود : إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً – قال الراوي – : فقلت في نفسي غلط أبوعبدالرحمن ، وقال إنما قال الله ﴿ **إن إبراهيم كان أمة** ﴾فقال :تدري ما الأمة؟وما القانت ؟ قلت : الله أعلم . فقال : الأمة : الذي يعلم الخير . والقانت : المطيع لله ورسوله ، وكذلك كان معاذ . معلم الخير ، وكان مطيعاً لله ورسوله ، فهذا تفسير ابن مسعود للأمة .

١٠ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما جُعِل السبت على الذين اختلفوا فيه** ... ﴾ ننقل حديثين :

١ – ثبت في الصحيحين من حديث عبدالرزاق عن معمر ، عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا . ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم ، فاختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غداً ، والنصارى بعد غد » . لفظ البخاري .

٢ – روى الإمام مسلم عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، والمقضي بينهم قبل الخلائق » .

١١ ــ عند قوله تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ قال ابن كثير : « يأمر تعالى بالعدل في القصاص ، والمماثلة في استيفاء الحق ، كما قال عبد الرزاق عن الثوري عن خالد عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا منه مثله . وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير .

وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين ، فأسلم رجال ذو منعة فقالوا : يارسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب! فنزلت هذه الآية ، ثم نسخ ذلك بالجهاد .

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة ، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد حيث قتل حمزة رضي الله عنه ومُثِّل به . فقال رسول الله ﷺ : « لئن أظهرني الله عليهم لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم » . فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثْلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ إلى آخر السورة ، وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم ، وقد روي هذا من وجه آخر متصل فقد روى الحافظ أبو بكر البزار ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه – أو قال لقلبه – فنظر إليه وقد مثل به فقال : « رحمة الله عليك إن كنت – ما علمتك – إلا وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع – أو كلمة نحوها – أما والله على ذلك ، لأمثلن بسبعين كمثلتك » فنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ إلى آخر الآية ، فكفَّر رسول الله ﷺ – يعني عن يمينه – وأمسك عن ذلك . وإسناد هذا الحديث فيه ضعف لأن فيه صالحاً هو ابن بشير المري – ضعيف عند الأئمة ، وقال البخاري : هو منكر الحديث ، وقال الشعبي وابن جريج : نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم : لنمثلن بهم ، فأنزل الله فيهم ذلك . وروى عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه ... عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنُربيَن(١) . فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى منادي رسول الله : أن رسول الله ﷺ قد آمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً – ناساً سماهم – فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ إلى آخر السورة . فقال رسول الله ﷺ : « نصبر ولا نعاقب » . وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ ثم قال : ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ الآية (الشورى : ٤٠) . وقال : ﴿ **والجروح قصاص** ﴾ ثم قال : ﴿ **فمن**

(١) لُنربيَن : أي لنضاعفنّ .

تصدّق به فهو كفارة له ﴾ (المائدة : ٤٥) وقال في هذه الآية : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾ ثم قال : ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله** ﴾ تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته ، وحوله وقوته .

كلمة في سورة النحل :

رأينا أن سورة النحل ذكّرت بالله ، وباليوم الآخر ، من أجل أن تحمل هذا الإنسان على الإسلام لله رب العالمين ، وأن الإسلام لله رب العالمين يتمثل بهذا القرآن الذي جعله الله تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . فمن لم ينظر إلى كل شيء بنور هذا القرآن ، ويستسلم في كل شيء لحكم القرآن فليس مسلماً . هذا القرآن بجميع أوامره عدل وإحسان وصلة رحم ، وبجميع نواهيه نهي عن الفحشاء والمنكر والظلم .

فهو يأمر بالوفاء بالعهود والعقود ، ويأمر بأكل الطيبات ، ويأمر أن تكون الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وينهى عن نكث العهود ، والجرأة على الله في التحليل والتحريم .

ويحذّر من الكفر والردة . هذه معان طرقتها السورة .

كما تعرضت لأدب تلاوة القرآن ، وتحدثت عن الحال الذي به يخرج الإنسان من سلطان الشيطان . وتحدثت عن النموذج الكامل للمسلم : الكامل إبراهيمَ عليه السلام ، فهي من ثم تفصيل لقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ . الآتية في حيّز قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

ومن ثم فهي تذكير بكل ما يستجيش عند الإنسان معاني الدخول في الإسلام والاستسلام لله في أمره ونهيه .

☆ ☆ ☆

سورة الإسراء

وهي السورة السابعة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الثانية من قسم المئين
وآياتها مائة وإحدى عشرة آية
وهي مكية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة الإسراء :

(وتسمىٰ الإسراء ، وسبحان أيضاً ، وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس . وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم مكية وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور ، وقال صاحب الغنيان بإجماع ، وقيل إلا آيتين ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك** ﴾﴿ **وإن كادوا ليستفزونك** ﴾ وقيل . إلا أربعاً هاتان ، وقوله تعالىٰ : ﴿ **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **وقل رب أدخلني مدخل صدق** ﴾ وزاد مقاتل قوله سبحانه : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله** ﴾ الآية .

وعن الحسن إلا خمس آيات ﴿ **ولا تقتلوا النفس** ﴾ الآية ﴿ **ولا تقربوا الزنا** ﴾ الآية ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب** ﴾ الآية ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر** ﴾ الآية ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ الآية ، وقال قتادة : إلا ثماني آيات وهي قوله تعالى : ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك** ﴾ إلى آخرهن ، وقيل غير ذلك ، وهي مائة وعشر آيات عند الجمهور ، وإحدىٰ عشرة عند الكوفيين .

وكان ﷺ كما أخرج أحمد والترمذي وحسنه ، والنسائي ، وغيرهم عن عائشة يقرؤها والزمر كل ليلة ، وأخرج البخاري وابن الضريس وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال في هذه السورة والكهف ومريم . وطه . والأنبياء: هن من العتاق الأول وهن من تلادي ، وهذا وجه في ترتيبها ، ووجه اتصال هذه بالنحل - كما قال الجلال السيوطي - أنه سبحانه لما قال في آخرها ﴿ **إنما جُعل السبت على الذين اختلفوا فيه** ﴾ ذكر في هذه شريعة أهل السبت التي شرعها سبحانه لهم في التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني اسرائيل ، وذكر تعالى فيها عصيانهم ، وإفسادهم ، وتخريب مسجدهم ، واستفزازهم النبي ﷺ ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ، وسؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختمها جل شأنه بآيات موسىٰ عليه السلام التسع ، وخطابه مع فرعون ، وأخبر تعالى أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض ، فأهلك ، وورث بنو إسرائيل من بعده ، وفي ذلك تعريض بهم أنهم سينالهم ما نال فرعون ، حيث أرادوا بالنبي ﷺ ما أراد هو بموسىٰ عليه السلام وأصحابه ، ولما كانت هذه السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد

الأقصى ، افتتحت بذكر إسراء المصطفى ﷺ تشريفاً له بحلول ركابه الشريف ، جبراً لما وقع من تخريبه .

وقال أبو حيان في ذلك : إنه تعالى لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر ، ونهاه عن الحزن على الكفرة ، وضيق الصدر من مكرهم ، وكان من مكرهم نسبته ﷺ إلى الكذب والسحر والشعر وغير ذلك مما رموه - وحاشاه به - عقَّب ذلك بذكر شرفه وفضله وعلو منزلته عنده عز شأنه وقيل : وجه ذلك أي وجه مناسبتها لما قبلها اشتمالها على ذكر نعم منها خاصة ، ومنها عامة ، وقد ذكر في سورة النحل من النعم ما سميت لأجله سورة النعم ، واشتمالها على ذكر شأن القرآن العظيم كما اشتملت تلك ، وذكر سبحانه هناك في النحل ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ وذكر ها هنا في القرآن ﴿ **وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ وذكر سبحانه في تلك أمره بإيتاء ذي القربى ، وأمر هنا بذلك مع زيادة في قوله سبحانه ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً** ﴾ وذلك بعد أن أمر جل وعلا بالإحسان بالوالدين اللذين هما منشأ القرابة ، إلى غير ذلك مما لا يحصى ، فليتأمل والله تعالى الموفق) . .

وقال صاحب الظلال في سورة الإسراء :

ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه . ففي مطلعها : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ...** ﴾ وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح ﴿ **إنه كان عبداً شكوراً** ﴾ . وعند دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقوله : ﴿ **سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً . تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء ، إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ .. وفي حكاية أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن ﴿ **ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً** ﴾ وتختم السورة بالآية : ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يَتَّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبِّره تكبيراً .** ﴾

كلمة في سورة الإسراء ومحورها :

بعد قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام**

والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾ . يأتي قوله تعالى: ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ .

وكلتا الآيتين جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلو في السّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ .

فالآيتان اللتان رأيناهما من سورة البقرة تخدمان هذا الأمر وهذا النهي .

وتأتي سورة النحل لتفصِّل آية ﴿ هل ينظرون ... ﴾ والمعنى الذي تخدمه كما رأينا ، والآن تأتي سورة الإسراء لتفصِّل آية : ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ فيما يخدم موضوع الدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان .

ومن ثم نلاحظ : أن السورة تسمّى سورة بني إسرائيل ، وهذا يصل بسبب لقوله تعالى ﴿ سل بني إسرائيل ... ﴾ .

ونجد في آخر السورة قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ... ﴾ وهو يصل بسبب إلى قوله تعالى : ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ... ﴾ ونجد قوله تعالى : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ وهو يصل بسبب إلى قوله تعالى : ﴿ ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ .

ونجد في السورة قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لا تخذوك خليلاً * ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ . وهو يصل بسبب إلى قوله تعالى : ﴿ ادخلوا في السِّلم كافَّة ﴾ . وإلى قوله تعالى ﴿ ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ .

ونجد في السورة ﴿ لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً .... ﴾ .

وهو يصل بسبب إلى قوله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ... ﴾ وسنجد

أثناء عرض السورة تفصيلاً لما قلناه .

....

إن الله تعالى عندما ينزل وحياً على أمة ، ويختارها لحمل رسالته فهذه نعمة يستوجب كفرها عقابه .

وقد أنزل الله وحياً على بني إسرائيل فكفروه فاستحقوا عقابه . وقد أنزل الله على هذه الأمة هذا الإسلام ، وأمرهم بالدخول فيه كله ، ونهاهم عن اجتناب خطوات الشيطان ، وعليهم أن يتعظوا بما حدث لبني إسرائيل ، من تسليط غيرهم عليهم عندما ابتعدوا عن دينه .

فالسورة إذن تخدم الدخول في الإسلام ، وترك اتباع خطوات الشيطان من خلال التذكير بما جرى ويجري لبني إسرائيل ، ومن خلال التعريف على الله بأنه شديد العقاب لمن بدّل نعمته .

....

والسورة قد عالجت هذه القضايا بأسلوب القرآن الذي لا يستطيع الإنسان أن يحيط به إلا بقدر ويبقى ما يغيب عن الإنسان هو الأكثر . لأن الله وحده هو الذي يحيط بأسرار كتابه .

....

وسنعرض السورة على أنها مقدمة ، وخمسة مقاطع ، وهو تقسيم اجتهادي ، تسوقنا إليه المعاني .

ما ورد في سورة الإسراء :

أخرج البخاري بسنده إلى عبد الرحمن بن يزيد قال : سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : إنهنّ من العتاق الأول ، وهن من تلادي » وفي ذلك إشارة إلى قدم نزول هذه السور وإتقان ابن مسعود لهن .

وأخرج الإمام أحمد بسنده إلى أبي لبابة قال : سمعت عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم ، وكان

يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر » .

والملاحظ أن هذه السورة سميت في كلا الأثرين بسورة بني إسرائيل .

ويلاحظ أن السورة تبدأ بالكلام عن بني إسرائيل بعد الآية الأولى منها ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل** ... ﴾ .

وتنتهي قبل خاتمتها بالكلام عن بني إسرائيل : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم** ﴾

مقدمة سورة الإسراء

وتتألف من ثلاث آيات وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

التفسير .

﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده** ﴾ أي محمد ﷺ ﴿ **ليلاً** ﴾ أي في جنح الليل ﴿ **من المسجد الحرام** ﴾ أي من مكة أو من حرمها ﴿ **إلى المسجد الأقصى** ﴾ أي إلى بيت المقدس ﴿ **الذي باركنا حوله** ﴾ في الزروع والثمار والخيرات وكثرة العباد والدعاة . فقد بورك ديناً ودنيا ، ومن ثم كانت بلاد الشام بلاد البركات والخيرات ﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾ أي لنري محمداً عليه الصلاة والسلام من آياتنا العظام الدالة على الوحدانية والقدرة وصدق الوحي ، فهذه هي الحكمة من الإسراء والمعراج كما سنرى

﴿ **إنه هو السميع البصير** ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة ، مَجّدَ الله عز وجلّ نفسه ، وعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، بمناسبة الكلام عن الإسراء برسوله ﷺ ، وحكمته في ذلك ، ثمّ لمّا ذكر أنه أسرى بعبده محمد ﷺ عطف بذكر موسى عليه السلام عبده ورسوله ، وما أكرمه به من الكتاب ، وكثيراً ما يقرن الله بين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وبين ذكر التوراة والقرآن . وفي الكلام عن موسى عليه السلام والتوراة بعد الكلام عن الإسراء إشارة إلى صلة الإسراء بالتدليل على صدق ما أنزل على محمد ﷺ ووحدة الوحي ، ووحدة الرسالة ، وفي ذكر موسى وقومه بعد الكلام عن الإسراء بمحمد ﷺ إشارة إلى العبرة في قصة موسى عليه السلام وقومه للذين جاءتهم النبوة الأخيرة ، والرسالة الخاتمة كي لا يفعلوا كما فعل الآخرون ، فيبدّلوا نعمة الله كفراً ، فيستحقوا العقاب ﴿ **وآتينا موسى الكتاب** ﴾ أي التوراة ﴿ **وجعلناه** ﴾ أي كتاب التوراة ﴿ **هدى** ﴾ أي هادياً ﴿ **لبني إسرائيل** ﴾ ﴿ **أن لا تتخذوا** ﴾ أي لئلا تتخذوا ، أي لا تتخذوا ﴿ **من دوني وكيلًا** ﴾ أي رباً تَكِلون إليه أموركم ، فإن الله وحده هو الولي والنصير والمعبود ﴿ **ذُرِّية من حملنا مع نوح** ﴾ أي ياذرية من حملنا مع نوح عليه السلام فيه تهييج وتنبيه على المنة ، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ **إنه كان عبداً شكوراً** ﴾ في السراء والضراء ، والشكر مقابلة النعمة بالثناء على المنعم اعتقاداً وقولاً وحالاً ، والخطاب إما لبني إسرائيل أصلاً وتخاطب به هذه الأمة تبعاً ، أو الخطاب لهذه الأمة مباشرة ، فبعد أن حدّثها الله عن آية الإسراء ، وعما أنزل الله من آياته على موسى عليه السلام خاطبها مطالباً إياها بالشكر .

قال ابن كثير في تفسيرها : فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ

وقال النسفي : وأنتم ذرية من آمن به وحُمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم ، وآية رشد الأبناء صحة الاقتداء بسنة الآباء إذا كانت حقاً وصواباً ، وقد عرفتم حال الآباء هنالك ، فكونوا أيها الأبناء كذلك .

كلمة في السياق :

هذه مقدمة السورة وفي الإشارة إلى ما منّ الله به على محمد ﷺ بالإسراء ، وما منّ

به على موسى عليه السلام في التوراة . وفي الإشارة إلى مقام الشكر عند نوح ما يدلنا منذ البداية على اتجاه السورة .

النعمة تقتضي شكراً فإذ يقص الله بعدها علينا ما عاقب به بني إسرائيل لكفرهم ، فإنه يعرفنا بذلك على سنته فيمن لم يشكر . وفي ذلك تربية لهذه الأمة التي سيعطيها الله بيت المقدس وما حوله ، والتي أنزل عليها كتاباً هادياً ، وأرسل لها رسولاً بالآيات ألا تكفر النعمة فتسلب . وكفرانها بالنعمة إنما هو بكفرها بمحمد ﷺ ، وكفرها بدينه ، وعدم التزامها بشريعته ، ونحن الآن - سلبت منا فلسطين ، وذهبت القدس - ندرك حكمة التحذير في هذه الآيات وما بعدها ، ونعرف طريق الخروج مما نحن فيه .

في قوله تعالى في ابتداء السورة : ﴿ **سبحان** ﴾ ... ﴿ **إنه هو السميع البصير** ﴾ ما يشير إلى النعمة لتشكر ، وفيها إشارة إلى النقمة إن كفرت النعمة ، فالله يسمع ويبصر .

....

لاحظ صلة ذلك كله بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيِّنة ومن يبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ .

ولاحظ صلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ .

الفوائد :

١ ـــ في تفسير ابن كثير حوالي إحدى وعشرين صحيفة حول الإسراء والمعراج ، نقل فيها مجموع الروايات الواردة في هذين الموضوعين ، وكان يُعلّق على بعضها عند النقل . ثم كتب تعليقاً طويلاً في النهاية ، ونحن في هذه الفائدة سننقل قسماً من تعليقه الأخير . ونختار بعض نقوله ، ولنا تعليق أخير ، ونلفت النظر إلى أن كتابنا (الأساس فى السنة وفقهها) سيكون محل استعراض الأحاديث حول الإسراء والمعراج .

(١) مختارات

أ ـــ روى الإمام أحمد وأخرجاه في الصحيحين :

عن جابر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر ، فجلا الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .

ب ــ أخرج البخاري عن أنس قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ، ففرج صدري ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً ، فأفرغه في صدري ، ثم طبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء ، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء : « افتح قال : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم معي محمد قال : أرسل إليه ؟ قال : نعم . فلما فتح عَلَونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة ، وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك ، وإذا نظر قِبَل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قال : قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمُ [1] بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى . ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح . فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ، ففتح – قال أنس : فذكر أنه وجد في السموات آدم ، وإدريس ، وموسى ، وعيسى ، وإبراهيم ، ولم يثبت كيف منازلهم ، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة . قال أنس : فلما مَرّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح . فقلت : من هذا ؟ قال : هذا إدريس ، ثم مررت بموسى فقال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى ، ثم مررت بعيسى ، فقال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا عيسى . ثم مررت بإبراهيم فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت : من هذا ؟ قال : هذا إبراهيم » .

(٢) من تعليق ابن كثير

بعد أن ذكر ابن كثير الروايات في موضوع الإسراء والمعراج ذكر فصلاً ثم أعقبه بفصل وبفائدتين وهذه هي :

---

(١) – النَسَمُ : جمع نسمة وهي النفس .

قال ابن كثير :

(**فصل**) : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه ، أوزاد بعضهم فيه ، أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مَهرَب ، ولم يحصل على مطلب . وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات . وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته ، ولنقله الناس على التعدد والتكرر . قال موسى بن عقبة عن الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، وكذا قال عروة . وقال السدي : بستة عشر شهراً ، والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لامناماً من مكة إلى بيت المقدس ، راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى في قبلته تحيةَ المسجد ركعتين ، ثم أتي بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السمٰوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين في السمٰوات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم في السادسة ، وإبراهيم الخليل في السابعة ، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء . حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صَرِيف الأقلام أي : أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فَرَاش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق . ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه ، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى خمس ؛ رحمة منه ولطفاً بعباده . وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة . ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، ومن الناس من يزعم أنه أمّهم في السماء ، والذي تظاهرت به الروايات أنه

ببيت المقدس ، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً ، وهو يخبره بهم ، وهذا هو اللائق ؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى . ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين ، ثم أظهر شرفه وفضله بتقديمه في الإمامة ، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك . ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل ، أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء ، أو الجميع ، فقد ورد أنه في بيت المقدس ، وجاء أنه في السماء ، ويحتمل أن يكون ها هنا وها هنا لأنه كالضيافة للقادم والله أعلم . ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه ، أو بروحه فقط ؟ على قولين ، فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه ، يقظة لامناماً ، ولا يُنْكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعده يقظة ، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، والدليل على هذا قوله تعالى ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله** ﴾ فالتشبيه إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ، ولم يكن مستعظماً ، ولَمَا بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال : ﴿ **أسرى بعبده ليلاً** ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ . رواه البخاري ، وقال تعالى ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾ (النجم : ١٧) والبصر من آلات الذات لا الروح ، وأيضاً فإنه حُمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان ، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح ، لأنها لا تحتاج في حركاتها إلى مركب تركب عليه والله أعلم . وقال آخرون بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده . قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس : أن معاوية ابن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ ، قال : كانت رؤيا من الله صادقة . وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول : مافُقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسري بروحه . قال ابن إسحاق فلم ننكر ذلك من قولها لقول الحسن أن هذه الآية نزلت ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ . ولقول الله في الخبر عن إبراهيم ﴿ **إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾ . قال ثم مضى على ذلك

فعرفت أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظاً ونياماً فكان رسول الله ﷺ يقول : « تنام عيناي وقلبي يقظان » . فالله أعلم أيّ ذلك كان قد جاءه ، وعاين من الله فيه ما عاين على أي حالاته كان نائماً أو يقظاً ، كل ذلك حق وصدق . انتهى كلام ابن إسحاق وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن ، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم والله أعلم .

(**فائدة حسنة جليلة**) روى الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني في كتاب (دلائل النبوة) من طريق محمد بن عمر الواقدي ، حدثني مالك بن أبي الرجال عن عمرو بن عبد الله ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر ، فذكر وروده عليه وقدومه إليه . وفي السياق دلالة عظيمة على وُفور عقل هرقل . ثم استدعى من بالشام من التجار ، فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم ، كما سيأتي بيانه ، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده . قال في هذا السياق عن أبي سفيان : والله ما منعني أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها عَلَيَّ ، ولا يصدقني في شيء قال : حتى ذكرت قوله ليلة أسري به ، قال:فقلت : أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ قال : قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة ، فجاء مسجدكم إيليا ، ورجع تلك الليلة قبل الصباح ، قال : وبطريق إيليا عند رأس قيصر فقال بطريق إيليا : قد علمت تلك الليلة ،قال: فنظر قيصر وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني ، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم ، فعالجته فغلبنا فلم نستطع أن نحركه ، كأنما نزاول به جبلًا ، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف [1] والبنيان ، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فننظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط لدابة قال : فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلى الليلة في مسجدنا . وذكر تمام الحديث .

(١) - النجاف : أعلى الباب .

(**فائدة**) قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) . وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس ، وتكلم عليه فأجاد وأفاد ، ثم قال : وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب ، وعلي ، وابن مسعود ، وأبي ذر ، ومالك بن صعصعة ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وابن عباس ، وشدّاد بن أوس ، وأبيّ بن كعب ، وعبد الرحمن بن قُرْظ ، وأبي حبة ، وأبي ليلى الأنصاريين ، وعبد الله بن عمر ، وجابر ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبي أيوب ، وأبي أمامة ، وسمرة بن جندب ، وأبي الحمراء ، وصهيب الرومي ، وأم هانىء ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق ، رضي الله عنهم أجمعين . منهم من ساقه بطوله ، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

٣ ـ تعليقـنا

أ ـ إن الإسراء والمعراج يذكران في باب المعجزات من كتب الحديث والسيرة والدلائل ، والمعجزة ما به تقوم الحجة على الناس ، وقد قامت الحجة عليهم بالإسراء من حيث إنهم امتحنوا الرسول ﷺ بعد إخباره لهم بالإسراء امتحانات متعددة للتأكد من صدق الحادث ، فكان أن وجدوا في كل امتحان ما يدلل على صدقه عليه الصلاة والسلام فيه ، وقد رأينا في المختارات نموذجاً ، وفي مجموع الروايات الواردة في هذا الموضوع نماذج من هذه الامتحانات ، وبهذا قامت الحجة على الناس بالمعجزة وحدوثها .

ب ـ رأينا أن الحكمة التي ذكرها القرآن للإسراء هي قوله تعالى ﴿ **لنريه من آياتنا** ﴾ وقد كان الإسراء قبيل الهجرة - كما رأينا - فهذا الاطلاع على الآيات كان مقدمة للمرحلة الصعبة - مرحلة المجابهة العسكرية الصعبة - وهذا موسى عليه السلام أراه الله من آياته الكبرى ، قبل أن يأمره بمجابهة فرعون ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حيَّة تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى *** ﴾ (طه: ١٧ - ٢٣).

فهذه حكمة من حكم الإسراء والمعراج

ومن حكم إراءته عليه الصلاة والسلام الآيات في الإسراء والمعراج أن يرى حقيقة ما يدعو إليه .

فهو يدعو إلى الإيمان بالله . ويقال على رأي راجح أنه رأى الله في معراجه ، وهو يدعو إلى الإيمان بالرسل ، وقد اجتمع بهم ، وصلى بهم ، ورأى بعضهم ، وهو يدعو إلى الإيمان بالغيب ، وقد رأى السمٰوات ، ورأى الجنة والنار ، ورأى الملائكة والبيت المعمور وسدرة المنتهى ، وغيرها من الغيوب .

ج ـــ دلّت أحاديث الإسراء والمعراج – وهي متواترة – على وجود سمٰوات سبع ، فوقها عرش الرحمن ، وهذا القسم لاشك في كون الروايات تثبته ، ومن ثم فإن من أنكر وجود السمٰوات السبع ، والعرش ، متأولاً أو جاحداً ، فهو إما على كفر ، أو ضلال . فمن ذهب إلى أن المراد بالسمٰوات هذه الكواكب والنجوم والمجرات مخطىء خطأ عظيماً ، ونحن في هذا التفسير نحاول أن نثبت أن السمٰوات ترد في القرآن ويُراد بها هذه المجرات والنجوم ، وأن السماء ترد ويراد بها جو الأرض ، وأن السمٰوات ترد ويراد بها هذه السمٰوات التي كان إليها المعراج ، والذي نرجحه أنها سمٰوات غيبية مغيبة ، فهي من حيث الوجود موجودة ، ولكن وجوداً غيبياً كوجود الجن والملائكة والنار .

٢ – بمناسبة تسمية الله نوحاً عليه السلام ﴿ **إنه كان عبداً شكوراً** ﴾ قال ابن كثير : وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه ؛ فلهذا سمّي عبداً شكوراً .

روى الطبراني ... عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمّي نوح عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله . وروى الإمام أحمد ... عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمدالله عليها » . وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أبي أسامة به ، وقال مالك عن زيد بن أسلم : كان يحمد الله على كل حال ، وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » . بطوله ، وفيه « فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك » . وذكر الحديث بكماله .

المقطع الأول

ويمتدّ من الآية (٤) إلى نهاية الآية (٤٠) وسنعرضه على مجموعات :

المجموعة الأولى من المقطع الأول

وهي خمس آيات من الآية (٤) إلى نهاية الآية (٨) وهذه هي :

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ
وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟
ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

التفسير :

﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل** ﴾ أي تقدمنا إليهم وأخبرناهم ، وأوحينا إليهم وحياً مقضياً ، هذا إذا فسّرنا كلمة الكتاب الآتية بالتوراة وهو الراجح ﴿ **في الكتاب** ﴾ أي في التوراة وهذا الذي يقتضيه السياق السابق الذي يتحدّث عن موسى عليه السلام ﴿ **وآتينا موسى الكتاب** ﴾ ﴿ **لتفسدُنَّ في الأرض مرتين** ﴾ الإفساد في الأرض هو مخالفة حكم الله فيها ﴿ **ولتعلُنَّ علواً كبيراً** ﴾ أي ولتستكبرن عن طاعة الله فتطغون وتبغون ﴿ **فإذا جاء وعد أولاهما** ﴾ أي وعد عقاب الإفسادة الأولى ﴿ **بعثنا عليكم** ﴾

أي سلَّطنا عليكم ﴿ **عباداً لنا أولي بأس شديد** ﴾ أي أشداء في القتال ﴿ **فجاسوا خلال الديار** ﴾ أي ترددوا للغارة فيها ، قال الزجاج : الجواس : طلب الشيء بالاستقصاء ﴿ **وكان وعداً مفعولًا** ﴾ أي وكان وعد العقاب وعداً لابد أن يفعل ﴿ **ثم رَدَدْنا لكم الكَرَّةَ عليهم** ﴾ أي جعلنا لكم الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم ﴿ **وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾ النفير : الذين ينفرون للقتال إذ استنفروا ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها** ﴾ يعني أن الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم لايتعدى النفع والضرر إلى ربكم ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾ أي وعد الكرة الآخرة أي إذا أفسدتم الإفسادة الثانية وجاء وعد عقابها ﴿ **ليسوءوا وجوهكم** ﴾ أي بعثنا هؤلاء ليسوءوا وجوهكم أي ليجعلوها بادية المساءة والكآبة فيها ، أي يهينوكم ويقهروكم ﴿ **وليدخلوا المسجد** ﴾ أي بيت المقدس ﴿ **كما دخلوه أَوَّلَ مَرّة** ﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ **وليتبرِّوا** ﴾ أي وليهلكوا ويدمِّروا ويخرِّبوا ﴿ **ما عَلَوْا** ﴾ أي ما ظهروا عليه ، أو مدة علوهم ﴿ **تَتْبِيراً** ﴾ أي تدميراً وإهلاكاً ﴿ **عسى ربكم أن يرحمكم** ﴾ بعد المرة الثانية ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والعلو عدنا إلى عقوبتكم ﴿ **وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً** ﴾ أي سجناً لا محيد لهم عنه به يستقرُّون ويحصرون .

ملاحظة :

هذه الآيات مما كثر فيه الخلاف بين المفسرين ، ولا يكثر الخلاف إلا إذا كان لذلك مبرراته ، فما هما هاتان الإفسادتان ومتى كانتا ؟ ومن هم الأقوام الذين يُسلَّطون على بني إسرائيل مرة بعد مرة ؟ وهل المراد بالكتاب التوراة أو القرآن أو اللوح المحفوظ ؟ وهل المرتان حدثتا أو أنهما ستحدثان بعد نزول القرآن أو أن واحدة حدثت من قبل ، والثانية في طريقها ؟ وهل للأقوام المسلَّطين صلة عداء أو ولاء للمسجد الأقصى حتى ذكروا به ﴿ **وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة** ﴾ هذه كلها تحتاج إلى أجوبة دقيقة ، ومن ثم وقع الخلاف . قال ابن كثير :

(وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلَّطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة : أنه جالوت الجزري وجنوده ، سلط عليهم أولاً ثم أديلوا عليه بعد ذلك . وقتل داود جالوت ولهذا قال : ﴿ **ثم رددنا لكم الكَرَّة عليهم** ﴾ الآية . وعن سعيد بن جبير : أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده ، وعنه أيضاً وعن غيره أنه بختنصر

ملك بابل) . وبعدأن يذكر ابن كثير طرفاً من أخبار بختنصر يقول : وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها ، ولو وجدنا ما هو صحيح أو يقاربه لجاز كتابته وروايته . والله أعلم . ولكن ما قاله ابن كثير لا يجيب على الأسئلة التي ذكرناها كلها ، ومن ثم اقتضى هذا منا أن نقف وقفة عند هذا الموضوع سنراه في الفوائد وهو موضوع مهم لأنه قضية عصرنا .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السورة هو أخذ العبرة مما حدث لبني إسرائيل في إخلالهم بنعمة الوحي والرسالة ، وذلك في حيّز الأمر بالدخول في الإسلام جميعه ، وترك اتباع خطوات الشيطان كلها ، وهذه المجموعة تنصب انصباباً مباشراً على هذا الموضوع ، فبنو إسرائيل انحرفوا فأفسدوا ، وطغوا وعطلوا شريعة الله ؛ فسلَّط الله عليهم ، فيا هذه الأمة لا تفعلي فعلهم فيسلّط عليك ، ثم إذا تابوا ورجعوا يرفع الله البلاء ، وأنت يا هذه الأمة كذلك ، ثم إذا عاد الإفساد عاد التسليط ، فاحذري يا هذه الأمة ذلك .

وقد حدث لأمتنا ما حدث لبني إسرائيل من إفساد وبغي فعطلت شريعة الله وعطلت حدوده إلا قليلًا ، فَسلط عليها المغول والتتار والصليبيون ثم المستعمرون الغربيون والشيوعيون واليهود ، وليس أمام هذه الأمة خيار : إما التوبة والاستغفار والعودة إلى شريعة الواحد القهار ، وإما الدّمار والبوار ، ولكن من يسمع ومن يعقل ؟ إن من يرى هذا الإسراع في الكفر والمعاصي والاستهتار والتهالك على الشهوات ، وكثرة المباهاة بالردة ، ومعاداة شرع الله لا يعجب كيف سلط علينا هذا التسليط ، ومن رأى تدابر أهل الخير وتقاطعهم وتحاسدهم وتشتت قلوبهم ، ومعاداتهم لبعضهم ، لم يستغرب تسلط الكفر في داخل البلاد على أهلها ، وتسلط الكافرين من خارجها على الجميع .

الفوائد :

نحب أن نذكر ههنا ما وعدنا به من كلام حول الإفسادتين لبني إسرائيل ، ونقدم لذلك ببعض المقدمات :

١ ـــ إن النص يحدثنا عن إفسادتين لبني إسرائيل يرافقهما علو كبير ، وهذامهمّ جداً في فهم هذا الموضوع ، لقد أفسد بنو إسرائيل إفسادات كثيرة ولكن لم يرافق كل ذلك علوّ كبير لهم ودولة ، كما أنهم قد علوا علوًّا كبيراً في مراحل كما حدث في زمن

داود وسليمان عليهما السلام ، ولكنه علو لا يرافقه فساد ، ولعل ما هم فيه الآن نموذج على علو وفساد : فهاهم لهم دولة ، وهاهم لهم سلطان وهيمنة عالميان ، وهم يستعملون ذلك في إفساد كل شيء .

٢ ـ يحتمل أن يكون بختنصر موحّداً سلّطه الله على اليهود ، ولكن لم تصلنا تفصيلات صحيحة عن وضعه الديني ، ومن رأى ما يقوله اليهود في أنبيائهم ، والنصارى في عيسى بن مريم لم يستغرب عدم وصول الوصف السليم عن أحد من القدماء . على ضوء هاتين المقدمتين نقول :

إن الآيات تذكر أن الذين يسلطون على بني إسرائيل أوّل مرّة هم الذين يسلّطون عليهم ثاني مَرّة ، يلاحظ ذلك من عودة الضمير على المذكورين أولًا في قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم** ﴾ . ويلاحظ أنه جاء في آخر السورة قوله تعالى : ﴿ **وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً** ﴾ فهل المراد بالآخرة هنا المرة الآخرة التي وردت من قبل ؟ أو المراد بها ما يقابل الدنيا ؟ فإذا كان يراد بها ما يقابل الدنيا لم تعطنا شيئاً له علاقة في موضوعنا ، أما إذا كان لها علاقة بموضوعنا فإنها تلقي ضوءاً عليه ، كما أن ذكر المسجد ودخول الأقوام إليه ، يلقي ضوءاً على الموضوع .

يبدو بمالا يقبل الجدل أن الإفسادة الأولى هي التي سلّط عليهم بها بختنصر ، فهي الإفسادة التي رافقها بغي وطغيان وعتو ، والتي يدور حولها كثير من كلام العهد القديم ، وما قبل ذلك لا نعرف أنه حدث لبني إسرائيل مثل هذا الدمار ، ولم يحدث أن قوماً سيطروا على المسجد الأقصى وجاسوا خلال الديار .

فهل الإفسادة الثانية هي ما نراه الآن ؟ إذ لهم دولة وسلطان ، وإفساد وطغيان. يمكن أن نفهم المسألة كذلك إذا كان قوله تعالى : ﴿ **وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً** ﴾ إذا كانت الآخرة هنا تفيد (المرة الآخرة) . وإذا كان هذا القول جاء متأخراً عن حياة موسى عليه السلام ، وإذا كانت الأرض في الآية المراد بها عموم الأرض وليست أرض فلسطين من باب ﴿ **وقطّعناهم في الأرض أمماً** ﴾ . فإذا كانت هذه الافتراضات صحيحة يكون معنى الآية :

وقلنا من بعد موسى لبني إسرائيل اسكنوا الأرض كلها متفرقين ، فإذا جاء وعد

الإفسادة الثانية جئنابكم إلى أرض فلسطين ، وعندئذ نسلّط عليكم من سلّطناهم عليكم من قبل ، فإن كان بختنصر مسلماً فالمسلطون الجدد هم المسلمون بإطلاق ، وإن لم يكن كذلك فالعراقيون خاصة وهم مسلمون بفضل الله . هذا احتمال نفهم على ضوئه الآيات فيكون معناها ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب** ﴾ ﴿ **لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً * فإذاجاء وعدأولاهما بعثناعليكم عباداً لنا أولي بأس شديد** ﴾ هم بختنصر وجنده ﴿ **فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً** ﴾ ﴿ **ثم رددنا لكم الكرّة عليهم** ﴾ بعد مئات السنين بأن جعلنا لكم الغلبة ، حتى إذا دخلتم في صراع معهم غلبتموهم ، كما حدث إذ غُلب المسلمون ومنهم العراقيون حقيقة أو حكماً في الصراعات الحالية ﴿ **وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾ كما هو الحال الآن إذ تستطيع دولة إسرائيل أن تحشد جيشاً كبيراً وتستنفر العالم من ورائها ﴿ **إن أحسنتم** ﴾ خلال هذه الفترة ﴿ **أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم** ﴾ أي ليسوء العراقيون خاصة أو المسلمون عامة ﴿ **وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرّوا ما علوا تتبيراً عسى ربكم أن يرحمكم** ﴾ بالدخول في الإسلام ﴿ **وإن عدتم** ﴾ إلى العلو والإفساد ﴿ **عدنا** ﴾ إلى التسليط ﴿ **وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً** ﴾

....

ويمكن أن نفهم المسألة فهماً آخر بأن نعتبر الإفسادة الأولى هي محاولاتهم الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية ، وتسليط الله المسلمين عليهم وعلى ديارهم حول المدينة المنورة ، والإفسادة الثانية هي الإفسادة الحالية ، ويكون المسلمون الذين غلبوهم أول مرة هم الذين سيغلبونهم المرة الثانية . إذا اجتمع لهم العبودية لله والبأسُ الشديد فيكون معنى الآيات ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب** ﴾ أي في القرآن ﴿ **لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً** ﴾ أي لتطغن طغياناً كبيراً ﴿ **فإذا جاء وعد أولاهما** ﴾ أي الإفسادة الأولى ﴿ **بعثنا عليكم عباداً لنا** ﴾ هم الصحابة ﴿ **أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار** ﴾ أي سيطروا عليها سيطرة تامة ﴿ **وكان وعداً مفعولاً * ثم** ﴾ بعد مئات السنين ﴿ **رددنا لكم الكرّة عليهم** ﴾ على المسلمين بأن جعلنا لكم الغلبة ﴿ **وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾ كما هم الآن فهم أغنياء ويستطيعون استنفار العالم ضدنا ﴿ **إن أحسنتم** ﴾ بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد ﷺ ﴿ **أحسنتم لأنفسكم وإن**

أسأتم ﴾ برفض الإسلام ﴿ **فلها** ﴾ فنفع أعمالكم عائد إليكم ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم** ﴾ أي فإذا جاء وعد الإفسادة الآخرة ليسوء المسلمون وجوهكم ﴿ **وليدخلوا المسجد** ﴾ أي الأقصى مستردينه منكم ﴿ **كما دخلوه أول مرة** ﴾ كما أخذوه الأخذة الأولى يوم فتح القدس عمر ﴿ **وليتبروا ما علوا** ﴾ وليهلكوا في علوهم ﴿ **تتبيراً** ﴾ أي إهلاكاً ﴿ **عسى ربكم أن يرحمكم** ﴾ بأن يجعلكم مسلمين ﴿ **وإن عدتم** ﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿ **عدنا** ﴾ إلى التسليط عليكم كما سيفعل الله يوم يأتون مع جند الدجال ﴿ **وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً** ﴾ أي سجناً . وفي قوله تعالى ﴿ **وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً** ﴾ ما يقوي هذا الاتجاه في الفهم ، لأن الآية تشير إلى أنهم كافرون ولا نحكم بكفرهم إلا بعد رفضهم رسالة المسيح ثم محمد ﷺ . فالإفسادتان متأخرتان على بعثة المسيح ، وهذا الاتجاه يقويه أن كلمة ﴿ **عباداً لنا** ﴾ تُشعر بأنهم المسلمون فهم العباد الحقيقيون لله . وكلمة ﴿ **وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوَّل مرة** ﴾ تشعر بأنهم المسلمون ، فهم أصحاب المسجد ، وهم وإن لم يأخذوه من اليهود مباشرة فقد أخذوه ودخلوه المرة الأولى فاتحين

وتكون الآيات مشيرة إلى ماينبغي فعله لتحرير القدس وفلسطين ؟ على أن يخوض المعركة مسلمون اجتمعت لهم العبودية لله والبأس الشديد . وقد كتبنا كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) على أمل أن يوجد جيل متصف بهذه الصفات . والذي دعانا إلى أن نحمل هذه الآيات على أحد الاحتمالين السابقين هو أننا لم نجد قوماً بأعيانهم قد سلطوا على اليهود مرتين في حال اجتماع العلو والإفساد . لقد سلط عليهم بختنصر والرومان وغيرهم ، ولكن قوماً بعينهم لم يسلطوا عليهم مرتين داخلين المسجد الأقصى هذا الدخول الموصوف فيما نعلم ، وعلى كل حال ، ففي الآيات بشارة للمسلمين في قوله تعالى ﴿ **وإن عدتم عدنا** ﴾ فهذا وعيد من الله لهم أنه سيسلط عليهم في كل مرة يفسدون في الأرض وتكون لهم غلبة على المسجد الأقصى ، وههنا ينبغي أن ننبه المسلمين تنبيهاً جازماً أن هذه الغلبة على المسجد الأقصى لليهود ليست دائمة حتى قيام الساعة ، كما يفهم بعضهم من كون المسيح يقتل اليهود عند نزوله فاليهود الذين يقتلهم المسيح يومها هم الذين يأتون مع الدجال ، والنصوص تفيد أن المسجد الأقصى وقتذاك يكون بيد المسلمين ، وأن القدس تكون عاصمة الخلافة ، وهذا كله يتنافى مع الوضع الحالي . يبقى لو أن قائلاً قال : ذكر المفسرون القدامى أن المسلط الأول عليهم هو

سنحاريب ، والمسلط الثاني هو بختنصر ، وكلاهما من أرض العراق ، ومن ثم فإن من سلط عليهم أول مرة وثاني مرة هم من شعب واحد ، والجواب أن كتب العهد القديم - وإن لم تكن موثوقة تاريخياً ، إلا أنه قد يستأنس بها في أمهات المسائل التاريخية تذكر في الإصحاح الثاني والثلاثين من أخبار الأيام الثاني أن سنحاريب ملك آشور قد حاصر أورشليم ولكن الله سلّط على جنده ملكا فأبادوا كل جبار بأس ورئيس وقائد ورجع هو خزيان ثم قتله أبناؤه) ، فلم يكن تسليط في هذه المرحلة كما توهم بعض المفسرين الذين ليس لهم مستند إلا الروايات الإسرائيلية ، وهي لا تفيد ما توهموه ، فلم يُجب هذا الكلام على الموضوع المطروح ، وهو أن المسلَّطين الأولين هم المسلّطون الآخرون .

....

وقد حاولنا أن نلقي نظرة على التوراة الحالية المحرفة لعلّنا نجد ما نستأنس به ،فوجدنا في التوراة شيئاً له علاقة بهذا الموضوع إلى حد ما ، إلّا أن التحريف واضح جداً فيها .فمثلًا تجد في الإصحاح التاسع والعشرين وهو أحد الإصحاحات الثلاثة التي تحدثت عن العقاب الذي هدّد الله به بني إسرائيل إذا انحرفوا هذه العبارة : (واستأصلهم الرب من أرضهم بغضب وسخط وغيظ عظيم . وألقاهم إلى أرض أخرى كما في هذا اليوم) . فكلمة كما في هذا اليوم تشير إلى أن هذه الكلمة وهذه النسخة مكتوبة في زمن بابل أو في التشتيت الأخير ، وهذا من جملة الأدلة على أن نُسخ التوراة الحالية محرفة ، ومع هذا التحريف فإننا نلاحظ كلاماً شبيهاً ببعض ما جاء في الآيات القرآنية . فمثلًا في السفر الثامن والعشرين :

(يجلب الرب عليك أمة من بعيد من أقصاء الأرض كما يطير النسر . أمة لا تفهم لسانها.أمة جافية الوجه لا تهاب الشيخ ولا تحن إلى الولد) .

فهذا يشبه قوله تعالى : ﴿ **عباداً لنا أولي بأس شديد** ﴾ وفي الإصحاح نفسه :

(ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها ...

وفي تلك الأمم تطمئن ولا يكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلباً مرتجفاً وكلال العينين وذبول النفس وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليلًا ونهاراً ولا تأمن على حياتك) .

وهذا يشبه قوله تعالى : ﴿ **وقطّعناهم في الأرض أمماً** ﴾ ﴿ **وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ..** ﴾

وفي الإصحاح الثلاثين : (يرد الرب إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب التي بددك إليهم الرب إلهك إن يكن قد بددك إلى أقصاء السموات فمن هناك . بجمعك الرب إلهك ، ومن هناك يأخذك ويأتي الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك أكثر من آبائك) .

وهذا يشبه قوله تعالى :﴿ **وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾

ولولا أن التحريف قد حدث في التوراة لكان ما في التوراة تفسيراً صالحاً للقرآن في هذا المقام ، ولكن لعنة الله على أقلام النساخ الكاذبة .

....

يبقى أن يقول قائل : إن المسلّطين الأولين هم بختنصر وقومه ، والمسلطون الآخرون هم الرومان الذين احتلوا فلسطين بعد عودة اليهود من سبي بابل ، فإذا قال قائل ولكن هؤلاء غير أولئك يقال : لكن يجمعهم وصف الوثنية ، وكل منهم قد سيطر ودخل المسجد الأقصى عاتياً ، ويمكن أن يقال رداً : إن الآيات تقول : ﴿ **ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً** ﴾ وبعد السبي وقبل الغزو الروماني لم تقم لليهود شوكة يكونون فيها أكثر نفيراً .

وهناك اتجاه يقول : إن المسلّطين الأولين هم قوم جالوت ، والمسلّطون الآخرون هم قوم بختنصر ويجمع القومان صفة البأس الشديد والوثنية . ثم عند ما غلب بنو إسرائيل جالوت وقومه أصبحوا أكثر نفيراً .

ولكن عندما نرجع إلى سفر القضاة الذي يتحدث عما بعد يشوع وقبل طالوت نجده يتحدث عن مجموعة إفسادات :

إفسادة سلط عليهم بها (كوشان رشعتايم ملك آرام النهرين) يقول الإصحاح الثالث : (فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثماني سنين) .

وإفسادة سلط عليهم فيها (عجلون ملك موآب) ثماني عشرة سنة

وإفسادة سلط عليهم فيها (يا بين) ملك كنعان .

وإفسادة سلط عليهم بها (المديانيون) سبع سنين.

وإفسادة سلط عليهم بها (الفلسطينيون) أربعين سنة.

ويمكن أن يقال: إن المسجد الأقصى وإن يكن قد أسسه إبراهيم عليه السلام إلا أنه لم يأخذ طابعه الذي يعتبر الاستيلاء عليه رمزاً لسقوط العز اليهودي إلا بعد داود وسليمان عليهما السلام، وهما كانا بعد المرحلة السابقة كلها.

وبعد أن استعرضنا أكثر الاحتمالات التي يمكن أن تُفهم على ضوئها الآيات فهل لنا أن نرجّح شيئاً؟:

....

إننا نرجح أن التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿**وقلنا من بعده**﴾ أي: من بعد موسى ﴿**لبني إسرائيل اسكنوا الأرض**﴾ كل الأرض متفرقين ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً**﴾ أي: جميعاً إلى فلسطين، وأن هذا النص يحدد أن الإفسادة الآخرة بعد تفرقهم في الأرض كلها ﴿**وقطّعناهم في الأرض أمماً**﴾ وأما الإفسادة الأولى فتكون قبل ذلك، ومن المعلوم أن التشتيت الشامل على وجه الأرض لبني إسرائيل إنما كان بعد عودتهم من سبي بابل، فيكون التسليط الأول هو تسليط بختنصر، والتسليط الثاني هو الذي يتوقع الآن، بدليل العلو والإفساد. فالإفسادة الأولى كانت لهم دولة وفساد. والآن إفسادهم في الأرض كلها معروف، وسيطرتهم الخفية على بعض بلدان العالم معروفة، واجتمع لهم سلطان ودولة، وأن المرشحين للتسليط عليهم هم العراقيون المسلمون سواء اعتبرنا بختنصر موحّداً أوْلا، أو المسلمون عامة، إذا كان بختنصر موحداً.

المجموعة الثانية من المقطع الأول

وتمتدُّ من الآية (٩) إلى نهاية الآية (٢١) وهذه هي :

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ
أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
(١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا
مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)
وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَىٰ
فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً
أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا
مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ
يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا
مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ
وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ
وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

التفسير :

﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ أي للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها ، أو للملّة التي هي أقوم ، أو للطريقة التي هي أقوم في كل شيء ، في العقائد والأخلاق ، والسلوك ، والعبادات ، والتشريع ﴿ **ويُبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾ أي الجنة ﴿ **وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا** ﴾ أي أعددنا ﴿ **لهم عذاباً أليماً** ﴾ يعني النار . وقد بينت الآيتان خصيصة من خصائص القرآن ، هو أنه يهدي لأقوم الطرق ، وأوضح السُبل ، مع التبشير والإنذار ، وهذا مظهر من مظاهر إعجازه . إذ تحدث عن كل شيء فهدى فيه إلى أقوم ما يمكن أن يكون فيه ، بأسلوب التبشير والإنذار ، فأي كتاب يمكن أن يكون كذلك ؟ وكيف يكون كذلك لولا أنه من عند الله وبعد أن بيّن الله عز وجل خصيصة من خصائص كتابه بين خصيصة من خصائص الإنسان ﴿ **ويدعُ الإنسان بالشرِّ دعاءه بالخير** ﴾ أي ويدعو الإنسان الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولده ، كما يدعو لهم بالخير ، أو يطلب النفع العاجل وإن قلّ ، بالضرر الآجل وإن جلّ ﴿ **وكان الإنسان عجولًا** ﴾ أي يتسرع إلى طلب كل ما ينفع مما يخطر بباله ، ولا يتأنّى فيه تأني المتبصر ، وهذا الإخبار من الله عز وجل في هذا المقام عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالهلاك والدمار واللعنة ، واستعجاله الأمورقبل أوانها ، إشارة إلى أن هذا الخلق يعكر الاهتداء ، كما أنه إشارة إلى قصور الإنسان ونقصه الذي يحتاج معه إلى تربية وهداية ، كما أنه إشارة إلى بعض العوامل التي تبعده عن سلوك طريق الإسلام كالغضب والاستعجال ، فإنهما قد يحملانه على سلوك طريق ينفس به عن حقد أو يظنه الأقرب إلى تحقيق الغاية فيترك الإسلام . ومجيءهذا الكلام بعد الكلام عن المسجد الأقصى وبني إسرائيل مربّ وموجّه ، فمن الملاحظ في عصرنا أن الحقد على عملية الاحتلال الصهيوني والاستعجال في إنهاء الاحتلال جعلت كثيراً من المسلمين يتخلون عن طريق الإسلام

والقرآن ، ويعملون متبنين طرقاً أخرى يظنونها أسرع للتحرير ، وما نراهم يزدادون إلا تعثراً ويزداد اليهود تمكناً . وهاتان الآيتان - كما سنرى آيتان في وسط سياق معين وفيهما إشارة إلى أن حلّ القضية الفلسطينية طريقه الاهتداء بالقرآن ، والإيمان والعمل الصالح والعمل الدؤوب غير المتسرع ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين** ﴾ أي علامتين على موجد حكيم ﴿ **فمحونا آية الليل** ﴾ أي فمحونا الآية التي هي الليل ﴿ **وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ أي وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة ، ويمكن أن يكون المعنى وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين أي الشمس والقمر ، فمحونا آية الليل التي هي القمر ، حيث لم يخلق له شعاع كشعاع الشمس ، وحيث يتغير حتى يمحى ثم يعود ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء ﴿ **لتبتغوا فضلًا من ربكم** ﴾ في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك فتسكنوا في الليل وتنتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار ، ولو لم يكن ليل ونهار لما أمكنت الحياة أصلًا في قوانين هذا الكون ﴿ **ولتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ أي لتعلموا باختلاف الليل والنهار حساب الآجال ومواسم الأعمال ، وعدد الأيام والجمَع والشهور والأعوام ، وتعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون ، والعبادات والمعاملات والإجارات والزمان ومحله من المكان ، ولولم يكن ليل ونهار لضاع حساب أكثر الأشياء ، وجهل أكثر الخلق ، ولما استراح حراص المكتسبين والتجار ﴿ **وكل شيء فصّلناه تفصيلًا** ﴾ أي وكل شيء مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم بيناه بياناً غير ملتبس ، فأزحنا عللكم . وما تركنا لكم حجة علينا في ما خلقنا ولافي ما أنزلنا ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره** ﴾ أي عمله ﴿ **في عنقه** ﴾ يعني أن عمله لازم له لزوم القلادة ، أو الغل للعنق لا ينفك عنه سواء كان خيراً أو شراً فإنه لازم له مجازى عليه ﴿ **ونخرج له يوم القيامة** ﴾ ذلك العمل ﴿ **كتاباً يلقاه منشوراً** ﴾ أي غير مطوي يمكنه قراءته ﴿ **اقرأ كتابك** ﴾ أي ونقول له : اقرأ كتابك أي كتاب أعمالك . قال النسفي : وكل يبعث قارئاً ، أي : يستطيع قراءة هذا الكتاب ﴿ **كفىٰ بنفسك** ﴾ أي كفى نفسك ﴿ **اليوم عليك حسيباً** ﴾ أي حاسباً أو كافياً ، ويسمى الشاهد كافياً لأنّه يكفي المدّعي ما أهمه .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن السورة بدأت بقوله تعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى** ... ﴾ ثم : ﴿ **وآتينا موسى الكتاب** .... ﴾ ثم : ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب** .... ﴾ ثم : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين** .... ﴾

وما قبل ﴿ **وجعلنا الليل والنهار** ﴾ ذُكرت الآيتان : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ... ﴾ فالآيات تعرض في سياقها العام مظاهر من نعم الله ، ومظاهر من عقوبته ومحاسبته على العمل في الدنيا والآخرة .

فإذا تذكرنا أن محور السورة ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ عرفنا أن ما مَرَّ معنا يسير على نسق واحد مع محور السورة .

ومجيء ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ بعد الكلام عما عوقب به بنو إسرائيل إشارة إلى النعمة في إنزال هذا القرآن .

وذكر طبيعة الإنسان بعدها إشارة إلى ما يسبب الكفر بالنعمة عند الإنسان بتركه الدخول في الإسلام كله ، واجتنابه اتباع خطوات الشيطان ومن هنا تعرف كيف يخدم السياق محور السورة .

فإذا تقررت النعمة ، وتقررت العقوبة ، وتقرر أن من نعم الله إنزال هذا القرآن ، فإن سياق المجموعة يستمر ليقرّر أموراً تفصل في المحور . فلنر تفسير تتمة المجموعة :

....

﴿ **من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضَلَّ فإنما يضل عليها** ﴾ أي فلها ثواب الاهتداء ، وعليها وبال الضلال . أي من اهتدى واتّبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك- وهي العاقبةالحميدة - لنفسه ، ومن ضَلّ عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد فإنما يجني على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أي ولا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جان إلا على نفسه ، أي كل نفس حاملة وزراً فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى والوزر الثقل ، والمراد به هنا الذنب ﴿ **وما كُنّا معذّبين حتى نبعث رسولًا** ﴾ هذا إخبار عن عدله تعالى وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام

الحجة عليه بإرسال الرسول إليه . وفسّرها النسفي بقوله : وما صح منا أن نعذب قوماً عذاب استئصال في الدنيا إلا بعد أن نرسل إليهم رسولاً ، يلزمهم الحجة . وحول الآية كلام كثير سيأتي في الفوائد ﴿ **وإذا أردنا أن نُهلك قرية** ﴾أي أهل قرية ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ أي أمرنا متنعميها وجبابرتها بالطاعة ﴿ **ففسقوا فيها**﴾ أي فخرجوا عن الأمر ﴿ **فحَقَّ عليها القول** ﴾ أي فوجب عليها الوعيد ﴿ **فدمَّرناها تدميراً**﴾ أي فأهلكناها إهلاكاً ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾ أي كثير من الأجيال أهلكناها من بعد نوح ﴿ **وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً** ﴾ وإن أخفوها في الصدور ﴿ **بصيراً** ﴾ وإن أرخوا عليها الستور ، أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى .

وهكذا قررت هذه الآيات أن العذاب لا يكون إلا بعد إقامة الحجة ووجود الضلالة والفسوق وهو معنى يخدم محور السورة ضمن حيزها العام : ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافة ... ولا تتبعوا خطوات الشيطان ... ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾

ثم يقرر الله سنته في طلاب الدنيا وطلاب الآخرة إذ طلب الدنيا هو سبب الانحراف ، وطلب الآخرة سبب من أسباب الهداية ، فإذا رافقه إيمان صحيح كان سبب النجاة ﴿ **من كان يريد العاجلة** ﴾ أي من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها ﴿ **عجَّلنا له فيها ما نشاء** ﴾ أي تفضَّلنا عليه من منافعها بما نشاء ﴿ **لمن نريد** ﴾ قيد المعجَّل بمشيئته ، والمعجَّل له بإرادته ، وهكذا الحال ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه ، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه ، فاجتمع لهم فقر الدنيا والآخرة ، وأما المؤمن التقي فقد اختار الآخرة ، فإن أوتي حظاً من الدنيا فبها ، وإلا كان المنع خيراً له ، فإذا كان المؤمن والكافر مستويين في كونهما يعطيان بمشيئة الله ، وللمؤمن أجره فلم يكفر الكافرون بسبب الدنيا ووراء ذلك جهنم ﴿ **ثم جعلنا له** ﴾ في الآخرة ﴿ **جهنم يصلاها** ﴾ أي يدخلها تغمره من جميع جوانبه ﴿ **مذموماً** ﴾ أي ممقوتاً ﴿ **مدحوراً** ﴾ أي مطروداً من رحمة الله مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً بسبب سوء تصرفه وصنيعه إذ اختار الفاني على الباقي ، سيراً على طبيعته في الاستعجال ﴿ **ومن أراد الآخرة** ﴾ وما فيها من النعيم والسرور ﴿ **وسعى لها سعيها** ﴾ أي وأعطاها حقها من السعي ، وكفاءها من الأعمال الصالحة بالدخول في الإسلام واجتناب خطوات الشيطان

﴿ **وهو مؤمن** ﴾ أي مصدّق لله في وعده ووعيده وإخباره ، فاجتمع له إسلام الظاهر والباطن ، متابعاً في ذلك كله رسول الله ﴿ **فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾ أي مقبولًا عند الله مثاباً عليه ﴿ **كُلّاً** ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة ﴿ **نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك** ﴾ أي من رزقه أي نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مدداً للسالف لا نقطعه ، فنرزق المطيع والعاصي على وجه التفضّل ﴿ **وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾ أي ممنوعاً عن عباده ، وإن عصوا ﴿ **انظر** ﴾ بعين الاعتبار ﴿ **كيف فَضّلنا بعضهم على بعض** ﴾ في الدنيا في المال والجاه والسعة والكمال ، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك . ومن يموت صغيراً ومن يعمر حتى يكون شيخاً كبيراً ﴿ **وَلَلْآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً** ﴾ أي : ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من تفاوتهم في الدنيا ، فإن منهم من يكون في أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من تفاوتهم في الدنيا ، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها . ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وفي الصحيحين : « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء »

كلمة في السياق :

١ ـــ بدأت المجموعة بذكر صفاتٍ للقرآن : أنّه يهدي للتي هي أقوم ، وأنه يبشر وينذر ، وجاءت المجموعة بتبشير وإنذار ، كما جاء ما يساعد على الاهتداء بالقرآن ، وجاء فيها كذلك ذكر للعوامل التي تبعد الإنسان عن الاهتداء بالقرآن .

٢ ـــ لاحظ الصلة بين بداية المجموعة ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ وبين قوله تعالى في أواخر المجموعة ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها** ﴾ مما يؤكد أن المجموعة تتحدث فيما تتحدث عنه عن أسباب في الهداية والضلال .

٣ ـــ وللمجموعة صلتها بمحور السورة الذي يهدد مَن كفر بنعم الله ، وصلة بالأمر بالدخول في الإسلام .

٤ ـــ ومن العرض ندرك بعض الصلات بين آيات المجموعة : فاستعجال العاجلة يتنافى مع طلب الآخرة ، ويتنافى مع الاهتداء بهذا القرآن ، وإذ كان الاستعجال طبيعة هذا

الإنسان فإن أكثر الناس يضلون ويهلكون فيستحقون العذاب الدنيوي والأخروي ، وقد جرت سُنّة الله ألا يعذب حتى يبعث رسولاً ، وقد بعث لهذه الأمة رسولاً بوحي ومعه كتاب هو أشرف الكتب ، به تقوم الحجة ، ويستأهل مخالفة العذاب ، وبهذا اتضحت مجموعة الأمور التي تترتب على معرفة الآيات وشكرها ، وعاقبة كفرانها ، وإذ تستقر مجموعة الحقائق هذه فإن الخطاب في المجموعة التالية يتوجه لطلاب الآخرة ، وفيها نموذج على كون هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وهي نموذج لمن يريد أن يتحقق بمقام الشكر والعبودية لله . فهي تأتي بعد مجموعتين وبعد مقدمة السورة بانية على ذلك بعد أن وضعت المسلم على كمال الاستعداد لتلقي التوجيه .

وإذا نظرنا إلى علاقة المجموعة اللاحقة بالسياق الكلي للقرآن فإنها تكون آتية لتبين طريق الشكر ، وتبين جزءاً من الإسلام ، وجانباً مما يجب اجتنابه من خطوات الشيطان ، وقبل أن نذكر المجموعة الثالثة فلنأت بفوائد وبنقول :

نُقول :

١ ــ قال صاحب الظلال : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان ؛ ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان .

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق . ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة .

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض : أفراداً وأزواجاً ، وحكومات وشعوباً ، ودولاً وأجناساً ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ؛ ولا تميل مع المودة والشنآن ؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه ،وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان .

ويهدي للتي هي أقوم في شأن الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية الصحيحة في سلام ووئام .

٢ ـــ وقال الألوسي بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ قال : قال حجة الإسلام الغزالي : الناس بعد بعثته عليه الصلاة والسلام أصناف : صنف لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلاً ، فأولئك مقطوع لهم بالجنة ، وصنف بلغتهم دعوته وظهور المعجزة على يده وما كان عليه ﷺ من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا فأولئك مقطوع لهم بالنار ، وصنف بلغتهم دعوته عليه الصلاة والسلام وسمعوا به لكن كما يسمع أحدنا بالدجال – وحاشا قدره الشريف ﷺ عن ذلك – فهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا مايرغبهم في الإيمان به أ هـ .

أقول : هذا يؤكد ما ذكرناه من قبل أن الحجة تقوم على الكافر إذا سمع تبليغاً من مسلم مباشرة أو بالواسطة كالكتاب والراديو ... والمسألة خلافية .

٣ ـــ قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمّرناها تدميراً** ﴾ « والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين ، الذين يجدون المال ، ويجدون الخدم ، ويجدون الراحة ، فينعمون بالدَّعَة وبالراحة وبالسيادة ، حتى تَتَرهَّل نفوسهم ، وتأسن وترتع في الفسق والمجانة ، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ في الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها . ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتطوى صفحتها .

والآية تقرر سنة الله هذه . فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها فعمَّ فيها الفسق ، فتحللت وترهّلت ، فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك ، وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين . فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها مااستحقت الهلاك ، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسنناً لا تتبدَّل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته . والله لا يأمر بالفسق لأن الله لا يأمر بالفحشاء . ولكن وجود المترفين في ذاته ، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت في طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاءً وفاقاً . وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة .

فالإرادة هنا ليست إرادة الإجبار القهري الذي ينشىء السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب . الأمر الذي لا مفر منه لأن السُّنة جرت به . والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق ، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق .

وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشىء آثارها التي لا مفرَّ منها ، وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميراً .

هذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح عليه السلام ، قرناً بعد قرن ، كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير ، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً** ﴾ » .

٤ — وقال صاحب الظلال عن قوله تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه** ﴾ « وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله ، أي ما يقسم له من العمل ، وهو كناية عما يعمله ، وإلزامه له في عنقه للزومه إياه وعدم مفارقته ؛ على طريقة القرآن في تجسيم المعاني وإبرازها في صورة حسية ، فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشوراً يوم القيامة فهو يصور عمله مكشوفاً ، لا يملك

إخفاءه ، أو تجاهله أو المغالطة فيه ، ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثراً في النفس وأشد تأثيراً في الحس ، وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب في فزع طائر من اليوم العصيب ، الذي تتكشف فيه الخبايا والأسرار ، ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ ....

الفوائد :

١ – رأينا معنى قوله تعالى : ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ وفي هذا المقام يحكم العلماء على أن بعض الرواة أخطأوا في لفظة رواها البخاري وهي منسوبة لرسول الله ﷺ حول (إن الله يخلق للنار خلقاً يعذبهم بها حتى تمتلىء) فإن هذا يتنافى مع نص الآية ويتنافى مع روايات صحيحة أخرى ، وهذا دليل على أن الرجوع في كل علم للمختصين فيه هو الموقف الحق ، وأن الذين يريدون أن يحقّروا لهذه الأمة تحقيقات علمائها وأئمتها مخطئون ، وإذ أشرنا إلى هذه المسألة فلننقل ما قاله ابن كثير فيها قال عند الآية المذكورة : (ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت معجمة في صحيح البخاري عند قوله تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال : « وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً ، وإنه ينشىء للنار خلقاً فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد ؟ ثلاثاً » . وذكر تمام الحديث فهذا إنما جاء في الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه ، وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجاه في الصحيحين – واللفظ للبخاري – من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ :« تحاجّت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال « فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع فيها قدمه فتقول قط قط فهناك تمتلىء وينزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً) .

٢ – عند قوله تعالى : ﴿ **وما كُنَّا معذبين حتى نبعث رسولًا** ﴾ يقف علماء التوحيد وقفة طويلة حول أهل الفترة ، والذين لم تبلغهم الدعوة ، هل هم مخاطَبون في

الأصول والفروع ، أو في الأصول دون الفروع ، أو لا في الأصول ولا في الفروع ؟ الأشاعرة : على أنهم ليسوا مطالبين في الأصول ولا في الفروع . والماتريدية على أنهم مطالبون بالأصول ، والمعتزلة على أنهم مطالبون بالأصول والفروع ، التي يحكم العقل المجرد بحسنها ، وكلامهم مردود بالنصوص . ولابن كثير عند هذه الآية كلام طويل حول أولاد الكافرين وأولاد المسلمين ، قال عن أولاد المؤمنين : (فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور بين الناس ، وهو الذي نقطع به إن شاء الله تعالى) وتحدث عن الخلاف في أطفال المشركين ، وكيف أن بعض العلماء قال : هم في النار وبعضهم قال : هم في الجنة ، وبعضهم توقف في هذا الموضوع ومن كلامه : (ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع كره جماعة من العلماء الكلام فيها) .

وبمناسبة هذه الآية ذكر ابن كثير مجموعة من الأحاديث ومناقشات العلماء في شأنها ونحن ننقل لك ههنا الحديث الأول والثالث والخامس مما ذكره وهذه هي :

(فالحديث الأول) عن الأسود بن سريع رواه الإمام أحمد .. أن نبي الله ﷺ قال : « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة ، فأما الأصم فيقول : رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول : رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول : رب ما أتاني لك رسول . فيأخذ مواثيقهم لَيطيعُنَّه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً » . وبالإسناد عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مثله غير أنه قال في آخره : « فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها يسحب إليها » وكذا رواه إسحاق بن راهويه عن معاذ بن هشام ؛ ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد ، وكذا رواه حنبل بن إسحاق عن علي بن المديني به وقال : هذا إسناد صحيح وكذا رواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي رافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أربعة كلهم يدلي على الله بحجة » . فذكر نحوه ، ورواه ابن جرير من حديث معمر عن همام عن أبي هريرة فذكره موقوفاً ، ثم قال أبو هريرة

فاقرأوا إن شئتم ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا** ﴾ وكذا رواه معمر عن عبد الله بن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة موقوفاً .

(الحديث الثالث) : عن أنس روى الحافظ أبو يعلى ... عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأربعة يوم القيامة : بالمولود ، والمعتوه ، ومن مات في الفترة ، والشيخ الفاني الهِمّ(١) كلهم يكلم بحجته فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار : ابرز ويقول لهم : إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً ، من أنفسهم ، وإني رسول نفسي إليكم ، ادخلوا هذه،قال : فيقول من كتب عليه الشقاء : يارب أنّىٰ ندخلها ومنها كنا نفرّ ؟ قال : ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعاً ، قال : فيقول الله تعالى : أنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية . فيدخل هؤلاء الجنة ، وهؤلاء النار » . وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يوسف بن موسى ، عن جرير بن عبد الحميد ، بإسناده مثله .

(الحديث الخامس) عن ثوبان . روى الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو عن ابن عبد الخالق البزار في مسنده ... عن ثوبان أن نبي الله ﷺ عظَّم شأن المسألة ، قال : « إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم ، فيسألهم ربهم فيقولون : ربنا لم ترسل إلينا رسولاً ، ولم يأتنا لك أمر ، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكنا أطوع عبادك ، فيقول لهم ربهم : أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون: نعم ، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها ، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيُّظاً وزفيراً . فرجعوا إلى ربهم فيقولون : ربنا أخرجنا – أو أجِرْنا – منها فيقول لهم ألم تزعموا أني إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم ، فيقول : اعمدوا إليها فادخلوها . فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا منها ورجعوا ، فقالوا : ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها فيقول : ادخلوها داخرين » . فقال نبي الله ﷺ : « لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً و سلاماً » .

أقول : دارت معركة علمية ضخمة في التاريخ الإسلامي حول هذه الأحاديث من حيث صحتها وضعفها ، ومن حيث مدلولها ، وقد رجح ابن كثير أنها بمجموعها تصلح لأن يبنى عليها

٣ ــ عند قوله تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ

(١) أي : الكبير الهرم

عليها القول فدمّرناها تدميراً ﴾ . قال ابن كثير : « اختلف القراء في قراءة قوله تعالى : ﴿ **أمرنا** ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف واختلف المفسرون في معناها ، فقيل معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً كقوله تعالى ﴿ **أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً** ﴾ فإن الله لا يأمر بالفحشاء . قالوا معناه : أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب ، وقيل معناه : أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة ، رواه ابن جريج عن ابن عباس وقاله سعيد بن جبير أيضاً ، وقال ابن جرير : يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء قال ابن كثير : إنما يجيء على قراءة من قرأ ﴿ **أمّرنا مترفيها** ﴾ فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب وهو قوله ﴿ **وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها** ﴾ الآية . وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس ، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها** ﴾ يقول أكثرنا عددهم ، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة ، وعن مالك عن الزهري ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ أكثرنا ، وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال .... عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ قال : « خير مال امرىء له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة » . قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه الغريب المأمورة : كثيرة النسل ، والسكة : الطريق المصطفة من النخيل ، والمأبورة: من التأبير ، وقال بعضهم : إنما جاء هذا متناسباً كقوله : « مأزورات غير مأجورات » .

ولننتقل الآن إلى المجموعة الثالثة في المقطع الأول .

المجموعة الثالثة

وهي تمتد من الآية (٢٢) إلى نهاية الآية (٤٠) وهذه هي :

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ

مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي
نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ
حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ
ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ
مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ
عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ
ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ
خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ
ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا
بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ
كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ
أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ
وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ
لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا
تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ
ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ
رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

التفسير :

﴿ **لاتجعل مع الله إلهاً آخر** ﴾ قال النسفي : الخطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته . وقال ابن كثير : والمراد المكلفون من الأمة : لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿ **فتقعد مذموماً** ﴾ على إشراكك به ﴿ **مخذولًا** ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك . بل يكلك إلى الذين عبدتهم معه ، وهم لا يملكون لك ضراً ولا نفعاً لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له . دلت الآية على أن المشرك يستحق الذم والخذلان والإهانة والحرمان .

﴿ **وقضى ربك** ﴾ أي : أمر أمراً مقطوعاً به ﴿ **ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً أي بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ﴿ **إما يبلغَنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفّ** ﴾ أف صوت يدل على تضجر أي لا تُسمِعْهما قولاً سيئاً ، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴿ **ولا تنهرهما** ﴾ أي ولاتزجرهما عما يتعاطيانه مما لايعجبك لا قولاً ولا فعلاً بأن يصدر منك إليهما فعل قبيح . ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح ، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن ﴿ **وقُلْ لهما** ﴾ بدل التأفف والنّهر ﴿ **قولًا كريماً** ﴾ أي جميلًا ليّناً طيباً حسناً بأدب وتوقير وتعظيم كما يقتضيه حسن الأدب ، ومن الأدب ألا يدعوهما في وجوههما بأسمائهما فإنه من الجفاء ، بل يقول يا أبتاه ، يا أماه . وفي قوله تعالى (عندك) من قوله : ﴿ **إما يبلغن عندك الكبر ....** ﴾ نكتة لطيفة إذ تفيد في هذا المقام : أنهما إذا كانا كَلًّا على ولدهما ، ولا كافل لهما غيره فهما عنده في بيته وكنفه ، وذلك أشقُّ عليه ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما لين الخلق ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره شيء منهما أف ، فضلاً عما يزيد عليه ، وقد أوصى الله بهما في الآية أبلغ ما تكون الوصية ، حيث افتتحها بأن قرن الإحسان إليهما بتوحيده ، ثم ضيّق الأمر في مراعاتهما حتى لم

يرخّص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ، ومع أحوال لايكاد يصبر الإنسان معها ثم قال تعالى : ﴿ **واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة** ﴾ أي تواضع لهما بفعلك . والمعنى : واخفض لهما جناحك الذليل من الرحمة ، أي من فرط رحمتك لهما ، وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ، وفسّرها الزّجّاج بقوله : وألِن جانبك متذللاً لهما من مبالغتك في الرحمة لهما ﴿ **وقل** ﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما ﴿ **رب ارحمهما كما ربّياني صغيراً** ﴾ أي ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية ، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك . قال النسفي : والمراد بالخطاب غيره عليه السلام، والدعاء مختص بالأبوين المسلمين (أي بعد الوفاة) أقول : يدعو للأبوين الكافرين وهما حيّان بالهداية . أما بعد الوفاة فلا يجوز الاستغفار لهما إلا بشرط الإيمان ، كما مر معنا في سورة التوبة ﴿ **ربكم أعلم بما في نفوسكم** ﴾ أي بما في ضمائركم ، ومن ذلك ما يفيد السياق : من قصد البر إلى الوالدين ، ومن النشاط والكرامة في خدمتهما ﴿ **إن تكونوا صالحين** ﴾ في نيّاتكم وأعمالكم ، أي قاصدين الصلاح فيهما ﴿ **فإنه كان للأوّابين** ﴾ الأوّاب : الذي إذا أذنب بادر إلى التوبة ﴿ **غفوراً** ﴾ هو عام في كل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ، ويندرج تحته الجاني على أبويه ، التائب من جنايته لوروده على أثره ، كما يُفهمه السياق ، ومن ثمّ فسّر الآية سعيد بن جبير : أنها في الرّجل تكون منه البادرة إلى أبويه : وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به . وفي رواية : لا يريد إلا الخير . وفي تفسير كلمة الأوّابين أكثر من رأي سنراه في الفوائد . ثمّ لمّا ذكر تعالى برّ الوالدين ، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة ، وصلة الرحم ، وإيتاء المساكين وأبناء السبيل فقال : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ أي ذا القرابة منك أيها المكلف حقّه ، وحقُّه المفروض هو النفقة إذا كانوا محارم فقراء والمواساة لكل ذي قربى إذا وجد الاحتياج ﴿ **والمسكين وابن السبيل** ﴾ أي وآت هؤلاء حقوقهم وحقوقهم المفروضة إنما هي الزكاة والمواساة عند المتربة والمخمصة . ثم لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطاً فقال : ﴿ **ولا تبذّرْ تبذيراً** ﴾ أي ولا تسرف إسرافاً . ثم قال : منفّراً عن التبذير والسرف ﴿ **إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين** ﴾ أي أمثالهم وأشباههم في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ﴿ **وكان الشيطان لربه كفوراً** ﴾ أي جحوداً لأنه أنكر نعمة الله عليه ، ولم يعمل بطاعته ، بل أقبل على معصيته ومخالفته ، فما ينبغي أن يُتشبّه به ولا أن يُطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله ، ﴿ **وإما تُعرضنّ عنهم ابتغاء**

رحمةٍ من ربك ترجوها ﴾ أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿ **فقل لهم قولًا ميسوراً** ﴾ أي عِدْهم وَعْداً حسناً بسهولة ولين . كقولك : إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله ، أو كقولك رزقنا الله وإياكم من فضله ، على أنه دعاء لهم بيسر عليهم فقرهم ، وقد سمّى الرزق رحمة . فدلّ ذلك على أنّ الرزق الحسن نعمة إذا قوبلت بالشكر . والمعنى الدقيق للآية وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك ، فردّهم ردّاً جميلًا ، ثمّ أمر تعالى بالاقتصاد في العيش ، ذامّاً للبخل ناهياً عن السرف ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ أي لا تكن بخيلاً مَنُوعاً لا تعطي أحداً ﴿ **ولا تبسطها كل البسط** ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك ، وتخرج أكثر من دخلك ﴿ **فتقعد ملوماً** ﴾ إن بخلت ﴿ **محسوراً** ﴾ إن أسرفت . والمحسور : هو الكليل المنقطع . أي ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه ، فتكون كالحسير الذي عجز عن السفر فوقف ضعفاً وعجزاً . وقد يكون اللوم والحسر بآن واحد للمسرف . فالمسرف ملوم عند الله وعند الناس يقول الفقير : أعطى فلاناً وحرمني . ويقول الغني : ما يحسن تدبير أمر المعيشة ، والمسرف ملوم عند نفسه فهو إذا احتاج ندم . وفي ذكر الغل والبسط في الآية تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف . وفي الآية أمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾ فليس بسط الرزق إليك ﴿ **ويقدر** ﴾ أي وهو الذي يضيّق فلا لوم عليك ، يغني من يشاء ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة ﴿ **إنه كان بعباده خبيراً** ﴾ بمصالحهم فيمضيها ﴿ **بصيراً** ﴾ بحوائجهم فيقضيها . وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ ممّا يرهقه من الضيق بأن ذلك ليس لهوان منك عليه ، ولا لبخل به عليك ، ولكن لأن بسط الأرزاق وقدرها مفوّض إلى الله تعالى ، فهو الرازق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء . فيغني من يشاء ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة ، فهو الخبير البصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر ، كما جاء في الحديث : « إن من عبادي لمن لايصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي لمن لايصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه » وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً والفقر عقوبة – عياذاً بالله من هذا وهذا – وقد يقلّب الله أقواماً في هذا وهذا ليبلوهم ، وقد جعل الله رسوله ﷺ هو الأسوة في الأحوال كلها ليقتدي به الجميع ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾

أي خوف أن تفتقروا ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ نهاهم عن قتلهم وضمن أرزاقهم ﴿ **إن قتلهم كان خِطْأً كبيراً** ﴾ أي إثماً عظيماً . وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود « قلت : يارسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك .» قال ابن كثير في الآية : هذه الآية دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده ، لأنه نهى عن قتل الأولاد ، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يُوَرِّثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته فنهى الله تعالى عن ذلك ﴿ **ولا تقربوا الزنى** ﴾ هذا نهي عن مقاربة الزنى ومخالطة أسبابه ودواعيه كاللمس والقبلة والخلطة فضلاً عن الزنى نفسه ﴿ **إنه** ﴾ أي الزنى ﴿ **كان فاحشة** ﴾ أي معصية مجاوزة حد الشرع والعقل ﴿ **وساء سبيلاً** ﴾ أي وبئس طريقاً طريقه ، وبئس مسلكاً مسلكه . ثم نهى الله عن قتل النفس بغير حق شرعي ﴿ **ولا تقتلوا النفس التي حَرّم الله إلا بالحق** ﴾ بأن ترتكب ما يبيح الدم ، أو بأن كانت مباحة الدم أصلًا كالحربي . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وفي السنن : « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » . ﴿ **ومن قُتل مظلوماً** ﴾ أي غير مرتكب ما يبيح الدم ﴿ **فقد جعلنا لوليّه سلطاناً** ﴾ أي تسلطاً على القاتل . فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوَداً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجاناً ، لما ثبتت السنة بذلك ﴿ **فلا يسرف** ﴾ أي الولي ﴿ **في القتل** ﴾ بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل ﴿ **إنه كان منصوراً** ﴾ أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وعرفاً وقَدَراً ، قال النسفي وهو من الحنفية : وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد ، وبين المسلم والذمي . لأن أنفس أهل الذمة داخلة في الآية لكونها محرمة . أقول : في هذا خلاف بين العلماء ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن** ﴾ أي إلا بالخصلة والطريقة التي هي أحسن ، وهي حفظه وتثميره ﴿ **حتى يبلغ أشُدَّه** ﴾ قال النسفي : (أي ثماني عشرة سنة) . وفي أول سورة النساء تفصيل لما له علاقة بهذا ﴿ **وأوْفوا بالعهد** ﴾ مع الله بحفظ أوامره ونواهيه ، ومع الناس بما تعاهدونهم عليه ، وبما تعاقدونهم عليه في المعاملات ؛ فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿ **إن العهد كان مسؤولًا**﴾ أي عنه ، أو مطلوباً يطلب من

المعاهد ألا يضيعه ، أو إن صاحب العهد كان مسؤولًا عنه ﴿ **وأَوْفوا الكيل إذا كِلْتم** ﴾ أي من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿ **وزنوا بالقسطاس** ﴾ أي الميزان ﴿ **المستقيم** ﴾ المعتدل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ **ذلك خير** ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم ﴿ **وأحسن تأويلًا** ﴾ أي عاقبة أي مآلاً ومنقلباً . من آل ، إذا رجع ، قال قتادة في تفسيرها : أي خير ثواب وأحسن عاقبة ﴿ **ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم** ﴾ أي ولا تتبع مالم تعلم ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك** ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿ **كان عنه مسؤولًا** ﴾ قال ابن كثير : أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة ، وتسأل عنه وعما عمل فيها . وقال النسفي : يقال للإنسان لِمَ سمعت ما لم يحل لك سماعه . ولِمَ نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه ، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه ، ثم نهى الله عباده عن التجبر والتبختر في المِشية فقال : ﴿ **ولا تمشِ في الأرض مرحاً** ﴾ أي ذا مرح أي متبختراً متمايلاً مشي الجبارين ﴿ **إنك لن تخرق الأرض** ﴾ أي لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها ، وشدة وطأتك ﴿ **ولن تبلغ الجبال طولًا** ﴾ أي بتطاولك وتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ﴿ **كل ذلك** ﴾ مما مر ﴿ **كان سيِّئه** ﴾ أي قبيحه كالزنا والإسراف والعقوق ... ﴿ **عند ربك مكروهاً** ﴾ ثم بين الله عز وجل أن ما أمر به من الأخلاق الجميلة ، ونهى عنه من الصفات الرذيلة ؛ هو من الحكمة التي أوحاها الله لرسوله ﷺ ليأمر بها الناس فقال : ﴿ **ذلك** ﴾ قال النسفي عنها : إشارة إلى ما تقدم من قوله ﴿ **لاتجعل مع الله إلهاً آخر** ﴾ إلى هذه الغاية أقول أي إشارة إلى المجموعة التي نحن بصددها ﴿ **مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾ قال النسفي : أي مما يحكم العقل بصحته وتصلح النفس بأسوته ، . أقول : وكل ما صدر عن الله من فعل أو أمر أو نهي أو كلام هو عين الحكمة ، ومنه هذه الأوامر والنواهي ﴿ **ولا تجعل مع الله إلهاً** ﴾ افتتحت هذه الأوامر والنواهي بالنهي عن الشرك ، وختمت به ، لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ، ومَنْ عَدِمه لم تنفعه حكمة ، وإن حيّر الحكماء وطار في جو السماء . قال النسفي : وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم . ﴿ **فتُلقىٰ** ﴾ أي إذا أشركت ﴿ **في جهنم ملوماً** ﴾ أي تلومك نفسك ، ويلومك الله والخلق ﴿ **مدحوراً** ﴾ أي مطروداً من الرحمة . قال ابن كثير : والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم . وبعد هذه الجوله الطويلة من

الأوامر والنواهي ، التي تظهر فيها عين الحكمة ، وكلها أثر عن التوحيد ، يذكر الله عز وجل موقفاً من مواقف أهل الشرك كله سفه ، وكله خطأ ، وكله فظاعة وشناعة ؛ ليظهر الفارق الكبير بين دين الله وبين ما ابتدعه الناس ، وبضدها تتميز الأشياء . وهذا الموقف هو اتخاذ المشركين الملائكةَ آلهة بعد تسميتهم إناثاً ، وجعلهم بنات الله ، فأخطأوا ثلاث مرات ، كل مرة فيها من الشناعة أبشعها ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين** ﴾ أي أخصكم بالذكور ﴿ **واتخذ من الملائكة إناثاً** ﴾ أي واختار لنفسه - على زعمكم - البنات . ثم شَدَّدَ الإنكار عليهم فقال : ﴿ **إنكم لتقولون قولاً عظيماً** ﴾ أي في زعمكم أن لله ولداً ، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يَكُنَّ لكم ، وربما قتلتموهن بالوأد . والمعنى الدقيق : أَفَخَصَّكم ربكم على وجه الخصوص والصفاء بأفضل الأولاد - وهم البنون - واتخذ أدونهم في مفاهيمكم وهي البنات ؟ . إن هذا خلاف ما عليه عقولكم . فالعبيد لا يُؤْثِرون بأجود الأشياء وأصفاها ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات ، إن كلامكم هذا كلام فظيع حيث أضفتم إلى الله الأولاد ، وهي من خواص الأجسام ثم فضلتم عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون ، ثم تعبدونها وتشركون ، وبهذا انتهت المجموعة الثالثة : وانتهى بذلك المقطع الأول من سورة الإسراء

كلمة في السياق :

رأينا أن سورة الإسراء تفصّل في حيّز قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ . وتفصّل من حيز هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ .

وعلى هذا فمعانيها تدور حول جوانب من الإسلام ، أو نوع من خطوات الشيطان ، أو أخذ عبرة من بني إسرائيل ، أو عرض لعقوبات الله التي ينزلها بمن كفر نعمه ، وهذا المقطع الذي مَرّمعنا تحدث عما أنزل الله على موسى عليه السلام ، وموقف بني إسرائيل من هذا الوحي ، وما عاقبهم الله به ، ثم حدثنا الله عز وجل عن القرآن الكريم ، وبعض سنن الله في الأخذ والعقاب والمنع والعطاء في الدنيا والآخرة . ثم تأتي المجموعة الأخيرة آمرة ناهية ، ومجيئها في هذا السياق يدلنا على أن طريق الشكر هو هذا ، أو على أن هذا جزء من الإسلام ينبغي الالتزام به ، وختم المقطع بذكر خطوة من خطوات الشيطان فظيعة هي جعل الملائكة بنات الله فالمقطع فصّل في جزاء من يترك الدخول في الإسلام في الدنيا

والآخرة ، وجزاء من ينحرف عن دين الله بعد دخوله فيه ، وبعضاً من مكارم الأخلاق التي يأمر بها هذا الدين ، وبعضاً من سيئات الأخلاق التي ينهى عنها .

وهذه المجموعة الأخيرة نموذج على هداية هذا القرآن للتي هي أقوم فهي مرتبطة بمقدمة المجموعة السابقة عليها ، وهي وما قبلها مرتبطة بالمجموعة الأولى التي فيها بيان لما فعل ببني إسرائيل لمّا انحرفوا عن الوحي الذي نزل عليهم . فالأولى تعظ ، والثانية تقرر ، والثالثة تأمر وتنهى . ليقدم بذلك المقطع الأول للمقطع الثاني الذي يبيِّن أن الحجة تقوم بهذا القرآن ، ومع ذلك ينفر منه الكافرون ، ويرد على مواقفهم . ومن ثم نجد بداية المقطع الثاني ﴿ **ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذَّكروا وما يزيدهم إلا نفوراً** ﴾ . ولا نستعجل الكلام عن المقطع الثاني . ولننقل بعض الفوائد والنقول ذات الصلة بالمجموعة الأخيرة

نُقُول :

١ ـــ قال صاحب الظلال بمناسبة النهي عن الزنا : « ومن النهي عن قتل الأولاد إلى النهي عن الزنا ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً** ﴾ ..

وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة ، وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس – لذات الصلة وذات المناسبة .

إن في الزنا قتلاً من نواحي شتىٰ ، إنه قتل ابتداءً لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها ، يتبعه غالباً الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلّق أو بعد أن يتَخلّق ، قبل مولده ، أو بعد مولده فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة ، فهي حياة مضنية في المجتمع على نحو من الأنحاء .. وهو قتل في صورة أخرىٰ . قتل للجماعة التي يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة في العِرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات .

وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ إن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها ، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي إليها ، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة ، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه .

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال ، منذ التاريخ القديم إلى العصر

الحديث ، وقد يُقر بعضهم أن أوربا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيها . ولكن آثار هذا الانحلال في الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها . أما في الأمم الفتية كالولايات المتحدة ، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده كالشاب الذي يسرف في شهواته فلا يظهر أثر الإسراف في بنيته وهو شاب ولكنه سَرعان ما يتحطم عندما يدلف إلى الكهولة فلا يقوىٰ على احتمال آثار السن كما يقوىٰ عليها المعتدلون من أنداده !

والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا . وهي مبالغة في التحرّز ، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة فالتحرز من المقاربة أضمن ، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان .

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة ، توقّياً للوقوع فيه .. يكره الاختلاط في غير ضرورة . ويحرم الخلوة ، وينهى عن التبرج بالزينة . ويحضّ على الزواج لمن استطاع ، ويوصي بالصوم لمن لايستطيع ، ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغالاة في المهور . وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد . ويحضّ على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم ، ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع ، وعلى رمي المحصنات الغافلات دون برهان .... إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج ، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردي والانحلال .» .

٢ ــ وبمناسبة النهي عن القتل قال صاحب الظلال :

والإسلام دين الحياة ودين السلام ، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله ، فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه ، وفي الحدود التي يرسمها . وكل نفس هي حرم لا يمس ، وحرام إلا بالحق ، وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدد لاغموض فيه ، وليس متروكاً للرأي ولا متأثراً بالهوىٰ . وقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدىٰ ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فأما الأولى : فهي القصاص العادل الذي إن قتل نفساً فقد ضمن الحياة لنفوس ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ حياة بكف يد الذين يهمون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم فيردهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء . وحياة بكف يد أصحاب

الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل ، بل يمضوا في الثأر ، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتىٰ تسيل دماء ودماء . وحياة بأمن كل فرد على شخصه واطمئنانه إلى عدالة القصاص ، فينطلق آمناً يعمل وينتج فإذا الأمة كلها في حياة .

وأما الثانية : فهي دفع للفساد القاتل في انتشار الفاحشة ، وهي لون من القتل على النحو الذي بيّناه .

وأما الثالثة : فهي دفع للفساد الروحي الذي يشيع الفوضىٰ في الجماعة ، ويهدد أمنها ونظامها الذي اختاره الله لها ، ويسلمها إلى الفرقة القاتلة ، والتارك لدينه المفارق للجماعة إنما يقتل لأنه اختار الإسلام لم يجبر عليه ، ودخل في جسم الجماعة المسلمة ، واطلع على أسرارها ، فخروجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها . ولو بقي خارجها ما أكرهه أحد على الإسلام . بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب ، وبإجارته وإبلاغه مأمنه إن كان من المشركين وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين في العقيدة .

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ .. ﴿ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ .

تلك الأسباب الثلاثة هي المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوماً بغير واحد من تلك الأسباب فقد جعل الله لوليه – وهو أقرب عاصب إليه – سلطاناً على القاتل ، إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية ، وإن شاء عفا عنه بلا دية ، فهو صاحب الأمر في التصرف في القتل ، لأن دمه له .

وفي مقابل هذا السلطان الكبير ينهاه الإسلام عن الإسراف في القتل استغلالاً لهذا السلطان الذي منحه إياه ، والإسراف في القتل يكون بتجاوز القاتل إلى سواه ممن لا ذنب لهم – كما يقع في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ فيه الآباء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل – ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل ، والولي مسلّط على دمه بلا مثلة . فالله يكره المثلة والرسول ﷺ قد نهىٰ عنها **﴿ فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾** . يقضي له الله ، ويؤيده الشرع ، وينصره الحاكم . فليكن عادلاً في قصاصه ، وكل السلطات تناصره وتأخذ له بحقه .

وفي تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع وسلطان

الحاكم لنصرته تلبية للفطرة البشرية ، وتهدئة للغليان الذي تستشعره نفس الولي . الغليان الذي قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يميناً وشمالًا في حمىٰ الغضب والانفعال على غير هدىٰ فأما حين يحس أن الله قد ولّاه على دم القاتل ، وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص ، فإن ثائرته تهدأ ونفسه تسكن ويقف عند حد القصاص العادل الهادىء .

والإنسان إنسان فلا يطالب بغير ما ركب في فطرته من الرغبة العميقة في القصاص لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبيها في الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضاً ، إنما هو يدعو إلى التسامح ويُؤثره ويحبب فيه ، ويؤجر عليه . ولكن بعد أن يعطي الحق . فلولي الدم أن يقتص أو يصفح ، وشعور ولي الدم بأنه قادر على كليهما قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ويدفع به إلى الغلو والجماح ! » .

٣ ــ وبمناسبة النهي عن قَفْو ما ليس للإنسان به علم قال صاحب الظلال : « والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة . فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا** ﴾ .

وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة .

فالتثبّت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم هو دعوة القرآن الكريم ومنهج الإسلام الدقيق ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة . ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم . والأمانة العلمية التي يشيد بها الكثيرون في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولًا عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على

شخص أو أمر أو حادثة . ﴿ **ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم** ﴾ ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تتثبت من صحته : من قول يقال ورواية تروى . ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » . وفي سنن أبي داود : « بئس مطية الرجل : زعموا » وفي الحديث الآخر : « إن أفرى الفرى أن يُرِيَ الرجل عينيه ما لم تريا » .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه ، والتثبت في استقرائه ؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته ، وفي مشاعره وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ، ولا يحكم العقل حكماً ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبَّت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هناك شك ولا شبهة في صحتها ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ حقاً وصدقاً ..

فوائد المجموعة الثالثة :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً** ﴾ يذكر ابن كثير ما رواه الإمام أحمد والترمذي بسند حسن صحيح غريب عن رسول الله ﷺ قال : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً وإما غنى عاجلاً » .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وبالوالدين إحساناً** ﴾ . قال ابن كثير : وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن النبي ﷺ لما صعد المنبر قال : « آمين آمين آمين » قيل يا رسول الله علام أَمَّنْت ؟ قال : « أتاني جبريل فقال يا محمد رغم أنف رجل ذُكِرتَ عنده فلم يصل عليك ، ثم قال : رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يُدخلاه الجنة ، قل آمين، فقلت : آمين » . وروى الإمام أحمد .... عن أبي أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدي قال : فبينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال يارسول الله هل بقي عليّ من بر أبويّ شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال : « نعم خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قِبَلهما فهو

الذي بقي عليك من برّهما بعد موتهما » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان .

روى الإمام أحمد ... عن معاوية بن جاهمة السلمي أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك ؟ فقال : « فهل لك من أمّ ؟ » قال نعم . قال : « فالزمها فإن الجنة عند رجليها » ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول ، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج به .

وروى الإمام أحمد ... عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال : « إن الله يوصيكم بآبائكم ، إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب » . وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش به » .

٣ ـ رأينا تفسير الأوّاب في صلب التفسير غير أن بعض المفسرين فسره بعلامة من علاماته . وقد جمع ابن كثير هذه الأقوال . قال : قال سعيد بن جبير هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أنه لا يُؤخذ به ، وفي رواية لا يريد إلا الخير بذلك فقال : ﴿ **ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين** ﴾ وقوله ﴿ **فإنه كان للأوّابين غفوراً** ﴾ قال قتادة للمطيعين أهل الصلاة . وعن ابن عباس : المسبّحين وفي رواية عنه المطيعين المحسنين ، وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين . وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى ، وقال شعبة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ **فإنه كان للأوّابين غفوراً** ﴾ قال : الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون : ويصيبون الذنب ثم يتوبون ، وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري ومعمر عن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب بنحوه . وكذا رواه الليث وابن جرير عن ابن المسيب به ، وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد : هم الراجعون إلى الخير ، وقال مجاهد عن عبيد ابن عمير في الآية هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها ووافقه مجاهد في ذلك ، وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلمة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير في قوله : ﴿ **فإنه كان للأوابين غفوراً** ﴾ قال : كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول : اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا ، قال ابن جرير : والأولى في ذلك قول من قال هو التائب من الذنب الرجّاع من المعصية إلى الطاعة ، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه ، وهذا الذي قاله هو الصواب لأن الأوّاب مشتق من الأوب وهو الرجوع . يقال : آب

فلان إذا رجع قال تعالى : ﴿ **إن إلينا إيابهم** ﴾ (الغاشية : ٢٥) وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم كان إذا رجع من سفر قال : « آيبون تائبون لربنا حامدون » .

٤ ــ ذكرنا في صلب التفسير مايفيد معنى التبذير،ونذكر هنا أن هناك اتجاهاً ثانياً في تفسير التبذير تفسره هذه الحادثة : أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقال له صاحبه : لاخير في السرف . فقال : لاسرف في الخير . قال ابن مسعود : التبذير الإنفاق في غير حق ، وكذا قال ابن عباس ، وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذّراً ، ولو أنفق مُدّاً في غير حق كان مبذراً . وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله تعالى ، وفي غير الحق ، والفساد .

٥ ــ **قد** رأينا أن الحق المفروض لذي القربى هو النفقة إن كان فقيراً ، وتفصيل ذلك في كتب الفقه . والحق المفروض للمسكين وابن السبيل الزكاة . وفي المال حق سوى الزكاة . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد ما يلقي ضوءاً على هذا الموضوع . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله : إني ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة ، (أي قرابة) فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تخرج الزكاة من مالك إن كان ؛ فإنها طُهرة تطهّرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » فقال: يارسول الله أقلل ؟ قال : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذّر تبذيراً » فقال : حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله و إلى رسوله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها ولك أجرها ، وإثمها على من بدّلها » .

٦ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا** ﴾ يذكر ابن كثير حديثين : أولهما : أخرج الإمام أحمد عن أبي أمامة : أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ائذن لي بالزنا ، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مَهْ مَهْ فقال : « ادْنُه » فدنا منه قريباً فقال : « اجلس » فجلس فقال : « أتحبه لأمك » ؟ قال: لا والله ، جعلني الله فداك قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم » قال : « أفتحبه لابنتك ؟ » قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لبناتهم » . قال : « أفتحبه لأختك ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لأخواتهم » . قال : أفتحبه

لعمّتك ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لعماتهم » . قال : « أفتحبه لخالتك ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لخالاتهم » . قال : فوضع يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه وطهّر قلبه وأحصن فرجه » قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

ثانيهما : أخرج ابن أبي الدنيا بسنده عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له » .

٧ ـــ لابن عباس ترجمان القرآن فهوم دقيقة لكتاب الله من ذلك ما ذكره ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ **ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً** ﴾ . قال ابن كثير : وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة أنه سيملك ، لأنه كان ولي عثمان ، وقد قتل عثمان مظلوماً رضي الله عنه ، وكان معاوية يطالب علياً رضي الله أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم ، لأنه أمويّ ، وكان علي رضي الله عنه يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك ، ويطلب علي من معاوية أن يسلّمه الشام ، فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة ، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام ، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه ، كما تفاءل ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة ، وهذا من الأمر العجيب ، وقد روى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال : ... عن زهدم الجرمي : كنا في سمر ابن عباس ، فقال إني محدثكم بحديث ليس بسر ولا علانية ، إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان - يعني عثمان - قلت لعلي : اعتزل فلو كنت في جُحر طلبت حتى تُستَخْرج فعصاني ، وأيم الله لَيتأَمَّرنَّ عليكم معاوية وذلك أن الله يقول : ﴿ **ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل** ﴾ الآية . وليحملنكم قريش أي ياقريش على سنة فارس والروم ، وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس ، فمن أخذمنكم يومئذ بما يعرف نجا ، ومن ترك - وأنتم تاركون - كنتم كقرن من القرون ، هلك فيمن هلك »

٨ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن** ﴾ . ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام مسلم : أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمّرن على اثنين ، ولا تَولين مال يتيم » .

٩ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيل إذا كِلْتم** ﴾ قال ابن كثير : وابن عباس

كان يقول : يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هَلك الناس قبلكم ، هذا المكيال وهذا الميزان ، وقال : وذكر لنا أن نبي الله عليه الصلاة والسلام كان يقول : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله به عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك » .

١٠ ــ رأينا أن معنى قوله تعالى : ﴿ **ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم** ﴾ هو : ولا تتبع ما ليس لك به علم . وإذا نهينا عن الاتباع ، فقد نهينا كذلك عن القول من باب أولى ، فلازم النهي عن اتباع ما ليس لنا به علم ألا نتكلم بما ليس لنا به علم ومن ثَم فقد فسر بعض المفسرين الآية بمثل هذا . وقد ذكر ابن كثير هذا الاتجاه فقال : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (أي في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم** ﴾ يقول : لا تقل . وقال العوفي عنه: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم . وقال محمد بن الحنفية : يعني شهادة الزور ، وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم . فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله ، ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم أي بالظن الذي هو التوهم والخيال كما قال تعالى : ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ (الحجرات : ١٢) وفي الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » . وفي سنن أبي داود : « بئس مطية الرجل : زعموا » وفي الحديث الآخر : « إن أفرى الفرىٰ أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا » . وفي الصحيح : « من تحلّم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين وليس بفاعل » .

١١ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحاً** ﴾ قال ابن كثير : (بل قد يجازىٰ فاعل ذلك بنقيض قصده كما ثبت في صحيح مسلم : « بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم ، وعليه بردان يتبختر فيها ، إذ خُسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته ، وأن الله خسف به وبداره الأرض . وفي الحديث « من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله ، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير » . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب (الخمول والتواضع) : ... عن أبي بكر الهذلي قال : بينما نحن مع الحسن إذ مرّ عليه ابن الأهيم وعليه جباب خزّ قد نُضّد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي ويتبختر ، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنفه ، ثاني عطفه ،

مصعّر خدّه ، ينظر في عطفيه ، أي حميق ينظر في عطفيه في نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدّى حق الله منها ، والله إن يمشي أحدهم طبيعته يتلجلج تلجلج المجنون في كل عضو منه نعمة ؛ وللشيطان به لعنة ، فسمعه ابن الأهيم فرجع يعتذر إليه ، فقال لا تعتذر إليّ وتب إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا** ﴾ .

١٢ ــ وهناك فائدة محلها التقديم ولكن أخرناها لأهميتها . وهي : إن من أهم مناحي الخطأ في فهم النصوص التعسف والتكلف في فهمها ، وتحميلها مالا تحتمل ، وإدخال قضايا تحتها ليست داخلة فيها . ومن ذلك أن بعض الناس فهموا من قوله تعالى ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ بطلان الاجتهاد ، وعدم جواز اتباع مجتهدي هذه الأمة . وهذا خطأ . لأن الاجتهاد في المواطن التي أباح الشارع فيها الاجتهاد – إذا كان من أهله – نوع علم . قال تعالى : ﴿ **فإن علمتموهن مؤمنات** ﴾ (الممتحنة : ١٠) فالعلم الوارد في هذا النص أثر عن الاجتهاد ومع ذلك سماه الله علماً .

ثم يجب أن نعلم أن الآية في باب العقائد ، وأما في باب الفروع فغالب الظن عند المجتهدين يقام مقام اليقين ، ومن ثم أخذنا بخبر الآحاد مع أنه يفيد غالب الظن لا القطع على القول الراجح . والذي جعل خبر الآحاد يفيد القطع واهم . وقد رأينا في أكثر من مكان في هذا التفسير كيف أنّ الواحد قَدْ يهم ، وقد يخطىء حتى ولو كان البخاري ومسلم فكيف يبنى على خبره القطع ولننتقل إلى المقطع الثاني من سورة بني إسرائيل .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٦٩) وهذا هو :

الفقرة الأولى

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ
مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن
فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ
أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ
إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا
﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ
فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ

بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ
أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾
رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا
﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

الفقرة الثانية

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا
﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ
مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ
مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ
ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ
رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ
ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ

أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا
﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ
وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾
إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى
لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ
ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ
كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟
لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

ملاحظات :

١ – كما أن المقطع الأول ختم باستفهام هو ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً** ﴾ فكذلك هذا المقطع ختم باستفهام هو قوله تعالى : ﴿ **أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرّ أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً** ﴾ .

٢ – نلاحظ أن المقطع تعرّض لمجموعة من الأسباب تحول بين الناس وبين الهداية ، وأقام فيها الحجة عليهم ، كما تعرّض لجزء من قصة آدم عليه السلام فذكر القاعدة في شأن نجاة الإنسان من الشيطان .

٣ ـــ نلاحظ أن المقطع عمّق كل ما يساعد على الدخول في الإسلام كله ، وما يبعد عن اتباع خطوات الشيطان . وختم المقطع بالتذكير بالنعمة والترهيب من الشرك .

٤ ـــ نلاحظ أنه في المقطع الأول ورد الأمر (انظر) - ﴿ **انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً** ﴾ وههنا نجد في هذا المقطع آية مصدرة بالأمر (انظر) ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً** ﴾ .

٥ ـــ وإذا لاحظنا أن بداية المقطع الأول هو ﴿ **وآتينا موسى الكتاب** ﴾ فإن بداية هذا المقطع ﴿ **ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذكروا** ﴾ فالتشابه في بداية المقطعين واضح فإذا علمنا أن بداية المقطع الثالث هي ﴿ **ولقد كرّمنا بني آدم** ... ﴾ وبداية المقطع الرابع : ﴿ **ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن** ﴾ وبداية المقطع الخامس : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ... ﴾ .

عرفنا كيف تدل السورة على مقاطعها ، ومن خلال بدايات المقاطع نعرف أن السورة تقيم الحجة على من كفر . وتبين الطريق لمن يريد الشكر ، وما ذلك إلا بالدخول في الإسلام واجتناب خطوات الشيطان ، وذلك محور السورة الذي تدور حوله معانيها من سورة البقرة : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم * هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور * سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ والمقطع يتألف من مقدمة هي آية واحدة ، ومن مجموعتين مترابطتين ، تتألف كل منهما من عدة فقرات . وسنعرض المقطع كله منبهين على صلاته .

* * *

مقدمة المقطع والفقرة الأولى من المجموعة الأولى .

التفسير :

﴿ **ولقد صرَّفنا في هذا القرآن** ﴾ أي لقد كررنا في هذا القرآن المعاني مرة بعد مرة ، وكل مرة بأسلوب وطريقة عرض ، وجرس وإيقاع ونظم وتمثيل جلّ عن طوق

البشر ﴿ ليذّكروا ﴾ أي ليتعظوا، فإن لم يذكّرهم مقطع منه ذكرهم مقطع آخر، وإن لم يذكرهم مقطع ذكرتهم سورة ، وإن لم تذكرهم سورة ذكرتهم سورة أخرى ، وإن لم تذكرهم سورة ذكرتهم مجموعة سُوَر ، أو قسم من أقسام القرآن . وقوله ﴿ ليذّكّروا ﴾ يفيد أن هذا القرآن إنما يأتي الإنسان بما هو مستقر في عقله وقلبه من حقائق إن لم يكن مريضاً ﴿ وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾ أي وما يزيد هذا القرآن الكافرين والظالمين إلا نفوراً عن الحق ، وبُعداً منه ؛ بسبب مرض قلوبهم ، وعقولهم ، وأنفسهم ، وأرواحهم ، وانعكاس تصوراتهم ، وغلبة شهواتهم ؛ هذه الآية هي مقدمة المقطع . وبعد أن بيّن الله عز وجل ما تقوم به الحجة بهذا القرآن ، وبين هذا الخال الغريب المريض منهم ، أمر الله رسوله ﷺ أن يخاطب عقولهم لمعالجة نفورهم ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾ أي كما يدّعون ويزعمون ويعتقدون ﴿ إذاً ﴾ هذا جواب للافتراض وللقول ﴿ لَابتغَوْا إلى ذي العرش ﴾ أي صاحب العرش ومالكه وهو الله ﴿ سبيلاً ﴾ أي طريقاً يتقربون به إليه ، قال ابن كثير : يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفاً ، لو كان الأمر كما يقولون ، وأن معه آلهة تُعبَد لتقرِّب إليه ، وتشفع لديه ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة ، فاعبدوه أنتم وحده ، كما يعبده من تدعونه من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه لا يحب ذلك ، ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه . ثم نَزّه الله ذاته عن قولهم ، وبيّن أن كل شيء ينزِّهه . وفي هذا رد عليهم وتبيان لهم أنه تعالى يستحق العبادة وحده فقال : ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ أي تنزيهاً له ، وترفع جل جلاله ﴿ عما يقولون ﴾ أي هو مُنَزَّه أن يكون له شريك ، ويترفع عن أن يرضى أن يشرك معه غيره ، تعالى تعالياً عما يقوله الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى . ومن ثَم فهم يعبدونهم ولا يعبدونه ﴿ علواً كبيراً ﴾ أي تعالى تعالياً كبيراً عن مزاعمهم ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد ، وصف علوه بالكبر للتأكيد على معنى البراءة والبعد مما وصفوه به ﴿ تسبِّح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : تقدسه السمٰوات السبع والأرض ، ومن فيهن أي من المخلوقات ، وتنزهه وتعظمه وتبجّله وتكبّره عمّا يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته ﴿ وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبّح بحمد الله أي يقول سبحان الله وبحمده بلسان المقال ، أو بلسان الحال ، لأنه يدل الناظر

إليه على تنزه الله ، والدال على الخير كفاعله ، والأرجح أن تسبيح الأشياء بلسان المقال ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ إما لاختلاف اللغات أو لتعسر الإدراك قال ابن كثير : أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم . وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ، وهذا أشهر القولين . ﴿ **إنه كان حليماً** ﴾ أي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله وينظره ، فإن استمر على كفره وعناده أخذه ﴿ **غفوراً** ﴾ لمن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ، ورجع إلى الله وتاب إليه ، فيا أيها الناس توبوا إلى الله ونزّهوه كما ينزهه كل شيء ، واتخذوا إليه سبيلاً يقربكم إليه . لقد رأينا أن الكافرين لا يزيدهم القرآن إلا نفوراً . والآن يبين السياق أن الله عز وجل يحول بين قلوب الكافرين وهذا القرآن ، تنزيهاً لهذا القرآن أن يصل لقلوب مثل قلوبهم ، فالقرآن لا يقبل أن يصل إلى قلب نجس ، فهو طاهر وطهارة القلوب هي التي تستأهل سكناه ومعناه ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾ أي حجاباً ذا ستر أو حجاباً لا يرى فهو مستور . ومن ثم فالكافرون تسمع آذانهم ولكن قلوبهم لاتسمع ، لأن الحجاب يحول دون الوصول ، فهو حائل ومانع أن يصل إليهم شيء مما يقوله ، وهل هذا الحجاب هو الأكِنَّة التي سيذكرها في الآية اللاحقة ، أو هو حجاب زائد على تلك الأكنة ؟ قولان للمفسرين . رجّح ابن جرير أن الحجاب زائد على وجود الأكنة ، فهو إذن حجاب مستور ، لا تراه الأبصار ، يحول بينهم وبين الهدى . وقد ذكرت الآية سبب استحقاقهم هذا الحجاب وهو كفرهم بالآخرة . فالكفر بالآخرة هو السبب الذي عاقبهم الله به ، فجعل بينهم وبين هذا القرآن حجاباً ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكِنَّة** ﴾ أي : أغطية جمع كنان ، وهو الذي يستر الشيء ﴿ **أن يفقهوه** ﴾ أي لئلا يفقهوا القرآن ﴿ **وفي آذانهم وقراً** ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به ، فهم لكفرهم حِيل بينهم وبين القرآن بحجاب وغلاف يغلف قلوبهم ﴿ **وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده** ﴾ أي موحّداً له دل ذلك على أن القرآن ذِكر وأنه إعلان للتوحيد ﴿ **وَلَّوْا على أدبارهم** ﴾ أي رجعوا على أعقابهم ﴿ **نفوراً** ﴾ أي نافرين نفوراً . دلّ ذلك على أنّ التوحيد القرآني لا يستطيع قبوله ، ولا تحمله من لايؤمن بالآخرة ، فعلى فرض أنه أصبح عنده توجُّهٌ ما لهذا القرآن فإنه ما يكاد يسمع التوحيد القرآني حتى يولي نافراً هارباً . ثم بيّن الله عز وجل أنه عندما عاقبهم بالأكنّة والحجاب إنما فعل ذلك لأنه الأعلم بطريقة استماعهم وحالهم ومكرهم عند هذا الاستماع فقال : ﴿ **نحن أعلم بما يستمعون به** ﴾ أي نحن أعلم بالحال

أو بالطريقة التي يستمعون القرآن بها. والتقدير: نحن أعلم بالذي به يستمعون القرآن. ﴿**إذ يستمعون إليك**﴾ ﴿**وإذ هُمْ نجوى**﴾ أي وإذ هم ذوو نجوى أي تناجي أي: كلام سري خفي ﴿**إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً**﴾ أي سُحر فَجُنّ، فهذه حالهم إذا استمعوا، تآمر خفي على اتهام الرسول ﷺ بالسحر فصار المعنى: نحن أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون، وبما به يتناجون، فهم يستمعون القرآن هازلين لاجادين، متآمرين على الحق لا متبعين للحق، ومن ثم فقد عاقبهم الله بما عاقبهم به من وجود الحجاب والأكنة. ثم خاطب الله رسوله ﷺ معزياً ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال**﴾ فجعلوك أحياناً شاعراً، وأحياناً ساحراً، وأحياناً مجنوناً، وههنا مسحوراً ﴿**فَضَلُّوا**﴾ إما بسبب من ذلك، أو في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه، فلا يقدر عليه، فهو متحيّر في أمره، لا يدري ما يصنع؛ ومن ثم قال: ﴿**فلا يستطيعون سبيلاً**﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً.

كلمة في السياق:

إن الإسلام: هو الاستسلام لله، والاستسلام لله استسلام لكتابه. وهذا يقتضي فهماً لكتابه. إذ الاستسلام أثر الفهم. ولكن الله عز وجل حال بين كتابه وبين الناس إلا إذا آمنوا به وباليوم الآخر، ثم حاولوا سماع القرآن وفهمه بشكل جاد. وفي هذه المجموعة بيّن الله عز وجل أنه قد صرّف في هذا القرآن بما يؤدي إلى التذكر. ولكن الكافرين ينفرون منه؛ وما ذلك إلا لأن الله حال بينهم وبينه؛ بسبب كفرهم باليوم الآخر، وشركهم، وطريقتهم التي بها يستمعون القرآن، ومن ثم نفهم معنى قول ابن عمر (كنا نُؤتى الإيمان قبل القرآن) فالإيمان بالله واليوم الآخر، والرسول، والإقبال الجاد على الاستماع، والفهم، للتذكر، والعمل، ينبغي أن يسبق. والصلة بين ما مرمعنا وبين السياق القرآني العام، وبينه وبين قوله تعالى في المقطع السابق ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ وبينه وبين ﴿**وآتينا موسى الكتاب**﴾ في المقطع السابق واضحة. فالسورة تربي وتعلل وتقيم الحجة بما يخدم الاستسلام لله تعالى، والتلقي عنه، وترك اتباع خطوات الشيطان. والقيام بحق النعمة، وإذ كانت العلة الرئيسية لموقف الكافرين من القرآن هو كفرهم باليوم الآخر، فستأتي الآن آيات تذكر نفيهم لليوم

الآخر ، وشبهتهم فيه والرد عليهم :

....

﴿ **وقالوا أءِذا كنا عظاماً ورفاتاً** ﴾ أي عظاماً و تراباً وغباراً ﴿ **أءِنا لمبعوثون** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **خلقاً جديداً** ﴾ أي خلقاً مجدداً بعد أن بلينا وصرنا عدماً لا يذكر ، وهكذا أنكروا البعث لمجرد استبعادهم الإنشاء بعد التمزق والتشتت . فحجتهم ما أُلِفوه لا ماهو حقيقة في نفس الأمر بالنظر إلى قدرة الله ، وقد جاء الجواب ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً** ﴾ أي صيروا حجارة أو حديداً ؛ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات عن الحياة في رأيهم ﴿ **أو خلقاً مما يَكْبُر في صدوركم** ﴾ أي مما يعظم في تصوركم عن قبوله الحياة ، أو عن إمكانية عودتكم إلى الحياة بعد أن تكونوه ممّا في السمٰوات والأرض ﴿ **فسيقولون من يعيدنا** ﴾ أي إذا صرنا إلى ما صرنا إليه كأن كنا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً آخر شديداً ﴿ **قل الذي فطركم أول مرة** ﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً . فهو الذي يعيدكم كَرَّة أخرى . والمعنى : أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ، ويرده إلى حال الحياة بعدما كنتم عظاماً يابسة ، مع أن العظام بعض أجزاء الحي ، بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره . فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى الحالة الأولى ، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ، وهو أن تكونوا حجارة كما يحدث فعلاً لبعض الأجسام إذ تتحجّر ، أو حديداً ، لكان قادراً أن يردكم إلى الحياة ؛ أما ترون أنه هو الذي خلقكم أول مرة ﴿ **فسينغضون إليك رؤوسهم** ﴾ الإنغاض : هو التحريك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل . أي فسيهزون رؤوسهم تعجباً واستهزاء ﴿ **ويقولون متى هو** ﴾ أي البعث استبعاداً له ونفياً ﴿ **قل عسى أن يكون قريباً** ﴾ أي هو قريب فاحذروا ذلك ، فإنه سيأتيكم لا محالة ، فكل ما هوآتٍ آت ﴿ **يوم يدعوكم** ﴾ أي الرب تعالى ﴿ **فتستجيبون بحمده** ﴾ أي تجيبون حامدين إجابة لأمره ، وطاعة لإرادته ﴿ **وتظنون** ﴾ يوم تقومون من قبوركم ﴿ **إن لبثتم** ﴾ في الدنيا أو في القبر ﴿ **إلا قليلاً** ﴾

كلمة في السياق :

بدأ هذا المقطع بقوله تعالى : ﴿ **ولقد صَرَّفنا في هذا القرآن ليذّكروا وما يزيدهم إلا نفوراً** ﴾ ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لَابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً** ﴾ ثم استمر المقطع - كما رأينا - معللاً لموقفهم ، وراداً عليه . والآن يأتي

أمر لرسول الله ﷺ أن يوجه المؤمنين ﴿ **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ....** ﴾ فكأن المقطع له مقدمة هي الآية الأولى منه . وفيه مجموعتان والمجموعة الأولى تتألف من فقرتين : فقرة تخاطب الكافرين وترد عليهم . وفقرة تخاطب المؤمنين ثمّ تعم بالخطاب وهذه هي :

الفقرة الثانية من المجموعة الأولى من المقطع الثاني

﴿ **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن** ﴾ أي الكلمة التي هي أحسن سواء في مخاطباتهم مع بعضهم . أو في مخاطباتهم مع الكافرين . ثمّ علّل للجانب الأهمّ في هذا الأمر وهو قول الكلمة الأحسن للمؤمنين فقال : ﴿ **إن الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ أي إن لم يقولوا في مخاطباتهم الكلام الأحسن ، وهو الكلمة الطيّبة ، فإن الشيطان يلقي بينهم الفساد ، ويغري بعضهم على بعض ؛ ليوقع بينهم المشاقة إذ النزغ إيقاع الشر ، وإفساد ذات البين ، فيوقع الشيطان الشر والمخاصمة والمقاتلة . ﴿ **إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً** ﴾ أي ظاهر العداوة . ومع أن السياق وعموم اللفظ يدلان على أن الأمر بالكلمة التي هي أحسن عامة في الكافرين والمؤمنين . فقد علل للأمر في حق المؤمنين فقط ، لأن هؤلاء هم الهدف . وأما الكافرون فإنه وإن كانت الكلمة الخشنة ، قد تبعدهم إلا أنهم يستأهلونها . ومن ثم فهناك حالات تسمح لنا بالكلمة الخشنة معهم .

وما صلة هذه الآية في السياق ؟

إن الآية الأولى في المقطع تبيّن أن الله قد صرّف القرآن ليذّكروا فكان من المناسب أن يذكّر عباده في هذا السياق بخُلق من أخلاق الإسلام ، وهو الكلمة الطيبة . ثم يختم الله تعالى هذه الفقرة بما فيه تقرير لمعان وتعليل لما مر من معان . فقال : ﴿ **ربكم أعلم بكم** ﴾ أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ **إن يشأ يرحمكم** ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿ **أو إن يشأ يعذبكم** ﴾ إن اخترتم طريق العذاب ﴿ **وما أرسلناك عليهم** ﴾ يا محمد ﴿ **وكيلاً** ﴾ أي حافظاً لأعمالهم وموكولاً إليك أمرهم . إنما أرسلناك نذيراً ، فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار ﴿ **وربك أعلم بمن في السموات والأرض** ﴾ أي بأحوالهم وبكل ما يستأهل كل واحد منهم وبمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿ **ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ وذلك أثر

عن علم الله المحيط ﴿ **وآتينا داود زبوراً** ﴾ به فضّلناه على بعض الأنبياء ، فأنت يا محمد لست بدعاً من الرسل ، ولا كتابك بدعاً من الكتب ، وأنت قد أعطيت هذا القرآن الذي هو أفضل الكتب ، ففضّلت على كل الرسل .

وبهذا انتهت المجموعة الأولى . وكما أن المجموعة بفقرتيها بعد المقدمة بدأت بكلمة ﴿ **قل** ... ﴾ في قوله تعالى : ﴿**قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً** ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن** ... ﴾ .

فإن المجموعة الثانية تبدأ بكلمة ﴿ **قل** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضُّرّ عنكم ولا تحويلاً** ﴾ .

وكما أن المجموعة الأولى انتهت بقوله تعالى : ﴿ **ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم** ... ﴾ فإن في آخر هذه المجموعة ﴿ **ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله** ... ﴾ ثم تختم المجموعة وهذا المقطع باستفهام هو ﴿ **أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر** ... ﴾ كما انتهى المقطع الأول باستفهام هو قوله تعالى : ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين** .. ﴾ وكما خاطبهم بالمجموعة الأولى بما تقوم به الحجة على نفورهم فكذلك تبدأ هذه المجموعة :

المجموعة الثانيةمن المقطع الثاني

﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم** ﴾ أنها آلهتكم ﴿ **من دونه** ﴾ أي من دون الله ، من أمثال الملائكة وعيسى وعزير والجن ؛ لأن السياق يدل على أن المراد من عُبدوا من الأحياء ﴿ **فلا يملكون كشف الضُّرّ عنكم ولا تحويلاً** ﴾ أي ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر : من مرض أو فقر أو عذاب ، ولا أن يحوّلوه من واحد إلى آخر ﴿ **أولئك الذين يَدْعون** ﴾ أي أولئك الذين يدعونهم آلهة أو يعبدونهم ﴿ **يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ يعني أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة : وهي القربة إلى الله عز وجل ﴿ **أيهم أقرب** ﴾ أي الأقرب منهم يبتغي الوسيلة إلى الله بالقربة والطاعة فكيف بغير الأقرب . أو أن كلّا منهم يحرص أن يكون هو الأقرب إلى الله ، وذلك بالطاعة وازدياد الخير ﴿ **ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ كغيرهم من عباد الله فكيف يزعم المشركون بهم أنهم آلهة . دل هذا على أن العبادة لاتتم إلا بالخوف والرجاء . فبالخوف يعرف لله

جلاله ، وبالرجاء يعرف لله إكرامه . ﴿ **إن عذاب ربك كان محذوراً** ﴾ أي حقيقاً بأن يحذره كل أحد من مَلَك مقرَّب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الله عز وجل أقام الحجة على من أشرك مرتين : مرة في بداية المجموعة الأولى إذ بين لهم أن من يعبدونهم لا يسعهم إلا أن يكونوا عابدين . وفي بداية هذه المجموعة إذ بين لهم أن من يعبدونهم يتنافسون على التقرب إلى الله ، وأنهم عاجزون عن أن يملكوا لهم ضراً أو نفعاً ، فوجِّهوا قلوبكم لله ، ومحضوا عبادتكم له . وبهذا تكون الحجة قد قامت وعولج النفور بأبلغ دليل لو كان هناك عقول ، وعرفنا في الوقت نفسه نموذجاً لكيفية تصريف الله في هذا القرآن ، وهو الشيء الذي ذكرته مقدمة المقطع إن مقدمة المقطع قالت : ﴿ **ولقد صرَّفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً** ﴾ ثم سار المقطع مقيماً الحجة ، ومذكِّراً بالحق ، ومكرراً إقامة الحجة مرة بعد مرة ، وذلك مظهر من مظاهر التصريف في هذا القرآن . هذا ﴿ **وما يزيدهم إلا نفوراً** ﴾ . ومن ثم نجد السياق يُذكِّر بإهلاك الله القرى :

....

﴿ **وإن من قرية** ﴾ أي وما من قرية ﴿ **إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو مُعذِّبوها عذاباً شديداً** ﴾ أي ليس من قرية إلا وهي إما مصيبها الهلاك ، أو العذاب الشديد قبل يوم القيامة ﴿ **كان ذلك في الكتاب** ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿ **مسطوراً** ﴾ أي مكتوباً . قال ابن كثير : هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم ، أو يعذبهم عذاباً شديداً . إما بقتل ، أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم : أقول : وهكذا نعلم أنه ما من قرية إلا أصابها أو سيصيبها إهلاك أو عذاب حتى مكة سيسلط الله عليها الحبشة كما ورد في الأحاديث . وهذا يدل على أن الكفر والفسوق يتعاوران البلدان والقرى في الزمان والمكان . ومن ثم فالهلاك والعذاب يتعاوران البلدان والقرى في الزمان والمكان وفي ذلك تهديد للمنحرفين عن أمر الله .

وقد يتساءل متسائل لِمَ يعذبهم الله أليس إراءته في هذه الحال يمكن أن يكون بديلاً ومن ثم يأتي قوله تعالى هنا : ﴿ **وما منَعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون** ﴾

أي وما منعنا من إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك ، ولاستحقوا العذاب المستأصل . لأن سنة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية ، فأجيب إليها ، ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال . وذَكَر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا : ناقة صالح لأن آثار هلاك ثمود معروفة معلومة . فقال ﴿ **وآتينا ثمود الناقة** ﴾ باقتراحهم ﴿ **مبصرة** ﴾ أي آية بينة ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أي فكفروا بها ، فنزل بهم ما نزل ﴿ **وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً** ﴾ إن أريد بالآيات ما يقترحه الكافرون يكون المعنى : لا نرسلها إلا تخويفاً بين يدي نزول العذاب العاجل ، كالطليعة والمقدمة ، فإن لم يتعظوا وقع عليهم ، وإن أُريد بالآيات ما يحدثه الله عز وجل من حوادث كالزلازل وغيرها يكون المعنى : أنه تعالى يفعل ما يتعظ به الآخرون وينزجرون . وقد ذكر ابن كثير أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه . وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وإن أريد بالآيات ما يظهره الله على يد رسله كالمعجزات يكون المعنى : وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذكروا ...** ﴾ وسار المقطع كما رأينا حتى قال : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ....** ﴾ فإذا نظرنا إلى مقدمة المقطع ، وهذه الآية ، عرفنا أن هذا القرآن كاف في إقامة الحجة ، ومن نفر منه فإن شيئاً ما لن ينفعه ، وأن الخوارق التي يظن بعض الناس أنها لو كانت لأثرت في إيمان هؤلاء النافرين لاتؤثر ؛ لأن مسألة الكفر والإيمان أكبر وأعقد مما يتوهمه المتوهمون ، ومن ثم يذكّر الله رسوله ﷺ بموضوعين كل منهما مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **وإذ** ﴾ أي واذكر إذ ..

١ ــ ﴿ **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس** ﴾ أي واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك

أحاط بالناس علماً وقدرة فكلهم في قبضته فلا تبال بهم ، وامض لأمرك ، وبلغ ما أرسلت به ، ولا تلتفت إلى إبائهم ونفورهم وكلامهم . قال ابن كثير في الآية : (يقول تعالى لرسوله ﷺ مُحرِّضاً له على إبلاغ رسالته ، ومخبراً بأنه قد عصمه من الناس ؛ فإنه القادر عليهم ، وهم في قبضته ، وتحت قهره وغلبته) . فالإشارة إلى إحاطة الله علماً بالناس إشارة إلى عدل الله في الهداية والإضلال ، وإشارة إلى ضرورة التبليغ لتقوم الحجة ، وإشارة إلى التوكل مع التبليغ ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما فيها قال : (هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به) وهكذا فسّر ذلك بليلة الإسراء مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومسروق ، وإبراهيم ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وغير واحد . وقوله تعالى ﴿ **إلا فتنة** ﴾ أي إلا اختباراً وامتحاناً . ونحن نعلم أن ناساً رجعوا عن دينهم بسبب حادثة الإسراء والمعراج بعد ما كانوا على الحق ؛ لأنه لم تحتمل قلوبهم وعقولهم ذلك . فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين . وكما جعل الله الإسراء فتنة وابتلاءً واختباراً فكذلك جعل ذكر شجرة الزقوم في القرآن . ومن ثم قال : ﴿ **والشجرةَ الملعونةَ في القرآن** ﴾ أي جعلناها فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا بقوله ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم** ﴾ (الدخان : ٤٣) جعلوها سخرية فكيف ينبت في النار الشجر ، كأنهم يعجّزون القدرة الإلهية عن ذلك . قال أبو جهل سخرية : (هاتوا لنا تمراً وزبداً ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا) وإنما وصفت الشجرة بأنها ملعونة إما لأن الملعونين يأكلونها ، أو لأن العرب تقول لكل طعام مكروه ملعوناً . أو لأن اللعن هو الإبعاد من الرحمة ، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة ﴿ **ونخوِّفهم** ﴾ أي ونخوف الكافرين بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ **فما يزيدهم** ﴾ أي التخويف ﴿ **إلا طغياناً كبيراً** ﴾ أي إلا تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم . قال النسفي : فكيف يجاب قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات ؟ فكأنه ربط بين هذه الآية وما قبلها ﴿ **وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً** ﴾

وهكذا اتضح أن موضوع الهداية والضلال موضوع بعيد الغور فالله عز وجل يبتلي الناس بأنواع من الابتلاءات ليتمحص الإيمان الصافي وأهله ، والله عز وجل أعلم إذ يهدي ويضل ، والكافرون لا يستفيدون من شيء ، والله محيط بكل شيء ، ولنلاحظ

الصلة بين الآية التي هي مقدمة المقطع : ﴿ **وما يزيدهم إلا نفوراً** ﴾ ونهاية هذه الآية ﴿ **فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً** ﴾ فلا القرآن ينفعهم ، ولا الآيات تنفعهم ، ولا ما يحدث حولهم ينفعهم . فموضوع الهداية والضلال ترتبط به أمور وأمور ، والله هو المحيط علماً بكل شيء ثم يأتي الموضوع الثاني المبدوء بكلمة إذ .

٢ ـ ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ أي واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴿ **فسجدوا إلا إبليس**﴾ أبى أن يسجد افتخاراً على آدم واحتقاراً له ﴿ **قال أأسجد لمن خلقت طيناً** ﴾ أي أأسجد له وهو طين ، أي وأصله طين ﴿ **قال** ﴾ الشيطان ﴿ **أرأيتك** ﴾ أي أخبرني ﴿ **هذا الذي كرمتَ عليَّ**﴾ أي أخبرني عن هذا الذي فضّلته ، لِمَ كرّمته علي وأنا خير منه . فحذف ذلك اختصاراً لدلالة ماتقدم عليه ﴿**لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحْتَنِكَنّ ذريته**﴾ أي لأستولينّ عليهم ولأضلنهم ولأستأصلنهم بإغوائهم ﴿**إلا قليلاً**﴾ وهم المخلصون ، وإنما علم الملعون ذلك إما بالإعلام أو لأنه رأى أنه خلق شهواني ، أو لأنه رأى أنواعاً من مثله على الأرض من قبل فاستدل بفعلهم على احتمالات مايفعلونه ﴿ **قال اذهب** ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخلية ، ثم أعقبه بذكر ماجرّه سوء اختياره فقال : ﴿**فمن تبعك منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً**﴾ أي وافراً موفراً عليكم ، لاينقص لكم منه شيء ﴿**واستفزز**﴾ أي استزل واستخف ﴿**من استطعت منهم بصوتك**﴾ أي : بوسوستك ، وكل داع يدعو إلى معصية الله فهو صوت للشيطان يتكلم بلسانه ﴿ **وأجلب عليهم** ﴾ أي وَصِحْ عليهم ﴿ **بخيلك ورَجِلك** ﴾ أي بكل راكب وماشٍ من أهل الفساد . أي واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجالتهم ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه قال ابن كثير : وهذا أمر قدري ﴿ **وشاركهم في الأموال والأولاد** ﴾ أما المشاركة في الأموال فيدخل في ذلك جمعها من خبث ، وإنفاقها في حرام . ويدخل في ذلك ما حرموه من أنعامهم من البحائر والسوائب ، ويدخل في ذلك ما ابتدعوه من أنظمة كافرة في شؤون المال . وأما المشاركة في الأولاد فيدخل فيه كل مولود ولدته أنثى عُصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله . أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ، أو بوأدِه . فكل ما عُصي الله فيه أو به ، أو أطيع الشيطان فيه أو به ، فهو مشاركة ﴿ **وعِدْهم** ﴾ أي المواعيد الكاذبة : من شفاعة الآلهة ، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، وإيثار العاجل على الآجل ، وجعلهم يعيشون على الآمال الكاذبة

﴿ **وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ الغرور هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ أي : يد بتبديل الإيمان ، ولكن بتسويل العصيان ﴿ **وكفى بربك وكيلًا** ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً ، يتوكل عليه المؤمنون فيحفظهم . فمن تحقق بالعبودية لله ، وتوكل على الله ، نجا من سلطان الشيطان .

وبهذا تكون قضية الإضلال والهداية قد توضحت بعض جوانبها في هذا السياق . ولم يبق عندنا من المقطع إلا خاتمته ، التي فيها تذكير ، ومعالجة للنفور ، وتعريف على الله ، وتذكير بعقوباته وقهره ، وإقامة حجة على وحدانيته ، ووجوب إفراده بالعبادة ، وهي معان تأتي على نسق واحد مع معاني المقطع .

﴿ **ربكم الذي يُزجي** ﴾ أي يجري ويسيّر ، إما بالرياح ، وإما بالآلات ، وكلها خلقه ﴿ **لكم الفلك** ﴾ أي السفن ﴿ **في البحر لتبتغوا من فضله** ﴾ يعني الرزق والربح ﴿ **إنه كان بكم رحيماً** ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ، ورحمته بكم ، فهذا يقتضي منكم شكراً وإسلاماً ، لا كفراً وعصياناً ﴿ **وإذا مَسّكم الضر في البحر** ﴾ أي إذا أصبحتم في وضع تخافون فيه الغرق في البحر ﴿ **ضَلّ مَنْ تدعون إلا إيّاه** ﴾ أي ذهب عن أوهامكم كل من تدعونه في حوادثكم إلا أياه وحده ، أو ضل من تدعونه من الآلهة عن إغاثتكم ، ولكن الله وحده الذي ترجون هو الذي يجيب ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف تشركون به ، وتدعون معه غيره اعتقاداً وسلوكاً وتعاطفاً ومودة؟﴿ **فلما نجّاكم إلى البر أعرضتم** ﴾ أي عن التوحيد والإخلاص بعد الخلاص ، أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ، و عبادته وحده دون غيره ﴿ **وكان الإنسان كفوراً** ﴾ أي للنعم أي سجيته هذه ، ينسى النعم ويجحدها إلا مَن عصم الله ﴿ **أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً** ﴾ الحاصب : هي الريح ترمي بالحصباء أي الحجارة . والمعنى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر أنكم أمنتم من انتقامه وعذابه ، والأقطار كلها في قدرته سواء ، وله في كل جانب براً كان أو بحراً سبب من أسباب الهلاك ، فليس جانب البحر وحده مختصاً به ، بل إن كان الغرق في جانب البحر ، ففي جانب البر الخسف : وهو تغييب تحت التراب ، والغرق تغييب تحت الماء ، وإن لم يصبكم الهلاك من تحتكم بالخسف ، أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الهلاك . فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان . ثم قال تعالى : ﴿ **ثم لا تجدوا لكم وكيلًا** ﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم ،

وينقذكم منه ﴿ **أم أمنتم** ﴾ أيها المعرضون عنا بعد ما اعترفتم بتوحيدنا في البحر ، وخرجتم إلى البر ﴿ **أن يعيدكم فيه** ﴾ أي في البحر ﴿ **تارةً أُخرى** ﴾ أي مرة ثانية بأن يقوي دواعيكم ، ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم ، فينتقم منكم ﴿ **فيرسل عليكم قاصفاً من الريح** ﴾ القاصف : هي الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد ، أو هو الكاسر الذي يقصف الصواري ويغرق المراكب ﴿ **فيغرقكم بما كفرتم** ﴾ أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله ﴿ **ثم لا تجدوا لكم علينا به** ﴾ بما فعلنا بكم ﴿ **تبيعاً** ﴾ أي مطالباً أو نصيراً ثائراً يأخذ بثأركم بعدكم ، فمن الذي يطالب الله ؟ فالمعنى : إنما نفعل ما نفعل بهم ثم لا تجد أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً ودركاً للثأر من جهتنا . وبهذا انتهى المقطع .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السورة من البقرة هو قوله تعالى ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيِّنة ومن يُبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ الآتية في حيز قوله تعالى :﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾

وإذ نتأمل المقطع الذي مر معنا نرى أنه قد حدثنا عن القرآن ، وما به من الحجج ولم لاينزل الله الآيات التي يقترحها الكافرون وهي في مقام ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** ﴾ ورأينا في المقطع ما تَهددَ الله أن يهلك كل قرية أو يعذبها وما يمكن أن يفعله بمن يكفرون نعمه ، وهي معان في مقام ﴿ **ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ ورأينا في المقطع مواقف الكافرين من القرآن ونفورهم وطغيانهم ، وطغيان الشيطان ووسائله ، وتلك معان لها علاقة بقوله تعالى ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ ورأينا بعضاً من أوامر الله . وهي أجزاء من الإسلام . ورأينا معاني تعمّق الإيمان بالقرآن والاستسلام لله وذلك من مقام ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافة ...** ﴾ وكل ذلك ضمن سياق رتيب للسورة ، ترتبط به معاني المقطع ببعضها وبمقدمتها ، ويرتبط بها المقطع بما قبله ، إنْ في تعميق معاني التوحيد ، أو في التركيز على خصائص هذا القرآن ، أو بالصلة بين ما أنزل الله على محمد وما أنزل على موسى عليهما الصلاة والسلام .

ومن أهم ما ينبغي أن نلاحظه في المقطع الثاني هو الآية الأولى منه ﴿ **ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذكروا** ﴾ فقد كرر الله في هذا القرآن ما يتذكر به الإنسان ، وأهم ما يتذكره الإنسان هو الاستسلام لله واجتناب خطوات الشيطان .

....

ونحب أن نسجل هنا مجموعة من الملاحظات :

١ ــ جاء في المقطع الأول من سورة بني إسرائيل قوله تعالى :
﴿ لاتجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولًا ﴾ ﴿ **ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتُلقى في جهنم ملوماً مدحوراً** ﴾ وجاء المقطع الثاني وفيه تعميق لمعاني التوحيد : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لا بْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلًا** ﴾ ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلًا** ﴾

٢ ــ وجاء في المقطع الأول : ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** .. ﴾ وجاء في المقطع الثاني : ﴿ **ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكّروا** ﴾ ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون يالآخرة حجاباً مستوراً** ..... ﴾ من هاتين الملاحظتين ندرك مقدار التلاحم بين المقطع الأول والمقطع الثاني ، وكنا قد أشرنا مراراً أثناء عرضنا للمقطع الثاني عن الصلات بين آياته وفقراته ومجموعاته ، مِمّا يؤكد وحدة سياق السورة ، وكل ذلك فيما يخدم قضية الدخول في الإسلام ، وترك اتباع خطوات الشيطان ، من خلال التذكير بآيات الله ، وتهديد من يبدل نعمة الله كفراً

نقْل :

قال صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **تسبّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ :

(وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبّح الله فإذا الكون كله حركة وحياة ، وإذا الوجود كله تسبيحات شجية رخية ، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال .

وإنه لمشهد كوني فريد ، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر . كل حبة وكل ورقة . كل زهرة وكل ثمرة . كل نبتة وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة . كل حيوان وكل إنسان كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء ومعها سكان

السماء . كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه .

إن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه ، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً ، وكلما همت رجله أن تطأ شيئاً سمعه يسبح لله ، وينبض بالحياة .

﴿ **وإن من شيء إلا يسبِّح بحمده** ﴾ يسبح بطريقته ولغته ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين ، ولأنكم لم تتسمعوا بقلوبكم ، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية ، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير ، وتتوجه بها إلى الله خالق النواميس ، ومدبّر هذا الكون الكبير .

حين تشف الروح وتصفو فتتسمَّع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ، ويتوجه بالتسبيح ، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى ، وتدرك من أسرار هذا الوجود مالا يدركه الغافلون ، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود ، النابضة في كل متحرك وساكن ، وفي كل شيء في هذا الوجود .

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **تسبّح له السمٰوات السبع** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الطبراني عن عبد الرحمن بن قرظ أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى ، كان بين المقام وزمزم ، جبريل عن يمينه ، ومكائيل عن يساره ، فطارا به حتى بلغ السمٰوات السبع فلما رجع قال : « سمعت تسبيحاً في السمٰوات العلى مع تسبيح كثير : سبحت السمٰوات العلى ، من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا ، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى » .

٢ ــ في قوله تعالى ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**﴾ اتجاهان رئيسيان : الاتجاه الأول يقول : إن تسبيحها بلسان الحال ؛ إذ تدل بافتقارها وما فيها على ذات منزهة مقدسة ، والاتجاه الثاني يقول : إن تسبيحها بلسان المقال ، ولكن لا نسمعها . وفي هذا الاتجاه نفسه توجهان . التوجه الأول يقول : التسبيح مختص بكل ذي روح . والتوجه الثاني : لا يقيد ذلك ، وقد رجح ابن كثير أن التسبيح بلسان المقال . ونقل ما يدل عليه وذكر الاتجاهين فيه مرجحاً العموم . وهذا كلامه قال :

« وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ، وهذا أشهر القولين ، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وفي حديث أبي ذر : أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسُمع لهن تسبيح كحنين النحل ، وكذا في يد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضي الله عنهم ، وهو حديث مشهور في المسانيد ، وروى الإمام أحمد .... عن ابن أنس عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه مَرّ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال : « اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها ، وأكثر ذكراً لله منه » وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : « نقيقها تسبيح » وقال قتادة عن عبد الله بن أبي عن عبد الله بن عمرو أن الرجل إذا قال « لا إله إلا الله » فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها ، وإذا قال « الحمد لله » فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها ، وإذا قال « الله أكبر » فهي تملأ ما بين السماء والأرض ، وإذا قال « سبحان الله » فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرّره بالصلاة والتسبيح . وإذا قال « لا حول ولا قوة إلا بالله » قال: أسلم عبدي واستسلم . وروى الإمام أحمد ...عن عبد الله بن عمرو قال : أتى النبي ﷺ أعرابي عليه جبة من طيالسة مكفوفة بديباج أو مزوّرة بديباج فقال : إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع ويضع كل فارس ابن فارس . فقام إليه النبي ﷺ مغضباً فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه فقال: « لا أرى عليك ثياب من يعقل » ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال :إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال : إني قاصّ عليكما الوصية آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين . أنهاكما عن الشرك بالله والكبر . وآمركما بلا إله إلا الله فإن السماوات والأرض وما بينهما لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح ، ولو أن السمٰوات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما أو لفصمتهما ،وآمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء » ورواه الإمام أحمد أيضاً ... عن الصعب بن زهير به أطول من هذا وتفرد به . وروى ابن جرير ... عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ :« ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحاً عليه السلام قال لابنه: يابني آمرك أن تقول سبحان الله فإنها صلاة الخلق ، وتسبيح الخلق ، وبها يرزق الخلق » قال الله تعالى :﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ .إسناده فيه ضعف . وقال عكرمة في

قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ قال الأسطوانة تسبح ، و الشجرة تسبح . وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه . وخرير الماء تسبيحه . قال الله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال : الطعام يسبح . ويشهد لهذا القول آية السجدة في الحج (آية : ١٨) ، وقال آخرون : إنما يسبح ما كان فيه روح . يعنون من حيوان ونبات . قال قتادة في قوله : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ قال : كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه ، وقال الحسن والضحاك في قوله : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ قالا : كل شيء فيه الروح وروى ابن جرير ... عن جرير أبي الخطاب قال : كنا مع يزيد الرقاشي ، ومعه الحسن في طعام ، فقدموا الخوان ، فقال يزيد الرقاشي : يا أبا سعيد يسبح هذا الخوان ؟ فقال كان يسبح مرة (قلت) : الخوَان : هو المائدة من الخشب ، فكأن الحسن رحمه الله ذهب إلى أنه لما كان حياً فيه خضرة كان يسبح ، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه ، وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مرّ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » . ثم أخذ جريدة رطبة ، فشقها نصفين ثم غرز في كل قبر واحدة . ثم قال : « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » . أخرجاه في الصحيحين . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء : إنما قال ما لم ييبسا لأنهما يسبحان مادام فيهما خضرة ، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما ، والله أعلم .

٣- بمناسبة قوله تعالى ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾ يذكر ابن كثير الحادثة التي رواها أبو يعلى الموصلي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : لما نزلت ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفي يدها فِهْر (أي حجر) وهي تقول : مذمَّماً أتينا - أو أبينا قال أبو موسى : الشك مني - ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، ورسول الله ﷺ جالس ، وأبو بكر إلى جنبه - أو قال : معه - فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال : « إنها لن تراني » وقرأ قرآناً اعتصم به منها ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾ قال فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت : ياأبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك .قال: فانصرفت وهي تقول : لقد علمت قريش أني بنت سيدها .

٤ ـ قال قتادة عند قوله تعالى ﴿**وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده وَلَّوْا على أدبارهم نفوراً**﴾ : إن المسلمين لما قالوا : لا إله إلا الله ، أنكر ذلك المشركون ، وكبرت عليهم فضافها إبليس وجنوده (أي أحاط بها وأحدق أي طوقها لينقض عليها ويمنعها من الانتصار) فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويفلجها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين ، التي يه لعها الراكب في ليال قلائل ، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها) أقول : إن « لا إله إلا الله » الآن منتشرة في الأرض طولاً وعرضاً ، رغم كل ما تكاد به .

٥ ـ كنموذج لطريقة استماع الكافرين للقرآن والتي يسبقها موقف مسبق معاد

يذكر ابن كثير عند قوله تعالى ﴿ **نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً** ﴾ .

يذكر ابن كثير هذه الحادثة : قال محمد بن إسحق في السيرة : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه ، وكُل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق ، تلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ؛ فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجَمَعَهم الطريق . فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ولانعود ، فتعاهدوا على ذلك . ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق ، أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به . قال ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا

الحكم ! ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

٦ ـ فسر كثير من المفسرين ﴿ **أو خلقاً مما يَكْبُر في صدوركم** ﴾ في قوله تعالى : ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر في صدوركم** ﴾ فسروها بالموت ، فإن الموت يعظم في صدور الكافرين أن يكون بعده حياة ، ولم نقيدها نحن في صلب التفسير بقيد ، وتركناها مطلقة كما هو المذهب المختار عند المفسرين . وعند هذه الآية يقول ابن كثير : وقد ذكر ابن جرير ههنا حديثاً « يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار . ثم يقال : يا أهل الجنة أتعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم . ثم يقال : يا أهل النار أتعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت » .

أقول : ومناسبة الحديث للآية غير واضحة إلا من حيث التدليل على أن الموت مخلوق ، للتدليل على أن قوله تعالى : ﴿ **أو خلقاً مما يكبر في صدوركم** ﴾ يمكن أن يُراد به الموت .

٧ ـ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **يوم يدعوكم** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **فتستجيبون بحمده** ﴾ قال ابن كثير : وقد جاء في الحديث « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة في قبورهم ، كأني بأهل « لا إله إلا الله » يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ، يقولون : لا إله إلا الله » . ومما قاله ابن كثير يفهم أن استجابتهم للبعث يرافقها كونهم ذاكرين .

٨ ـ رأينا أن الله عز وجل قد قال في هذا المقطع ﴿ **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ وأنه قد جاء هذا الأمر في سياق إقامة الحجة على الكافرين ، وتسفيه ما هم فيه ، وعند ما يأتي أمر في هذا المقام ، يستشعر المسلم خصوصيته ومودة الله إياه ، فيستقبل هذا الأمر بجوارحه كلها ، بعقله ، وقلبه ، وروحه ، وفي هذا الأمر أدب من أرقى الآداب الإسلامية وأصعبها ؛ إلا على مَن عصمه الله وحفظه ، وهو أن يقول المسلم لأخيه المسلم الكلمة الطيبة في كل حال ، في غضبه

وسروره ، ومزاحه وجده . الكلمة التي لاتجرح قلباً ولا تقطع أواصر . وإذا كنا مأمورين بالكلمة الطيبة ، وترك الكلمة الخشنة ، فمن باب أولى أن نكون منهيين عن الفعل الخشن . مزاحاً وجداً ، ومن ثم قال ابن كثير عند هذه الآية : (وهذا نهي أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ في يده أي فربما أصابه بها . وروى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ولا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار » .وروى الإمام أحمد ... عن الحسن قال : حدثني رجل من بني سليط قال : أتيت النبي ﷺ وهو في رفلة من الناس ، فسمعته يقول : « المسلم أخو المسلم ، لايظلمه ، ولا يخذله ، التقوى ههنا » قال حماد : وقال بيده إلى صدره « وما توادّ رجلان في الله ، ففرق بينهما إلا حدث يحدثه أحدهما ، والمحدث شر ،والمحدث شر ، والمحدث شر» .

٩ ـــ عند قوله تعالى : ﴿ **ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ قال ابن كثير : وكما قال تعالى ﴿ **تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات** ﴾ . (البقرة : ٢٥٣) وهذا لاينافي ماثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لاتفضّلوا بين الأنبياء » . فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية ، لا بمقتضى الدليل فإذا دَلّ الدليل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضل وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم** ﴾ (آية : ٧) وفي الشورى قوله ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ . (آية : ١٣) ولاخلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى على المشهور . وقد بسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع .

١٠ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿**وآتينا داود زبوراً**﴾ يعيد ابن كثير الحديث الذي مر معنا في سورة الرعد بمناسبة أن كل كتاب سماوي يسمى قرآناً وهو ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خفّف على داود القرآن ، فكان يأمر بدوابة فتسرج ، فكان يقرؤه قبل أن يفرغ » .

أقول بهذه المناسبة : إن ذكر الزبور في هذا السياق يدل على شرف داود عليه السلام إذ يخصه الله به ، وفيه إشارة إلى شرف محمد ﷺ ، إذ يخصه الله بما هو أشرف من الزبور ، وهو القرآن الكريم ، والزبور كتاب سماوي لكنه قد خالطه التحريف والتغيير ، حتى خالط بعض فقراته الكفر والشرك ، كما حدث لغيره ، ثم هو قد اختلط بغيره زيادة على تحريفه ، فمثلاً تعثر في كتب العهد القديم على ما يسمى المزامير . ومجموعتها مئة وخمسون قطعة ، يسمون كل قطعة منها مزموراً ، إلا أننا نلاحظ أنهم ينسبون بعض هذه المزامير إلى إيثان الأزراحي ، وبعضها لبني قورح ، وبعضها لآساف ، المشهور عند المسلمين بآصف بن برخيا ، ثم تجدهم يذكرون عند بعض المزامير ما يشير إلى أنها من تأليف داود نفسه ، ويذكرون مناسبتها ولا يفوت الرباني أن يحس أثناء قراءة بعضها أن عليها جلالاً ربانياً ، ولله في ألا تصلنا الكتب السماوية السابقة - كما هي - حِكَم ، من جملتها أن نستغني بهذا القرآن عما سواه . وقد جمع الله به من الجلال والكمال في المبنى والمعنى ، ما يغني ويكفي .

١١ - في سبب نزول قوله تعالى ﴿**وما مَنَعَنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً**﴾ . قال ابن كثير : (قال سُنَيد ، عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن سعيد بن جبير ، قال : قال المشركون : يا محمد ، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء ، فمنهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيي الموتى ، فإن سرّك أن نؤمن بك ونصدّقك ، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً . فأوحى الله إليه : « إني قد سمعت الذي قالوا ، فإن شئت أن نفعل الذي قالوا ، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب ، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة ، وإن شئت أن نستأني بقومك استأنيتُ بهم » قال : « يارب استأن بهم » وكذا قال قتادة ، وابن جريج وغيرهما . وروى الإمام أحمد ... عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له : إن شئت أن نستأني بهم ، وإن شئت نُؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم . قال : « لا ، بل استأن بهم » وأنزل الله تعالى ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾ الآية . ورواه النسائي وابن جرير به وروى الإمام أحمد ... عن ابن عباس:قالت قريش للنبي ﷺ ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، ونؤمن بك قال : « وتفعلون ؟ » قالوا : نعم : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً . فمن كفر منهم بعد ذلك

عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة فقال : « بل باب التوبة والرحمة » وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده ... عن أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت : سمعت الزبير يقول : لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ (الشعراء : ٢١٤) صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس : « يا آل عبد مناف ، إني نذير ! » فجاءته قريش فحذّرهم ، فقالوا : تزعم أنك نبي يوحى إليك ، وأن سليمان سُخّر له الريح والجبال ، وأن موسى سُخّر له البحر ، وأن عيسى كان يحيي الموتى ، فادع الله أن يسيّر عنّا هذه الجبال ، ويفجّر لنا الأرض أنهاراً ، فنتخذها محارث ، فنزرع ونأكل ، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا لنكلمهم ويكلموننا ، وإلا فادع الله أن يصيّر لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً ، فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيئتهم . قال : فبينا نحن حوله ، إذ نزل عليه الوحي ، فلمّا سرّي عنه قال : « والذي نفسي بيده ، لقد أعطاني ما سألتم ، ولو شئت لكان ، ولكنه خيّرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم ؛ فتضلوا عن باب الرحمة ، فلا يؤمن منكم أحد ، فاخترت باب الرحمة ، فيؤمن مؤمنكم ، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ، ثم كفرتم ، أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين » . ونزلت : ﴿ **وما مَنَعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون** ﴾ حتى قرأ ثلاث آيات ونزلت : ﴿ **ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى** ﴾ الآية . (الرعد : ٣١) ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات** ﴾

١٢ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ يروي ابن كثير الحديث الذي يرويه الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لَيُنْضي شياطينه كما يُنضي أحدكم بعيره في السفر » . أي يأخذ بناصيته ويتعبه ويقهره .

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وشاركهم في الأموال والأولاد** ﴾ يذكر ابن كثير حديثين :

أ ــ في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم » .

ب ــ وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله

قال : باسم الله اللهم جنّبنا الشيطان ، وجنّب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد في ذلك لم يضرّه الشيطان أبداً » .

١٣ ــ وبمناسبة قوله تعالى ﴿**وإذا مسّكم الضُرُّ في البحر ضَلّ مَن تدعون إلا إياه**﴾ يروي ابن كثير حادثة (قال : كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارّاً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هارباً ؛ فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليّ عهد ، لئن أخرجتني منه ، لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه) .

كلمة في السياق :

لقد رأينا في المقطع الثاني أنه عالج الموانع التي تمنع من الهداية . أي تمنع دخول الإنسان في الإسلام ، كما أقام المقطع الحجة على الكافرين ، وقد رأينا فيه بعض ما تهدّد الله به ، وفي المقطع الأول قصّ الله علينا ما عاقب به بني إسرائيل لانحرافهم . ثم بين خاصية من خواصّ كتابه . ثمّ أمر ونهى عباده ، وفي كلّ ما مرّ تعمّيق لشكر النعمة بالطاعة ، والتخويف من الانحراف ، والاهتداء بهذا القرآن ، والالتزام بآدابه ، وكل ذلك له صلة بالدخول في الإسلام كله ، واجتناب خطوات الشيطان كلها ، والآن يأتي مقطع جديد ، يذكّر بالنعمة ، وعقوبة كفرانها ، ويذكّر بما يحاوله الكافرون مع الداعية ليتخلى عن الإسلام ، أو عن شيء منه ، وما هي العقوبة التي يستأهلها من تنازل عن شيء من الإسلام كما يذكر كيد الكافرين لصاحب الدعوة ، وكيف يقابل صاحب الدعوة الكيد ، والإغراء . ثم يذكّر الله بنعمته في إنزاله هذا القرآن ، و يذكّر بطبيعة الإنسان الجحود ، وبإعجاز هذا القرآن .

☆ ☆ ☆

وبالجملة فإن المقطع اللاحق يربي على شكر النعمة ، وعلى الالتزام بكل الإسلام ، وهما المعنيان الرئيسيان في محور هذه السورة ، من سورة البقرة :

المقطع الثالث

ويمتد من الآية (٧٠) إلى نهاية الآية (٨٨) وهذا هو :

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ
فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾
وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن
كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ
خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا
لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن
كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾
أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ
كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ
مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ

وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ
ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ
وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ
وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ
فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ
أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ
عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

التفسير

﴿**ولقد كرَّمنا بني آدم**﴾ قال النسفي : (بالعقل ، والنطق ، والخط ، والصورة الحسنة ، والقامة المعتدلة ، وتدبير أمر المعاش والمعاد والاستيلاء ، وتسخير الأشياء ، وتناول الطعام بالأيدي) وفي مقدمة كتابنا (الرسول ﷺ) تحدثنا عن كون الإنسان مخلوقاً متميزاً متفرداً بالعقل والبيان والخلقة والقدرة على تسخير الأشياء . وأن هذا العطاء من الله يقابله التكليف . فالقيام بالتكليف هو شكر النعمة ﴿ **وحملناهم في البر**﴾ على أنواع المركوبات الحيوانية والآلية ﴿ **والبحر** ﴾ على أنواع المراكب ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ من زروع وثمار ، ولحوم وألبان ، ومن سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرقيقة من سائر الأنواع على اختلاف

أصنافها وألوانها وأشكالها ، مما يصنعونه لأنفسهم ، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿ **وفَضّلناهم على كثير** ﴾ فسر الكثير بعضهم هنا بالكل ﴿ **مِمّن خلقنا** ﴾ قال ابن كثير : أي من سائر الحيوانات ، وأصناف المخلوقات ﴿ **تفضيلاً** ﴾ ذَكّرنا الله عز وجل في هذه الآية بتكريمه الإنسان ، وحمله له في البر والبحر ، ورزقه الطيبات ، وتفضيله لهذا الإنسان على كل مخلوقاته . ذكّرنا الله عز وجل بهذه النعم ، ولم يذكر ما رتّبه علينا مقابل هذا العطاء ، ولكنه ذكّرنا بعد ذلك مباشرة بما سيكون يوم القيامة . وفي هذا التذكير بيان أن من لم يشكر فله جزاؤه ، وأن من شكر فله جزاؤه فقال : ﴿ **يوم** ﴾ أي واذكر ، أو واذكروا يوم ﴿ **ندعو كل أُناس بإمامهم** ﴾ أي مختلطين بإمامهم ، أي بمن ائتموا به من نبي أو مقدَّم في الدين ، أو كتاب ، أو دين ، أو بكتاب أعمالهم ﴿ **فمن أُوتي كتابه بيمينه** ﴾ أي من هؤلاء المدعوين ﴿ **فأولئك يقرأون كتابهم ولا يُظلَمون فتيلاً** ﴾ أي ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء ، وإنما يقرأون كتابهم فرحاً بما فيه من العمل الصالح وسروراً ، فهو يقرؤه ويحب قراءته . والفتيل في اللغة : هو الخيط المستطيل في شق النواة ، ولـم يذكر الكفار وإيتاءهم كتبهم بشمالهم اكتفاءً بقوله تعالى الآتي : ﴿ **ومن كان في هذه أعمى** ﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجة الله وآياته وبيّناته ﴿ **فهو في الآخرة أعمى** ﴾ أي كذلك يكون في الآخرة ﴿ **وأضل سبيلاً** ﴾ أي وأضل طريقاً مما كان في الدنيا ، وقد استعيرت كلمة الأعمى للكافر ؛ لأن الأعمى لا يدرك المبصرات؛ لفساد حاسته ، وكذلك الكافر ، فإنه لا يهتدي إلى طريق الله في الدنيا ، فمن ثَم فهو أعمى ، ولكونه لا ينفعه الاهتداء في الآخرة فهو كذلك أعمى وأضل ، لأن كرب يوم القيامة تزيد من عماه . وهكذا عرفنا عاقبة من كفر النّعمة ، وعاقبة من شكرها ، وإنما شُكرُها بالقيام بأمر الله كله ، بأن يفعل ما كلّفه الله به ، وبهذا وضح ما بين هاتين الآيتين . والآية قبلهما :

فالآية الأولى ذكّرت بالنّعم ، ولم تذكر شيئاً سوى ذلك .

والآيتان الأخريان ذكّرتا بحال أهل الإيمان ، وأهل الكفر في الآخرة ، مما دلّ على أن هذه النعم يقابلها تكليف ، وأن السقوط في التكليف يترتب عليه ما يترتب ، وَوَصْفُ الكافر بالعمى في الدنيا دليل على أن الذي لم يرتّب على النعمة مقتضاها ، من القيام بأمر الله

تالف . هؤلاء العميان لم يكفِهم أنهم عميان ، بل يبذلون الجهود ليفتنوا أهل الإبصار ، ويحرفوهم ، بل يحاولون اضطهاد أهل الإبصار ليخرجوهم من ديارهم . وهذان هما موضوعا الفقرتين التاليتين ، وهما يأتيان في معرض الكلام عن تأييد الله رسوله ﷺ ، وتثبيته وعصمته ، وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجّار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليُّه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره . قال تعالى : ﴿ **وإن كادوا** ﴾ أي وإنهم قاربوا ﴿ **ليفتنونك** ﴾ أي يخدعونك فاتنين ﴿ **عن الذي أوحينا إليك** ﴾ من أوامرنا ونواهينا ، ووعدنا ووعيدنا ﴿ **لتفتري علينا غيره** ﴾ أي لتتقوّل علينا ما لم نقل ﴿ **وإذاً** ﴾ أي ولو اتبعت مرادهم ﴿ **لاتخذوك خليلاً** ﴾ أي : لكنت لهم ولياً وخرجت من ولايتي ﴿ **ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً** ﴾ أي ولولا تثبيتنا وعصمتنا ، لقاربت أن تميل إلى مكرهم ركوناً قليلاً ﴿ **إذاً** ﴾ أي لو رَكَنت إليهم أدنى ركون ﴿ **لأذقناك ضِعْف الحياة** ﴾ أي عذاب الحياة مضاعفاً ﴿ **وضِعْف الممات** ﴾ أي وعذاب الآخرة مضاعفاً والتقدير : لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة ، وعذاباً ضعفاً في الممات .

﴿ **ثم لا تجد لك علينا نصيراً** ﴾ أي معيناً لك يمنع عذابنا عنك ﴿ **وإن كادوا** ﴾ وإنهم قاربوا ﴿ **ليستفزونك** ﴾ أي ليزعجونك بعدوانهم ومكرهم ﴿ **من الأرض** ﴾ من أرض مكة ، أو من أرض العرب ﴿ **ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك** ﴾ أي بعدك ﴿ **إلا قليلاً** ﴾ أي إلا زماناً قليلاً ، فإن الله مهلكهم ﴿ **سُنَّة مَنْ قد أرسلنا قبلك من رُسُلنا ولاتجد لسنَّتِنا تحويلاً** ﴾ أي تبديلاً ، أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا ، وآذوهم بالإخراج من بين أظهرهم ، يأتيهم العذاب ، والمعنى : أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم . وقد يتساءل متسائل ألم يخرجوا رسول الله ﷺ ؟ والجواب : إنه هاجر وخرج بأمر ربه ، ومن ثم لم يُستأصَلوا ، أو أن ما حدث لهم يوم بدر كان عذاباً يقابل فعلهم . أو أن أرض العرب واحدة ، فالانتقال من مكة إلى المدينة لا يعتبر إخراجاً .

كلمة في السياق :

النعمة ينبغي أن يقابلها شكر ، والشكر : هو القيام بالتكليف ، والقيام بالتكليف : هو

الدخول في الإسلام كله ، والدخول في الإسلام كله يعني : الالتزام الكامل بوحي الله ، والالتزام الكامل بوحي الله لا يقبل مساومة ولا مداهنة ، فإن ساوم أهل ذلك أو داهنوا استحقوا العذاب الدنيوي مضاعفاً ، والعذاب الأخروي مضاعفاً ، كما أن الالتزام بالوحي كاملاً سيقابَل من أعداء الله بالإيذاء الذي قد يكون منه الإخراج من الأرض ، وكل ذلك لا ينبغي أن يلتفت إليه ، هذا ما ذكرته الفقرتان السابقتان . والآن لنتذكر صلة ما مرّ معنا بمحور السورة : تأمل هذه الآيات : ﴿ **فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً** ﴾ و ﴿ **إذاً لأذقناك ضِعْف الحياة وضِعْف الممات** ﴾ و﴿ **وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً** ﴾ . إذا تأملت هذا وصلته بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ وإذا تأملت قوله تعالى : ﴿ **ولولا أن ثَبَّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً** ﴾ وصلته بقوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافّة** ﴾ فإنك ترى كيف أن المقطع يفصّل في محوره من سورة البقرة أي تفصيل .

وبعد ما رأيناه من المقطع تأتي الآن مجموعة أوامر موجّهة لرسول الله ﷺ ، ومجيء الأوامر في هذا السياق يفيد : أن تنفيذ هذه الأوامر هو الردّ على محاولات الحرف أو الإخراج ، وهو التعبير العملي عن شكر النعمة ، وهو الشيء الذي يُستعان به في عبور سفينة الحياة بهذا الإسلام .

﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس** ﴾ أي لزوالها ﴿ **إلى غسق الليل** ﴾ أي إلى ظلمته دخل في ذلك الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ أي وأقم قرآن الفجر أي صلاته ، وسميت الصلاة بالقرآن لكون القراءة ركناً فيها ، كما سميت ركوعاً وسجوداً ، أو سميت قرآناً لطول ما يقرأ بها من القرآن ﴿ **إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ أي إن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار ، كما أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ وعلى هذا فإن الأمر في الآية يفسّر بإقامة الصلوات الخمس المكتوبة في أوقاتها . وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خَلَفاً عن سلف . وقرناً بعد قرن .

فلا ينكره إلا كافر ﴿ **ومن الليل فتهجَّد به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **نافلة لك** ﴾ أي عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس . والمعنى : أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك ، أو فريضة عليك خاصة دون غيرك ، لأنه تطوع لهم ، والتهجد في الأصل ترك الهجود للصلاة ، ومن ثم فإنه يكون عادة بعد نوم ، فالآية فيها أمر لرسول الله ﷺ بقيام الليل زيادة على المكتوبة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة قال : « صلاة الليل » . ثم قال تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به ؛ لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى . قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم ﴿ **وقل رب أدخلني مُدْخل صدقٍ وأخرجني مُخرَج صدق** ﴾ في شأني كله ، وفي كل ما أدخل فيه وأخرج من أمر أو مكان ، وقد نزلت حين الأمر بالهجرة كما سنرى ﴿ **واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾ أي ملكاً وعزاً قوياً ناصراً للإسلام على الكفر ، مظهراً له عليه ، أو حجة بينة تنصرني بها على من خالفني ، والقول الأول هو الذي رجحه ابن جرير . قال ابن كثير : وهو الأرجح لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ﴿ **وقل جاء الحق** ﴾ أي الإسلام كما قال النسفي ﴿ **وزهق الباطل** ﴾ أي وذهب وهلك ، إذ الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ **إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ أي مضمحلاً في كل أوان ، فليس من لقاء ولا من مساومة ، فالباطل عدم ، والحق وجود ، وعلى العدم أن يرحل أمام الوجود .

هذه هي الأوامر التي وجهت لرسول الله ﷺ في هذا السياق : الأمر بإقامة الصلوات الخمس ، والأمر بالتهجد ، والأمر بالاستعانة بالله في كل شيء ودعائه ، والإعلان عن مجيء الحق وزهوق الباطل . وفي هذا الإعلان ما يفيد أن الباطل كله يجب أن ينتهي . ومجيء هذه الأوامر في هذا السياق واضح الحكمة ، سواء في ذلك سياق السورة ، أو السياق الكلي للقرآن ، وبعد هذه الأوامر تأتي هذه الآية :

﴿ **ونُنَزِّل من القرآن ما هو شفاء** ﴾ للقلوب من أمراضها ، من شك ، ونفاق ، وزيغ ، وميل ، وضعف ﴿ **ورحمة** ﴾ يحصل بها الإيمان ، وتوجد بها الحكمة ، وتتحقق بها السعادة ﴿ **للمؤمنين** ﴾ فهم وحدهم الذين يعتبر القرآن في حَقِّهم شفاء ورحمة ، به

تفريج كروبهم ، وتطهير عيوبهم ، وتكفير ذنوبهم ﴿ **ولا يزيد الظالمين** ﴾ أي الكافرين ﴿ **إلا خساراً** ﴾ أي ضلالًا لتكذيبهم به وكفرهم ، فلا ينتفعون به ، ولا يعونه ، ولا يزيدهم سماعه إلا بُعْداً وكفراً ، والآفة من الكافر لامن القرآن . ومجيء هذه الآية بعد الأوامر الأربعة السابقة يشعر أن هذه الأوامر فيها الشفاء ، وفيها الرحمة . كما يشعر أن كل ما سبق من المقطع إنما هو من أجل شفاء القلوب من الضعف والوهن .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن المقطع الثاني بدأ بآية مختومة بقوله تعالى : ﴿ **وما يزيدهم** ﴾ أي القرآن ﴿ **إلا نفوراً** ﴾ وقد انتقل المقطع من آية ، إلى آية حتى استقر على آية تعكس نورها على ما قبلها ، وهي منتهية بقوله تعالى : ﴿ **ولا يزيد الظالمين إلا خساراً** ﴾ ومن ثَم فإننا نلاحظ أن المقاطع كلها تعالج وضعاً واحداً هو موقف الخلق من نعمة القرآن . وما يترتب على ذلك ، وكل ذلك في مجال المطالبة بالدخول في الإسلام كله ، ويتساءل متسائل ما السِّر في كون هذا القرآن لا يزيد الكافر إلا خساراً . ويأتي الجواب في الآية اللاحقة في صيغة تقرير قاعدة وهي :

﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان** ﴾ بالصحة والسعة من مال وعافية وفتح ورزق ونصر ﴿ **أعرض** ﴾ عن طاعة الله وعبادته ﴿ **ونأى بجانبه** ﴾ النأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ، ويولّيه ظهره ، وهذا تأكيد للإعراض ، وإشعار بأن الإعراض فيه معنى الاستكبار ﴿ **وإذا مَسّه الشَّرُّ** ﴾ وهو الفقر والمرض والحوادث والنوائب والمصائب ﴿ **كان يؤوساً** ﴾ أي قنوطاً من أن يعود بعد ذلك إليه الخير ، إن هذا هو حال الكافر بدليل قوله تعالى في سورة هود ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مَسّته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ (الآيات : ٩ - ١١) دلّت هذه الآيات على أن الذي يقف من النعمة هذا الموقف إنما هو الكافر ، ومن ثم فهذه الطبيعة هي السبب في أن الكافر لا يزيده القرآن إلا خساراً ؛ لأن القرآن نعمة ، ومن طبيعة الكافر أن يقابل النعمة بالإعراض والاستكبار ، فإذا كانت هذه طبيعته فهو يقف من أجلّ النعم - وهي القرآن والإسلام - موقف الإعراض والاستكبار ، ومن ثَم فإن القرآن يزيدهم خساراً ، ومن ثمّ قال تعالى : ﴿ **قل كُلٌّ** ﴾ من المؤمنين الذين يهتدون بالقرآن ويشكرون النعمة ، ومن الكافرين

الذين يكفرون النعمة وينأون عن القرآن ﴿ **يعمل على شاكلته** ﴾ أي على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال ، أو على طبيعته ، وهذا شبيه بقول الشاعر : وكل إناء بالذي فيه ينضح . ﴿ **فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً** ﴾ أي أسَدّ مذهباً وطريقة منا أو منكم ، وسيجزي كل عامل بعمله . قال ابن كثير : وهذه الآية – والله أعلم – تهديد للمشركين ووعيد لهم . أقول : وفي الوقت نفسه ثناء على طبيعةالمسلم . وفي هذا السياق يرد سؤال ، ويأتي جواب ويُقرر تقرير . فلنر السؤال وجوابه والتقرير ، ثم لنر محله في السياق : أما السؤال فهو : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ والسائل هم اليهود كما سنرى في الفوائد ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ أي من أمر يعلمه ربي ، أي مما استأثر الله بعلمه ، أو هي من عالم الأمر التكويني ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى . والمعنى : أن علمكم في علم الله قليل . وهذا الذي تسألون عنه مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى . ولنا عودة على موضوع الآية ، وموضوع الروح في قسم الفوائد ، فهذه الروح التي آثارها ظاهرة ، والتي يدل عليها كثير من الظواهر ، والتي هي أقرب شيء إلى الإنسان ، يقف الإنسان ، عاجزاً عن إدراك حقيقتها وكنهها . والآن ما الحكمة في إيراد هذه الآية في هذا السياق ؟ بعد ذكر كفران النعمة ، وذكر كون القرآن شفاءً ؟ نلاحظ أن هذه الآية والآيتين قبلها قد وردت بين آيات تتحدث عن القرآن ، وخواصّه ، وإعجازه ، إذا عرفنا هذا فإنّ الشيء الذي يتبادر إلى الذهن هو : أن هذا القرآن الذي هو علاج للقلوب والأرواح ، ما كان ليكون كذلك ، لولا أنه من عند الله ، وأن هذه الروح التي لا يعرف غير الله كنهها هو وحده الذي يضع النظام المناسب لها . فهذا الإنسان الذي لا يعرف نفسه يحتاج إلى هداية الله ، ومن ثم أنزل الله هذا القرآن الذي لا يستطيع أحد لا محمد ﷺ ولا غيره أن يأتي بمثله . ومن ثم يختتم المقطع بهذه الآيات . قال تعالى : ﴿ **ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك** ﴾ المعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف ، فلم نترك له أثراً ﴿ **ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً إلا رحمة من ربك** ﴾ أي ثم لا تجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مسطوراً ، إلا أن يرحمك ربك فيردّه عليك ﴿ **إن فضله كان عليك كبيراً** ﴾ في إنزال هذا القرآن ، وحفظه عليك . فالقرآن إذن ليس مصدره بشرياً ، بل هو رباني . حتى محمد ﷺ لا يستطيع شيئاً لو أراد الله أن يسلبه هذا

القرآن ، فهذا القرآن تنزيل من الله وحده ، وتأكيداً لهذا المعنى أمر الله رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ أي معيناً . والمعنى : لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه لعجزوا عن الإتيان بمثله ، ولو اجتمعت طاقات بعضهم إلى بعض لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتضافروا فإن هذا أمر لايستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق ، الذي لانظير له ، ولا مثال له ، ولا عديل له ، فكما أن الروح من أمر الله فهذا القرآن من عند الله ، وكما أن أحداً لايستطيع أن يدرك سر الروح - فضلاً عن أن يوجدها - فكذلك هذا القرآن يعجز أحد حتى رسول الله ﷺ أن يأتي به أو بمثله . وعلى هذا فإن تسلسل المعاني في هذا المقطع يكون على الشكل الآتي : تذكير بالنعمة يوصل إلى موضوع التكليف والحساب ، وتذكير بوجوب الثبات على كل ما كلف الله به عباده . وتهديد لمن انحرف ، ثم بعد ذلك يذكر نوعاً من أنواع الإيذاء الذي يقابل به الدعاة ، ثُمّ تأتي أربعة أوامر توجه في هذا السياق لصاحب الدعوة ، ثمّ يأتي تقرير يذكر فيه بعض خواص القرآن ويذكر فيه موقف الكافرين منه ، ثم تُذكر علة هذا الموقف ، ثمّ يذكر جهل الإنسان وقُصُوره عن معرفة أقرب الأشياء إليه ، وإذ كان الأمر كذلك فلابد له من هداية ربانية ، ومن ثم أنزل الله هذا القرآن المعجز ، فإذا ما رفضه الكافرون فما ذلك إلا لجهلهم . فالمقطع عمّق أمر الاستسلام لهذا القرآن . فلنذكر الآن بعض النقول ، ثم فوائد المقطع ، ثم نعطف بكلمة عن سياق سورة الإسراء . ثم ننتقل إلى المقطع الرابع .

نُقُول

١ ـــ عند قوله تعالى : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ قال صاحب الظلال :

(بهذا السلطان المستمد من الله ، أعلن مجيء الحق بقوته وصدقه وثباته ، وزهوق الباطل واندحاره وجلائه . فمن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت ، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق ..

﴿ **إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ .. حقيقة لَدُنّية يقررها بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة . فالباطل ينتفخ وينتفش ، لأنه باطل لا يطمئن إلى

حقيقة ؛ ومن ثم يحاول أن يموه على العين ، وأن يبدو عظيماً كبيراً ضخماً راسخاً ، ولكنه هش سريع العطب ، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عالياً ثم تخبو سريعاً وتستحيل إلى رماد ؛ بينما الجمرة الذاكية تدفىء وتنفع وتبقىٰ ؛ وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقىٰ الماء .

﴿ **إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ .. لأنه لايحمل عناصر البقاء في ذاته ، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وأسناد غير طبيعية ؛ فإذا تخلخلت تلك العوامل ، ووهنت هذه الأسناد تهاوىٰ وانهار . فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده . وقد تقف ضده الأهواء ، وتقف ضده الظروف ، ويقف ضده السلطان .. ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء ، لأنه من عند الله الذي جعل « الحق » من أسمائه وهو الحي الباقي الذي لايزول .

﴿ **إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ .. ومن ورائه الشيطان ، ومن ورائه السلطان . ولكن وعد الله أصدق ، وسلطان الله أقوىٰ . وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان ، إلا وذاق معه حلاوة الوعد ، وصدق العهد . ومن أوفىٰ بعهده من الله ؟ ومن أصدق من الله حديثاً ؟ .»

٢ ــ وعند قوله تعالى : ﴿ **ونُنَزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ .. قال صاحب الظلال : (وفي القرآن شفاء ، وفي القرآن رحمة ، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من روح ، وطمأنينة وأمان . في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة . فهو يصل القلب بالله ، فيسكن ويطمئن ، ويستشعر الحماية والأمن ؛ ويرضىٰ فيستَرْوِح الرضىٰ من الله والرضىٰ عن الحياة ؛ والقلق مرض ، والحيرة نَصَب ، والوسوسة داء . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من الهوىٰ والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان .. وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب ، وتدفع به إلى التحطم والبلىٰ والانهيار ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير . فهو يعصم العقل من الشطط ، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة ويكفه عن إنفاق طاقاته فيما لا يجدي ، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط ، يجعل نشاطه منتجاً ومأموناً . ويعصمه من الشطط

والزلل . وكذلك هو في عالم الجسد ينفق طاقاته في اعتدال بلا كبت ولا شطط فيحفظه سليماً معافى ويدخر طاقاته للإنتاج المثمر ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات ، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها . ومن ثم هو رحمة للمؤمنين .

﴿ **ولا يزيد الظالمين إلا خساراً** ﴾ ... فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة . وهم في غيظ وقهر من استعلاء المؤمنين به ، وهم في عنادهم وكبريائهم يشتطون في الظلم والفساد ، وهم في الدنيا مغلوبون من أهل هذا القرآن . فهم خاسرون . وفي الآخرة معذبون بكفرهم به ولجاجهم في الطغيان ، فهم خاسرون : ﴿ **ولا يزيد الظالمين إلا خساراً** ﴾ ...) .

٣ ــ وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ :

(وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل . ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده في مجاله الذي يدركه . فلا جدوى في الخبط في التيه ، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك وسائل إدراكه . والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه ، وسر من أسراره القدسية ، أودعه هذا المخلوق البشري .. وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق ، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود ، والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة ، إنما وهب منها بقدر حاجته ليقوم بالخلافة في الأرض ، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه ، في حدود علمه القليل . ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع ؛ ولكنه وقف حسيراً أمام ذلك السر اللطيف – الروح – لا يدري ما هو ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يذهب ، ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير ...) .

☆ ☆ ☆

فوائد :

١ ــ يثير علماء التفسير سؤالاً عند قوله تعالى : ﴿ **ولقد كرَّمنا بني آدم** ... ﴾ وهو : أيّ أجناس الخلق أفضل الملائكة أو البشر ؟ ومما ذهب إليه العلماء – وهو رأي الجمهور : أن خواصّ البشر – كالمرسلين – أفضل من خواصّ الملائكة ، والصدّيقون من البشر أفضل من عوام الملائكة ، وخواصّ الملائكة أفضل من عامة البشر ، وعامة الملائكة أفضل من عامة البشر من غير الصدّيقين وأمثالهم ، فمن باب أولى أن يكونوا أفضل من فسقة المسلمين ، وأما الكفرة فهم شر الخلق . فلبعض البشر إذاً نوع ميزة على الملائكة . ومن ثم أطلق بعضهم أن جنس البشر هو أكرم الأجناس على الله . قال النسفي في تعليل ذلك : وهذا لأنهم مجبولون على الطاعة ، ففيهم عقل بلا شهوة وفي البهائم شهوة بلا عقل ، وفي الآدمي كلاهما . فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة . ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ولأنه خلق الكل لهم وخلقهم لنفسه .

وذكر ابن كثير أكثر من أثر وحديث في التدليل على هذا المقام ، وكلها بمعنى واحد وهذه رواية الطبراني بسنده إلى عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « إن الملائكة قالت : يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ، ويشربون ويلبسون ، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ، قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان » .

٢ ــ رأينا أن هناك أكثر من اتجاه في تفسير قوله تعالى : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ .. فبعضهم فسّر الإمام بكتاب أعمالهم ، وبعضهم فسره بأنه الإمام الذي يقتدي به الناس ، فكل قوم اقتدوا بواحد فإن هذا الواحد يُدعىٰ أولًا من هؤلاء القوم ، وقد روى البزار حديثاً في هذا المعنى . إلا أنه قال لا يروى إلا من هذا الوجه وهذا هو الحديث : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ قال : « يدعىٰ أحدهم فيعطىٰ كتابه بيمينه ، ويُمَدُّ له في جسمه ، ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه ، فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم آتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا ، فيأتيهم ، فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسوّد وجهه ، ويمدّ له في جسمه ، ويراه أصحابه ، فيقولون : نعوذ بالله من هذا ، أو من شر هذا – اللهم لا تأتنا به ، فيأتيهم . فيقولون :اللهم أخره ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا » . وقال

ابن كثير قبل إيراده هذا الحديث : (ويحتمل أن المراد بإمامهم أي كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار** ﴾ (القصص : ٤١) وفي الصحيحين : تتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الطواغيت) .

٣ ـ رأينا أن الدلوك في قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس** ﴾ هو الزوال وعلى هذا أكثر المفسرين ، واختاره ابن جرير ، إلا أن هناك من ذهب إلى أن الدلوك هو الغروب إلا أنه قول مرجوح . وقد استشهد ابن جرير على أن الدلوك هو الزوال بحديث رواه بأكثر من سند إلى جابر بن عبد الله قال : دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه ، فطعموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس . فخرج النبي ﷺ فقال : «اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس » .

٤ ـ رأينا أن معنى قوله تعالى : ﴿ **مشهوداً** ﴾ في الآية ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ أنه تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . وقد ذكرنا في صلب التفسير حديثاً رواه البخاري يشهد لهذا التفسير . وابن كثير يذكر في هذا المقام أكثر من أثر وحديث يشهد لهذا . وفي بعضها زيادات . ومن ثم نذكرها قال : وروى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » . وفي الصحيحين ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » وقال عبد الله بن مسعود يجتمع الحرسان في صلاة الفجر فيصعد هؤلاء . وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية ، وروى ابن جرير ... عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول : من يستغفرني أغفر له ، من يسألني أعطيه ، من يدعني فأستجيب له حتى يطلع الفجر فلذلك يقول : ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ فيشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار .

٥ ـ أكثر العلماء ، على أن التهجد ما كان بعد نوم ، أما القيام فهو ما كان قبل نوم أو بعده ، وأكثر العلماء فهموا قوله تعالى : ﴿ **نافلة لك** ﴾ على أن قيام الليل واجب في حقه عليه الصلاة والسلام دون الأمة ، قال ابن كثير : رواه العوفي عن ابن عباس ، وهو

أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي رحمه الله اختاره ابن جرير ، وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوبَ التي عليه . قاله مجاهد وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

٦ ـــ رأينا أن تفسير المقام المحمود في قوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ أنه الشفاعة ، ولكون بعض الناس زلوا في هذا الموطن ، فإن ابن كثير ينقل في تأكيد هذا التفسير ، وتأييده ، حوالي أربعة صحائف من الأحاديث ، كلها تصب في تأكيد هذا المعنى ، حتى ليكاد يكون تفسير المقام المحمود بهذا المعنى مجمعاً عليه .

ومما قال : « حدثنا ابن بشار .... عن حذيفة قال : يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، حفاة عراة ، كما خلقوا قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى يا محمد فيقول : « لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت ، وعبدك بين يديك ، ومنك وإليك ، لا مَنْجىٰ ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت » فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل ، وقال ابن عباس هذا المقام المحمود مقام الشفاعة ، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وقاله الحسن البصري ، وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، راكباً إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فمنْ دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ، ليأتي بفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ، ثم نوحاً ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى فكلٌّ يقول : لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ ، فيقول : « أنا لها أنا لها » . ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته ، وأولهم إجازة على الصراط بأمته وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم .

وفي حديث الصور : إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته ، وهو أول داخل إليها ، وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم ،

وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة ، لا تليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك .

وبعد هذا الكلام يبدأ ابن كثير في سرد الأحاديث وإذ كان هذا الكتاب يكمله كتاب الأساس في السنة ، فلا نرى سرد كل ما ذكره وإنما نكتفي برواية واحدة :

قال ابن كثير ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ سئل عنها فقال : « هي الشفاعة » . رواه الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قال : « هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه » .

٧ ــ وعند قوله تعالى : ﴿ **وقل رب أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مخرج صدق** ﴾ قال ابن كثير: روى الإمام أحمد ... عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله ﴿ **وقل رب أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾ . وقال الترمذي: حسن صحيح ، وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه ، أو يطردوه ، أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة ، أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله عز وجل ﴿ **وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق** ﴾ . الآية وقال قتادة : ﴿ **وقل رب أدخلني مدخل صدق** ﴾ يعني المدينة ﴿ **وأخرجني مخرج صدق** ﴾ يعني مكة . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهذا القول هو أشهر الأقوال ، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ **أدخلني مدخل صدق** ﴾ يعني الموت ﴿ **وأخرجني مخرج صدق** ﴾ يعني الحياة بعد الموت ، وقيل غير ذلك من الأقوال . والأول أصح وهو اختيار ابن جرير .

٨ ــ وعند قوله تعالى : ﴿ **واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾ قال ابن كثير : قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس ، وعز فارس ، وليجعلنه له ، وملك الروم ، وعز الروم، وليجعلنه له » وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ علم أن لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله ، جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، فأكل شديدهم ضعيفهم . قال مجاهد : سلطاناً

نصيراً حجة بينة ، واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة وهو الأرجح ؛ لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه »

٩ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ يذكر ابن كثير حديثين أحدهما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود وهو : دخل النبي ﷺ مكة ، وحول البيت ستون وثلثمائة نُصُب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ . ﴿ **جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ . والثاني : رواه أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ وحول البيت ثلثمائة وستون صنماً يعبدون من دون الله ، فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها . وقال : ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ .

١٠ ــ وعند قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ يذكر ابن كثير سبب نزولها . ثم يذكر أقوال المفسرين في المراد في هذا المقام . ثم ينقل تحقيق السهيلي في الروح هل هي النفس أو غيرها ؟ أما أقوال المفسرين فيذكر أن منهم من ذهب بأن المراد في الآية أرواح بني آدم ، ومنهم من ذهب إلى أن المراد به جبريل . ثم ذكر قولاً ضعفه هو وما استدل عليه به ، وهو أن الروح ملك عظيم القدر . ثم يذكر أن السهيلي فسر قوله تعالى : ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ أي من شرعه ، أي فادخلوا فيه ، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة ، وإنما يقال من جهة الشرع . ثم قال : وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر .

أقول : إن هذا الذي سلكه السهيلي لا يفهم من المعنى الحرفي للآية ، ولكنه يفهم من السياق . فإذ ذكر الله أن القرآن شفاء ، ثم أتبعه بذكر الطبيعة الكافرة . ثم عقّبه بالسؤال عن الروح والجواب . فكأن في ذلك إشارة إلى أن أمر الروح لا يعلمه إلا الله ، ولا يعلم ما يصلحه إلا الله . ولنعد إلى كلام ابن كثير لننقل منه فقرتين . الأولى كلامه في أسباب نزول الآية . والثانية ما نقله عن السهيلي :

أ ــ قال ابن كثير في سبب نزول الآية :

روى الإمام أحمد .... عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة ، وهو متوكىء على عسيب (جريدة من النخل) فمر بقوم

من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لا تسألوه . قال: فسألوه عن الروح فقالوا: يامحمد، ما الروح ؟ فمازال متوكئاً على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه فقال : ﴿ **ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ . قال : فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه . وهكذا رواه البخاري ومسلم ... عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينا أنا مع النبيّ ﷺ في حرث ، وهو متوكيء على عسيب ، إذ مَرَّ اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال : مارَابَكم إليه ، وقال بعضهم : لا يستقبلنّكم بشيء تكرهونه . فقالوا: سلوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامي . فلما نزل الوحي قال: ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾ الآية وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي : أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأن تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه وهي هذه الآية ﴿ **ويسئلونك عن الروح** ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية . بمكة ما قال الإمام أحمد ... عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح . فنزلت : ﴿ **ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ . قالوا : أوتينا علماً كثيراً . أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً قال : وأنزل الله ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر** ﴾ الآية . وقد روى ابن جرير عن محمد بن المثنى ، عن عبد الأعلى عن داود عن عكرمة قال : سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح . فأنزل الله : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ الآية . فقالوا : تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً . وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ قال : فنزلت : ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر** ﴾ الآية ، قال ما أوتيتم من علم ، فنجاكم الله به من النار ، فهو كثير طيب ، وهو في علم الله قليل .

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ فلماهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة . أتاه أحبار

يهود ، وقالوا : يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿ **وما أوتيتم من العلم الا قليلاً** ﴾ أفَعَنَيتنا أم عنيت قومك . فقال : « كُلًّا قد عنيت » فقالوا : إنك تتلو أنا أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء . فقال رسول الله ﷺ : « هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم » . وأنزل الله ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ .

ب ــ قال ابن كثير :

ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها ، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء ، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر ، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن ، و اكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم ، فهي إما نفس مطمئنة ، أو أمّارة بالسوء ، قال : كما أن الماء هو حياة الشجر ، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها مُصْطارا[١] أو خمراً ، ولا يقال له « ماء » حينئذ إلا على سبيل المجاز ، وكذا لا يقال للنفس « روح » إلا على هذا النحو ، وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه ، فحاصل ما يقول : إن الروح هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ، ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه وهذا معنى حسن والله أعلم » .

وبعدُ : ذكرنا في سياق التفسير حكمة ورود آية ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ في المكان الذي جاءت به والآن نضيف بعد ما نقلنا تحقيق السهيلي الذي حبّذه ابن كثير :

١ ــ أن الروح تمرض ومرضها في أن تصاب بالحسد أو الكبر أو الحقد أو العُجْب أو غير ذلك من أمراض النفس ، وإذا مرضت فإنها تحتاج إلى دواء وطبيب ، وقد جعل الله الأدوية كلها في كتابه ﴿ **وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ...** ﴾ فالكلام عن الروح إذن مرتبط بالمرض والشفاء . ومن ثم جاءت في سياقها .

٢ ــ إن شقاء البشر يكمن في نفوسهم ، فبقدر ما تطمئن نفوسهم يسعدون . وبقدر ما تتهذب نفوسهم يسعد بعضهم بعضاً ، ولا تطمئن الأنفس وتتهذب إلا برحمة من الله وهذا القرآن رحمة ﴿ **وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ ومن ثم جاءت آية الروح بعد هذا السياق .

---

(١) ــ قال الأزهري : المصطار من أسماء الخمر التي اعتصرت من أبكار العنب بلغة أهل الشام .

٣ ـ توجيه السؤال عن الروح إلى الرسول ﷺ وأمر الرسول ﷺ بإحالة علمها إلى الله ، ثم مجيء قوله بعد ذلك ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك** ﴾ دليل على أن مقام محمد ﷺ هو العبودية ، وهو الذي بدأت به السورة ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده** ﴾ وأنه مبلغ ومأمور ، ووقّاف عندما يحده الله له ، وفي ذلك إقامة حجة على كفر من كفر بالقرآن .

فمجيء آية ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ في هذا السياق فيه من الحِكَم الكثير مما نعلم ومما لا نعلم .

كلمة في سياق سورة الإسراء :

تبدأ السورة بذكر آية الإسراء ، ثم تتحدث عن إيتاء موسى الكتاب .

ثم تتحدث عن عقوبة بني إسرائيل إذ انحرفوا عن الكتاب .

ثم تتحدث عن القرآن كنعمة ، وعن نعمة الليل والنهار ، ثم تأمر وتنهى .

ثم تناقش وتقيم الحجة . ثم تتحدث عن النعمة . ثمّ تحذّر وتأمر وتقيم الحجة .

فهي بين كلام عن النعمة المعنوية التي هي القرآن والنعمة المادية في هذا الكون وبين الكلام عن كفران هذه أو هذه . وهذا كله يفصل قوله تعالى : ﴿ **ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾

وهي تقيم الحجة مرة ومرة ومرة على أن هذا القرآن من عند الله ؛ فلها صلة بقوله تعالى : ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيِّنة** ﴾ فالقرآن هو الآية البينة التي لا تعدلها آية فإذا استحق بنو إسرائيل العقاب بالكفران فلتحذر هذه الأمة .

والسورة تأمر وتنهى وتوجه وتحذر وتضع الإنسان على الطريق المستقيم فهي تشق الطريق لعملية الدخول في الإسلام كله ، واجتناب خطوات الشيطان . إن السورة تذكّر الإنسان بكل لوازم الدخول في الإسلام كله ، والاستمرار عليه جميعه على مستوى الأمّة وعلى مستوى الفرد ، ولعلّ أبلغ شيء في الدلالة على ارتباط سورة الإسراء بمحورها مجيء قوله تعالى ﴿**وإن كادوا ليفتنونك ... ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً** ﴾ فالإسلام يجب أن يدخل فيه كله ولا يساوم على جز منه .

المقطع الرابع

ويمتد من الآية (٨٩) إلى نهاية الآية (١٠٠) وهذا هو :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا
﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ
كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ
مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ
قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ
جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ
مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ
سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

التفسير :

﴿ **ولقد صرَّفنا** ﴾ أي رَدَّدْنا وكَرّرنا ﴿ **للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أي من كل معنى هو كالمثل في الحسْن والتقريب والإقناع ، مبينين لهم الحجج والبراهين القاطعة ، موضِّحين لهم الحق ، ومبسِّطين لهم إياه بصيغة وبأخرى وبأخرى ، ومع هذا ﴿ **فأبىٰ أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾ أي جحوداً للحق ورداً للصواب ، الموضوع الواحد كُرِّر عليهم بشكل ثم بشكل ، وفي كل مَرّة تقوم الحجة ، وتتضح المحجة ، وينقطع الجدل بالحق الواضح ، ومع ذلك يقابل هذا كله بالجحود ، وبدلاً من الإسلام والاستسلام للحق الواضح يقترحون الآيات ، وماهم بمؤمنين ولو جاءت . ومن ثم عرض الله علينا في هذا السياق مااقترحه الكافرون - في زعمهم - ليؤمنوا ، بعد أن تبيّن إعجاز القرآن ، وانضمّت إليه معجزات كثيرة ، ولزمتهم الحجة ، وغلبوا فعل المبهوت المحجوج المتحير المتكبر ، يفر من حجة طالباً غيرها تعجيزاً ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُر لنا من الأرض ينبوعاً** ﴾ أي عيناً غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تنقطع ﴿ **أو تكونَ لك جَنّة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها** ﴾ أي وسطها ﴿ **تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً** ﴾ أي قطعاً ﴿ **أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً** ﴾ أي كفيلاً بما تقول ، شاهداً بصحته ، أو مقابلاً نراهم ليشهدوا لك ، أو جماعة ليشهدوا لك ، لم يكتفوا هنا بطلب الملائكة بل يطلبون رؤية الله والملائكة ، وأن يسمعوا شهادتهم وشهادته سبحانه وتعالى مباشرة ﴿ **أو يكون لك بيت من زخرف** ﴾ أي من ذهب ﴿ **أو ترقىٰ في السماء** ﴾ أي تصعد إليها ﴿ **ولن نُؤمن لرقِيّك** ﴾ أي ومجرد الصعود لا يكفي لإيماننا ، بل لابد من شيء آخر وهو : ﴿ **حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه** ﴾ أي كتاباً من السماء فيه تصديقك . قال مجاهد فيها : أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة (هذا كتاب من الله لفلان بن فلان) تصبح

عند رأسه . أرأيت نمط الذين يرفضون الاهتداء بهذا القرآن ماهو ؟ هل تشم منه رائحة منطق أو عقل أو رغبة في حق ، ومن ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ **قل سبحان ربي** ﴾ تعجباً من اقتراحاتهم ﴿ **هل كنت إلا بشراً رسولاً** ﴾ أي أنا رسول كسائر الرسل ، بشر مثلهم ، والرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله على أيديهم من المعجزات ، فليس أمر الآيات إليّ ، إنما هو إلى الله ، فما بالكم تطلبونها مني وتقترحونها عليّ . وقال ابن كثير في تفسير ما أمر الله رسوله ﷺ أن يقوله (أي سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعّال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ماسألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم ، أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله) .
وهكذا نرى أن الموانع من الدخول في الإسلام ليست لقصور الحجة ولا لسبب عقلي وإنما هي التعنُّت ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **ومامنع الناس** ﴾ أي أكثرهم ﴿ **أن يؤمنوا** ﴾ أي يصدقوا ويتابعوا الرسل ﴿ **إذ جاءهم الهدى** ﴾ هدى الله ﴿ **إلا أن قالوا أبَعَثَ الله بشراً رسولاً** ﴾ أي ومامنعهم من الإيمان بوحي الله ، ونبوة أنبيائه ، إلا شبهة أو عقدة تمكنت في صدورهم ، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر ، مع أن هذا لا ينبغي أن يكون مثار اشتباه أو اعتراض ، ومن ثَم نَبّه الله عز وجل على أنه من لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ؛ليفقهوا عنه ، ويفهموا منه ، ويقتدوا به ، ويتمكنوا من مخاطبته ومكالمته ، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لَما استطاعوا مواجهته ضمن قوانين هذا العالم التي جعلها الله هكذا لحكمة ، ولا الأخذ عنه ، ولكانت لهم حجة أن هذا ليس مثلنا ، وليس تركيبه كتركيبنا حتى يعالج مشكلاتنا ، أو نستطيع فعل مايفعل . قال تعالى : ﴿ **قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون** ﴾ أي على أقدامهم كما يمشي الإنس ، ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء ؛فيسمعوا من أهلها ، ويعلموا ما يجب علمه ﴿ **مطمئنين** ﴾ أي ساكنين في الأرض قارّين كما أنتم فيها ﴿ **لَنزَّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً** ﴾ أي من جنسهم ، أي يعلّمهم الخير ويهديهم إلى الرشد ، ولمّا كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة . دلّت الآية على أن سكان الأرض يحتاجون إلى الرسالة ، ويحتاجون إلى رسول من جنسهم ؛ به تقوم الحجة عليهم ، وبه يرتقون . تلك سنته وفيها غاية الحكمة . ثم هذا هو الواقع الذي ابتلى الله به عباده ، فليس لأحد إلا التسليم بعد العلم وقد وجد العلم ﴿ **قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم** ﴾ على أني رسوله ، وعلى أنّي بلّغت ما أرسلت به إليكم ، وأنكم كذبتم

وعاندتم ، ولو لم أكن رسوله لانتقم مني أشد الانتقام . فالتأييد الذي أنا فيه ، والقرآن الذي أنزله عليَّ دليل ﴿ **إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾ أي إنه كان بكل عباده المنذِرين والمنذَرين خبيراً أي عالماً بأحوالهم ، بصيراً بأفعالهم ؛ فهو مجازيهم بها ، أو إنه كان عليماً بالعباد علماً كاملاً منكشفاً فيه كل شيء ، مرئياً أصحابه ، ومن ثم فهو الأعلم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ، ممَّن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة ، وهذا قال : ﴿ **من يهد الله فهو المهتد** ﴾ أي من يوفّقه الله لقبول ما كان من الهدى فهو المهتدي عند الله ﴿ **ومن يضلل** ﴾ أي ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان ورفض الهدى ﴿ **فلن تجد هم أولياء** ﴾ أي أنصاراً ﴿ **من دونه** ﴾ والكافرون في صلفهم وغرورهم وكبريائهم مصرون على الكفر ، ومن ثم فهم لا يبالون ألا يهديهم الله ، ومن ثم ذكر الله في هذا المقام بما أعد لهم في الآخرة فقال : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم** ﴾ في الصحيحين ومسند الإمام أحمد : قيل يارسول الله : كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » . ﴿ **عُمياً** ﴾ أي لا يبصرون ﴿ **وبُكماً** ﴾ أي لا ينطقون ﴿ **وصُمّاً** ﴾ أي لا يسمعون . قال ابن كثير : وهذا يكون في حال دون حال جزاءً لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصمّاً عن الحق ، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج مايحتاجون إليه ﴿ **مأواهم جهنم** ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم إليها ﴿ **كُلَّمَا خَبَتْ** ﴾ أي طفيء لهبها . وقال ابن عباس : أي سكنت . ﴿ **زدناهم سعيراً** ﴾ أي توقُّداً ولهباً ووهجاً ﴿ **ذلك** ﴾ أي العذاب من حشرهم على العمى والبكم والصمم ودخول النار ﴿ **جزاؤهم بأنهم كفروا** ﴾ أي بسبب كفرهم ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي بأدلتنا وحجتنا واستبعادهم البعث ﴿ **وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً** ﴾ أي بالية نخرة ﴿ **أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً** ﴾ أي بعد ماصرنا إلى ماصرنا إليه من البلى والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ فاحتج تعالى عليهم ونبّههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك ﴿ **أوَلَمْ يروا** ﴾ أي أولم يعلموا ﴿ **أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ أي من الإنس ، أو يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى ﴿ **وجعل لهم أجلاً** ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدَّة مقدرة . لابد من انقضائها ، ومن ثم قال : ﴿ **لا ريب فيه فأبىٰ الظالمون** ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ **إلا كفوراً** ﴾ أي جحوداً مع وضوح الدليل ، وإلا تمادياً في باطلهم وضلالهم ، وإذا تذكرنا أن أول المقطع

﴿ **ولقد صرَّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾ وتذكرنا آخر آية مرت ﴿ **فأبى الظالمون إلا كفوراً** ﴾ علمنا أن الذين أبوا الاهتداء هم الظالمون ، وأنهم أكثر الناس ، ورأينا أن المقطع مرتبطة نهاياته ببداياته . والآن ولم يبق عندنا من هذا المقطع إلا آية .

فلنتذكر معانيه :

هذا القرآن فيه ماتقوم به الحجة ، ومع ذلك فإن أكثر الناس يظلمون ويكفرون ، ويظهر ظلمهم برفضهم الحجة ، وباقتراحاتهم المتعنِّتة التي ذكر الله نموذجاً عنها ، وأمر رسوله ﷺ أن يردَّ عليها :

بإعلانه أنّه بشر رسول ، إلا أن الله عز وجل ذكر أن هذا الإعلان لا ينفعهم ، مع أن في هذا الإعلان وحده حجة ، وسبب عدم انتفاعهم فيه أنهم - حتى في موضوع بشرية الرسول ﷺ - متعنتون ، ويعتبرون بشرية الرسول ﷺ دليلاً على بطلان الرسالة ، مع أنهم في هذا غير منطقيين مع عقولهم وغير حكماء ، وأمام هذا الوضع أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن كفاية شهادة الله على رسالته ، وأن الهدى هدى الله ، وأن الإضلال إضلاله ، وإذ كان هذا الإعلان كذلك لا ينفعهم ، ذكّرهم بالمصير الذي أمامهم ، الحشر على الوجوه وهم في حالة العمى والبكم والصمم ، ثم المقر النار بسبب كفرهم بالآيات - أي بالرسول الذي أنزل عليه الآيات - وبسبب كفرهم باليوم الآخر ، ثم أقام عليهم الحجة باليوم الآخر ، ومع هذا كله يقرر الله أن الظالمين يأبون إلا الكفور والجحود لنعم الله . والآن تأتي آية أخيرة بها يأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً فلنره ، ولنر محله في إقامة الحجة وحكمة وروده في هذا السياق :

﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي** ﴾ أي رزقه وسائر نعمه على خلقه ﴿ **إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾ أي لبخلتم خشية أن يفنيه الإنفاق ﴿ **وكان الإنسان قتوراً** ﴾ أي بخيلاً . والمعنى : قل يامحمد : لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية أن تذهبوها ، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً ، ولكن لأن التقتير من طباعكم وسجاياكم ، فإن من طبيعتكم البخل والمنع .

هذه آخر آية في المقطع ، فمامحلها في إقامة الحجة وماحكمة مجيئها هنا ؟

١ - الآية أضافت إلى صفة الكفر والظلم صفة أخرى للإنسان وهي البخل الذي هو في

غير محله . وفي هذا لفت نظر للإنسان : أنك أيها الإنسان كما أنك تبخل حيث لا ينبغي البخل ، فإنك تكفر وتظلم حيث لا ينبغي الكفر والظلم .

٢ - إن الله عز وجل من صفاته الكرم ، ومن كرمه أنه صرّف في هذا القرآن من كل مَثَل ، وأعطى محمداً ﷺ ماأعطى ، وإذ كانت من صفاتهم البخل لم يتصوروا كيف ينعم الله على محمد ﷺ بمثل هذا الإنعام والإكرام .

٣ - تذكيرهم ببخلهم في هذا المقام إنما هو في الوقت نفسه تذكير بكرم الله المطلق الذي ينبغي أن يقابَل بالشكر ، وإذا بهم يقابلونه بالكفر والظلم ، كما أنّه تذكير لهم بحاجتهم إلى هداية الله ، كيف وهذه طبيعتهم ، وفي الآية مثل ، وفي ماسبقها مثل وذلك مناسب لختم المقطع الذي بدايته : ﴿ **ولقد صرَّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾ لقد ختم المقطع بالتمثيل لما في هذا القرآن من أمثال .

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه قد مر معنا في السورة مقطعان ، كل منهما مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **ولقد صرَّفنا** ﴾ الأول ﴿ **ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم إلا نفوراً** ﴾ والثاني ﴿ **ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مَثل فأبىٰ أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾ ونلاحظ أن المقطع الأول أقام الحجة على التوحيد واليوم الآخر . وهذا المقطع أقام الحجة على الإيمان بالرسول ﷺ واليوم الآخر ، وذكر هنا زيادة تفصيل عن حالهم عند الحشر وما هو عذابهم ، بينما هناك اكتفى بإقامة الحجة وتقرير الوقوع .

هناك قال ﴿ **وقالوا أئذا كُنَّا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً** ﴾ وههنا قال : ﴿ **ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً** ﴾ ومن ثم نجد نموذجاً على التصريف الموجود في هذا القرآن ، ونجد نموذجاً على وحدة السياق ضمن السورة الواحدة ؛ إذ يخدم كل جزء فيها بقية الأجزاء ، ونلاحظ أن بين هذين المقطعين :

وجد المقطع المبدوء بقوله تعالى : ﴿ **ولقد كَرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم** ﴾ وهذا المقطع ينتهي بقوله تعالى : ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾ والمقطع الموجود في الوسط يتحدث عن مواقف

للكافرين ، وهذا المقطع الأخير يتحدث عن مواقف للكافرين ، وفي ذلك كله تظهر وحدة السورة ، وترابط آياتها وتكاملها . وفي المقطع الوسط يقول تعالى : ﴿ **ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً** ﴾ وفي هذا المقطع تبيان للحال الذي يكونون فيه عمياً وأضل سبيلاً ، وذلك حين الحشر حيث العمى والبكم والصمم والسير على الوجوه ، فأي عمى وضلال أفظع من هذا ؟ نسأل الله العافية . فالسورة إذن كما قلنا يخدم بعضها بعضاً ووحدتها ظاهرة ، ولكنها وحدة لا يحيط بكل أسرار الربط فيها إلا منزلها . فإذا كانت الإحاطة هذا حالها فكيف يستطيع بشر أن يأتي بمثل هذا القرآن ؟؟ اللهم اشهد أننا نؤمن أن هذا الكتاب كتابك ، فاختم لنا بالعفو والعافية والإيمان .

إذا اتضح هذا فلنتساءل عن محل المقطع في السياق القرآني العام :

إن المقطع يذكّر بنعمة الله على الإنسان بهذا القرآن ، وكونه على ماهو عليه من التصريف من كل مَثَل ، وكيف أن هذه النعمة يستقبلها أكثر الناس بالكفر والظلم ، واستحقاقهم الجزاء العادل في الآخرة بسبب ذلك ، وفي ذلك تعميق للدخول في الإسلام كله ، واجتناب خطوات الشيطان ، وكل هذه المعاني تفصيل لمحور هذه السورة في البقرة . والآن يأتي مقطع جديد هو الذي يظهر فيه بشكل أوضح سر ارتباط السورة بمحورها من سورة البقرة ، وقبل أن نعرضه نحب أن نذكر فائدة لها علاقة بالمقطع السابق .

فائدة :

في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُر لنا من الأرض ينبوعاً** ﴾ يذكر ابن كثير ماروواه ابن جرير عن ابن إسحق . قال : حدثني شيخ من أهل مصر ، قدم منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلاً من بني عبد الدار ، وأبا البختري أخا بني أسد ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبدالله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونُبَيْهاً ومُنَبّها ابني الحجاج السهميين ، اجتمعوا ، أو مَن اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ،

فبعثوا إليه : أنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا : يامحمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله مانعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعِبْت الدّين ، وسفّهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرّقت الجماعة ، فما بقي من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا ، سوّدناك علينا ، وإن كنت تريد مُلكاً ، مَلكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن : الرئي - فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا في طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نُعذر فيك . فقال رسول الله ﷺ : مابي ماتقولون . ماجئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ماجئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ ، أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم » . أو كما قال رسول الله ﷺ فقالوا : يامحمد ، فإن كنت غير قابل منا ماعرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً ، ولا أقل مالاً ، ولا أشد عيشاً منا ، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسيرٍّ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول ، حقٌّ هو أم باطل ؟ فإن صنعت ماسألناك ، وصدّقوك صدّقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول ! فقال لهم رسول الله ﷺ : « مابهذا بعثت ! إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به ، فقد بلَّغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم » قالوا : فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك ، فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي

يسأل ربه هذا ، ومابعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ ، أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم » قالوا : فأسقط السماء ، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك ؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ذلك إلى الله ، إن شاء فعل بكم ذلك » فقالوا : يامحمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك مانطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ماهو صانع في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلّمك هذا رجل باليمامة ، يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يامحمدٌ ، أما والله لا نتركك ومافعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً . فلما قالوا ذلك ، قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبدالمطلب ، فقال : يامحمد عرض عليك قومك ماعرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل لهم ماتخوّفهم به من العذاب ، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترق به ، وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتي معك بصحيفة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة ، يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله ، لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك ؛ ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً ، لِمَا فاته ممّا كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه . قال ابن كثير : وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له ، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً ، فقيل لرسول الله ﷺ إن شئت أعطيناهم ماسألوا ، فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحتُ عليهم باب التوبة والرحمة . فقال : بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة ، كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس ، والزبير بن العوام ، أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون** .. ﴾ .

وبعد كلام قال :

وأما نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين ، فسأل إنظارهم وتأجيلهم ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده ، لا يشرك به شيئاً ، وكذلك وقع ، فإن من هؤلاء

الذين ذكروا مَن أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، حتى عبد الله بن أبي أمية ، الذي تبع النبي ﷺ وقال له ماقال ، أسلم إسلاماً تاماً ، وأناب إلى الله عز وجل .

ثم بعد كلام ذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « عرض عليّ ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جُعْت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » .



المقطع الخامس

ويمتد من الآية (١٠١) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (١١١) وهذا هو :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ
لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا
﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا
مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا
﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا
فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ
أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ
وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ۩ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ
ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

بين يدي المقطع :

لو عدنا إلى المقطع الأول في هذه السورة ، وإلى مقدمة السورة ، لوجدنا أنه قد جاء فيهما مايلي : ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً** ﴾ ثمّ جاء بعد ذلك كلام عن نوح عليه السلام ،وعن بني إسرائيل ، ثم جاءت المجموعة الثانية هناك وبدايتها :

﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ وهذا المقطع تجد فيه مجموعتين الأولى وبدايتها : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ والثانية وبدايتها ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل** ﴾ وهكذا تجد في كلا المقطعين كلاماً عن بني إسرائيل ، وما أنزل عليهم ، يعقبه كلام عن القرآن ، وفي المقطع الأول كلام عن انحراف بني إسرائيل ، وماعوقبوا به ، وههنا كلام عن موقف فرعون من موسى عليه السلام ،وما عوقب به ، فتذكّر محور السورة في سورة البقرة : ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ . والملاحظ أنه في المجموعة الأولى من المقطع الأخير جاء نفس التعبير تقريباً :

﴿ **فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم** ﴾ . لقد أنزل الله وحياً على بني إسرائيل ، وهو آية بل آيات ، فبدّلوا وغيّروا ؛ فعاقبهم الله عقاباً شديداً ، وقد أنزل الله على موسى عليه السلام ، وبني إسرائيل آيات ، وهي نعمة كفر بها فرعون ؛ فعوقب عقاباً شديداً ، إن صلة ذلك بمحور السورة شديد الوضوح .

وقد جاءت آية المحور في سياق قوله تعالى ﴿ **يأأيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات** ﴾ ومن ثمّ نجد سورة بني إسرائيل تحدثنا كثيراً عن القرآن والبينات التي جاءت فيه ، مبينة لنا ضرورة الاهتداء بالقرآن ، محذّرة لنا من كيد الشيطان ﴿ **لأحتنِكَنَّ ذريته إلا قليلاً** ﴾ فهي تدعونا إلى الدخول في الإسلام ، وإلى ترك اتباع خطوات الشيطان ، مبّينة لنا النعمة في هذا القرآن ، محذّرة لنا أن نبدّل نعمة الله كفراً ، منذرة لنا إن فعلنا ذلك ، وكل ذلك له صلة بمحور السورة من سورة البقرة ، ومن ثَمّ نجد هذا المقطع يتألف من مجموعتين : مجموعة تتحدث عما أنزل الله على موسى عليه السلام ، ومجموعة تتحدث عن هذا القرآن :

تفسير المجموعة الأولى من المقطع الخامس

﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ أي دلائل قاطعات على صحة نبوته وصدقه ، فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة : هي يده ، وعصاه ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . قال ابن كثير : وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي وذكر أقوالاً أخرى في هذا المقام . ﴿ **فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم** ﴾ أي فاسأل بني إسرائيل حين جاءهم ، وليس الرسول ﷺ بحاجة إلى السؤال والله يعلّمه ، ولكن للإشارة أن هذه القضية معلومة لبني إسرائيل ، وأن هذه الآيات ظهرت على يد موسى عليه السلام ، حين جاءهم موسى وهم في مصر . فماذا كان موقف فرعون من هذا ؟ ﴿ **فقال له فرعون** ﴾ مع كل هذه الآيات ومشاهدته لها ﴿ **إني لأظنك ياموسى مسحوراً** ﴾ أي سُحرت فخولط عقلك ، أو المراد بالمسحور هنا الساحر ﴿ **قال** ﴾ أي موسى عليه السلام ، ﴿ **لقد علمت** ﴾ يافرعون ﴿ **ماأنزل هؤلاء** ﴾ أي الآيات ﴿ **إلا رب السمٰوات والأرض** ﴾ أي خالقهما ﴿ **بصائر** ﴾ أي حججاً وأدلة ، يرى بها الناس ، وترى بها صدق ماجئتك به ، وأنت تعلم ذلك ، ولكنك معاند ﴿ **وإني لأظنك يافرعون مثبوراً** ﴾ أي هالكاً . وفي هذا المقام كلام سنذكره في الفوائد ﴿ **فأراد أن يستفِزَّهم من الأرض** ﴾ بقتلهم واستئصالهم ، وأصل الاستفزاز من الأرض الإخراج ، والقتل خروج كامل للروح من الأرض ﴿ **فأغرقناه ومن معه جميعاً** ﴾ في البحر ، دلّ ذلك عن أنّ إرادته استفزازهم إنما كان عند لحوقه إياهم ، ولم يكن يريد وقت ذلك إلا

قتلهم ﴿ **وقلنا من بعده** ﴾ هل هي من بعد فرعون ؟ أو من بعد موسى ؟ يحتمل هذا وهذا ﴿ **لبني إسرائيل اسكنوا الأرض** ﴾ السياق يقتضي كل الأرض ؛ لأن فرعون أراد استفزازهم من كل الأرض بقتلهم ، وهذا يشمل سكناهم في فلسطين ، ثم سكناهم في الأرض كلها بعد تشتتهم ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة** ﴾ هل المراد بها هنا القيامة ؟ أو المراد بها المرة الآخرة في الإفساد التي ذكرت في أول السورة بقوله تعالى ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم** ﴾ ؟ تحتمل هذه وهذه ﴿ **جئنا بكم لفيفاً** ﴾ أي جميعاً إلى الحشر ، أو إلى فلسطين ليقع عليكم قضاء الله وقدره في الذبحة الثانية . الآية تحتمل هذا وتحتمل هذا .

هذه المجموعة الأولى من المقطع الخامس من هذه السورة . وقد آن أن نقف وقفة طويلة عند السياق بمناسبته :

كلمة حول المقطع وسياقه :

١ - رأينا أن محور سورة الإسراء هو قوله تعالى : ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ وقد جاء في هذا المقطع من سورة الإسراء قوله تعالى ﴿ **فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم** ﴾ وذكر الله الآيات . فهذه المجموعة إذن تفصيل لذلك المقام . وفي أول السورة ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب** ﴾ وهي المجموعة التي تحدثت عن عقوبتين لبني إسرائيل ؛ لأنهم بدّلوا نعمة الله . وجاءت هذه المجموعة في أواخر السورة وفيها حديث عن موسى وفرعون وبني إسرائيل ، وجاء فيما بين ذلك كلام عن القرآن النعمة العظمى على البشرية . وفي ذلك تنبيه لهذه الأمة ، وأخذ عبرة ، إذ عرضت المعاني بين مجموعتين من الآيات فيهما كلام عن بني إسرائيل ، وعن موسى عليه السلام وفرعون ، وذكرت المجموعتان ماعوقب به فرعون إذ رفض ، وما عوقب به بنو إسرائيل إذ انحرفوا . فياهذه الأمة لا تقفي من القرآن كفرعون إذ رفض ، ولاتكوني كبني إسرائيل إذ انحرفوا ، بل عليك بالإسلام الكامل الشامل .

٢ - ماالحكمة في تأخير هذه المجموعة إلى نهاية السورة تقريباً ؟

إن المجموعة - بهذا التأخير - قد خدمت مقاطع السورة كلها فهي خدمت المقطع السابق عليها ، إذ بينت أن فرعون قد أُري أمثال الآيات التي اقترحها المشركون على

محمد ﷺ ، ومع ذلك لم تنفعه .

وخدمت المقطع الذي قبله والذي فيه ﴿ **وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً** ﴾ إذ ضربت مثلاً في إهلاك من يستفز الأنبياء ﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض فأهلكناه ومن معه جميعاً** ﴾ بل هي فسّرت الآية الأولى : إذ الاستفزاز هنا هو القتل ، فصار معنى تلك الآية : وإنهم كادوا ليقتلونك ليخرجوك من الأرض ، وإذن يستأصلهم الله بعدك لو فعلوا . وبهذا التفسير نخرج من أي إشكال يُثار كيف أخرج رسول الله ﷺ من مكة ثم لم يستأصلوا ، ولقد أجبنا على هذا الإشكال من قبل .

٣ - من خلال الكلام على بني إسرائيل في أول السورة وهنا ، ندرك مضمون السورة : بعث موسى عليه السلام بالآيات ، فقابله فرعون بالجحود والظلم والرغبة في الاستئصال فهلك . وقبل بنو إسرائيل الهدى فانحرفوا وأفسدوا فعوقبوا . وهذا محمد ﷺ عبدالله ورسوله الذي أكرمه الله بالإسراء وأنزل عليه القرآن . الناس من دعوته أحد اثنين : إما معرض محارب ، ومصيره مصير فرعون ، وإما مستجيب فعليه أن يأخذ كل الكتاب بقوة ، وإلا فمصيره مصير بني إسرائيل في التسليط عليه ، فإذا اتضح هذا ، يتضح معنا كيف أن السورة تفصّل محورها من سورة البقرة وهو : ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة** ﴾ فكفر بها فرعون فأهلك ﴿ **ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته** ﴾ كما فعل بنو إسرائيل إذ جاءتهم البينات من معجزات وتوراة ﴿ **فإن الله شديد العقاب** ﴾ في الدنيا والآخرة .

هذه الآية تخدم الأمر بالدخول في الإسلام كله ، واجتناب خطوات الشيطان . وهذه السورة تحذّر المسلمين من اتباع خطوات الشيطان ، وتأمرهم بالإسلام والقرآن كله ، وإذ كان الهدف هو الدخول في الإسلام كله بالالتزام بالقرآن كله ، والإيمان برسول الله ﷺ ، وذلك مقتضى معرفة الله ، ومقتضى شكره .

فقد ختمت السورة بمجموعة تضمنت هذه المعاني وأمثالها وهذا تفسيرها :

المجموعة الثانية من المقطع الخامس

﴿ **وبالحق أنزلناه** ﴾ أي وما أنزلنا هذا القرآن إلا بالحق فهو حق خالص بيّن، ويدعو إلى الحق ، ويشتمل على الحق في كل أمر ﴿ **وبالحق نـزل** ﴾ قال ابن كثير : أي ونزل إليك يامحمد محفوظاً محروساً لم يُشَب بغيره ، ولا زيد فيه ولا نقص منه ، بل

وصل إليك بالحق ، فإنه نزل به شديد القوى ، الأمين المكين ، المطاع في الملأ الأعلى . وفي الآية كلام سنجده في الفوائد ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً** ﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين بالجنة ، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين بالنار ﴿ **وقرآناً فَرَقْناه** ﴾ أي فصّلناه ، أو فرقنا فيه الحق من الباطل ، أو فَصَلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرّقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، ولهذا قال : ﴿ **لتقرأه على الناس** ﴾ أي لتبلّغه للناس وتتلوه عليهم ﴿ **على مكث** ﴾ أي على مهل وتؤدة وتثبُّت ﴿ **ونـزَّلناه تنزيلاً** ﴾ أي شيئاً بعد شيء على حسب الحوادث ، فذلك أقوى في فهمه والعمل به .

وإذ تقرر أن هذا القرآن حق خالص وأن من حكمة الله إنزاله مفرقاً منجماً ، يأمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يقول ثلاثة أقوال :

١ - ﴿ **قل آمنوا به أو لا تؤمنوا** ﴾ أي اختاروا الإيمان ومايترتب عليه ، أو غيره ومايترتب عليه ، فإيمانكم ينفعكم ، وكفركم لا يضره ، ويضركم ، فسواء آمنتم به أم لا ، فهو حق في نفسه ، أنزله الله ، ونوّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله ، ومن ثم ذكر عن العلماء بالكتب السابقة كيف يكون موقفهم منه وهو الموقف الإيماني الصحيح ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله** ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب ، الذين تمسّكوا بكتابهم ، ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرّفوه ﴿ **إذا يُتلىٰ عليهم** ﴾ أي القرآن ﴿ **يخرُّون للأذقان سجّداً** ﴾ الخرور : السقوط ، والذقن : أسفل الوجه ، وخُصت الذقن بالذكر ، لأن أقرب الأشياء عند الخرور إلى الأرض للسجود الذقن ﴿ **ويقولون سبحان ربنا** ﴾ أي تعظيماً له وتوقيراً على قدرته التامة ﴿ **إنْ كان وَعْد ربنا لمفعولاً** ﴾ أي إنه كان وعد ربنا على ألسنة الأنبياء المتقدمين لمفعولاً ﴿ **ويخرُّون للأذقان يبكون** ﴾ أي خضوعاً لله عز وجل ، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ﴿ **ويزيدهم** ﴾ أي القرآن ﴿ **خشوعاً** ﴾ أي إيماناً وتسليماً ، ولين قلب ورطوبة عين . هذه هي حال أهل الإيمان من هذا الكتاب : خضوع وخشوع وتسليم وإيمان ويقين ، فليت شعري كيف صار الحال من بعد ؟ تمرد واحتقار وازدراء ، وكم نستأهل من العقاب ؟

٢ - ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن** ﴾ الدعاء هنا بمعنى التسمية ﴿ **أيّاً ما تدعوا** ﴾ أي أيّ هذين الاسمين ذكرتم وسميتم فلا فرق إذ ﴿ **فله الأسماء الحسنى** ﴾ أي فإنه ذو الأسماء الحسنىٰ ، أي ماتدعون به من الاسمين فهو حسن ، لأن كل الأسماء الحسنى له ،

فإذا حسنت أسماؤه كلها ، حسن هذان الاسمان لأنهما منها ، والحسنى : تأنيث الأحسن ، ومعنى كون أسمائه أحسن الأسماء : أنها مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ حتى لا يسمعها المشركون فيسبّوا ﴿ **ولا تخافت بها** ﴾ بحيث لا تُسمع مَن خلفك ﴿ **وابتغ بين ذلك** ﴾ أي بين الجهر والمخافتة ﴿ **سبيلاً** ﴾ وسطاً ، وفي الآية كلام كثير سنراه في الفوائد ، والآية تعلّم حملةَ الحق ألا يُبقوا حجة للكافرين إلا ويقابلوها بتصرف مناسب ، وأن يحسنوا الأداء ، بما يستمر به نفع المسلمين ، وتخفيف شر الكافرين .

ثم لما أثبت الله تعالى لذاته الأسماء الحسنى ، ختم السورة بالأمر بحمده وتنزيهه وتعظيمه في آية سماها رسول الله ﷺ آية العز :

٣ - ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً** ﴾ كما زعم اليهود والنصارى وغيرهم ﴿ **ولم يكن له شريك في الملك** ﴾ كما زعم المشركون ﴿ **ولم يكن له وليٌّ من الذُّلِّ** ﴾ أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر ، أو يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته ﴿ **وكبِّره تكبيراً** ﴾ أي وعَظِّمه تعظيماً باتباع شرعه ، والخضوع لأحكامه، والقيام بواجب العبودية له .

وهكذا ختمت السورة بمجموعة تقرّر فيها أن القرآن حق ، وأن الموقف الصحيح منه هو الخشوع والخضوع والتسليم ، وأن لله الأسماء الحسنى ، وأنّه تقدّس عن النقائص ، وإذ كان كذلك فإن الالتزام بشرعه لصالح الملتزم .

ولنلاحظ أن السورة بدأت بالتسبيح ، واختتمت بالحمد ، وأن السورة التي بعدها مبدوءة بالحمد ، فكأنها استمرار لسورة الإسراء .

والصلة بين هذا المقطع ، وبقية السورة واضحة ، والصلة بين المقطع والدخول في الإسلام كله واضحة . إنّ في الترغيب ؛ إذ وصف القرآن بالحق ، أو بالتذكير بالموقف الصحيح من القرآن ، أو بالتذكير بما لله من جلال وكمال ، أو بالأمر بتطبيق عملي هو جزء من الإسلام ، فلنر فوائد المقطع الخامس ثم نختم الكلام عن السورة بكلمة عنها .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ..** ﴾ ذكر ابن كثير أقوال الأئمة في تفسير التسع آيات ، وقد ذكرنا الرأي الذي يرجحه في صلب التفسير

قال : فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا ، وهي المعيّنة في قوله تعالى : ﴿ **وألق عصاك فلما رآها تهتزُّ كأنها جانٌّ ولى مدبراً ولم يعقب ياموسى لا تخف** ﴾- إلى قوله - ﴿ **في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ (النحل : ١٠ - ١٢) فذكر هاتين الآيتين العصا واليد ، وبيّن الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصّلها ، وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وإنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك مما أوتيه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر ههنا التسع آيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم ، فخالفوها ، وعاندوها ؛ كفراً وجحوداً . روى الإمام أحمد .. عن صفوان بن عسّال المرادي رضي الله عنه قال : قال يهودي لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ فقال : لاتقل له نبي ، فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين ، فسألاه فقال النبي ﷺ : « لاتشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة - أو قال لا تفروا من الزحف شعبة الشاك - وأنتم يايهود عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت » فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبي قال : « فما يمنعكم أن تتبعاني ؟ » قالا : لأن داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود . وهو حديث مشكل ، وعبدالله بن سلمة في حفظه شيء ، وقد تكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات ، فإنها وصايا في التوراة ، لا تعلّق لها بقيام الحجة على فرعون والله أعلم .

ثم بعد كلام قال : وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه ، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون ؟ وما جاءهم هذا الوهم إلا من قِبَل عبدالله بن سلمة ، فإن له بعض ماينكر والله أعلم ، ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات ، فاشتبه على الراوي الآيات ، فحصل وَهْم في ذلك ، والله أعلم .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزَّلناه تنزيلاً** ﴾ قال صاحب الظلال :

(لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة . ويقيم لها نظاماً ، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى . والتربية تتم في الزمن الطويل ، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل . جاء ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الإعداد ، لا فقهاً نظرياً ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني .

وتلك حكمة نزوله متفرقاً....

ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى . تلقوه توجيهاً يطبق في واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهي ، وكلما تلقوا منه أدباً أو فريضة . ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ؛ ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير . فتكيَّفوا به في حياتهم اليومية . تكيَّفوا به في مشاعرهم وضمائرهم ،وفي سلوكهم ونشاطهم . وفي بيوتهم ومعاشهم . فكان منهج حياتهم الذي طرحوا كل ماعداه مما ورثوه ، ومما عرفوه ، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ولقد أنزل الله هذا القرآن قائماً على الحق : ﴿ **وبالحق أنزلناه** ﴾ فنزل ليقر الحق في الأرض ويثبته : ﴿ **وبالحق نزل** ﴾ فالحق مادته ، والحق غايته . ومن الحق قوامه ، وبالحق اهتمامه . الحق الأصيل الثابت في ناموس الوجود والذي خلق الله السموات والأرض قائمين به ، متلبساً بهما ، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله ، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه . فالحق سداه ولُحمته ، والحق مادته وغايته . والرسول مبشر ومنذر بهذا الحق الذى جاء به) .

٣ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ماتدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ يذكر ابن كثير مارواه مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده : « يارحمن يارحيم » فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية .

وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك**

سبيلاً ﴾ يروي الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ في مكة ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، وسبوا من أنزله ، ومن جاء به ، قال : فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ **ولا تخافت بها** ﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ **وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾ . فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك يفعل أيّ ذلك شاء .

وقال محمد بن إسحق : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرّقوا عنه ، وأبوا أن يسمعوا منه ، فكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض مايتلوه وهو يصلي استرق السمع دونهم ؛ فرقاً منهم ، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ، ذهب خشية أذاهم فلم يسمع ، فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً ، فأنزل الله ﴿ **ولا تجهر بصلاتك** ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿ **ولا تخافت بها** ﴾ فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم ، فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به ﴿ **وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾ .

وروى ابن جرير بسنده عن ابن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، فقيل لأبي بكر : لَم تصنع هذا ؟ قال : أناجي ربي عز وجل ، وقد علم حاجتي ، فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لَم تصنع هذا ؟ قال أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، قيل : أحسنت فلما نزلت ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾ . قيل لأبي بكر ارفع شيئاً ، وقيل لعمر اخفض شيئاً .

وفي الآية أقوال أخرى :

بعضهم قال إنها نزلت في الدعاء ، وبعضهم قال : إنها في التشهد ، وبعضهم قال معناه : لاتصل مراءاة للناس ، ولا تدعها مخافة الناس ، وبعضهم قال : لا تحسن علانيتها وتسيء سريرتها ، وبعضهم قال : لا تجهر بالصلاة مثل أهل الكتاب إذ يخافتون ، ثم يصيح أحدهم فيصيحون ، ثم يعودون إلى المخافتة .

أقول : والآية تربي المسلمين على ملاحقة الشبهة والتصرف حيالها ، كما تربيهم على حسن التطبيق بما يناسب الحال .

٤ - وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يَتّخذ ولداً ..** ﴾ قال ابن كثير ناقلاً عن القرظي : إن اليهود والنّصارى قالوا : اتخذ الله ولداً ، وقالت العرب : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، وقال الصابئون : لولا أولياء الله لذلّ فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل وكبِّره تكبيراً** ﴾ وفي فضل هذه الآية نقل ابن جرير عن قتادة قال : « ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلّم أهله هذه الآية ﴿ **الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ..** ﴾ الآية الصغيرَ من أهله والكبير » قال ابن كثير : « وقد جاء في حديث أنّ رسول الله ﷺ سمّى هذه الآية آية العزّ ، وفي بعض الآثار أنها ماقرئت في بيت ليلة فيصيبه سرق أو آفة والله أعلم » .

كلمة في سورة الإسراء :

هذه السورة تربي أمة ، وتعطي العبرة من أمة ، وتتحدث عن قبلتين للأمة التي ورثت القبلتين ببركة بعثة محمد ﷺ .

تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ .

هذه المقدمة سارية المعنى في السورة كلها ، فالإيمان بعبد الله محمد ﷺ وبما أُنزل عليه ، والالتزام به ، والاعتراف لله تعالى بالعبودية الكاملة ، والكلام عَمّن أعطوا المسجد الأقصى قديماً فأفسدوا وطغوا وعاقبة ذلك . وتنزيه الله عز وجل عما يقوله الكافرون والمشركون ، وتنزيه الله عز وجل بالسلوك العملي للمسلم ، كلها معان يجدها الإنسان في السورة .

وإذ تبدأ السورة هذه البداية ثم تجد فيها أوامر كثيرة موجّهة إلى رسول الله - عبدالله حقاً - ﷺ تستشعر أن تنفيذ هذه الأوامر هو الشكر الذي يقابل النعمة العظيمة ولذا ترى أنّ آخر آية في السورة تقول : ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل وكبِّره تكبيراً** ﴾ فكل خطاب لرسول الله ﷺ في السورة إنما هو تحقيق لمقام العبودية وأداء لواجب الشكر .

ثم تقول السورة : ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً * ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً * وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب** ﴾ .

أنزل الله كتاباً على موسى عليه السلام ، جعل فيه الهدى ، وطالب بني إسرائيل بالشكر ، فأفسدوا فسلّط عليهم ، فياهذه الأمة : لقد أنزل الله عليك الكتاب ، وجعله هادياً ، فإياك أن تنحرفي . هذا هو الدرس الأول .

وإذ يستقر هذا فإن الله عز وجل يحدّث هذه الأمة عن خصائص كتابه :

﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ..** ﴾
﴿ **ولقد صرَّفنا في هذا القرآن ليذكّروا ..** ﴾ .
﴿ **ولقد صرَّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ..** ﴾ .
﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ..** ﴾ .

فهذه خصائص للقرآن ، يتحدث عنها السياق ، وفي كل مرة يتحدث عن خصيصة من خصائص القرآن نجد أن السياق يبرهن عملياً على وجود هذه الخصيصة .

فالبشرية عامة ، والعرب خاصة ، تمت عليهم بمحمّد ﷺ وبالقرآن النعمة . فالناس قسمان : إما مستجيب ، وإما رافض . أما الرافض فإقامة حجة عليه ، وإنذار له ، ومناقشة لكل كلمة يقولها ، وأما المستجيب فتربية له ، وتوجيه مباشر وغير مباشر . والضالون نوعان : منحرف ، ورافض ، وفي السورة درسان : درس للمنحرف ، ودرس للرافض .

وما بينهما كلام لهذه الأمة عن خصائص القرآن ، ومناقشة للمواقف منه في ظلال الدرسين ، وكل ذلك يخدم موضوع الدخول في الإسلام كله ، وترك اتباع خطوات الشيطان ، إما بشكل مباشر ، وإما بشكل غير مباشر . وأهم مايخدم موضوع الدخول في الإسلام كله بشكل مباشر الآيات ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ..** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً** ﴾ .

ومن أهم الملاحظات أن نلاحظ أن سورة الإسراء انتهت بقوله تعالى : ﴿ **وقل**

الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذّل وكبّره تكبيراً ﴾ وأن السورة التي تأتي بعدها وهي سورة الكهف تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ..** ﴾ فإنك تلاحظ أن سورة الكهف تبدأ بذكر الحمد ، وتبدأ بمعان موجودة في الآية الأخيرة من سورة الإسراء ، فهي تبني على سورة الإسراء ، وكلا السورتين مذكور في الآية الأولى منها كلمة « عبده » .

فالسورتان ، وسورة مريم بعدهما ، وسورة النحل ، والحجر قبلهما ، تشكل مجموعة واحدة تخدم معنى متكاملاً .

وبعد : فإننا نترك سورة الإسراء ولم نشعر أننا بلغنا إلى مانريد من عرض لوحدة سياقها ، وصلة مقدمتها بخاتمتها ، كما لم نبلغ إلى مانريد في تبيان صلتها بمحورها من سورة البقرة غير أننا نحسب أنه قد وضح أن في السورة ذكراً لنعم الله المادية والمعنوية ، وتهديداً لمن لم يشكر ، وتهديداً لمن بدّل وغيّر وانحرف . كما وضح أن في السورة عرضاً لما أنزل على بني إسرائيل ، وكيف عوقب من كفر هذه النعمة وبدّلها . كما وضح أنّ في السورة توضيحاً لخطوات الشيطان التي ينبغي ألا تُسلَك . كما وضحت ضرورة الالتزام بالقرآن كله ، فإذا كانت هذه الأمور قد وضحت ، فحسبنا هي في إقامة الدليل على أن هذه السورة مرتبطة بالمحور الذي ذكرناه من سورة البقرة ، وقد آن الأوان لننتقل إلى سورة الكهف :

سورة الكهف

وهي السورة الثامنة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الثانية من قسم المئين
وآياتها مائة وعشرة آيات
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة الكهف :

(ويقال سورة أصحاب الكهف كما في حديث أخرجه ابن مردويه وهي مكية كلها في المشهور ، واختاره الداني ، وروي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما ، وعدّها بعضهم من السور التي نزلت جملة ؛ لما أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي ﷺ قال : « نزلت سورة الكهف جملة ، معها سبعون ألفاً من الملائكة » ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مكية إلا قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ إلى آخرها فمدني ، وهي مائة وإحدىٰ عشرة آية عند البصريين ، ومائة وعشرة عند الكوفيين ، ومائة وست عند الشاميين ، ومائة وخمس عند الحجازيين ، ووجه مناسبة وضعها بعد الإسراء على ماقيل : افتتاح تلك بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترنان في الميزان وسائر الكلام نحو ﴿ **فسبح بحمد ربك** ﴾ فسبحان الله وبحمده ، وأيضاً تشابه اختتام تلك ، وافتتاح هذه ، فإن في كل منهما حمداً ، نعم فرق بينهما بأن الحمد الأول ظاهر في الحمد الذاتي ، والحمد المفتتح به في هذه يدل على الاستحقاق غير الذاتي ، وقال الجلال السيوطي في ذلك : إن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء : عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذي القرنين ، وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر السورة الأولىٰ ، وجواب السؤالين الآخرين في هذه ، فناسب اتصالهما ، ولم تجمع الأجوبة الثلاثة في سورة لأنه لم يقع الجواب عن الأول بالبيان ، فناسب أن يذكر وحده في سورة ، واختيرت سورة الإسراء لما بين الروح وبين الإسراء من المشاركة بأنّ كلّاً منهما مما لا يكاد تصل إلى حقيقته العقول ، وقيل : إنما ذكر هناك لما أن الإسراء متضمن العروج إلى المحل الأرفع ، والروح متصفة بالهبوط من ذلك المحل ، ولذا قال ابن سينا فيها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقـاء ذات تعـزز وتمنـع

ثم قال : ظهر لي وجه آخر وهو أنه تعالى لما قال في تلك ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ والخطاب لليهود ، استظهر على ذلك بقصة موسىٰ نبي بني إسرائيل مع الخضر عليهما السلام التي كان سببها ذكر العلم والأعلم ، ومادلت عليه من كثرة معلومات الله تعالى التي لا تحصىٰ ، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل ، لماذكر من الحكم في تلك السورة ، وقد ورد في الحديث أنه لما نزل ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾قال اليهود : قد أوتينا التوراة فيها علم كل شيء فنزل ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات**

ربي ﴾الآية فتكون هذه السورة من هذه الجهة جواباً على شبهة الخصوم فيما قرّر في تلك . ا هـ. وللمناسبة أوجه أخر تظهر بأدنىٰ تأمل) وأما فضلها فمشهور .

وقد بدأ ابن كثير الكلام عن سورة الكهف بهذا الفصل :

« ذكر ما ورد في فضلها »
« والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال » .

(روى الإمام أحمد .. عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « اقرأ فلان ، فإنها السكينة تنزل عند القرآن ، أو تنزلت للقرآن » . أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به ، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن حضير .

وروى الإمام أحمد .. عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال » . رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به ؛ ولفظ الترمذي « من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف » . وقال حسن صحيح . (طريق أخرى) روى الإمام أحمد .. عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » رواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ، ولفظ النسائي « من قرأ عشر آيات من الكهف » فذكره . روى النسائي .. عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال » .

وروى الإمام أحمد .. عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً مابين السماء والأرض » .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه .. عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه ، إلى عنان السماء ، يضيء له يوم القيامة وغفر له مابين الجمعتين » .

وروى الإمام سعيد بن منصور في سننه .. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور مابينه وبين البيت العتيق .

وأخرج الحاكم في مستدركه .. عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور مابينه وبين الجمعتين » .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده أن النبي ﷺ قال : « من قرأ سورة الكهف كما نزلت كانت له نوراً يوم القيامة » .

وهكذا روى الحافظ الضياء المقدسي بسنده عن عليّ مرفوعاً: « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه »). اهـ . كلام ابن كثير .

ويتساءل الأستاذ الندوي في رسالته (تأملات في سورة الكهف) عن السِّر في أن هذه السورة أو بعضاً منها يعصم من الدجال ويجيب على ذلك وهذا كلامه :

(وتساءلت ماذا في هذه السورة من المعاني والحقائق والتنبيهات والزواجر ، مايعصم من هذه الفتنة التي استعاذ منها النبي ﷺ كثيراً، وحث أمته على الاستعاذة منها حثاً شديداً ، والتي هي الفتنة الكبرى الأخيرة ، التي قال عنها : « مابين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال » . ولماذا خَصَّ رسول الله ﷺ – وهو أعرف خلق الله بكتاب الله وأسراره وعلومه – هذه السورة الكريمة من بين سور القرآن ؟

ورأيت نفسي تتوق إلى معرفة سِرّ هذا التخصيص ، والصلة المعنوية بينها وبين هذه العصمة ، التي أخبر بها الرسول ﷺ . ففي القرآن سور من القصار المفصّل ، وسور من الطوال ، عدل عنها النبي ﷺ واقتنعت إجمالاً ، بأن هذه السورة ، هي السورة القرآنية الفريدة ، التي تحتوي على أكبر مادة وأغزرها فيما يتصل بفتن العهد الأخير التي يتزعمها الدجّال ، ويتولى كبرها ويحمل رايتها ، وتحتوي على أكبر مقدار من الترياق الذي يدفع سموم الدجّال ويبرىء منها ، وأن من يتشرَّب معاني هذه السورة ويمتلىء بها – وهو نتيجة الحفظ والإكثار من القراءة في عامة الأحوال – يعتصم من هذه الفتنة المقيمة المقعدة للعالم ، ويفلت من الوقوع في شباكها ، وأن في هذه السورة الكريمة من التوجيهات والإرشادات ، والأمثال والحكايات ، مايبين الدجّال ويشخِّصه في كل زمان ومكان ، ومايوضّح الأساس الذي تقوم عليه فتنته ودعوته ، وتهيىء العقول والنفوس لمحاربة هذه الفتنة ومقاومتها ، والتمرد عليها ، وإن فيها روحاً تعارض التدجيل وزعماءه ، ومنهج تفكيرهم ، وخطة حياتهم في وضوح وقوة) .

سبب نزول سورة الكهف :

قال ابن كثير : وقد ذكر محمد بن إسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال : حدثني شيخ من أهل مصر ، قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل فَرَوا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ماكان من أمرهم ؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل فاصنعوا في أمره مابَدَا لكم ، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش ، فقالا : يامعشر قريش قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد ،قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ، فأخبرُوهم بها ، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد أخبرنا ، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتم عنه ، ولم يستثنِ ، (أي لم يقل إن شاء الله) فانصرفوا عنه ، ومكث رسول الله ﷺ خمسَ عشرة ليلة ، لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه ، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطوّاف وقول الله عز وجل ﴿ **ويسألونك عن الروح ؟ قل الروح** ﴾ الآية أقول : إذا صحّ أنّ قصة أصحاب الكهف قصة لمجموعة من أتباع المسيح عليه السلام ، فإنّه من المستغرب أن يكون اليهود هُم الذين دفعوا للسؤال عنهم ، وفي حالة صحة أنهم من أتباع المسيح عليه السلام ، وإذا صح أصل الرواية التي ذكرها ابن إسحق ،فلا يبعد أن يكون هناك شيء من الوهم ، فليس بعيداً أن تكون قريش سألت أهل الكتاب يهوداً ونصارى ، وكلهم دلّه على سؤال ، أو أنهم

سألوا النصارى فدلوهم على هذه الأسئلة ،واختلط الأمر على الراوي ، وعلى كلٍ فإنّ الذي روى عنه ابن إسحق شيخ مجهول وهذا يؤثر على قوة الرواية .

كلمة في سورة الكهف ومحورها :

رأينا أن سورة الحجر ، والنحل ، والإسراء ، والكهف ، ومريم ، تشكل مجموعة هي المجموعة الثانية في القسم الثاني من أقسام القرآن .

ورأينا أن سورة الحجر تكاد تكون مقدّمة للسور الأربع اللاحقة ، وأن السور الأربع اللاحقة تغطي أربع آيات من سورة البقرة هي : الآيات الآتية في حيّز قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

فسورة النحل غطّت الآية الآتية مباشرة بعد هاتين الآيتين وهي :

﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ . فقد فصّلت هذا المقام بما يخدم موضوع الدخول في الإسلام كله . وسورة الإسراء غطّت قوله تعالى في الآية اللاحقة : ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب** ﴾ .

فقد فصّلت هذا المقام بما يخدم موضوع الدخول في الإسلام كله ، والآن تأتي سورة الكهف لتغطي الآية اللاحقة وهي : ﴿ **زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ .

إنّ ما يحرف الناس عن الدخول في الإسلام كله ، وما يدفعهم لاتّباع خطوات الشيطان ، هو زينة الحياة الدنيا ، وزهدهم في الآخرة ، وانتقاصهم لأهلها ؛ بسبب غفلتهم عن الله ، وأنّه وحده هو الرزاق . هذا المعنى الذي تَعَرَّضت له الآية ، خادمة به موضوع الدخول في الإسلام كله ، هو الذي تفصّله سورة الكهف وتغطيه ، بما يخدم الاستسلام لله ، واجتناب خطوات الشيطان ، بأسلوب عجيب ، هو وحده آية على أن هذا القرآن من عند الله ، فكيف إذا كان في هذا القرآن من نواحي العجب والإعجاز مالا يتناهى . نسأل الله ألا يعمي قلوبنا .

وإذ كانت زينة الحياة الدنيا هي أخطر صارف عن الدخول في الإسلام ، وإذ كانت سورة الكهف تعالجها بطريقة مدهشة مربية وموجهة ومقنعة ، فقد سُنّ للمسلمين

قراءتها كل جمعة ، وحفظ أولها وآخرها ، وتلاوته يومياً ، فلنحاول أن نفهمها حقّ الفهم .

ولنلاحظ منذ الابتداء :

أن القسم الأول من السورة يخدم بشكل مباشر قوله تعالى :

﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ﴾ .

وأن القسم الثاني منها المتمثل بقصة موسى والخضر وذي القرنين عليهم السلام : يخدم بشكل مباشر قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ .

ثم القسم الثاني يخدم القسم الأول بشكل مباشر ، والجميع يخدمون موضوع الاستسلام لله ، وترك اتباع خطوات الشيطان .

من كلام الأستاذ الندوي في السورة :

قال الأستاذ الندوي : (ووجدت السورة كلها خاضعة لموضوع واحد ، أستطيع أن أسميه « بين الإيمان والمادية » ووجدت جميع الإشارات أو الحكايات ، أو المواعظ والأمثال دائرة حول هذا المعنى ، تشير إليه من طريق جلي ، أو تنظر إليه من طرف خفي .

واغتبطت بهذا الفتح ، وانكشف لي جانب جديد من إعجاز القرآن ، ونبوة محمد ﷺ ، فما كنت أعرف أن هذا الكتاب الذي نزل في القرن السادس المسيحي – يعني قبل ثلاثة عشر قرناً وزيادة – يحمل صورة صادقة ناطقة بهذه المدنية الداجلة التي تولدت في القرن السابع عشر المسيحي ، واختمرت في القرن العشرين » .

تتألف السورة من مقدمة وست مقاطع وها نحن نبدأ عرضها :

☆ ☆ ☆

مقدمة السورة

تبدأ السورة بمقدمة هي ثمان آيات . وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ
بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم
بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ
أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧)
وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)

التفسير :

﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده** ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **الكتاب** ﴾ أي القرآن ﴿ **ولم يجعل له عوجاً** ﴾ أي اعوجاجاً ، فلا اختلاف في معانيه ، ولا تناقض ، ولا يخرج شيء منه عن الحكمة ولا زيغ ولا ميل بل جعله ﴿ **قيّماً** ﴾ أي مستقيماً ، بعد أن نفى عنه العوج أثبت له الاستقامة تأكيداً ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح ، ويحتمل أن يراد بالقيم علوه على سائر الكتب ، من حيث كونه مصدقاً لها شاهداً بصحتها له فضل عليها بالإعجاز والمعاني ، حمد الله تعالى نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد ﷺ ، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، ولقّن الله بذلك عباده وفقّههم كيف يثنون عليه ، ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم ، وهي نعمة الإسلام ،

وما أنزل على محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم . وبعد أن وصف كتابه بالاستقامة الكاملة ذكر الحكمة في إنزاله وهي التبشير والإنذار فقال ﴿ **لينذر** ﴾ الكافرين ﴿ **بأساً** ﴾ عذاباً ﴿ **شديداً من لدنه** ﴾ أي صادراً من عنده ، فالله بهذا القرآن ينذر من خالفه وكذّبه بالعقوبة العاجلة في الدنيا ، والآجلة في الأخرى ، عقوبة من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴿ **ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات** ﴾ أي ويبشّر الله الذين جمعوا الإيمان والعمل الصالح بهذا القرآن ﴿ **أن لهم أجراً حسنا** ﴾ أي مثوبة عند الله جميلة وهي الجنة ﴿ **ماكثين فيه** ﴾ أي في ثوابهم عند الله وهو الجنة خالدين فيه ﴿ **أبداً** ﴾ أي دائماً لا زوال له ولا انقطاع .
﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً** ﴾ من مشركي العرب الذين قالوا عن الملائكة إنهم بنات الله ، وغيرهم كالنصارى ﴿ **مالهم به من علم** ﴾ أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه ﴿ **ولا لآبائهم** ﴾ أي لأسلافهم الذين قلّدوهم يعني : أن قولهم بالولد أو باتخاذه لم يصدر عن علم ، ولكن عن جهل مفرط ، وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه ، أو لأنه في نفسه محال ، واتخاذ الله ولداً محال ولا طريق عقلياً يوصل إليه أصلاً ﴿ **كَبُرت كلمة** ﴾ أي ما أفظعها كلمة ﴿ **تخرج من أفواههم** ﴾ وهذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم إذ اجترؤوا على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به ، بل يكظمون عليه ، فكيف بمثل هذا المنكر ؟ والتعبير يفيد أن هذا القول ليس له مستند سوى قولهم ، ولا دليل عليه إلا كذبهم وافتراؤهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن يقولون إلا كذباً** ﴾ أي إلا قولاً كذباً ﴿ **فلعلك باخع نفسك** ﴾ أي قاتل نفسك ﴿ **على آثارهم** ﴾ أي على آثار الكفار ، شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به ، وماتداخله من الأسف على توليهم ، برجل فارقه أنيسه ، فهو يتساقط حسرات على آثارهم ، ويبخع نفسه وحيداً عليهم ، وتلهفاً على فراقهم ﴿ **إن لم يؤمنوا بهذا الحديث** ﴾ أي القرآن ﴿ **أسفاً** ﴾ الأسف : فرط الحزن والغضب . والمعنى : لاتهلك نفسك أسفاً عليهم بل أبلغهم رسالة الله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض** ﴾ من زخارف ومستحسنات ومستلذات ﴿ **زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً** ﴾ أي لنختبرهم بذلك والناجح هو الأحسن عملاً ، والراسب هو الأسوأ عملاً . ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها

وخرابها ليُزَهِّد في الميل إليها ، وليبعد عن الرسوب بسببها . فقال ﴿ **وإنا لجاعلون ماعليها** ﴾ من هذه الزينة ﴿ **صعيداً** ﴾ أي أرضاً ملساء ﴿ **جُرُزاً** ﴾ أي يابساً لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة . والمعنى : يعيدها بعد عمارتها خراباً بإماتة الحيوان ، وتجفيف النبات والأشجار ، وغير ذلك ، أي وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكاً صعيداً لا ينبت ولا ينتفع به .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بالحمد ، ووصفت الكتاب ببعض أوصافه ، وعللت حكمة إنزاله وهي التبشير والإنذار ، وخصّت المتخذين لله ولداً بإنذار خاص ، ثم نهت رسول الله ﷺ عن الحزن على من لم يؤمن ، ثم ذكّرت بحكمة تزيين الحياة الدنيا ، وأن ذلك للاختبار ، وأن الرسوب والسقوط هو في حسن العمل وسوئه . ثم بيّنت مآل الحياة الدنيا .

فإذا تذكرنا أن محور السورة هو قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقَوْا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ وأن هذا المحور آتٍ في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، واجتناب خطوات الشيطان . إذا تذكّرنا هذا ندرك أن مقدّمة سورة الكهف التي مرّت معنا تناسب هذا كله ، وقد أوصلت المقدمة إلى حكمة تزيين الحياة الدنيا وهي الاختبار ، فإذ يقول الله في سورة البقرة ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا** ... ﴾ نفهم أنّه من السقوط أن تكون الحياة الدنيا مزيّنة لإنسان . ولذلك فسّر النسفي أن حسن العمل الذي هو علامة النجاح في الاختبار هو : (الزهد فيها وترك الاغترار بها) . ومن ثم نعلم من المقدمة أن الإيمان والعمل الصالح ، والزهد في الدنيا من معالم الإسلام ، وأن اتباع القرآن كله هو الاستقامة وهو الإسلام ، وأن من خطوات الشيطان الكفر ونسبة الولد إليه ، وتزيين الحياة الدنيا . وبعد هذه المقدمة تأتي قصة أهل الكهف . فما الصلة بينها وبين ماقبلها وبين السياق العام؟

١ - لقد قص الله علينا حكمة الإعثار على أهل الكهف فقال : ﴿ **وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها** ﴾ فالحكمة في حادثة أهل الكهف التدليل على البعث بعد الموت ، فإذ كانت الآخرة حقاً فزينة الحياة الدنيا لا قيمة

لها ، وينبغي أن ينجح المسلمون في الاختبار ، فالقصة نموذج على نجاح مجموعة في اختبار الحياة الدنيا هم الفتية .

٢ - إذا تذكرنا محور السورة من البقرة : ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ نلاحظ أن قصة أهل الكهف تحدد لنا نوعاً من مواقف الكافرين من المؤمنين ﴿ **والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ﴾ وفي قصة أهل الكهف نوع فوقية لأهل الإيمان على أهل الكفر ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ وفي قصة أهل الكهف ذكر نوع من رزق الله عباده وهو الهداية والرحمة .

٣ - وإذا تذكّرنا أن آية المحور واردة في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، فإن قصة أهل الكهف نموذج على نوع من الدخول في الإسلام كله ، باعتزال الكفر وأهله إذا لم يكن أمن على إيمان وإسلام . إذ المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفرّ العبد منهم خوفاً على دينه ، كما جاء في الحديث : « يوشك أن يكون خيرُ مالِ أحدِكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » . قال ابن كثير : ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ، ولا تشرع فيما عداها ؛ لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمَع .

فقصة أهل الكهف تخدم سياق السورة ، والسياق الكلي للقرآن بشكل واضح ، وأثناء الكلام عن تفسير القصة سنرى بعض الأمور المتعلقة بالسياق . ونلاحظ أنه بعد ذكر قصة أهل الكهف تأتي مجموعة أوامر ونواه ، وتقريرات تبني على قصة أهل الكهف ، وهي مرتبطة بمقدمة سورة الكهف ، كما هي مرتبطة بمحور سورة الكهف من سورة البقرة .

رأينا أن للآيات الأولى والأخيرة من سورة الكهف صلة بالعصمة من الدّجال الذي يعتبر الأستاذ الندوي أن قيم الحضارة الحالية تشبه القيم الدجالية ، ومن ثمّ يتحدث عن هذه الحضارة ومرتكزاتها ، وعن محلّ هذه الآيات في وصفها والعلاج منها ، قال الأستاذ النّدوي : (مفتاح شخصية الدجّال الذي تفتح به أغلاقها ، وتعرف به أعماقها ، وتتميز به عن سائر دعاة الشر والإفساد ، والكفر والإلحاد ، هو لقب « الدجّال » الذي غلب عليه ، فهو شعاره الذي يُعرف به ، والدجل والتدجيل ، هو القطب الذي تدور حوله شخصيته ، ودعواته ، وأعماله ، وتصرفاته .

وقد اتسمت الحضارة المادية في العهد الأخير بالتدجيل في كل شيء ، والتلبيس على

الناس ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها ، وتمويه الحقائق ، وإطلاق الأسماء البراقة الخلابة للعقول على غير مسمياتها ، وبكثرة الاختلاف بين الظاهر والباطن ، والأول والآخر ، والنظريات العلمية ، والتجارب العملية ، وهذا شأن الشعارات والفلسفات ، التي حلت محل الأديان ، وسحرت النفوس والعقول ، والكلمات التي أحاطت بها هالات التقديس والتمجيد ، وحل حبها ، واحترامها في قرارة النفوس ، وحبات القلوب ، وأصبح الشك في قدسها ، أو النقاش في كرامتها ، ومكانتها علامة للرجعية وإنكاراً للبداهة ، والمشهود المحسوس ، وقد التبس الأمر بذلك على كبار الأذكياء ، ونوابغ العلماء ، فأصبحوا يتغنون بهذه الشعارات والفلسفات ، ويدعون إليها في إيمان وحماس ، من غير تمحيص لنية أصحابها وإخلاصهم ، أو شجاعة في تحديد نجاحها وإخفاقها في مجال العمل والتطبيق والمقارنة الصحيحة المحايدة ، بين ماكسبته الإنسانية والأمم الضعيفة وبين ماخسرته من سلطان هذه الشعارات وتحت رايتها ، من السعادة الحقيقية والحقوق الفطرية ، وهذا كله من قوة التدجيل وسحره ، وقد سرت هذه الروح « الدجلية المدلسة » في هذه الحضارة ، لسيرها على خط معارض لخط النبوة : الإيمان بالآخرة ، والإيمان بالغيب ، والإيمان بفاطر الكون ، وقدرته المطلقة ، واحترام شريعته وتعاليمه ، والاعتماد الزائد على الحواس الظاهرة والشغف الزائد ، بما يعود على الإنسان باللذة البدنية والمنفعة العاجلة ، والغلبة الظاهرة ، وهي النقطة التي تدور حولها سورة الكهف ، وما جاء فيها من قصص وعِبَر .

وقد كان مع الأسف للمسيحية المحرّفة ، وهي التي قادت الحضارة في أوربا بعد القرون الوسطى في العالم المتمدن ، ولليهودية الثائرة الموتورة دور متشابه - رغم الخلاف الجذري في العقيدة - في توجيه المدنية إلى المادية الرعناء ، المجردة من الروح وتعاليم الأنبياء ، والتأثير في مصير الإنسانية على حد سواء ، فقد بدأت الشعوب المسيحية التي تحررت من رق الكنيسة والبابوات ، وضعفت صلتها - إذا لم نقل تقطعت كليّاً - بالمسيحية السمحة ، المؤسسة على التوحيد الخالص ، فاتجهت اتجاهاً مادياً عنيفاً ، أصبح يهدد العالم ، ومصير الإنسانية بالاكتشافات العلمية الحديثة ، والمخترعات المدمرة المبيدة ، وفقدان التوازن بين العلم والعاطفة والعقل والضمير ، والصناعة والأخلاق .

وقد ساهم اليهود في العهد الأخير - لأسباب يعود بعضها إلى خصائص النسل والدم ، وبعضها إلى التعليم والتربية ، وبعضها إلى الغايات السياسية ، والمشاريع القومية - بأكبر قسط في العلم والفن ، والاكتشافات والاختراع ، وفي السيطرة على

هذه الحضارة ، وتملك زمامها ، وتوجيهها في صالحهم ، والتأثير في الأدب والتربية ، والسياسة والفلسفة ، والتجارة والصحافة ، ووسائل التوعية والإعلام ، حتى أصبحوا العنصر الفعال الرئيسي في قيادة الحضارة الغربية التي ظهرت في بيئة مسيحية ، وفي حضانة شعوب آمنت بالمسيح ، واحتضنت اسمه هذا العهد الطويل ، ويبدو للناظر المتعمق في الحوادث الأخيرة ، والمطّلع على مدى نفوذ اليهودية العالمية في المجتمع الغربي ، أن هذه الحضارة وماتحوي عليه من علم وفن ، ستبلغ نهايتها السلبية ، وتصل إلى ذروتها في قوة التدمير ، والهدم والإفساد ، والتلبيس والتدجيل ، على أيدي اليهود الذين مَكّن لهم الغرب المسيحي - بغفلة منه وجهل ببرامجهم البعيدة وطبيعتهم الحاقدة - كل تمكين ، وأتاح لهم كل فرصة لم يكونوا يحلمون بها قبل قرون ، وكانت في ذلك أكبر محنة للإنسانية ، وأكبر خطر على العالم ، فضلاً عن العرب ، الذين يكتوون بنارهم ، فضلاً عن المنطقة المحدودة التي يجري فيها هذا الصراع الحاسم .

لذلك نرى أن لهذه السورة اتصالاً وثيقاً بالمسيحية واليهودية ، فقد تعرَّضت للعقيدة المسيحية في مفتتحها ، وهكذا تبتدىء السورة الكريمة :

﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ماهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ .

وقد كانت السمة البارزة الثانية للحضارة التي نشأت في حضانة المسيحيين ، وشبَّت وترعرعت تحت رعايتهم ، الشغف الزائد بهذه الحياة المحدودة الفانية . والحرص على تمديدها وتزيينها ، والمبالغة في إجلالها وتفخيم شأنها ، والاتجاه إلى نفي كل ماوراءها ، من مُثل وقيم وخيرات ونعم ، والاقتصار على التنافس في السيطرة على أسبابها وطاقاتها وذخائرها ، وهي النقطة التي تلتقي عليها اليهودية معها - رغم مابينهما من عداء وتناقض - فقد تجرَّدت التوراة عن ذكر عالم الآخرة ، والحياة الآخرة ، والحث على الاستعداد لها ، وصرف القوى والمواهب إلى نيل السعادة فيها ، وإثارة الحنين والأشواق إلى نعمائها وطيباتها ، والإشارة إلى قصر هذه الحياة الدنيا وتفاهتها ، وذم حب العلو ، والإفساد فيها ، والتزهيد في زخارفها ومتاعها القليل ، وحطامها الزائل ، تجردت عن كل هذه المعاني تجرداً يثير العجب ، ولا يعقل عن الكتب السماوية المنزلة من الله ،

وروحها وطبيعتها ، فلا عجب إذا كان تاريخ اليهود تاريخ التنافس على المادة والنهامة للثروة ، والكفاح للسيادة (السلالية) والكبرياء القومي ، وقد تجلى ذلك بوضوح في كل مانُسب إليهم من كتب دينية مقدسة ، أو صدر عن أقلامهم وقرائحهم من أدب وشعر ، وقصص وملاحم ، ونبوات وكهانات ، أو أثر عنهم من بطولات ومغامرات وحروب وثورات ، أو عرف عنهم من إبداعات واختراعات ، أو عزي إليهم من أفكار وفلسفات ، فإن أندر شيء في كل ذلك ، هو الرقة والتواضع ، وهضم النفس وإنكار الذات ، والاستهانة بالحياة الدنيا ، والشوق إلى لقاء الله ، والحنين إلى الآخرة ، والرحمة بالإنسانية على اختلاف طبقاتها ، وأجناسها وأوطانها .

ولذلك ثنى الله تبارك وتعالى الإنكار على عقيدة الشرك وعقيدة الابنية أو الوالدية التى تبنتها المسيحية ، وتولت كبرها ، والإنكار على عبادة هذه الحياة ، واتخاذ دارها المحل والقرار ، والانصراف إليها عن كل ماسواها ، ونوه بقصر هذه الحياة ، وتداعي هذا الأساس الذي تقوم عليه ، فقال : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً * وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً** ﴾ .

وأعاد هذا الإنكار والتشنيع على عُبَّاد الحياة الدنيا ومنكري الآخرة ، أو الغافلين عنها ، في أواخر السورة فقال : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ .

وهكذا أحاطت عقيدة الآخرة ، وعقيدة الإيمان بالغيب ، والإيمان بفاطر هذا الكون ، وقدرته المطلقة المسيطرة على كل شيء ، بأول هذه السورة وآخرها ، وبجميع جوانبها ، وهي عقيدة نفسية ، وعقلية ، وطبيعية ، تأباها المادية التي لا تعتمد إلا على الحس والمشاهدة والتجربة ، والمنفعة العاجلة ، واللذة البدنية ، والسيادة القومية أو العنصرية ، وتتنصل عنها وتحاربها بكل قوة ووسيلة ، فجاءت هذه السورة تشتمل على مادة تستأصل جذور المادية التي قدر الله أن يكون المسيحيون أكبر مربيها ودعاتها ، والمشرفين عليها ، في رحلة التاريخ الطويلة ، ثم يتولى قيادتها اليهود الذين حاربوا المسيح منذ أول عهده ، ونافسوا المسيحية في جميع عهودها ، وعلى أيديهم تبلغ هذه المادية ذروتها الأخيرة ، وفي بقاياهم المشتتين ولأمثالهم يظهر الدجّال الذي يكون أعظم بطل من أبطال الكفر والإلحاد ، والتدجيل والتلبيس ، وقد أخبر رسول الله ﷺ بأن تلاوة هذه السورة ، والمحافظة على أوائلها - أو خواتيمها - تعصم من فتنته ، وهكذا كانت بين بداية هذه السورة ونهايتها مناسبة لطيفة لا تخفى على الناظر المتأمل ، ولمجموع

السورة صلة وثيقة ، وعميقة بفتنة الدجّال الذي يظهر في وقته) .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتدّ من الآية (٩) إلى نهاية الآية (٣١) وهذا هو :

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى
ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ
أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (١٤)
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى
ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)
وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت
تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ
رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ

لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ
بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ
قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ
أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ
إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ
يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ
وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ
قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا
تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى
لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا
لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ

مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ
مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ
كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا
مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ
مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

بين يدي قصة أصحاب الكهف :

نقل المفسرون عن الكتابيين الكثير في قصة أهل الكهف ، وقد أراد الأستاذ الندوي أن يختصر الطريق فينقل عن كتب أهل الكتاب مباشرة ، فنقل ماذكرته دائرة المعارف للأخلاق والديانات ماخلاصته :

(إن قصة النائمين السبعة من أكثر القصص التي تروى عن القديسين متعة عقلية ، واشتهاراً بالآفاق ، إن عناصر القصة التي تشترك فيها أقدم الكتب كمايلي :

أن الإمبراطور « ديسيس » (Decius) يدخل في المدينة اليونانية القديمة « أفيسيس » : (وتحديدها الجغرافي .. جاء في دائرة المعارف للبستاني ، أنها إحدى المدن الأيونية الاثنتي عشرة من الأناضول ، وموقعها على الجانب الجنوبي من نهر

قسيطرة ، وهي على مسافة ٦٠ كيلومتراً من أزمير ، جعلها الرومانيون قاعدة لولاية آسيا الغربية في البر ، وقنصلية ، ومحطاً لتجارة متسعة زاهرة جداً ، ولكن أعظم فخر لها هو هيكل ديانا – المعبودة اليونانية – العظيم الذي يعد من عجائب الدنيا السبع ، وكان أكبر الهياكل اليونانية. وذكر بليكي Blackie في كتابه A manual of Biblic History أن مدينة أفيسيس Ephesus اشتهرت في التاريخ القديم بفلسفتها وخلاعة أهلها ، واستهتارهم ، وأصبحت مضرب المثل في الفجور والخلاعة ، وكانت وثنيتها مزيجاً من الوثنية الغربية والشرقية) . ويجدد أي الإمبراطور ديسيس فيها تقليد عبادة الأوثان ، ويأمر أهل المدينة والمسيحيين بصفة خاصة بتقديم الذبائح والقرابين لها ، وأقلع عدد من المسيحيين عن عقيدتهم النصرانية ، وبقي عدد منهم متمسكين بديانتهم ، متحملين لاضطهاد رجال الحكومة ، وتعذيبهم . وهنا يقدم إلى الإمبراطور سبعة من الشباب (وتقول بعض الروايات أنهم كانوا ثمانية) وكانوا مقيمين في السراي وقد اختلف في أسمائهم ، وقد اتهموا باعتناق النصرانية سراً ، وهم يرفضون تقديم القرابين إلى الأوثان ، ويمهلهم الإمبراطور لمدة طمعاً في أن يرجعوا إلى صوابهم ، ويتوبوا عن النصرانية ، ويخرج من المدينة .

وفي خلال هذه المدة يغادر هؤلاء الشباب المدينة ويأوون إلى كهف في جبل قريب كان يسمى بـ Anchilus ويخرج أحدهم اسمه Diomedes أو Imblicus متنكراً وفي ثياب متوسخة رقيعة إلى البلد ، ليتعرف الأخبار ويشتري الطعام ولا يمضي على ذلك كثيراً حتى يرجع ديسيس المدينة ، ويأمر بأن يقدم إليه الشباب ، ويخبر Diomedes زملاءه بهذا الأمر السلطاني ، فيتناولون الطعام ، وقد استولى عليهم الحزن والقلق ، ثم يستغرقون في نوم عميق طويل يسلّطه الله عليهم ، ولما لم يهتد الإمبراطور إلى هؤلاء الشباب ، طلب آباءهم فأبدوا براءتهم عن هذا التهرب ، وأن تكون لهم يد في هذه المؤامرة ، وأخبروه بأنهم متسترون في جبل Anchilus وهنا يأمر الإمبراطور بأن يسد مدخل هذا الكهف بحجارة كبيرة ، فيموتوا هناك حتف أنوفهم ، ويبقوا موأدين في هذه المغارة ، ويكتب مسيحيان ، أحدهما Theodor والآخر Rufinus قصة هؤلاء الشهداء الشباب على لوحة من معدن ويدفنها تحت الحجارة التي سد بها الغار .

وبعد أن مضى عليهم ثلاث مائة وسبع سنوات فكان عهد الإمبراطور ثيودوسيس الثاني Theodosius تقوم ثورة يقودها بعض المسيحيين ، وتنكر جماعة منهم على رأسهم القس ثيودر Theodore عقيدة بعث الأموات ، وإمكان حشر الأجساد ، فيفزع ذلك

الإمبراطور المسيحي ويشغل باله ، وهنا يلهم الله ملاّكاً اسمه Adolius أن يبني زريبة لغنمه في الميدان الذي يقع فيه هذا الكهف ويستخدم البناءون لبناء هذه الزريبة الحجارة التي سد بها هذا الغار ، وهكذا ينكشف هذا الكهف ، ويوقظ الله هؤلاء الشباب في هذه الساعة ، فيخطر ببالهم أنهم ناموا ليلة ، ويتواصون بأن يموتوا شهداء على يد « ديسيس » إذا ألجأتهم الضرورة ، ويذهب أحدهم وهو Diomedes إلى المدينة كالعادة ، ويقف حائراً أمام الصليب المنقوش على تاج المدينة ، حتى يضطر إلى أن يسأل أحد السابلة ، هل هي مدينة أفيسيس حقــاً؟ ويصبح تواقاً إلى إخباره زملائه بهذا الانقلاب العظيم ، ولكنه يملك عاطفته ويشتري الطعام ، ويقدم في ثمنه النقود التي كان يحملها ، وهي العملة التي كان يتعاطاها الناس في عهد ديسيس ، ويعتقد صاحب الدكان وأهل السوق أن الشاب قد عثر على ركاز قديم ، ويريدون أن يكون لهم نصيب فيه ، ويهددون الشاب ويخوفونه ويقودونه من بين وسط المدينة وأسواقها ويتألب عليه الناس ، ويبحث الشاب في هذا الجمع الحاشد عن رجل يعرفه ، فلا يجده ، ويستخبره الأسقف حاكم البلد عن شأنه ، فيخبره بالقصة بطولها ، ويدعوهم إلى أن يرافقوه إلى الكهف ، ويزوروا زملاءه الآخرين ، فيرتقون قمة الجبل ، وهناك يجدون لوحتين رصاصيتين تصدقان قصة الشاب . فيدخلون الكهف ويجدون زملاءه أحياء يغشى وجوههم النور والسكينة ، وينمى الخبر إلى الإمبرطورا Theodosies فيزور الكهف وهنا يقول له Maximilian أو Achillides أو شاب آخر ، إن الله سبحانه وتعالى قد سلط عليهم النوم ليبرهن على الحشر والنشر ، ثم أيقظهم قبل أن تقوم القيامة ، وبعد ذلك مات الشباب موتهم الأخير ، وقد بني هيكل رومي في تذكارهم .

أما مكانة هذه القصة التاريخية ، فلا يشك كبار المؤرخين والناقدين .. في صحتها وإمكان وقوعها لشهرتها واستفاضتها في العالم المسيحي ، وتناقل الأجيال والكتب لها ، يقول « جبون » الذي يجنح دائماً إلى تزييف مثل هذه الأخبار الغريبة :

(إن هذه القصة الغريبة لا يمكن أن تحمل على مجرد خرافة الإغريق ومغالاتهم الدينية فقد اتصلت الروايات الموثوق بها وتسلسلت إلى خمسين سنة بعد وقوع هذه المعجزة وقد خصص قس سوري ولد بعد الإمبراطور ثيودوسيس الأصغر بسنتين اسمه James of Sarus رواية من رواياته التي يبلغ عددها مائتين وثلاثين لمدح شبان أفيسيس (أصحاب الكهف) وقبل أن ينقضي القرن السادس المسيحي نقلت قصة أصحاب

الكهف هذه من اللغة السورية إلى اللغة اللاتينية بعناية غريغو Gregory of Tours .

وقد حفظت ذكرى أصحاب الكهف في اجتماعات العشاء الرباني في الشرق المسيحي بإجلال واحترام ، ودونت أسماؤهم باحترام بالغ في الأعياد الرومية والتقويم الروسي ، ولم تنحصر شهرتهم في العالم المسيحي فحسب .) .

تعليقات على هذه الرواية :

١ - هذه الرواية تذكر أن مابين سنة الهروب وسنة الاستيقاظ (٣٠٧) سنوات وسترى أن المؤرخين الذين كتبوا في هذا الموضوع مختلفون اختلافاً كثيراً في سنة الاستيقاظ ، ولذلك فإن الجزم في هذه الرواية ساقط تاريخياً ، وجاء القرآن مصححاً للخطأ في الزمن .

٢ - هذه الرواية تذكر في الوقت نفسه أن الهروب كان في عصر ديسيس ، بينما لم يكن بين عصر ديسيس وسنة الإيقاظ إلا حوالي مئتي سنة ، ممايدل على خطأ في الرواية وفي تحديد العصر .

٣ - نحن نحتمل أن تكون هذه القصة وقعت فعلاً لأتباع المسيح الصادقين ، ولكن نحتمل كذلك أن تكون القصة قد وقعت في زمن أسبق من ذلك .

٤ - هناك من ذهب إلى أن أحداث قصة أهل الكهف قد وقعت في غير المكان الذي حددته هذه الرواية التي نقلها الأستاذ النّدوي ، وإنما نقلنا ما نقلنا هنا للاستئناس فقط ، وفي كتاب (الله)مايكفينا ويغنينا لأخذ العبرة ، ومن شاء التوسع في هذا الموضوع فليراجع كتاب (أهل الكهف) لمحمد تيسير ظبيان الذى نقل نقولاً كثيرة ، واستقر على أن كهف أهل الكهف هو المكان الذي اكتشفه هو قريباً من عمّان في الأردن .

التفسير :

﴿ **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً** ﴾ جاء هذا بعد أن ذكر الله عزّ وجلّ من الآيات تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأجناس التي لا حصر لها ، ثم إزالة ذلك كله كأن لم يكن ، فكأنه يقول : إنّ ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف ، وإبقاء حياتهم مدة طويلة ، ومن ثم فلا تتعجب منها ولا تستغربها . قال ابن كثير في الآية : أي ليس أمرهم عجباً في قدرتنا وسلطاننا ؛ فإن خلق السمٰوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب ، وغير ذلك

من الآيات العظيمة ، الدالة على قدرة الله تعالى ، وأنّه على مايشاء قادر ، ولا يعجزه شيء ، أعجب من أخبار أصحاب الكهف . والكهف : هو الغار الواسع في الجبل ، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون ، وأما الرقيم : فيحتمل أنه اسم القرية ، أو اسم الوادي ، أو اسم كتاب كتب في شأنهم ووضع على باب غارهم ، أو اسم الجبل الذي فيه الكهف ، أو اسم كتاب كان معهم . قال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف ، واختلفت الروايات عن ابن عباس فيه ، ومن الروايات عنه : أنه وادٍ قريب من أيلة (من فلسطين) . ويحتمل أن الوادي أخذ اسمه من اللوح الذي تحدث عنه سعيد بن جبير . قال ابن كثير : « ولم يخبرنا (أي الله) بمكان هذا الكهف في أيّ البلاد من الأرض ، إذ لا فائدة لنا فيه ولاقصد شرعي ، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً ، فتقدم عن ابن عباس أنه قال هو قريب من أيلة . وقال ابن إسحق هو عند نينوى . وقيل ببلاد الروم ، وقيل ببلاد البلقاء أي في الأردن ، والله أعلم بأيّ بلاد الله هو ، ولو كان فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه . فقد قال ﷺ: « ماتركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به » . فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه . ﴿ **إذ أوىٰ الفتية إلى الكهف** ﴾ . فراراً بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم ، فهربوا منهم ، فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ﴿ **فقالوا** ﴾ حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم ﴿ **ربنا آتنا من لدنك رحمة** ﴾ أي هب لنا من خزائن رحمتك رحمة ترحمنا بها ، وتسترنا عن قومنا ﴿ **وهيّء لنا من أمرنا رشداً** ﴾ . أي وقدّر لنا من أمرنا هذا رشداً أي اجعل عاقبتنا رشداً ، أي وهيىء لنا من أمرنا الذي نحن عليه من مفارقة الكفار رشداً حتى نكون بسببه راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا رشداً كله ، أو يسر لنا طريق رضاك ﴿ **فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً** ﴾ أي سنين ذوات عدد . قال الزّجّاج : أي تُعد عدداً لكثرتها ، لأن القليل يعلم مقداره من غير عدد ، فإذا كثر عدّ فأما (دراهم معدودة) (التي وردت في قصة يوسف) فهي على القلة ؛ لأنهم كانوا يعدّون القليل ويزنون الكثير . والمعنى : ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة . ومعنى فضربنا على آذانهم :أي ضربنا عليها حجاباً من النوم يعني : أنمناهم إنامة ثقيلة لاتنبههم فيها الأصوات ﴿ **ثم بعثناهم** ﴾ أي أيقظناهم من رقدتهم تلك ﴿ **لنعلم أيّ الحزبين** ﴾ أي المختلفين في مدة لبثهم ، إما منهم ساعة الاستيقاظ ، أو من غيرهم ﴿ **أحصىٰ لما لبثوا أمداً** ﴾ . أي عدداً أو غاية ،

وقد جعل النسفي كلمة ﴿ **أحصى** ﴾ فعلاً ماضياً ، وردّ بشدة أن تكون أفعل تفضيل . قال والمعنى : أيهم ضبط أمداً لأوقات لبثهم ، وأحاط بأمد لبثهم . وقال : وإنما قال لنعلم مع أنه تعالى لم يزل عالماً بذلك ، لأن المراد ماتعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ، ليزدادوا إيماناً واعتباراً ، وليكون لطفاً لمؤمني زمانهم ، وآية بيّنة لكفاره ، أو المراد لنعلم اختلافهما موجوداً كما علمناه قبل وجوده . وبهذه الآيات الأربعة ذكر الله لنا قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار . ثم بعد هذا الإجمال والاختصار يأتي بسط القصة .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث الشريف « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر ماذا تعملون . فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » .

٢ - وبمناسبة ذكر دعاء أهل الكهف ﴿ **وهيىء لنا من أمرنا رشدا** ﴾ قال ابن كثير : كما جاء في الحديث الشريف : « وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً » . وفي المسند من حديث بُسْر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » .

٣ - يلاحظ أن الله عز وجل ذكر كلمة (الفتية) في هذه القصة أكثر من مرة بما يشعرنا بالثناء ، ومن هنا نشأ في التاريخ الإسلامي أدب الفتوة . فتجد مثلاً في الرسالة القشيرية باباً خاصاً في الفتوة وآدابها . وقد ذكر النسفي تعريفين للفتوة هما تلخيص لأدب الفتوة في تاريخنا : الأول : الفتوة بذل الندى وكف الأذى ، وترك الشكوى ، واجتناب المحارم ، واستعمال المكارم . والثاني : الفتى من لا يدّعي قبل الفعل ، ولا يزكّي نفسه بعد الفعل .

٤ - إن قصة أهل الكهف نموذج لطلاب الآخرة العازفين عن زينة الحياة الدنيا ، ونموذج للدخول في الإسلام كله في أيام الفتنة . ولقد رأينا كيف أن أهل الكهف اعتزلوا وأَوَوْا إلى الكهف داعين الله عز وجل هذا الدعاء الذي قصّه الله علينا ، وهو دعاء الفارين بدينهم من الفتن .

ولنعد إلى سياق القصة ، فبعد الإجمال الذي رأيناه يبدأ التفصيل ، وقبل أن نبدأ

العرض نحب أن نذكر أن هناك خلافاً بين المفسرين حول التاريخ الذي وجد فيه أهل الكهف . قال ابن كثير : وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم ، فالله أعلم ، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية . فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم ؛ لمباينتهم لهم ، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة ، يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ . فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح . فدلّ هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب ، وأنه متقدم على دين النصرانية . والله أعلم . أقول : لقد رأينا مايمكن أن يقال على رواية ابن إسحق التي لا تعتبر حجة قاطعة في هذا المقام : إن قصة أهل الكهف مشهورة عالمياً ، وليس من السهل تحديد الزمان والمكان اللذين كانوا فيه ، وكل مايقال في هذه الأشياء لا يمكن اعتباره نهائياً . فالقرآن لم يفصّل ، والسنّة لم تفصّل ، وغير ذلك لا تقوم به الحجة . وابن كثير يقرّر هذا المعنى في أكثر من مكان وأنا لا أستبعد أن تكون قصة أصحاب الكهف سابقة على عهد المسيح عليه السلام ، ولكن النّصارى أخذوها ونسبوها إلى أنفسهم ، فليس هناك من شيء قطعي في هذا الشأن إلا روايات ، الله أعلم بصدقها ، والاحتمالان واردان . ﴿ **نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق** ﴾ أي بالصدق ﴿ **إنهم فتية** ﴾ أي شباب ﴿ **آمنوا بربهم** ﴾ أي اعترفوا له بالوحدانية ، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿ **وزدناهم هدى** ﴾ أي يقيناً . أخبرنا الله في بداية القصة أنهم شباب ، والشباب أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في الدين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل . وفي هذا درس للدعاة ﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ أي وقويناها بالصبر على هجران الأوطان ، والفرار بالدين إلى بعض الغيران ، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿ **إذ قاموا** ﴾ هل المراد به قيامهم في موقف أمام ملكهم معلنين ، أو مجرد قولهم هذا يعتبر قياماً ؟ يحتمل هذا وهذا ﴿ **فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً** ﴾ أي لا يقع منا أن نسمي غيره رباً وإلهاً أبداً ﴿ **لقد قلنا إذاً** ﴾ إن سميناهم آلهة وأرباباً ﴿ **شططاً** ﴾ أي باطلاً وبهتاناً ، أو قولاً ذا شطط : وهو الانخراط في الظلم والإبعاد فيه ، دلّت الآيتان على أن الإنسان إذا صدق في الطلب في بدايته أعطاه الله الهداية وربط على قلبه . وفي هذا درس لكل من يريد الدخول في الإسلام ، أن عليه أن يصدق مع الله في الدخول ، وهذا من جملة الدروس التي نفهم

منها صلة القصة بمحور السورة من البقرة ﴿ **هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ هذا إخبار بمعنى الإنكار ﴿ **لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن** ﴾ أي بحجة ظاهرة على عبادتهم وتسميتهم آلهة ، وهو كلام يراد به التبكيت ، لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال . والمعنى الحرفي : هلا أقاموا على صحة ماذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾ بنسبة الشريك إليه ، أي هم أظلم الناس في قولهم ذلك المفترىٰ المكذوب ، وفي ذلك درس أن الإسلام لله ينبغي أن يرافقه كفر بالطاغوت وأهله ، ومعرفة لضلاله وضلال أهله ، وهذا كذلك من جملة الدروس التي تربط بين القصة ومحور سورة الكهف من سورة البقرة .

ثم خاطب بعضهم بعضاً حين صحت عزيمتهم على الفرار بدينهم فقالوا : ﴿ **وإذ اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله** ﴾ أي وإذ فارقتم قومكم ، وخالفتموهم في عبادتهم غير الله ، أي وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم إلا الله ، دلّ على أن قومهم كانوا يعرفون الله ولكنهم يشركون معه آلهة أخرى ﴿ **فأْوُوا إلى الكهف** ﴾ أي صيروا إليه أو اجعلوا الكهف مأواكم ، لتفارقوهم بأبدانكم كما فارقتموهم في عبادتكم ، دل ذلك على أن مفارقة الكفر وأهله بالبدن مهم ، كمفارقتهم بالروح والقلب ﴿ **ينشر لكم ربكم من رحمته** ﴾ أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ، أو يبسط لكم من رزقه ﴿ **ويهيىء لكم من أمركم** ﴾ الذي أنتم فيه ﴿ **مِرْفَقاً** ﴾ أي أمراً ترتفقون به أي تنتفعون به ، وإنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله ، وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ، ونصوع يقينهم ، وقد دلّ هذا على أنّ الله أكرمهم لصدقهم بكمال معرفته ، فأصبحوا عارفين به حالاً ومقالاً وسلوكاً ، ومن كمال معرفتهم أنهم عرفوا أن اعتزال قومهم بالكهف سيقابله عطاء من الله لهم ﴿ **وترى الشمس إذا طلعت تزاورُ عن كهفهم ذات اليمين** ﴾ أي تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم ، ومعنى ذات اليمين أي جهة اليمين والمعنى : أن الفيء يتقلص يمنة ﴿ **وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال** ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه ، ومعنى تقرضهم : أي تقطعهم أي تتركهم وتعدل عنهم ﴿ **وهم في فجوة منه** ﴾ أي في متسع من الكهف داخلاً بحيث لا تصيبهم . والمعنى هم في ظل نهارهم كله ، لاتصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها ، مع كون الغار في غاية الصحة لكونه مُعَرضاً للشمس والتهوية ، فكانوا بحيث لا يحسّون كرب الغار ، وينالهم فيه رَوْح الهواء وبرد النسيم . وقد استدل ابن كثير بهذا الوصف على أن باب هذا الكهف كان من ناحية الشمال . قال : وهذا بَيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة ، وسير الشمس والقمر

والكواكب ، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القبلة (أي الجنوب في بلد ابن كثير : دمشق) لما دخل منها شيء عند الطلوع ، ولا عند الغروب ، ولا يزاور الفيء يميناً ولا شمالاً ، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ، ولم تزل فيه إلى الغروب فتعيّن ماذكرناه » أي أن باب الكهف من جهة الشمال وهو موضوع يحتاج إلى تحقيق ﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ قال ابن كثير : حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياءً ، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً** ﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ، فإنّه مَن هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادي له ، وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله ، وأسلموا له وجوههم ؛ فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية ، والآية دلت على أن أعظم الهداة هم الأولياء المرشدون . فقد قال الله تعالى : ﴿ **ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً** ﴾ بيّن أن هؤلاء هم الغاية في الهداية فمن أراد الله إضلاله فإنه لا يهديه أحد حتى ولو كان ولياً مرشداً ، نسأله تعالى أن يجعلنا من الأولياء المرشدين ﴿ **وتحسبهم أيقاظاً** ﴾ أي مستيقظين ﴿ **وهم رقود** ﴾ أي والحال أنهم نائمون ﴿ **ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال** ﴾ وحكمة ذلك معروفة في الطب الحديث ، إذ يقول العلم الحديث الآن : إن الإنسان إذا بقي شهوراً على حالة واحدة مات لما يتكاثف في الجانب الذي يلي الأرض من أملاح ﴿ **وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد** ﴾ أي بالفناء : وهو الباب . قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب ، وهذا من سجيته وطبيعته ، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب ، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب كما ورد في الصحيح ولا صورة ، ولا جُنب ولا كافر كما ورد به الحديث الحسن . قال ابن كثير : وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ماأصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذه فائدة صحبة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وفي هذا المقام يذكر بعض المفسرين اسمه ولونه ، قال ابن كثير : (واختلفوا في لونه على أقوال ، لا حاصل لها ، ولا طائل تحتها ، ولا دليل عليها ، ولا حاجة إليها ، بل هي مما ينهى عنه ، فإن مستندها رجم بالغيب) . ﴿ **لو اطّلعت عليهم** ﴾ أي لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿ **لَوَلَّيت منهم فراراً** ﴾ أي لأعرضت عنهم وهربت منهم ﴿ **ولملئت منهم رعباً** ﴾ أي خوفاً . قال ابن كثير : أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم ؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر ، لئلا يدنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لامس ،

حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة ، والحجة البالغة ، والرحمة الواسعة .

....

﴿ **وكذلك بعثناهم** ﴾ أي وكما أنمناهم تلك النومة ، كذلك أيقظناهم إظهاراً للقدرة على الإنامة والبعث جميعاً ﴿ **ليتساءلوا بينهم** ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً ، ويتعرَّفوا حالهم وما صنع الله بهم ؛ فيعتبروا ويستدلّوا على عظم قدرة الله ، ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم ﴿ **قال قائل منهم كم لبثتم** ﴾ أي كم مدة لبثكم أي كم رقدتم ؟ ﴿ **قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم** ﴾ جواب مبني على غالب الظن ، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب ، فكأن دخولهم كان إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر نهار ، ومن ثم استدركوا بعد قولهم يوماً فقالوا : أو بعض يوم ﴿ **قالوا ربكم أعلم بما لبثتم** ﴾ وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم ، أو كأنهم علموا بالأدلة ، أو بالإلهام ، أو بزيادة حدثت لأظفارهم وأشعارهم على طول المكث ، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ **فابعثوا أحدَكم بَوَرِقِكم هذه** ﴾ أي فضتكم هذه ، كأنهم قالوا : ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه فخذوا في شيء آخر مما يهمكم ، فابعثوا أحدكم بفضَّتكم هذه ﴿ **إلى المدينة** ﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها : دَلّ ذلك على أنهم استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها قال النسفي : وحملهم الوَرِق عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة ومايصلح للمسافر هو رأي المتوكلين على الله ، دون المتكلين على الإنفاقات ، وعلى مافي أوعية القوم من النفقات ﴿ **فلينظر أيها أزكىٰ طعاماً** ﴾ أي أيّ أهلها أحل وأطيب طعاماً ، أو أكثر وأرخص ﴿ **فليأتكم برزق منه ولْيتلَطَّف** ﴾ أي وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة ، حتى لا يغبن ، أو في أمر التخفي حتى لايُعرف . والثاني أقوى أي وليتكلف اللطف في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ، أي وليختف أقصى مايقدر عليه ﴿ **ولايُشعِرنَّ بكم** ﴾ أي ولا يعلِمَنّ بكم ﴿ **أحداً** ﴾ دلّتنا هذه الوصية على أدب هذا المقام ، فغير هذا تهور وتعريض الفئة المسلمة لخطر الاستئصال ، وقولهم : ولايشعرن بكم أحداً . معناه : ولايفعلن مايؤدي إلى الشعور من غير قصد منه . أي لايتسبب بالشعور بنا ، ثم عللوا سبب الوصية ﴿ **إنهم إن يظهروا عليكم** ﴾ أي إن علموا بمكانكم واطلعوا عليه يحيطون بكم غالبين ﴿ **يرجموكم** ﴾ أي

يقتلوكم أخبث أنواع القتل بالرجم بالحجارة ، يتهموكم ثمّ يقتلوكم ﴿ **أو يعيدوكم في ملّتهم** ﴾ بالإكراه وتسليط أنواع العذاب عليكم ﴿ **ولن تفلحوا** ﴾ إن عدتم في دينهم ﴿ **إذاً أبداً** ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بينت الآية أن طريقة قومهم في معاملة المسلمين ، التعذيب حتى الموت ، أو الإكراه على ترك الإسلام .

فائدة :

من المناقشة التي جرت بينهم عند استيقاظهم استدل ابن عباس – كما نقل النسفي – على أن الصحيح أن عددهم سبعة لأنه قد قال في الآية ﴿ **قال قائل منهم كم لبثتم** ﴾ وهذا واحد ، وقالوا في جوابه ﴿ **قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم** ﴾ وهو جمع وأقله ثلاثة ، ثم قال : ﴿ **قالوا ربكم أعلم بما لبثتم** ﴾ وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة . قال : واحد . (قالوا الأولى) تدل على ثلاثة . (قالوا الثانية) تدل على ثلاثة المجموع سبعة ، وسنرى أن ابن كثير يرجح أنهم سبعة استدلالاً بآية لاحقة ، وينقل عن ابن عباس أنهم سبعة دون الإشارة إلى الاستدلال الذي نقله النسفي . ولعل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية في ساعات الشدة يستفيدون من ذكر هذا الرقم .

﴿ **وكذلك أعثرنا عليهم** ﴾ أي وكما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم الناس ﴿ **ليعلموا** ﴾ أي الناس في زمانهم مشاهدة ، والناس بعدهم من خلال أخبارهم ﴿ **أن وعد الله** ﴾ وهو البعث ﴿ **حق** ﴾ أي كائن لأن حالهم في نومهم الطويل وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث ﴿ **وأن الساعة لاريب فيها** ﴾ أي ويستدلون بأمرهم على صحة البعث ﴿ **إذ يتنازعون بينهم أمرهم** ﴾ أي أعثرنا عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان بينهم أمر دينهم ، ويختلفون في حقيقة البعث ، هل هو كائن أو لا ؟ بالجسد والروح ، أو بالروح فقط ؟ ليرتفع الخلاف ، وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة ، فيها أرواحها كما كانت قبل الموت ﴿ **فقالوا** ﴾ أي الناس حين توفى الله أصحاب الكهف ﴿ **ابنوا عليهم بنياناً** ﴾ أي سدُّوا عليهم باب كهفهم ، وذروهم على حالهم ، فالمعنى : ابنوا على باب كهفهم بنياناً لئلا يتطرَّق إليهم الناس ؛ ضَناً بتربتهم ومحافظة عليها ﴿ **ربهم أعلم بهم** ﴾ هذا إما من كلام المتنازعين ، كأنهم تذاكروا أمرهم وحقيقة حالهم من بدايتهم إلى نهايتهم ومآلهم ، ثم تركوا علم حقيقة ذلك إلى الله ، أو أنه من كلام الله عز وجل ليبين لنا أن هذا المقام لايعلمه إلا هو ﴿ **قال الذين غلبوا على أمرهم** ﴾ أي أصحاب الكلمة والنفوذ ﴿ **لنتخذن عليهم مسجداً** ﴾ أي يصلي فيه

المسلمون ، ويتبركون بمكانتهم ، قال ابن كثير : ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر لأن النبي ﷺ قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » .

أقول : يحتمل أن يكون المسجد على باب الكهف وفي هذه الحال لا يكون البناء محظوراً أصلاً ، كما حدث لقبر رسولنا عليه الصلاة والسلام .

فائدة :

يلاحظ أنه في العصور التي كثر فيها الجهل صار كثير من المسلمين في كثير من البلدان يطلقون على أمكنة بأنها كهف أهل الكهف ، والذي يبدو أن مثل هذا الاتجاه كان قديماً ، ومن ثَم سارع ابن عباس إلى إنكاره لحظة وجوده . نقل ابن كثير عن قتادة : قال قتادة : غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة ، فمروا بكهف في بلاد الروم ، فرأوا فيه عظاماً فقال قائل : هذه عظام أهل الكهف ، فقال ابن عباس : (لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة) رواه ابن جرير .

أقول : في كلمة ابن عباس ردّ على مايمكن أن يتوهّم أن أجسادهم لم يصبها البلى بعد وفاتهم .

﴿ **سيقولون** ﴾ أي الناس ﴿ **ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب** ﴾ أي قولاً بلا علم ، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لايكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد ، أي رمياً بالخبر الخفي المغيّب ، وإتياناً به بلا علم ﴿ **ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم** ﴾ الظاهر أن هذه مجموع الأقوال التي ذكرت في شأنهم . حكى ثلاثة أقوال فدل أنه لا قائل برابع، ولما ضعّف القولين الأولين ، ثم حكى القول الثالث ، وسكت عليه أو قرّره ، فإنه أشار بذلك إلى صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر ﴿ **قل ربي أعلم بعدتهم** ﴾ هذا إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ردُّ العلم إلى الله تعالى ؛ إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، فإذا أطْلَعنَا على أمر قلنا به ، وإلا وقفنا ، وهو أدب إسلامي عام في كل قضية من القضايا التي لايكون المسلم على علم تام بها ﴿ **مايعلمهم إلا قليل** ﴾ أي من الناس . قال ابن عباس : أنا من القليل : كانوا سبعة ، وقد ساق ابن كثير مجموعة روايات إلى ابن عباس في أنه كان يقول إن عدتهم سبعة . ثم قال : فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة ، وهو موافق لما قدمناه ،وبعد أن أثبت صحة هذه الروايات عنه ، رد الرواية التي ذكرها

ابن إسحق عن ابن عباس في ذكر أنهم ثمانية ، وتسمية كل واحد منهم ، وتسمية كلبهم ثم قال : وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته ، والله أعلم ، فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب وقد قال تعالى : ﴿ **فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً** ﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب وغيرهم في شأن أهل الكهف ، إلا جدالاً ظاهراً غير متعمّق فيه ، أو جدالاً سهلاً ليناً ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة . وهكذا شأن المسلم في كل أمر من هذا القبيل ، لا يجادل فيه إلا ضمن حدود ﴿ **ولا تَسْتَفْتِ فيهم منهم أحداً** ﴾ أي ولا تسأل أحداً من أهل الكتاب ، ولا من غيرهم عن قصتهم سؤال متعنت له ، حتى يقول شيئاً فتردّه عليه ، وتزيّف ماعنده ، ولا سؤال مسترشد ، لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم ، وهذا أدب المسلم ألا يستفتي في أمر دينه أحداً من خلق الله غير أهل العلم من المسلمين .

وقبل أن تنتهي القصة يصدر الله توجيهاً سببه سهو وقع لرسول الله ﷺ عندما سُئل عن هذه القصة ، على حسب رواية ابن إسحق التي عرفنا شأنها ، وبعد التوجيه يعود الكلام إلى سيرة أهل الكهف ، ثم يصدر الله مجموعة أوامر لرسوله ﷺ ، ثم يقرر تقريراً ، وكأن هذا يفيد أن الأوامر الآتية بعد القصة مرتبطة ارتباطاً تاماً مع القصة ، فأثناء القصة يأتي توجيه ، وبعد القصة تأتي توجيهات مرتبطة بالقصة ، فلقد عرّفنا الله على القصة ، وأعطانا دروسها ووجّهنا في شأنها ، فلنر تتمة المقطع .

﴿**ولا تقولَنَّ لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله** ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ ، أنّ الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل ، علام الغيوب ، الذي يعلم ماكان ومايكون وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا نهي تأديب من الله لنبيه ﷺ أن يعلق كل مايعزم عليه من فعل على مشيئة الله تعالى ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ أي إذا نسيت الاستثناء ، أي قولك إن شاء الله ، فقل ذلك عند ذكرك له ، ويمكن أن يكون المعنى : واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء ؛ تشديداً في البعث على الاهتمام بها . ويمكن أن يكون المعنى : إذا نسيت أي شيء فاذكر الله ليذكّرك المنسي ﴿ **وقل** ﴾ إذا نسيت شيئاً ﴿ **عسى أن يهدين ربي** ﴾ لشيء آخر بدل هذا المنسي ، أقرب منه رشداً ، وأدنى خيراً أو منفعة ، ومن ثم قال : ﴿ **لأقرب من هذا رشداً** ﴾ وفي الآية كلام سنراه في الفوائد . وسبب نزول هذ الآية على حسب رواية ابن إسحق أنّه ﷺ لمّا سئل عن

قصة أصحاب الكهف قال (غداً أجيبكم) دون أن يعلّق ذلك على المشيئة الإلهية فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ، وفي مثل هذا التأديب لرسول الله ﷺ مايعظ الجاهل عن التساهل في الأدب فما فوقه مع الله جل جلاله . وقد ذكر هذا الأدب في ثنايا القصة ، لتبقى هذه القضية محفورة في الضمير المسلم ، منبهة إياه على أن مقام محمد ﷺ مقام العبودية لله ، ومقام التأديب من الله ، مع كل ما أنعم الله عليه ، فكيف بغيره من خَلْق الله ، وبعد هذا التنبيه يعود السياق إلى القصة : ﴿ **ولبثوا في كهفهم ثلاث مائةٍ سنين وازدادوا تسعاً** ﴾ هذا إخبار من الله تعالى بمقدار مالبث أصحاب الكهف في كهفهم ، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة ، تزيد تسع سنين بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت مابين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين . فلهذا قال بعد الثلاثمائة وازدادوا تسعاً ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ أي هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم ، والحق ما أخبرك به ﴿ **له غيب السمٰوات والأرض** ﴾ أي هو وحده جل جلاله يعلم ماغاب في السمٰوات والأرض وخفي فيهما من أحوال أهلهما ﴿ **أبصر به وأسمع** ﴾ أي ما أبصره لكل موجود وأسمعه لكل موجود ، فكيف يغيب عنه شيء ﴿ **ماهم** ﴾ أي مالأهل السمٰوات والأرض ﴿ **من دونه من ولي** ﴾ أي من متول لأمورهم غيره ﴿ **ولا يشرك في حكمه** ﴾ أي في قضائه أحداً ، فهو تعالى له الخلق والأمر ، الذي لا معقّب لحكمه ، وليس له وزير ولانصير ولاشريك ، ولا مشير تعالى وتقدس ، دلّ هذا على أن من أنواع الشرك أن تعطى الحاكمية لغير الله ، إنْ في الخلق أو في الأمر ، فمن جعل للمادة قدرة مستقلة على الخلق والتدبير ، وللتاريخ سيراً غير ما أراد الله ، أو أعطى لغير الله حق التشريع ، فقد أشرك . وفي ختم قصة أهل الكهف على هذه الشاكلة ، من التذكير بعلمه تعالى ، وسمعه وبصره ، واستغنائه عن خلقه ووحدانيته في حكمه ، قضاءً أو أمراً ، تذكير بأن ماقاله هو الحق الخالص ، كيف لا وهو العليم بكل غيب ، السميع لكل موجود ، البصير بكل موجود .

وإذ تنتهي القصة بما رأينا تأتي الأوامر التالية :

﴿ **واتل ما أُوحي إليك من كتاب ربك** ﴾ تلاوة عبادة وتدبّر ، وعمل وتبليغ ﴿ **لا مُبدّل لكلماته** ﴾ أي لا مغيّر لها ، ولا محرِّف ولا مزيل . أو المعنى : لايقدر أحد على تبديلها أو تغييرها ، فهي كلام الله المحيط علماً وبصراً وسمعاً وقضاءً بكل موجود

﴿ **ولن تجد من دونه ملتحداً** ﴾ أي ملجأً تعدل إليه إن هممت بالتغيير ، أو لم تقل ما أوحي إليك ، والصلة بين هذا الأمر وقصة أهل الكهف واضحة .

فإذ تبيّن من خلال عرض قصة أهل الكهف ، أن هذا القرآن مظهر علم الله ، فلْيتل إذن ، ولْيتلَ كما أنزل ، ولا تُبدَّل كلماته ، لا تلاوة ، ولا بتحميلها ما لاتحتمل ؛ مراعاة لوضع ما فإن الخطأ عليه مستحيل ، وإذ يفعل أحد شيئاً من ذلك فإنه لاملجأ له من عذاب الله .

وإذ تبيّن لنا من القصة كرامة المؤمن على الله ، وإذ كانت القصة تدور حول فتية حبسوا أنفسهم على بعضهم ، يأتي الآن الأمر الثاني آمراً بصبر النفس مع أهل الإيمان :

﴿ **واصبر نفسك** ﴾ أي احبسها وثبتها ﴿ **مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ أي دائبين على الدعاء في كل وقت ﴿ **يريدون وجهه** ﴾ أي يريدون رضا الله قال ابن كثير : أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ، ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله ، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو ضعفاء ﴿ **ولاتعْدُ عيناك عنهم** ﴾ أي ولا تجاوزهم عيناك ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ أي لاتجاوزهم عيناك إلى غيرهم ، فتطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ أي ولا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر ، أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿ **واتّبع هواه** ﴾ ﴿ **وكان أمره فُرُطاً** ﴾ أي وكانت أعماله وأفعاله وأقواله سفهاً وتفريطاً ، وضياعاً وتجاوزاً للحق ، لاتكن مطيعاً لمثل هذا ، ولا محباً لطريقته ، ولا تغبطه على ماهو فيه .

ثم يأتي الأمر الثالث :

فبعد أن بين أن هذا القرآن حق ، وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ بعدم طاعة الغافلين وغبطتهم والتشوّف إليهم ، بل عليه أن يلزم نفسه بالجلوس مع الذاكرين ، يأتي الآن الأمر :

﴿ **وقل الحق من ربكم** ﴾ أي وقل بأن القرآن أو الإسلام هو الحق من ربكم ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ أي جاء الحق وزاحت العلل ، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ماشئتم ، من الأخذ في طريق النجاة ، أو في طريق الهلاك ، وهو تهديد ووعيد شديدان . ثم ذكر جَزاء من اختار الكفر فقال ﴿ **إنا أعتدنا** ﴾ أي أرصدنا

وهيأنا ﴿ **للظالمين** ﴾ أي للكافرين بالله ورسوله وكتابه ﴿ **ناراً أحاط بهم سرادقها** ﴾ أي سورها ﴿ **وإن يستغيثوا** ﴾ من العذاب والعطش ﴿ **يُغاثوا بماءٍ كالمهل** ﴾ أي كعكر الزيت في سواده وغلاظته ﴿ **يشوي الوجوه** ﴾ من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقرّبه من وجهه ، شواه حتى تسقط جلدة وجهه .

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « ماء كالمهل - قال : كعكر الزيت فإذا قرّبه إليه سقطت فروة وجهه فيه » ﴿ **بئس الشراب** ﴾ أي المهل ﴿ **وساءت مرتفقاً** ﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق ، ولا ارتفاق لأهل النار . أي لا انتفاع لهم . وبعد أن ذكر الله عز وجل جزاء من اختار الكفر ، يقرر الآن جزاء من اختار الإيمان . قال ابن كثير : لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً** ﴾ . دلّت الآية على أن المحسن في العمل هو المؤمن ، الذي يعمل الصالحات ، فإذا تذكرنا الآيتين اللتين وردتا قبل قصة أهل الكهف ﴿ **إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيُّهم أحسن عملاً** ﴾ علمنا أن الكلام الآن في الناجحين في الاختبار ، وهم أهل الإيمان ، والعمل الصالح ﴿ **أولئك لهم جنات عدن** ﴾ أي إقامة ﴿ **تجري من تحتهم الأنهار** ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم ﴿ **يُحلَّوْن فيها** ﴾ من الحلية أي يُلبّسون فيها الحلي ، ثم بيّن هذه الحلي ﴿ **من أساور من ذهب** ﴾ الأساور : جمع أسورة ، وفي تنكيرها إشعار بأنها غاية في الجمال ﴿ **ويلبسون ثياباً خُضراً** ﴾ وهو أروح الألوان للعيون ، وأكثرها راحة لها ، كما يقول الطب المعاصر ﴿ **من سُندسٍ وإستبرق** ﴾ قال ابن كثير : فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان ، وماجرى مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق ﴿ **متكئين فيها على الأرائك** ﴾ خص حالة الاتكاء بالذكر لأنه هيئة المتنعمين على أسرتهم ، والجنة دار النعيم ﴿ **نِعْم الثواب** ﴾ الجنة ﴿ **وحَسُنت** ﴾ الجنة والأرائك ﴿ **مرتفقاً** ﴾ أي مكاناً للارتفاق . أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ، وحسنت مرتفقاً . أي حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً .

ملاحظات :

رأينا أنّ الله عزّ وجل أوصانا بالنسبة لقصة أهل الكهف فقال ﴿ **فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً** ﴾ وقال جلّ جلاله ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾

إنّك إذا تأمّلت هذين النّصين، وقرأت مايذكره أهل الكتاب في كتبهم، تجد مظهراً من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن، يدلك على أنّ منزل هذا القرآن هو الله المحيط علماً بكل شيء، ولنضرب على ذلك مثلاً:

قال الأستاذ الندوي في رسالته (تأملات في سورة الكهف): «وقد اضطربت أقوال المؤرخين السوريين، والمؤرخين الإغريق، في تعيين سنة اليقظة والخروج، فالمؤرخون السوريون يزعمون أنها ٤٢٥م أو ٤٣٧م، وتقول الروايات الإغريقية أن الخروج كان في السنة الثامنة والثلاثين من حكم ثيودوسيس الثاني، معنى ذلك أنها كانت في سنة (٤٤٦).

وتقول الرواية التي ذكرتها دائرة المعارف للأخلاق والديانات وهي دائرة معارف غربية: (وبعد أن مضى عليهم ثلاثمائة وسبع سنوات في عهد الإمبراطور ثيودوسيس الثاني) فإذا تذكرنا الاختلاف في تعيين سنة الاستيقاظ، عرفنا أن هذا الرّقم تقريبي.

والملاحظ أنّ رواية دائرة المعارف تذكر أن الفتية حرجوا في زمن الإمبراطور ديسيس الذي تسميه المراجع العربية «دقيانوس» بينما لم يكن بين دقيانوس وثيودوسيس أكثر من مائتي سنة، مما يؤكد أن هناك خطأً في سنة الهروب، لذلك فقد رجّح الأستاذ الندوي أن القصة حدثت في عهد الإمبراطور الروماني هاردين، الذي حكم من سنة ١١٧م إلى سنة ١٣٨م والذي ذكر تاريخ الكنيسة المسيحية عنه على أنه حافظ على سياسة «تراجن» في إجبار الزنادقة والمارقين) (وكلهم أوْ جلّهم في ذلك الوقت بالنسبة للدولة الرومانية من المسيحيين) من هذا الذي نقلناه ندرك سرّ قوله تعالى: ﴿ **فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً** ﴾ وسرّ قوله تعالى ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾.

فوائد:

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الوارد في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام، لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة، وفي رواية مائة امرأة. تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية قال له المَلَك - قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهن فلم

يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركاً لحاجته » وفي رواية « ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعين » .

٢ - من المشهور عن ابن عباس أنه يرى أن للحالف أن يقول إن شاء الله ، ولو إلى سنة ، وكان يستدل على ذلك بقوله تعالى :﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ قال ابن جرير : ومعنى قول ابن عباس أنه يستثني ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء وذكر ولو بعد سنة ، فالسنّة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسُنَّة الاستثناء ، حتى ولو كان بعد الحنث ، لا أن يكون - أي الاستثناء - رافعاً لحنث اليمين ، ومسقطاً للكفارة . قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه . وقد نقل النسفي عن الحسن أن له الاستثناء مادام في المجلس . ثم نقل مذهب ابن عباس وخرّجه ، وذكر حادثة لها علاقة فيه . قال : وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ولو بعد سنة ، وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستثناء . فأما الاستثناء المغير حكماً ، فلا يصح إلا متصلاً ، وحكي أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضي الله عنهما في الاستثناء المنفصل ، فاستحضره لينكر عليه ، فقال له أبو حنيفة : هذا يرجع عليك ؛ إنك تأخذ البيعة بالأيمان ، أفَترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ، فاستحسن كلامه ، وأمر الطاعن فيه بإخراجه من عنده » .

٣ - وعند قوله تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾ قال ابن كثير : يقال إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولايجالسهم بضعفاء أصحابه ، كبلال ، وعمار ، وصهيب ، وخباب ، وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك فقال : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ . وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ . وروى مسلم في صحيحه .. عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لايجترئون علينا ، قال : وكنت أنا ، وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾ . وروى أحمد ..

عن أبي التياح قال : سمعت أبا الجعد يحدث عن أبي أمامة قال : خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص فأمسك ، فقال رسول الله ﷺ : « قص فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس ، أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب » . وروى الإمام أحمد .. عن رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب » قال شعبة فقلت : أي مجلس ؟ قال : كان قاصاً . وروى أبو داود الطيالسي في مسنده .. عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس ، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إليّ من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل ، دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً » .

وروى الحافظ أبو بكر البزار .. عن الأغر أبي مسلم - وهو الكوفي - أن رسول الله ﷺ مرّ برجل يقرأ سورة الكهف ، فلما رأى النبي ﷺ سكت ، فقال النبي ﷺ : « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » .

وروى يحيى بن المعلى بسنده : عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا : جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحج - أو سورة الكهف - فسكت ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » . وروى الإمام أحمد .. عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله ، لايريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء ، أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بدّلت سيئاتكم حسنات » .

وروى الطبراني .. عن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف قال : نَزلتْ على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ الآية فخرج يلتمسهم ، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى ، منهم ثائر الرأس ، وجافُّ الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم » .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن مقدمة سورة الكهف انتهت بقوله تعالى :

﴿ **إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً * وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً** ﴾ .

ثم جاءت قصة أهل الكهف لتعطي نموذجاً على من أحسن عملاً ، ولتقيم الدليل على أن الآخرة الباقية آتية . ثم جاءت الأوامر التي تأمر بلزوم أهل الآخرة ، وعدم التطلّع إلى الجلوس مع غيرهم ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ ثم جاءت الآيتان الأخيرتان لتبين أن الذين ينجحون في الاختبار هم الذين اجتمع لهم الإيمان والعمل الصالح .

فالمقطع الذي مرّ معنا كله مترابط في خدمة الآيتين اللتين ختمت بهما مقدمة سورة الكهف .

فإذا تذكّرنا أن سورة الكهف محورها ﴿ **زُيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا ..** ﴾ فإننا نلاحظ أن قصة أهل الكهف ، والآيات بعدها ، تحرير للمسلم من الإخلاد لزينة الحياة الدنيا ، والركون إلى أهلها ، فمن خلال الاقتداء بأهل الكهف ، ومن خلال صبر النفس مع أهل الإيمان ، ومن خلال النهي عن التطلع لمجالسة أهل الدنيا ، والنهي عن طاعة الغافلين ، والأمر بقول الحق ، ومن خلال التذكير بجزاء المؤمنين والكافرين ، يتحرر المؤمن من السقوط في حمأة تزيين الحياة الدنيا .

وإذا تذكرنا أن هذا كله في خدمة الأمر ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافَّة** ﴾ فإننا نلاحظ أن القصة تخدم موضوع الدخول في الإسلام كله ؛ إذ تقص علينا قصة النموذج الذي ترك كل شيء من أجل دين الله . ثم تأتي الأوامر بتلاوة القرآن ، وبالكون مع أهل الإيمان وبإعلان الحق ، كَفَر من كَفَر وآمن مَن آمن ، وكلها تخدم موضوع الدخول في الإسلام كله ، عدا عن كونها أجزاءً من الإسلام يجب التزامها ، لأن الله أمرنا بالدخول في الإسلام كله .

فإذا اتضح هذا ، عرفنا كيف أن سورة الكهف لها سياقها الخاص المترابط والمرتبط بالسياق القرآني العام .

والآن فلنلاحظ مايلي :

يرد الآن أمران كل منهما بصيغة ﴿ **واضرب** ﴾ وكلا الأمرين فيه مثل مرتبط بموضوع الحياة الدنيا ، ثم تأتي آيات لها علاقة في الموضوع نفسه ؛ ومن ثم فإن ارتباط المقطع اللاحق بمحور سورة الكهف من البقرة واضح . وسنتعرض له فيما بعد . ونحب هنا أن نتحدث عن السياق الخاص لسورة الكهف :

أوصلت مقدمة سورة الكهف إلى :﴿ **إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم**

أحسن عملاً * وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً ﴾

ثم جاءت آية : ﴿ **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً** ﴾ والتي معناها : لاتحسب أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً إذا قيست بآيات الله العظمى كتزيين الأرض أو إماتة كل شيء عليها ، ثم جاء في سياق القصة نهي . وبعد القصة جاءت أوامر .

ثم يأتي الآن في المقطع اللاحق قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلاً رجلين ..** ﴾

ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ..** ﴾

فالسياق الخاص لسورة الكهف يتوجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ في أن يضع قصة أهل الكهف في محلها من آيات الله ، وأن يعلق أموره على مشيئة الله . ثم تأتي الأوامر بتلاوة القرآن ، والصبر مع أهل الإيمان ، وترك أهل الطغيان ، وإعلان كلمة الحق . ثم يؤمر عليه الصلاة والسلام بضرب الأمثال عن الدنيا وأهلها ، وعن الآخرة وأهلها . فالسياق يربي على كل مامن شأنه الزهد في الدنيا . فقصة أهل الكهف تزهّد في الدنيا ، وتلاوة القرآن تلاوة صحيحة تزهّد في الدنيا ، والجلوس مع أهل الذكر يزهّد في الدنيا ، وترك أهل الدنيا يساعد على الزهد في الدنيا ، وإعلان كلمة الحق يساعد على قطع علائق أهل الدنيا ، وأن يضرب الإنسان الأمثال لغيره في التزهيد بالدنيا فهذا يزهده في الدنيا ، وأن يتمعّن هو في المثل فهذا يزهده في الدنيا . فإذا تذكرنا ماقلناه من قبل : أن القسم الأول من سورة الكهف هو تفصيل لقوله تعالى : ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ﴾ وأن مابعد ذلك تفصيل لما بعدها ، وكل ذلك في خدمة حيّز المحور ، يكون ماذكرناه هنا تدليلاً على مأشرنا إليه من قبل . فلنر المقطع الثاني من السورة :

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٣٢) إلى نهاية الاية (٤٩) وهذا هو :

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا
خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ
مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ
هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن
نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا
إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا
وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ
اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ
الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ
وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا
﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ
أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ
زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ
مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

التفسير :

﴿ **واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب** ﴾ أي بساتين من كروم ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ أي وجعلنا النخيل محيطاً بالجنتين ﴿ **وجعلنا بينهما زرعاً** ﴾ فكانت الأرض جامعة للأقوات والفواكه ، والوصف يشير إلى أن العمارة كانت متواصلة متشابكة ، لم يتوسطها مايقطعها ، مع الشكل الحسن ، والترتيب الأنيق ﴿ **كلتا الجنتين آتت أكلها** ﴾ أي أعطت ثمرها ﴿ **ولم تظلم منه شيئاً** ﴾ أي ولم تنقص من أكلها شيئاً ﴿ **وفجّرنا خلالهما نهراً** ﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما ، ههنا وههنا ، وصفها بوفرة الثمار ، وتمام الأكل من غير نقص . ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب ، فكان أفضل مايسقى به وهو النهر الجاري ﴿ **وكان له ثمر** ﴾ أي وكان له ثمر وكان لصاحب الجنتين أنواع من المال أخرى يثمرها ، من الذهب والفضة ، وبالجملة فقد أوتي من كل زينة الحياة الدنيا ﴿ **فقال لصاحبه** ﴾ المسلم ﴿ **وهو يحاوره** ﴾ أي يراجعه الكلام وهو يطوف به في الجنتين ، ويريه مافيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه ﴿ **أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً** ﴾ أي وأعز أنصاراً وحشماً ، أو أعز أولاداً ذكوراً

﴿ **ودخل جنته** ﴾ أي إحدى جنتيه ، أو سماهما جنة لاتحاد الحائط أو لاتحاد النهر ﴿ **وهو ظالم لنفسه** ﴾ أي وهو ضار لها بالكفر والتمرد والتكبر والتجبر وإنكار المعاد ﴿ **قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً** ﴾ أي ما أظن أن تهلك هذه الجنة أبداً ، وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار ، والأشجار والأنهار ، المطّردة في جوانبها وأرجائها ، ظنّ أنها لا تفنىٰ ولا تفرغ ، ولا تهلك ولا تتلف ، وذلك لقلة عقله ، وضعف يقينه بالله ، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها ، وكفره بالآخرة ، وهكذا شك في بيدودة جنته لطول أمله ، وتمادي غفلته ، واغتراره بالمهلة ﴿ **وما أظن الساعة قائمة** ﴾ أي كائنة ﴿ **ولئن رُددتُ إلى ربي لَأجدنَّ خيراً منها منقلباً** ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ، ومرد إلى الله ، ليكونن لي هناك أحسن من هذا ، لحظي عند ربي ، فلولا كرامتي عليه ماأعطاني هذا . وهذا من فرط جهله بشأن الله ، وحقيقة امتحانه ، والمنقلب : هو المرجع والعاقبة ﴿ **قال له صاحبه** ﴾ المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿ **وهو يحاوره** ﴾ أي وهو يراجعه الكلام ويجادله ﴿ **أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلاً** ﴾ جعله كافراً بالله لشكّه بالبعث ، فدلّ ذلك على أنّ الإيمان بالبعث فرع الإيمان بالله ﴿ **لكنّا هو الله ربي** ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿ **ولا أشرك بربي أحداً** ﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له . ثم نبهه على واجبه تجاه النعمة ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله** ﴾ هذا تحضيض منه وحث على قول ذلك . أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ماأنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد مالم يعطه غيرك ، وقلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله . أي الأمر ماشاء الله ، أو أي شيء شاء الله كان ، أي هلا قلت الأمر ماشاء ، اعترافاً بأنها وكل مافيها إنما حصل بمشيئة الله ، وأن أمرها بيده ، إن شاء تركها عامرة ، وإن شاء خرّبها ، وقلت لا قوة إلا بالله ؛ إقراراً بأن ماقويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونته وتأييده ﴿ **إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي يؤتين خيراً من جنتك** ﴾ في الدنيا أو في العقبى ﴿ **ويرسل عليها** ﴾ أي على جنتك التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنىٰ ﴿ **حسباناً من السماء** ﴾ أي عذاباً من السماء ﴿ **فتصبح صعيداً زلقاً** ﴾ أي أرضاً بلقعاً لا يثبت فيها قدم ﴿ **أو يصبح ماؤها غوراً** ﴾ أي غائراً في الأرض ﴿ **فلن تستطيع له طلباً** ﴾ أي فلا يتأتى منك طلبه فضلاً عن إيجاده . والمعنى : إن ترن أفقر منك ، فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب مابي ومابك من الفقر والغنى ، فيرزقني لإيماني جنة خيراً من جنتك . ويسلبك لكفرك

نعمته ، ويخرِّب بساتينك ﴿ **وأحيط بثمره** ﴾ أي بأمواله أو بثماره ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ماكان خوّفه به المؤمن ، من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها ، وألهته عن الله عز وجل ﴿ **فأصبح يُقلّب كفَيْه** ﴾ أي يضرب إحداهما على الأخرى ندماً وتحسّراً ﴿ **على ماأنفق فيها** ﴾ أي في عمارتها ﴿ **وهي خاوية على عروشها** ﴾ الخاوية الخالية والمراد بها هنا الساقطة يعني أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض ، وسقطت فوقها الكروم ﴿ **ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحداً** ﴾ هنالك تذكّر موعظة المسلم ، فعلم أنّه أتي من جهة كفره وطغيانه ، فتمنّى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه حين لا ينفعه التمنّي ، ويجوز أن يكون كلامه توبة من الشرك وندماً على ماكان منه ، ودخولاً في الإيمان ﴿ **ولم تكن له فئة** ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿ **ينصرونه من دون الله** ﴾ أي يقدرون على نصرته من دون الله ، أي هو وحده القادر على نصرته ، لايقدر أحد غيره أن ينصره ، إلا أنه لم ينصره لحكمة ﴿ **وماكان منتصراً** ﴾ أي وماكان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله ﴿ **هنالك** ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال ﴿ **الوَلَاية لله الحق** ﴾ أي النصرة لله وحده ، لايملكها غيره ، ولايستطيعها أحد سواه . ويمكن أن يكون المعنى : كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله ، وإلى موالاته ، والخضوع له في هذا المقام ، ويمكن أن يكون المعنى : في هذا المقام ينصر الله أولياءه المؤمنين على الكفرة ، وينتقم لهم ، يعني أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصدّق فيه قوله : ﴿ **ويرسل عليها حسباناً من السماء** ﴾ ﴿ **هو خير ثواباً** ﴾ أي جزاءً ﴿ **وخير عقباً** ﴾ أي وخير عاقبة .

كلمة في السياق :

تأتي هذه القصة في سياق السورة بما ينسجم مع مقدمتها : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيُّهم أحسن عملاً * وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً** ﴾

فهذان رجلان أحدهما غرّته زينة الحياة الدنيا ؛ فرسب وعوقب . والثاني زهد في الحياة الدنيا فنجح ونُصر .

والقصة تأتي بعد المقطع الأول الذي أمر الله فيه رسوله ﷺ أن يصبر نفسه مع أهل الإيمان تاركاً أهل الدنيا ، ففيها تأكيد على ضرورة ذلك ، وفي القصة نموذج على محاولات أهل الإيمان مع أهل الدنيا ، وكيف أنهم ينكرون عليهم غفلتهم وكفرهم ، ويذكّرونهم بالله ربهم .

والقصة تبين أن الاغترار بزينة الحياة الدنيا يؤدي إلى الكفر كما تبين جهل من يتصور أن إعطاء الله الحياة الدنيا علامة كرامة دائماً ، قد يكون الأمر كذلك ، وقد لايكون ، وفي خاتمة القصة إذ تصبح الجنة صعيداً زلقاً تذكير بالنهاية الكلية للدنيا كلها ، وللأرض كلها يوم القيامة . وندم صاحب الجنة في هذا المقام أقل بكثير من الندم يوم القيامة . فالمثل إذن يخدم سياق السورة ، إذ يعرض فشل إنسان في الاختبار بتزيين الحياة الدنيا ، ونجاح إنسان . والقصة تخدم السياق الكلي للقرآن :

فسورة الكهف تفصل محورها من سورة البقرة وهو :

﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ وقد رأينا في القصة كيف كانت الحياة الدنيا مزينة للكافر ، وكيف كان يسخر من المؤمن ، ويترفّع عليه ويفتخر . وقد عرضت لنا القصة نوعاً من أنواع فوقية المؤمن على الكافر ، حتى في الحياة الدنيا ، فضلاً عن الآخرة . ﴿ **والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ﴾ ومن ثم ختمت القصة بقوله تعالى : ﴿ **هو خير ثواباً وخير عقباً** ﴾ . وكل ذلك يخدم موضوع الدخول في الإسلام كله ، إذ العبرة للخواتيم ، والخواتيم لأهل الإيمان .

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله** ﴾ يذكر ابن كثير أن بعض السلف فهموا من هذه الآية أن تحصين النعم يكون بهذه الكلمة قال :

(ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل : ماشاء الله لا قوة إلا بالله ، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة . روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده .. عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ماأنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ماشاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » . وكان يتأوّل هذه الآية ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله** ﴾ وروى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا قوة إلا بالله » . في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » . وروى الإمام أحمد .. عن أبي هريرة قال : قال لي رسول الله ﷺ : « ياأبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ قال : قلت : نعم فداك أبي وأمي : « قال : أن تقول : لا

قوة إلا بالله » قال أبو بلخ (وهو أحد رواة هذا الحديث) : وأحسب أنه قال فإن الله يقول أسلم عبدي واستسلم » .

ولنعد إلى سياق المقطع :

فبعد أن ضرب الله مثلاً قصة الرجلين ، يأمر الله رسوله ﷺ أن يضرب مثلاً للحياة الدنيا .

﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا** ﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿ **كماءٍ أنزلناه من السماء** ﴾ أي السحاب ﴿ **فاختلط به نباتُ الأرض** ﴾ أي فالتف بسبب الماء ونما حتى خالط بعضه بعضاً ، أو أثّر في النبات الماء ؛ فاختلط به حتى روي ، أي فاختلط بالماء مافيها من الحب ، فشب وحسن ، وعلاه الزهر والنور والنضرة ، ثم بعد هذا كله ﴿ **فأصبح هشيماً** ﴾ أي يابساً ﴿ **تذروه الرياح** ﴾ أي تفرّقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿ **وكان الله على كل شيء** ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿ **مقتدراً** ﴾ أي قادراً . أي هو قادر على هذه الحال ، وهذه الحال ، شبّه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها ، ومايتعقبها من الهلاك والإفناء ، بحال النبات يكون أخضر ، ثم يهيج فتطيّره الريح ، كأن لم يكن .

كلمة في السياق :

رأينا أن آخر آيتين في مقدمة سورة الكهف هما :

﴿ **إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً** ﴾ وهذا المثل الذي مَرَّ معنا إنما هو توضيح لحقيقة الدنيا في كون ماعلى الأرض زينة ، ولكنه إلى انقضاء .

فالآية تمضي على النسق الكلي لسياق السورة . ثم ذكر الله عز وجل أعظم زينة الحياة الدنيا : وهو المال والولد ، مبيناً أن خيراً من المال والولد ، الباقيات الصالحات .

﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات** ﴾ أي أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان ، أو الصلوات الخمس ، أو سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ﴿ **خير عند ربك ثواباً** ﴾ أي جزاءً ﴿ **وخير أملاً** ﴾ لأنه وعد صادق ، وأكثر الآمال كاذبة ، يعني أن صاحب الباقيات الصالحات أمله في ثواب الله في الدنيا والآخرة ، أحسن من أمل ذلك الذي يأمل خدمة ماله أو أولاده ، فإذا كان خير ما

في هذه الدنيا هذا شأنه ، فعلى العاقل أن يكون أكثر حرصه على الباقيات الصالحات ، لأنها هي التي تدل على أن صاحبها طالب للآخرة ، وتدل على أنه قد وضع الدنيا موضعها الحقيقي وأعطاها قيمتها الحقيقية ، ومن تأمل حال المال والولد ، رأى كيف أن مآلها إلى الزوال كحال كل ماهو من هذه الدنيا .

ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن يذكّر عشاق الحياة الدنيا المفتونين بها الكافرين في الآخرة بمشهد من مشاهد يوم القيامة لعل ذلك ينفعهم .

﴿ **ويوم نُسَيِّرُ الجبال** ﴾ أي واذكر يوم نُسَيِّرُ الجبال في الجو ، أو بأن نجعلها هباءً منثوراً منبثاً ، أي يوم تذهب من أماكنها وتزول ﴿ **وترى الأرض بارزةً** ﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ، ولا مكان يواري أحداً ، ولا حجر ولا بناء ولا شجر ، أي ليس عليها مايسترها مما كان عليها من الجبال والأشجار ، فإذا تذكرنا ﴿ **وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً** ﴾ أدركنا أن الصلة بين هذا المشهد وبين مقدمة سورة الكهف قائمة ﴿ **وحشرناهم فلم نغادر** ﴾ أي فلم نترك ﴿ **منهم أحداً** ﴾ أي وجمعنا الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحداً ، لا صغيراً ولا كبيراً . قال النسفي : وإنما قال : ﴿ **وحشرناهم** ﴾ ماضياً بعد (**نسيّر**) و (**ترى**) للدلالة على حشرهم قبل التسيير ، وقبل البروز ؛ ليعاينوا تلك الأهوال ، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك ﴿ **وعُرِضوا على ربك صفاً** ﴾ أي مُصطَفِّين ظاهرين ، تَرَى جماعتهم كما تَرَى كل واحد ، لا يحجب أحد أحداً ﴿ **لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مَرَّة** ﴾ أي لقد بعثناكم كما أنشأناكم أول مَرّة أو جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أولاً ، وهذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم ﴿ **بل زعمتم أَلَّنْ نجعل لكم موعداً** ﴾ أي بل زعمتم أَلَّن نجعل لكم وقتاً لإنجاز ماوعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور ، أي ماكان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن ﴿ **وَوُضِعَ الكتاب** ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير ، والفتيل والقطمير ، والصغير والكبير ﴿ **فترى المجرمين مشفقين** ﴾ أي خائفين ﴿ **مما فيه** ﴾ من الذنوب التي واقعوها من الأعمال السيئة ، والأفعال القبيحة ﴿ **ويقولون ياويلتنا** ﴾ أي ياحسرتنا وويلنا على مافرَّطنا في أعمارنا ﴿ **مالهذا الكتاب لايُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها** ﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً - وإن صغر - إلا أحصى جميع ذلك ، أي ضبطها وحفظها ﴿ **ووجدوا ماعملوا** ﴾ من خير وشر ﴿ **حاضراً** ﴾ في

الصحف ﴿ **ولايظلم ربك أحداً** ﴾ فيكتب عليه مالم يعمل ، أو يزيد في عقابه ، أو يعذبه بغير جرم . فهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم .

كلمة في السياق :

إن هذه المجموعة الأخيرة في المقطع تذكّر وتعظ وتربي على الزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، وتظهر مقدار الذلة التي يكون عليها الكافرون يوم القيامة .

فإذا تذكّرنا محور سورة الكهف من البقرة ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقَوْا فوقهم يوم القيامة** ﴾ نجد ما مَرّ معنا مرتبطاً به بشكل ما ، وبما يخدم الدخول في الإسلام كله ، واجتناب خطوات الشيطان .

فوائد :

١ ـ رأينا أن للمفسرين أكثر من قول في تفسير الباقيات الصالحات . والحقيقة أن كل ما قالوه يدخل في مضمون الباقيات الصالحات . فالعمل الصالح باق عند الله ، والأعمال الصالحات باقيات عند الله ، ويدخل في الأعمال الصالحات كل ما قالوه . وقد ذكر ابن كثير الاتجاهات في تفسير الباقيات الصالحات . قال : « قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف (الباقيات الصالحات) : الصلوات الخمس ، وقال عطاء بن أبي رباح ، وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس (الباقيات الصالحات) : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان عن (الباقيات الصالحات) ما هي ؟ فقال : هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وروى الإمام أحمد ... عن الحارث مولى عثمان رضي الله عنه قال : جلس عثمان يوماً وجلسنا معه ، فجاءه المؤذن ، فدعا بماء في إناء ، أظنه سيكون فيه مُدّ ، فتوضأ ثم قال : رأيتُ رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ، ثم قال : « من توضأ وضوئي هذا ، ثم قام فصلى صلاة الظهر ، غفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غُفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر ، ثم صلى العشاء غُفر له ما بينها وبين المغرب ، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح ، غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهنّ الحسنات يذهبن السيئات » قالوا : هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان ؟ قال : هى لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وروى مالك عن عمارة بن عبد الله بن صياد ، عن

سعيد بن المسيب قال : (الباقيات الصالحات) : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال : سألني سعيد بن المسيب عن (الباقيات الصالحات) فقلت : الصلاة والصيام فقال : لم تصب . فقلت: الزكاة والحج فقال : لم تصب ولكنهن الكلمات الخمس لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولاقوة إلا بالله . وروى ابن جريج ... عن نافع بن سرجس أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن (الباقيات الصالحات) قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال ابن جريج : وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك ، وقال مجاهد : (الباقيات الصالحات) سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وروى عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الحسن وقتادة في قوله ﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ قال: لا إله إلا الله ، والله أكبر،والحمد لله ، وسبحان الله : هنّ الباقيات الصالحات ، روى ابن جرير : .... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، هن الباقيات الصالحات » . وروى أيضاً .... عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات » قيل وما هي يا رسول الله ؟ قال:« الملة » ، قيل: وما هي يارسول الله؟ قال: «التكبير، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

قال ابن وهب أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن مولى سالم بن عبد الله حدثه قال : أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي في حاجة ، فقال : قل له : القَنِي عند زاوية القبر ، فإن لي إليك حاجة ، قال : فالتقيا ، فسلّم أحدهما على الآخر ، ثم قال سالم : ما تعد الباقيات الصالحات ؟ فقال:لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال له سالم : متى جعلت فيها « لا حول ولا قوة إلا بالله » ؟ قال : مازلت أجعلها قال : فراجعه مرتين - أو ثلاثاً - فلم ينزع ، قال فأثبت ؟ قال سالم : أجل فأُثْبِت ؛ فإن أبا أيوب الأنصاري حدثني أنّه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول : « عرج بي إلى السماء فرأيت إبراهيم عليه السلام ، فقال: ياجبريل من هذا الذي معك ؟ فقال : محمد ، فرحّب بي وسهّل ، ثم قال : مر أمّتك فلتكثر من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة ، وأرضها واسعة ، فقلت : وما غراس الجنة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وروى الإمام أحمد ... عن رجل من آل النعمان بن بشير قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء ، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء ثم ، قال : « أما إنه سيكون بعدي أمراء ، يكذبون ويظلمون ، فمن صدّقهم بكذبهم ومَالأهم على ظلمهم ، فليس مني ولا أنا منه ، ومن لم يصدّقهم بكذبهم ، ولم يمالئهم على ظلمهم ، فهو مني وأنا منه . ألا وإن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، هنّ الباقيات الصالحات » .

وروى الإمام أحمد ... عن مولى لرسول الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : « بخ بخ لخمس ما أثقلهنّ في الميزان : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والولد الصالح يُتوفّى فيحتسبه والده - وقال - بخ بخ لخمس : من لقي الله مستيقناً بهنّ ، دخل الجنة : يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وبالجنة ، وبالنار ، والبعث بعد الموت ، وبالحساب ».

وروى الإمام أحمد ... عن حسان بن عطية قال : كان شدّاد بن أوس رضي الله عنه في سفره ، فنزل منزلاً فقال لغلامه : « ائتنا بالسفرة نعبث بها » فأنكرت عليه فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخصمها وأزمها غير كلمتي هذه ، فلا تحفظوها عليّ ، واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة ، فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكرَ نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت عَلّام الغيوب » . وروى الطبراني : .... عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال : كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف ، فخرجت من أهلي من السراة غدوة ، فأتيت منىً عند العصر ، فتصاعدت في الجبل ثم هبطت ، فأتيت النبي ﷺ فأسلمت وعلّمني ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ . و ﴿ **إذا زلزلت** ﴾ وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر وقال : « هن الباقيات الصالحات » . وبنفس الإسناد : « من قام من الليل فتوضأ ومَضمض فاه ثم قال : سبحان الله ، مائة مرة ، والحمد لله مائة مرة ، والله أكبر مائة مرة ، ولا إله إلا الله مائة مرة ، غفرت ذنوبه إلا الدماء ، فإنها لا تبطل » . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ قال : هي ذكر الله ، قول لا إله إلا الله ،

والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وتبارك الله ، ولا حول ولاقوة إلا بالله ، وأستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله ، والصيام ، والصلاة ، والحج ، والصدقة ، والعتق ، والجهاد ، والصلة ، وجميع أعمال الحسنات ، وهن الباقيات الصالحات ، التي تبقى لأهلها في الجنة ، ما دامت السمٰوات والأرض . وقال العوفي عن ابن عباس : هي الكلام الطيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير رحمه الله . »

ولنلاحظ بخاصة ما ذكر ابن كثير من حديث الإمام أحمد : « أما إنه سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون ، فمن صدّقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم ، فليس مني ولا أنا منه ومن لم يصدّقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ..... »

فإن في هذا الحديث نوراً خاصاً تضاء به ظلمات معاصرة .

٢ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ يذكر ابن كثير ما رواه الطبراني عن سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين ، نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي ﷺ : « اجمعوا ، مَن وجد عُوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به ، قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً ، فقال : النبي ﷺ : « أترون هذا ؟ فكذلك تُجمع الذنوب على الرجل منكم ، كما جمعتم هذا ، فليتق الله رجل ، ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، فإنّها محصاة عليه » .

٣ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ووجدوا ما عملوا حاضراً** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث المخرج في الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال : « لكل غادرٍ لواء يوم القيامة يعرف به » .

٤ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ ، فاشتريت بعيراً ثم شدّدت عليه رحلاً ، فسرت عليه شهراً ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب فقال : ابن عبد الله ؟ قلت: نعم ، فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموتَ ، أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ

يقول : « يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة » - أو قال العباد عراة غرلاً بُهْماً » قلت وما بُهْماً ؟ قال : « ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد ، كما يسمعه من قُرب : أنا الملك ، أنا الديّان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق ، حتى أقصّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصّه منه ، حتى اللطمة قال : قلنا كيف وإنما نأتي الله عز وجل حفاة عراة غرلاً ؟ قال : بالحسنات والسيئات » .

وقفة حول ما مَرَّ من السورة :

بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيّماً** ﴾ وقد رأينا فيما عرضته السورة نموذجاً على استقامة ما يدعو إليه الكتاب ، وعلى استقامة كل ما فيه من معنى ، أو لفظ ، أو أسلوب ، ثم قال تعالى : ﴿ **لينذر بأساً شديداً من لدنه** ﴾ وقد رأينا في السورة نماذج من الإنذار ، إنْ في التذكير بالنار، أو في التذكير بالعذاب الدنيوي في قصة أصحاب الجنتين، أو في عرض مايكون يوم القيامة ، ثم قال تعالى : ﴿ **ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً** ﴾ وقد رأينا فيما عرض الله ما أعده للمؤمنين الذين يعملون الصالحات . ثم قال : ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ماهم به من علم ولا لآبائهم كَبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً** ﴾ولا نجد أنه عرض لهذا الموضوع بعد ذلك ، فكأنه موضوع انتهى الكلام فيه ثم قال : ﴿ **فلعلَّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً** ﴾ ونلاحظ أن السورة في مقاطعها ، ومجموعاتها ، تخاطب رسول الله ﷺ : (أم حسبت) ، (ولا تقولن) ، (واتل) ، (واصبر) ، (وقل) ، (واضرب) « واذكر » المقدّرة ، ثم ويسألونك ، ثم قل ، فالسورة تسري عن رسول الله ﷺ ، وتوجهه لما ينبغي فعله أمام المواقف الكافرة . ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً** ﴾ ورأينا أن قصة أهل الكهف ، وما جاء بعدها ، وقصة أصحاب الجنتين ، والمثل الذي ضربه الله للحياة الدنيا ، وعرض ما يكون من حال يوم القيامة ، كل ذلك يخدم الآيتين . وقد رأينا ارتباط ذلك كله بمحور السورة من البقرة ، فالصلة إذن ما بين مقدمة السورة ومضمونها واضحة ، والصلة بين السورة ومحورها من البقرة واضحة .

والآن يصل السياق إلى مقطع جديد ، يخاطب به هؤلاء الذين زُينت لهم الحياة الدنيا فيُنذرون كرّة أخرى ، وتقام عليهم الحجة ، ويعلّل فيه للهداية وللضلال ، ولتأخير العذاب ، وهي مواضيع تخدم - كما سنرى - سياق السورة ، وتخدم محورها ، وخاصة موضوع اجتناب خطوات الشيطان ، وسنرى هذا بالتفصيل - إن شاء الله تعالى - وهذا هو المقطع :



المقطع الثالث

ويمتد من الآية (٥٠) إلى نهاية الآية (٥٩) وهذا هو :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ
أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ
ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ
وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟
هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى
ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا

كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

التفسير :

﴿ **وإذ قلنا** ﴾ أي واذكر إذ قلنا ﴿ **للملائكة** ﴾ أي لجميعهم ﴿ **اسجدوا لآدم** ﴾ أي سجود تشريف وتكريم ﴿ **فسجدوا إلا إبليس كان من الجن** ﴾ قال ابن كثير : أي خانه أصله ، فإنه خُلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه ، وخانه (أي إبليس) الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه كان توسّم بأفعال الملائكة ، وتشبّه بهم وتنسّك . فلهذا دخل في خطابهم ، وعصى بالمخالفة ، ونبه تعالى على أنه من الجن أي على أنه خلق من نار كما قال : ﴿ **أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ (الأعراف : ١٢) قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر ، رواه ابن جرير بإسناد صحيح ﴿ **فَفَسق عن أمر ربه** ﴾ أي فخرج عن طاعة الله ، ثم قال تعالى مقرِّعاً ، وموبِّخاً لمن اتبعه وأطاعه : ﴿ **أفَتتخِذونه وذريته أولياء من دوني** ﴾ أي بدلاً عني ، والاستفهام للإنكار والتعجب ، كأنه قيل : أعقيب ما وجد منه تتخذونه وذريته أولياء من دوني ، وتستبدلونهم بي ﴿ **وهم لكم عدو** ﴾ أي والحال أنهم لكم أعداء ﴿ **بئس للظالمين بَدَلاً** ﴾ أي بئس البدل ، إبليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله ﴿ **ما أشهدتهم** ﴾ أي ما أشهدت إبليس وذريته ﴿ **خلق السمٰوات والأرض** ﴾ يعني أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة ، وإنما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية ، فنفيُ مشاركتهم في الإلهية ، بنفي شهودهم خلق السموٰات والأرض ، لعدم احتياجه إليهم ، لا في الخلق ولا في المشاورة ﴿ **ولا خلق أنفسهم** ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ﴿ **وما كنتُ متخذ المضلين عَضُداً** ﴾ أي وما كنت متخذهم عضداً : أي أعواناً ، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة . فالمعنى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ، ومدبّرها ، ومقدّرها وحدي ، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ، ولا مشير ولا نظير ، فكيف تتخذون عبيداً أمثالكم أولياء من

دوني ، وهم لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلق السمٰوات والأرض ، ولا كانوا إذ ذاك موجودين .

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنتُ متخذ المضلين عضداً** ﴾ نقول : إن من أهم أسباب الضلال في العصور عامة وفي عصرنا خاصة النظريات الخاطئة في أصل نشأة الكون ، ونشأة الإنسان ، ولذلك ركّزنا على هذا الموضوع في ظاهرتي الحدوث والحياة من كتابنا (الله) جل جلاله ، إن نظريات داروين مثلاً ، والنظريات التي تقول بقدم المادة ، من أهم مايتكأ عليه الملحدون في إلحادهم ، مع أن هذه النظريات كلها منقوضة بحقائق علمية لا تقبل جدلاً ، وقد كتب الكثير حول هذا الموضوع : وبين يدّي كتاب لطيف اسمه (الحجج العصماء في نقض نظرية داروين في النشوء والارتقاء) يذكر فيه مؤلفه إحدى عشرة حجّة تدحض هذه النظرية ، منها قضية الصبغيات ، وناقلات الوراثة ، ومنها عدم التزاوج بين الأنواع ، ومنها طبقات الأحياء في طبقات الأرض ، إلى غير ذلك مما ذكره ، جزاه الله خيراً ، وقد أشرنا إلى مثل هذه الأمور وغيرها عند الكلام عن ظاهرة الحياة كما ذكرنا ، وإن الآية التي ذكرناها لمعجزة في سياقها تدحض هذا الزلل ﴿ **ما أشهدتهم خلق السمٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾

كلمة في السياق :

ما محل التذكير بهاتين الآيتين في السياق الخاص لسورة الكهف ؟ وما محل التذكير بهاتين الآيتين في السياق العام ؟ :

إن اتخاذ الشيطان ولياً هو بداية الشر في كل شأن ، هو بداية الكفر ، وهو بداية الفسوق ، وهو بداية كل فكرة ظالمة أو كافرة ، وبداية السير في طريق كل شهوة خاسرة ، وهو العامل في تزيين الحياة الدنيا ، واتباع خطراته هي الفسوق عن أمر الله ، ومن ثم خوطب الخلق ليتحرروا من ولايته . وأقيمت عليهم الحجة في أن الله وحده هو الولي ، ومظهر ولايته الاستسلام له وحده في كل شيء . بالدخول في دينه ، فإذا عرفنا هذا أدركنا محل الآيتين في السياق الخاص للسورة ، والسياق العام للقرآن .

وبعد أن بين الله عز وجل أن هؤلاء الذين اتخذهم الكافرون أولياء ، كما أنهم ليس لهم علاقة في الخلق ، فكذلك لا حول لهم ولا طول يوم القيامة ، فَخَلْقٌ هذا شأنهم كيف يُتخذون آلهة وأرباباً وأولياءً ! .

....

﴿ **ويوم يقول** ﴾ أي للكفار تقريعاً لهم وتوبيخاً ، على رؤوس الأشهاد ﴿ **نادوا شركائيَ الذين زعمتم** ﴾ في دار الدنيا ، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه ﴿ **فدعَوْهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم مَوْبقاً** ﴾ أي مهلكاً ، أي وجعلنا بينهم وبين من اتخذوهم أولياء مكان هلاك وعذاباً شديداً . وفي الآية أقوال أخرى . قال ابن كثير في تفسير الموبق : والظاهر من السياق ههنا أنه المهلك ، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم ، أو غيره . والمعنى : أن الله تعالى بيّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين : ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا : وأنّه يفرّق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير ﴿ **ورأى المجرمون النار فظنوا** ﴾ أي أيقنوا ، واستعمال كلمة الظن هنا للإشعار بأن أنفسهم تريد أن تهرب من الحقيقة ﴿ **أنهم مواقعوها** ﴾ أي مخالطوها وواقعون فيها . قال ابن كثير في الآية : تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ، ليكون ذلك من باب تعجيل الهمّ ، والحزن لهم فإنّ توقُّع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز ﴿ **ولم يجدوا عنها مصرفاً** ﴾ أي معدلًا ، أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولا بُدلهم منها . وهذه المعاينة لجهنم تكون عندما يؤتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك . فهذه هي عاقبة اتخاذ الشيطان ولياً من دون الله .

كلمة في السياق :

دلت الآيات على أن نقطة الخطأ التي لا أكبر منها ، هي اتخاذ الشيطان ولياً من دون الله ، فهي نقطة الخطأ العقلي ، والسلوكي التي توصل إلى النار ، وما أصعب النار ، وما أشدها ، وما أصعب ما قبلها من خزي وذلة وانتظار ، وما أشده ، فليجتنب الإنسان اتباع خطوات الشيطان ، وليحذر أن يكون من جنده الذين زين لهم الحياة الدنيا ، وجعلهم يسخرون من أهل الإيمان ، مع أن أهل التقوى هم الذين لهم العاقبة ، وهم فوقهم يوم القيامة .

وقد فسر بعض المفسرين ﴿ **وجعلنا بينهم موبقاً** ﴾ أي جعل الله بين المشركين ومن

عبدوهم من الملائكة وعزير وعيسى أمداً بعيداً ، لأن الكافرين في قعر جهنم ، وهم في أعلى الجنان : فتكون المجموعة على هذا التفسير تخدم قوله تعالى من محور السورة في البقرة ﴿ **والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ﴾ .

وفي هذا المقام مقام إقامة الحجة على المشركين - يذكر الله عز وجل نعمته على خلقه بهذا القرآن ، وطبيعة الإنسان التي تصرفه عن الاستفادة الكاملة من هذا القرآن ، قال تعالى : ﴿ **ولقد صرّفنا** ﴾ أي كررنا وبيَّنا ﴿ **في هذا القرآن للناس من كل مثل** ﴾ يحتاجون إليه ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾ أي وكان الإنسان أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد ، خصومة ومماراة بالباطل ، يعني أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء ، جاءت هذه الآية بعد أن بيّن الله عاقبة الذين اتخذوا الشياطين أولياء ، مبيناً فيها أنه قد وضّح لهم في هذا القرآن الأمور ، وفصّلها ، كي لا يضلّوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان في هذا القرآن ، فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هداه الله وبصّره ، ولقد رأينا في هذه السورة ، كم من مثل ضربه الله لينقل الإنسان إلى الحال الأعلى ، ورأينا نموذجاً على جدال الإنسان بالباطل في بعض هذه الأمثال ، إن هذا المقطع يعكس أنواره على كل ما سبقه من السورة ، وإذ قرّر الله في الآية خاصية هذا القرآن ، وطبيعة هذا الإنسان ، يبيّن في الآيتين اللاحقتين ، أنه جل جلاله ما ترك مانعاً يمنع أحداً من الإيمان إلا هدّمه ، لولا طبيعة الإنسان الكافر فقال : ﴿ **وما مَنَعَ الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى** ﴾ أي جاءتهم أسبابه وهي الكتاب أو الرسول أو الوحي ﴿ **ويستغفروا ربهم** ﴾ على ما فرّطوا في جنابه ﴿ **إلا أن تأتيهم سنّة الأولين** ﴾ وهي الإهلاك ﴿ **أو يأتيهم العذاب قُبُلًا** ﴾ أي عياناً أو أنواعاً ، أي إن الآيات من الدلالة والوضوح ، بحيث لا تبقي مانعاً يمنع من الإيمان ، ولكنها الطبيعة الجحود التي لا تصدق إلا إذا أهلكت ، أو رأت عذاب الآخرة ، فهي لا تصدق ما أنذرها به الرسل حتى يقع ، والرسُل مهمتهم التبشير والإنذار ليس إلا ، وقد جعل الله معهم كل ما تقوم به الحجة ، ولكن طبيعة الكفر تحول دون القبول ﴿ **وما نُرسل المرسَلين إلا مبشّرين ومنذرين** ﴾ مبشّرين لمن آمن بهم وصدقهم ، ومنذرين لمن كذّبهم وخالفهم ﴿ **ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحِضُوا به الحق** ﴾ أي ليزيلوا ويبطلوا ويضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ، دلّ هذا على أن ما بُعث به الرسل هو الحق ، وأنه لا حجة لكافر ، وإنما جداله للباطل وبالباطل ﴿ **واتخذوا** ﴾ أي الكافرون ﴿ **آياتي** ﴾ أي الحجج

والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ﴿ **وما أنذروا** ﴾ أي وما أنذرهم به الرسل ، وخوّفوهم به من العذاب في الدنيا والآخرة ﴿ **هُزُواً** ﴾ أي موضع استهزاء .

كلمة في السياق :

جاءت هاتان الآيتان بعد قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرَّفنا في هذا القرآن للناس من كل مَثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾ وظهر من خلالهما أن الكافر هو الذي يجادل بالباطل ، فهو الذي يحاول إزالة هذا القرآن وإضعافه ، وأن هذا القرآن لم يُبق حجة لأحد ، وأن الكافرين اجتمع لهم - مع محاولاتهم دحض حجج الحق - أنهم يتخذون الإنذار محل هزؤ ، فإذا تذكّرنا مقدمة سورة الكهف ، وأنّ هذا القرآن مبشّر ومنذر ، عرفنا محل هذه الآيات في السياق الخاص لسورة الكهف ، وأن الأمثلة التي سبقتها تخدمها ، وهي تخدم ما قبلها بشكل مباشر ، وكما تخدم سياق سورة الكهف ، فهي تخدم محورها من سورة البقرة ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ إذ بينت أن الكافرين يستهزؤون بآيات الله ، وبنُذره ، واستهزاؤهم بذلك استهزاء بمن ظهرت معه الآيات والنذر ، وهم المرسلون أسياد المؤمنين ، فهذا نوع بيان وتفصيل لقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ وإذ يقف الكافرون من آيات الله هذا الموقف ، مكذبين ومستهزئين ورافضين للإيمان والاستغفار ، مع وضوح الحجة وقيامها ، وكرامة الرسل عليهم الصلاة والسلام وفضلهم ، بيّن الله عز وجلّ في الآية اللاحقة أنه لا أظلم من هؤلاء .

....

﴿ **ومن أظلم ممّن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها** ﴾ فلم يتذكّر ولم يتدبّر ولم يؤمن ﴿ **ونسيَ** ﴾ عاقبة ﴿ **ما قدّمت يداه** ﴾ من الكفر والمعاصي ، غير متفكر فيها ولا ناظر ولا مستغفر . ثم عَلّل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ، بسبب أعمالهم ومواقفهم ﴿ **إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة** ﴾ أي أغطية ﴿ **أن يفقهوه** ﴾ أي لئلا يفهموا هذا القرآن الذي فصّله الله وصرّفه ، وضرب فيه من كل مثل ﴿ **وفي آذانهم وقراً** ﴾ قال ابن كثير : أي صمماً معنوياً عن الرشاد . قال النسفي أي : ثقلاً عن استماع الحق ﴿ **وإن تدعهم إلى الهدى** ﴾ أي إلى الإيمان ﴿ **فلن يهتدوا إذاً أبداً** ﴾ أي فلا يكون منهم اهتداء البتة ، وحتى لا يظن ظان ، أنّ جعل الحجاب على قلوبهم ، والوقر في آذانهم ، ظلماً أو قسوة ، بيّن تعالى أنه الغفور ذو الرحمة الواسعة ، فلم يعاقبهم هذا العقاب إلا لاستحقاقهم الكامل له .

﴿ **وربك الغفور** ﴾ أي البليغ المغفرة ﴿ **ذو الرحمة** ﴾ أي الموصوف بالرحمة وعلامة رحمته عدم تعجيل العذاب ﴿ **لويؤاخذهم بما كسبوا لَعَجَّل لهم العذاب** ﴾ فعدم تعجيله العذاب دليل رحمته ومغفرته ، فإنه يحلم ويستر ويغفر ويمهل ، ولكن من كمال رحمته أنه لا يهمل . فالرحمة الدائمة في الكافرين متعبة للمؤمنين الذين هم عباده وأولياؤه ، ومن ثم فلكل كافر مَوعد ﴿ **بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً** ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل ، وكمثال على ذلك فعله في الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿ **وتلك القرى** ﴾ أي أصحابها ﴿ **أهلكناهم** ﴾ بسبب كفرهم ﴿ **لَمَّا ظلموا** ﴾ أي حين ظلموا ﴿ **وجعلنا لمَهْلِكِهم موعداً** ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ، ووقت معيّن ، لا يزيد ولا ينقص ، أي وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوماً ، لا يتأخرون عنه ، فتلك سنته تعالى . فليحذر الكافرون في كل زمان ومكان .

كلمة في المقطع :

لو أردنا أن نترجم هذا المقطع لأوامر لفهمنا منه الأوامر التالية :

١ ــ اتخِذُوا الله ولياً ، ولا تتخذوا الشيطان ولياً ، ولا تشركوا بالله شيئاً .

٢ ــ اهتدوا بهدى القرآن ولا تجادلوا بالباطل لتدحضوه .

٣ ــ آمنوا بالله واستغفروه .

٤ ــ لا تسخروا بآيات الله ولا تستهزؤوا بنُذُره .

٥ ــ لا تعرضوا عن آيات الله ، ولا تنسوا ذنوبكم .

إلا أنها جاءت في السياق بصيغة الإنذار ليظهر بها نوع من خصائص هذا القرآن المذكور في قوله تعالى : ﴿ **ولقد صَرَّفنا في هذا القرآن** ﴾ .

ونلاحظ أن هذا المقطع جاء في وسط السورة بعد ضرب أمثال كثيرة ، فكأن هذا المقطع جاء ليقرّر مجموعة الأوامر التي تعالج الأمراض التي تحدثت عنها السورة ، والتي تنبع كلها من موضوع تزيين الحياة الدنيا . فالشيطان هو الذي يزين الحياة الدنيا ؛ فلا تتخذوه ولياً ، وتزيين الحياة الدنيا يرافقه إعراض عن الآيات ، ونسيان للذنوب ؛ فلا تعرضوا ، ولا تنسوا ذنوبكم ، والمخلص من تزيين الحياة الدنيا هو الإيمان بالله ، والاستغفار ، والاهتداء بهدى القرآن ، فآمنوا ، واستغفروا ، واهتدوا . وهذا كله يقتضي تسليماً لله تعالى يتمثّل بالتسليم لهذا القرآن . فلا تجادلوا واستسلموا . وكل ذلك قد صيغ بأسلوب القرآن المعجز ، الذي تظهر في كل مجموعة منه مجموع خصائص

القرآن ، من بيان وتمثيل وتصريف للمعاني ، وتبشير وإنذار ، وهداية مباشرة وغير مباشرة فتتولّد نتيجة لذلك معان لاحدّ لها ولا حصر ولاعدّ .

....

فوائد :

١ ــ رأينا أن ابن كثير رجّح أن إبليس من الجن ، وهو الذي يدل عليه ظاهر النص في سورة الكهف ، ولكنه نقل في تفسيره مجموعة الأقوال الواردة في أصل إبليس . وبعد أن ذكر مجموعة الأقوال هذه قال : وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفّاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دوّنوا الحديث وحَرّروه ، وبيّنوا صحيحه من حسنه ، من ضعيفه من منكره ، وموضوعه ومتروكه ، ومكذوبه ، وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال ، كل ذلك صيانة للجناب النبوي ، والمقام المحمدي ، خاتم الرسل ، وسيّد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب ، أو يحدَّث عنه بما ليس منه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، وجعل الفردوس مأواهم .

٢ ــ رأينا أن ابن كثير رجح أن معنى (موبقاً) في قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا بينهم موبقاً** ﴾ أي مهلكاً ، إلا أنه نقل الأقوال الأخرى في هذا المقام ، ونذكرها نحن هنا للفائدة : قال ابن عباس وقتادة وغير واحد : مهلكاً ، وقال قتادة ذكر لنا أن عمر البكائي حدّث عن عبد الله بن عمرو وقال : هو واد عميق ، فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة . وقال قتادة : موبقاً وادياً في جهنم . وروى ابن جرير بسنده أن أنس بن مالك قال في قول الله تعالى ﴿ **وجعلنا بينهم موبقاً** ﴾ قال : واد في جهنم من قيح ودم ، وقال الحسن البصري : موبقاً عداوة . والظاهر من السياق أنه المهلك ، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره ، والمعنى أن الله تعالى بيّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك ، وهول

عظيم ، وأمر كبير . وأما إن جعل الضمير في قوله (بينهم) عائداً إلى المؤمنين والكافرين ، كما قال عبد الله بن عمرو : وأنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به فهو كقوله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ (الروم : ١٤) وقال : ﴿ **يومئذ يصّدّعون** ﴾ (الروم : ٤٣) وقال تعالى : ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ (يس : ٢٩) وقال تعالى : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم** ﴾ - إلى قوله - ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ (يونس : ٢٨ - ٣٠) .

٣ - يذكر ابن كثير بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً** ﴾ حديثين قال : روى ابن جرير ... عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « ينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة ، كما لم يعمل في الدنيا ، وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة » .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، وأخرجاه في الصحيحين ، عن علي بن أبي طالب : أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمةَ بنت رسول الله ﷺ ليلة . فقال : « ألا تصليان » فقلت : يا رسول الله : إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً ، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾ دلّ هذا الحديث على أن الاحتجاج بالقدر في حالة التقصير عن الكمال خلاف الأدب الإسلامي فضلاً عن الاحتجاج بذلك لترك الفرائض والواجبات ومواقعة المعاصي .

كلمة في السياق :

ورد قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ في سياق قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

وورود آية ﴿ **زين** ﴾ في هذا السياق يفيد أن العامل الأول في صرف الناس عن

الدخول في الإسلام كافة هو تزيين الحياة الدنيا ، وازدراء أهل الإيمان ، وفي مقابل ذلك يقرر الله عز وجل أن المتقين فوق الكافرين في الآخرة ، وأنه هو الذي يرزق من يشاء ، كافراً أو مؤمناً بغير حساب . وقد جاءت سورة الكهف لتفصّل هذه المعاني : فحدثتنا عن تزيين الحياة الدنيا ، وحدّثتنا عن سخرية الكافرين بالإيمان وأهله وأنذرتهم ذلك . والآن تأتي معنا قصة موسى والخضر عليهما السلام . وقصة ذي القرنين ، وفي هاتين القصتين تفصيل لقوله تعالى : ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ ففي قصة الخضر عليه السلام نموذج للزرق المعنوي بغير حساب .

وفي قصة ذي القرنين نموذج للرزق المادي والمعنوي بغير حساب . فكأن السورة في مقاطعها الأولى فصّلت قوله تعالى : ﴿ **زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة** ﴾ وهي في مقطعيها القادمين تفصّل قوله تعالى : ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾.

ثم تأتي الخاتمة وهي المقطع السادس لتفصّل التفصيل الأخير .

وكأن السورة تقول : يأيها المنصرفون عن الدخول في الإسلام كله . ويأيها المتّبعون لخطوات الشيطان ، إن كنتم تريدون بذلك الرزق ، فأنتم مخطئون ؛ فالرزق كله الحسي والمعنوي من الله ، ويا أيها الذين زُينت لهم الحياة الدنيا ، وسخروا من أولياء الله ، إن الرزق كله من الله فأنتم مخطئون .

ولكن المقطعين وإن كانا في سياقهما العام يخدمان ما قدمنا ، فإنهما في سياقهما الخاص يعطياننا معاني كثيرة ، وتلك سنّة القرآن ، إذ يعطينا معنى من خلال المعنى الحرفي ، ومعنى من خلال الآية مع غيرها ، ومعنى من خلال المقطع وحده ، ومعنى من خلال المقطع ضمن سياق السورة .

....

في قصة موسى والخضر عليهما نجد قوله تعالى : ﴿ **فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لَدُنّا علماً** ﴾ . وفي قصة ذي القرنين ﴿ **إنا مكنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً** ﴾ . فهما نموذجان على رزق الله عبداً من عباده بغير حساب ، ولكن في القصتين من التأديب والتوجيه والعبرة ، وتفصيل قضايا حياتية ، مالا يحيط به إلا الله . وكل ما مَرّ معنا ، وما يمر ، يخدم قضية الدخول في الإسلام

كافة ، واجتناب خطوات الشيطان بشكل مباشر ، أو غير مباشر ، فلنر المقطع الرابع ويتضمن قصة موسى والخضر عليهما السلام .

المقطع الرابع

ويمتد من الآية (٦٠) إلى نهاية الآية (٨٢) وهذا هو :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا
بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ
لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ
إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ
مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن
شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ
خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى

عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ
لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾
قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾
فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا
جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ
بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا
الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

نقل

نقل ابن كثير مجموعة أحاديث عن رسول الله ﷺ تفصّل هذه القصة في سياق التأكيد على أن الخضر هو صاحب موسى ، وأن موسى هو رسول الله ﷺ لا كما زعم بعضهم ، أن المراد بموسى في الآية غيره . ونحن نختار أن ننقل الرواية الأولى التي ذكرها ابن كثير وهي إحدى روايات البخاري . وهذه هي :

أخرج البخاري بسنده .... إلى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل . قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أُبي بن كعب رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه إنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب وكيف لي به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَم » فأخذ حوتا فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه ، فسقط في البحر ، فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جِرْيةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿ **آتنا غداءنالقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾ ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به قال له فتاه ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً** ﴾ .

قال : فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً ، فقال ﴿ **ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً** ﴾ قال: فرجعا يقصّان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجّى بثوب ، فسلّم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام ! فقال : أنا موسى . فقال: موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : أتيتك لتعلمني مما عُلمت رشداً ﴿ **قال إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت . وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه فقال موسى : ﴿ **ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً** ﴾ قال الخضر : ﴿ **فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ **فانطلقا** ﴾ يمشيان على ساحل البحر فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ **لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً** ﴾ **قال**

ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً * قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ : « فكانت الأولى من موسى نسياناً » قال: جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال لهالخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتعله بيده فقتله فقال له موسى ﴿ **أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ قال وهذه أشد من الأولى ﴿ **قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ** ﴾ أي مائلاً فقام الخضر بيده ﴿ **فأقامه** ﴾ . فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ **لو شئت لا تخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » .

تفسير المقطع :

﴿ **وإذ قال موسى لفتاه** ﴾ أي واذكر إذ قال موسى لفتاه ، وفتاه هو : يوشع بن نون الذي أصبح خليفة موسى على قومه بعد وفاته ، وسماه فتاهُ لأنه كان يخدمه ويتبعه ، ويأخذ منه العلم ، وفي ذلك درس للمعلمين والمتعلمين ، أن يختار المعلمون أكفأ وأجود وأرضى تلاميذهم لصحبتهم وتأهيلهم ، وألا يستنكف المتعلمون عن الصحبة والخدمة ﴿ **لا أبرح** ﴾ أي لا أزال أسير ﴿ **حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ أي حيث يلتقي البحران ﴿ **أو أمضي حُقُباً** ﴾ أي ولو أني أسير زماناً طويلاً . وقد فسر محمد بن كعب القرظي مجمع البحرين بأنه : مضيق جبل طارق الحالي ، حيث يلتقي البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي . وفسره قتادة بغير ذلك ، ولا يترتب على معرفة ذلك كثير أمر ، ومن ثم أجمله القرآن ﴿ **فلما بلغا مجمع بينِهما** ﴾ ظاهر النص أن مجمعاً من المجامع وصلا إليه ، ويبدو أنه ليس المجمع الذي كان في تصور موسى عليه السلام . والمجامع كثيرة . فعندك مجمع البحر الأحمر بالمحيط الهندي ، ومجمع النيل مع البحر الأبيض ، ولا ندري بالضبط إذا كان المجمع واحداً من هذه . أو مجمعاً آخر يلتقي فيه ماء خليج بماء بحر ، أو ماء نهر كبير كشط العرب ببحر كالخليج ، والمهم أنه في مجمع من مجامع بحرين حدث

الحدث الآتي وهو نسيان الحوت . قال تعالى : ﴿ **نسيا حوتهما** ﴾ أي نسي أحدهما وهو يوشع الحوت ، لأنه كان صاحب الزاد ، ونسب النسيان للاثنين لأن آثار النسيان تعود عليهما ﴿ **فاتخذ سبيله** ﴾ أي طريقه ﴿ **في البحر سرباً** ﴾ أي دخل فيه واستتر ﴿ **فلما جاوزا** ﴾ أي مجمع البحرين . وسارا ما شاء الله أن يسيرا ﴿ **قال** ﴾ أي موسى ﴿ **لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾ أي تعباً ، لم يتعب ولا جاع قبل ذلك ، قبل مجاوزة المكان الذي هو الموعد للقاء الخضر عليه السلام ﴿ **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه** ﴾ وما أنساني أن أذكر لك أمره ﴿ **إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ أي بإلقاء الخواطر الشاغلة في القلب ﴿ **واتخذ سبيله في البحر عجباً** ﴾ وهو أن أثره بقي إلى حيث سار ﴿ **قال** ﴾ موسى ﴿ **ذلك ما كُنّا نبغ** ﴾ أي ذلك ماكنا نريد ونطلب ﴿ **فارتدا** ﴾ أي رجعا ﴿ **على آثارهما** ﴾ أي طريقهما ﴿ **قصصاً** ﴾ أي يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما ، لأن ذهاب الحوت كان علَماً على لقاء الخضر عليه السلام ﴿ **فوجدا عبداً من عبادنا** ﴾ أي الخضر مُسجّىً بثوب كما مر معنا في رواية البخاري ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ هي الوحي والنبوة أو الولاية ﴿ **وعلّمناه من لدنّا علماً** ﴾ أي بدون واسطة أي بالإلهام ﴿ **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلمت رشداً** ﴾ أي علماً ذا رشد ، أرشد به في ديني ، وفيه دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته ، وأن يتواضع لمن يتعلم منه ﴿ **قال إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي قد تخالف شريعتك ، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله ، وأنت على علم من الله ما علمنيه الله ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، فأنت لا تقدر على صحبتي ﴿ **وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبْراً** ﴾ نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد ، وعلّل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير ، والرجل الصالح لا يتمالك إلا أن يجزع إذا رأى ذلك ، فكيف إذا كان نبياً ! فكأنه قال له : أنا أعرف أنك ستنكر عليّ ما أنت معذور فيه على مالم تطّلع حكمته ومصلحته الباطنة ، التي اطلعت أنا عليها دونك .

﴿ **قال** ﴾ أي موسى ﴿ **ستجدني إن شاء الله صابراً** ﴾ أي على ما أرىٰ من أمورك فلا أنكر ولا أعترض ﴿ **ولا أعصي لك أمراً** ﴾ أي ولا أخالفك في شيء ، فعندئذ شارطه الخضر عليه السلام : ﴿ **قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً** ﴾ أي فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ابتداءً ، حتى أبدأك أنا قبل أن تبدأني ، أي

فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئاً ، وقد علمت أنه صحيح ، إلا أنه خفي عليك وجه صحته ، فأنكرت في نفسك ، ألا تفاتحني بالسؤال ، ولا تراجعني فيه ، حتى أكون أنا الفاتح عليك . قال النسفي : وهذا من أدب المتعلم مع العالم ، والمتبوع مع التابع ﴿ **فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلَها لقد جئت شيئاً إمراً** ﴾ أي لقد أتيت شيئاً كبيراً فظيعاً . قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه - وهو الخضر - أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا ، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه ، فركبا في السفينة ، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر ، فحملوهما بغير نول يعني : بغير أجرة تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولجّجت أي : دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها ، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رفعها فلم يملك موسى عليه السلام إلا أن قال مُنكِراً عليه ﴿ **أخرقتها** .... ﴾ فعندما قال له الخضر مُذكّراً بما تقدم من الشرط ﴿ **قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التي اشترطت معك ألا تنكر عليّ فيها ، لأنك لم تحط بها خُبْراً ، ولها وجه هو مصلحة ولم تعلمه أنت ﴿ **قال** ﴾ أي موسى ﴿ **لا تؤاخذني بما نسيتُ** ﴾ أي لا تؤاخذني بالذي نسيته ، أو بشيء نسيته ، أو بنسياني ، أراد أنه نسي وصيَّته ولا مؤاخذة على الناسي ﴿ **ولا ترهقني من أمري عسراً** ﴾ أي ولا تُغْشِني عسراً من أمري ، أي ولا تعسّر عليّ متابعتك ، ويسِّرها علي بالإغضاء وترك المناقشة ، أي لا تضيّق عليّ ولا تشدّد.قال ابن كثير : ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كانت الأولى من موسى نسياناً » . ﴿ **فانطلقا** ﴾ أي بعد ذلك ﴿ **حتى إذا لقيا غلاماً فقتله** ﴾ قال ابن كثير : وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية ، من القرى وأنه عمد إليه من بينهم ، وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله ، وقيل : إنه احتز رأسه . وقيل : رضخه بحجر . وفي رواية اقتلعه بيده ، والله أعلم . فلمّا شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول ، وبادر وقال : ﴿ **أقتلت نفساً زكِيَّة** ﴾ أي طاهرة من الذنوب ، قال هذا ؛ إما لأنها طاهرة عنده ، أو لأنه لم يرها قد أذنبت ، أو لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿ **بغير نفس** ﴾ بغير أن تَقْتل هي نفساً فيقتص منها ﴿ **لقد جئت شيئاً نكراً** ﴾ أي ظاهر النكارة ﴿ **قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع مَعِيَ صبراً** ﴾ ذكّره بشرطه الأول ﴿ **قال** ﴾ أي موسى ﴿ **إن سألتك عن شيء بعدها** ﴾ . أي بعد هذه الكرة أو المسألة

﴿ **فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدنّي عذراً** ﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ، فلا تصاحبني فقد أعذرتَ إليّ مَرّة بعد مَرّة ، ومن ثم أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق ﴿ **فانطلقا** ﴾ أي بعد المرتين الأوليين ﴿ **حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها** ﴾ أي استضافاهم وكان أهل القرية لئاماً بخلاً ، كما ورد في الحديث : « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً » . ﴿ **فأبَوْا أن يضيّفوهما فوجدا فيها** ﴾ أي في القرية ﴿ **جداراً يريد أن ينقضّ** ﴾ أي يكاد أن يسقط ﴿ **فأقامه** ﴾ أي فردّه إلى حال الاستقامة . قال ابن كثير : وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعمه حتى ردّ ميله ، وهذا خارق ﴿ **قال لو شئت لَتَّخذْتَ عليه أجراً** ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيّفونا كان ينبغي ألا تعمل لهم مجاناً . قال النسفي : كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم ، وقد ألزمتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة ، فلم يجدوا مواسياً ، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن قال : ﴿ **لو شئت لَتَّخذْتَ عليه أجراً** ﴾ أي لطلبت على عملك جُعْلك حتى تستدفع به الضرورة ﴿ **قال** ﴾ أي الخضر ﴿ **هذا** ﴾ إشارة إلى السؤال الثالث ، أي هذا الاعتراض سبب الفراق ، أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني فهو ﴿ **فراق بيني وبينك** ﴾ . ﴿ **سأنبئك بتأويل** ﴾ أي بتفسير ﴿ **ما لم تستطع عليه صبراً** ﴾ ثم بدأ يفسّر له ما خفي عليه من حكم الواقعات الثلاث : ﴿ **أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم** ﴾ أي أمامهم ﴿ **مَلِك** ﴾ أي من الظَلَمة سيمرون عليه ﴿ **يأخذ كلّ سفينة** ﴾ أي صالحة جيدة لا عيب فيها ﴿ **غَصْباً** ﴾ أي مصادرة ، فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها ، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها ﴿ **وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما** ﴾ أي أن يغشي الوالدين المؤمنين ﴿ **طغياناً وكفراً** ﴾ أي يُعْدِيهما بدائه ، ويضلهما بضلاله ، فيرتدا بسببه . وفي الحديث : « الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً » ومن ثم خشي الخضر أن يحملهما حبه على متابعته . قال قتادة : (قد فرحا به حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خيرٌ) . ﴿**فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة**﴾ أي طهارة ونقاءً من الذنوب ﴿**وأقرب رُحْماً**﴾ أي أقرب رحمة وعطفاً أي أبر بوالديه ﴿**وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما**﴾ أي إن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في

المدينة ، وكان تحته كنز لهما . والكنز : هو المال المدفون ﴿ **وكان أبوهما صالحاً** ﴾ قال ابن كثير : فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة ؛ لتقرّعينه بهم ، كما جاء في القرآن ووردت به السنة ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس حُفِظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر لهما صلاحاً ﴿ **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما** ﴾ أي أن يبلغا الحلم ﴿ **ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلتُه عن أمري** ﴾ أي وما فعلتُ ما رأيتَ عن أمري أي اجتهادي ، وإنما فعلته بأمر الله ﴿ **ذلك** ﴾ أي الأجوبة الثلاث ﴿ **تأويل** ﴾ أي تفسير ﴿ **ما لم تسطع عليه صبراً** ﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً ، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً .

بحث مهمّ في فقه العمل الإسلامي :

لاحظنا في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام أن الخضر اشترط على موسى شروطاً للسير والصحبة ، فلمّا أخلّ بها موسى عليه السلام ، تمّ الفراق ، وفي كثير من المراحل أو الأحيان لا يجمع المسلمين سلطة تنفيذية تجب طاعتها شرعاً ، فعلى المسلمين في هذه الحالة أن يعملوا مع بعضهم متعاونين لتحقيق الأهداف المفروضة ، وقد جرت العادة أن يلتقي هؤلاء المتعاونون على قواعد متفق عليها ، تحكمهم مع بعضهم ، وعلى أنظمة متفق عليها يلتزمون بها ، وعلى ضوء ذلك عادةً يكون السير ، ومن قصة موسى مع الخضر نفهم أنه إذا كان السير مشروطاً بشرط ، وحدث إخلال بهذا الشَّرط فإن المخل بالشرط يفارق ، ذلك حق للطرف الآخر إلا إذا تنازل عن حقه .

الفوائد :

١ ــ في سبب تسمية الخضر خضراً يورد ابن كثير حديثين. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال : « إنما سمي خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من تحته خضراء » .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من تحته خضراء » . قال ابن كثير : والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات ، قال عبد الرزاق . وقيل المراد بذلك وجه الأرض .

٢ ــ هل كان الخضر نبياً أو ولياً أو رسولاً ؟ خلاف كبير بين العلماء في ذلك وقد استدل من قال بنبوّته بقوله تعالى : ﴿ **وما فعلته عن أمري** ﴾ قال ابن كثير : وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً بل كان ولياً فالله أعلم . وكأن ابن كثير لا يترجح لديه شيء في هذا الموضوع . والمهم في هذا المقام أن نذكر أن بعض الضالين الكافرين بعد أن رجّحوا كونه ولياً ، بنوا على ذلك أن الولي أفضل من النبي . قال النسفي : (وقد زلّت أقدام أقوام من الضُّلاّل في تفضيل الولي على النبي وهو كفر جلي ، حيث قالوا : أمر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولي . والجواب أن الخضر نبي ، وإن لم يكن كما زعم البعض فهذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام . ومن المحال أن يكون الولي ولياً إلا بإيمانه بالنبي ثم يكون النبي دون الولي ، ولا غضاضة في طلب موسى العلم ، لأن الزيادة في العلم مطلوبة .) وأقول : إنه لاشك ولاريب أن موسى أفضل من الخضر ، ولو كان الخضر نبياً ، لأن موسى من الرسل أولي العزم ، وهم أفضل الخلق على الإطلاق وهم في الفضل على الترتيب الآتي : محمد ــ إبرهيم – موسى كليمه – فعيسى – فنوح – هم أولوا العزم فاعلم .

٣ ــ هل الخضر لازال باقياً إلى الآن . ومن ثم إلى يوم القيامة ، أو أنه مات ؟ حكى النووي وغيره قولين في هذا الموضوع ، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه ، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم . وجاء ذكره في بعض الأحاديث . قال ابن كثير : ولا يصح شيء من ذلك ، وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف ، ورجّح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾ (الأنبياء : ٣٤) وبقول النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض » . وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ، ولا قاتل معه ، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين الجن والإنس ، وقد قال : « ولو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي » . وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل . »

٤ ــ من إعجاز هذا القرآن أن لفظه يكافىء المعنى مكافأة عجيبة لا تستطاع من قِبَل بشر . فمهما بلغ الإنسان من حسن الذوق وحسن الانتقاء ، فإنه لا يستطيع أن يجعل اللفظة المناسبة مكافأة للمعنى المكافىء بشكل دائم ومستمر ولنضرب على مكافأة

اللفظ للمعنى في القرآن مثلاً ذكره ابن كثير ، وذكر بعضاً منه النسفي .

فمن الملاحظ أنه في أول مرة أنكر موسى على الخضر . قال له الخضر ﴿ **قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ وفي المرة الثانية قال : ﴿ **ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ فزاد لك هنا لأن النكر فيه كان أكثر . وعندما أبلغه بالفراق قال : ﴿ **سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً** ﴾ فذكر التاء في «تستطع» ولما حل له الإشكال قال : ﴿ **ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً** ﴾ أي بدون تاء ، قال تسطع بعد أن فسّر له المشكل وبيّنه ووضّحه وأزاله ، وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال : « تستطع » قال ابن كثير : فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف كما قال : (أي في الكلام عن سد يأجوج ومأجوج) ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿ **وما استطاعوا له نقباً** ﴾ وهو أشق من ذلك فقابل كلّاً بما يناسبه لفظاً ومعنى. أقول : وهذه هي سنّة القرآن كله ، إذ نجد كل معنى يختار له اللفظ الأنسب الذي لا يوجد أنسب منه في محله ، وقد تعرضنا لهذا في كتابنا الرسول ﷺ في فصل المعجزة القرآنية .

٥ ـــ ومن مظاهر الإعجاز في هذا القرآن أنك لاتجد حرفاً فيه إلا وهو في محله ، وفي مكانه ، ووجوده فيه في غاية الحكمة ، ويعطي في المكان الذي هو فيه من المعاني العجيب . فمثلاً تلاحظ أنّ الخضر لَمّا علل لأفعاله الثلاثة قال في الأولى : ﴿ **فأردت أن أعيبها** ﴾ وقال في الثانية : ﴿ **فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً** ﴾ وقال في الثالثة : ﴿ **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما** ﴾ ففي الثالثة أسند الإرادة إلى الله وحده ، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ، ولأنه إنعام محض ، فكان كمال الأدب أن يسند الفعل إلى الله . وفي المرة الثانية قال : ﴿ **فأردنا** ﴾ لأنه إفساد من حيث الفعل ، إنعام من حيث التبديل ، فلم ينسبه إلى نفسه منفردة صراحة ، ولم ينسبه إلى الله صراحة . وفي المرة الأولى قال : ﴿ **فأردت أن أعيبها** ﴾ نسبة إلى نفسه فقط . لأنه إفساد في الظاهر وهو فعله فكانت دقته في التعبير نموذجاً على كمال أدبه ، فهو تعليم لنا ، وأدب من أدب الأولياء مع الله ، وقد دلنا ما رأيناه على ما ذكرنا في أول الفائدة كيف أن هذا القرآن من الدقة بحيث إنّ كل حرف في مكانه ، وكل كلمة في مكانها ، وكلّ آية في مكانها ، وكل سورة في مكانها ، من الكمال بمالا يحيط به إلا الله : ومن ثم فإن المعاني التي تتولد عن دراسة كتاب الله لاحدّ لها .

٦ ــ في قوله تعالى على لسان موسى ﴿ **هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً** ﴾ دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم ، وإن كان قد بلغ نهايته . وأن يتواضع لمن هو أعلم منه ، وفيه دليل على أن الإنسان كلما ارتقت نفسه لم يبق عنده كبر . فهذا موسى رسول من أولي العزم لم يجد غضاضة أن يطلب من الخضر عليه السلام أن يعلمه .

٧ ــ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نجدة الحروري كتب إليه : كيف جاز قتل الغلام ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب إليه : إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل . وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما : بم حفظ الله الغلامين . قال : بصلاح أبيهما . قال : فأبي وجدي خير منه . ومن مثل هذا تجد كيف أن في القرآن هداية لا يحدها حدّ .

٨ ــ قال ابن كثير : فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ، ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر ، وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع ، وقد صرّح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون ، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام .

٩ ــ للمفسرين كلام كثير حول الكنز ما هو ، فمنهم من ذهب أنه مال . ومنهم من ذهب أنه نصائح ، كما لهم كلام حول الأب الصالح ، هل هو أب مباشر ، أو أب قديم بينهم وبينه آباء عددهم سبعة ؟ وليس في ذلك كله ما يصلح أن يكون حاسماً للجدل . كما يذكر بعضهم في هذا المقام اسم الخضر الأصلي ، واسم الغلام ، واسم الملك الظالم ، ولم نُتعبّد بمعرفة ذلك ، ومما يذكرونه في هذا المقام أن الملك الغاصب كان هَدَدَ بن بَدد . ويقولون إنه مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحق . وقد تتبعت التوراة الحالية المحرّفة فوجدتها تذكر في سفر التكوين في الإصحاح السادس والثلاثين هذا الاسم تقول عنه : (ومات حوشام فملك مكانه هداد بن بداد ، الذي كسر مديان في بلاد موآب وكان اسم مدينته عويت) . وهذا الكلام وارد في سياق الكلام عن أبناء عيسو . فإذا صح أن ذلك الملك هو هذا ، يكون البحر الذي سار فيه موسى والخضر في السفينة هو البحر الأحمر ، وأن مجمع البحرين هو مكان التقاء خليج العقبة في البحر الأحمر ، لأن هداد بن بداد سيطر على مدين ، كما يذكر النص التوراتي ، واستيلاؤه عليها

يعني استيلاءه على خليج العقبة ، فإذا علم هذا فلننقل إحدى الروايات الواردة في موضوع نوع الكنز وهي مارواه ابن جرير عن الحسن البصري قال : لوح من ذهب مكتوب فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبت لمن يؤمن بالقَدَر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها . لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

١٠ ـــ هناك روايات كثيرة تروى بمناسبة قصة الخضر وموسى . وقد نقلنا ما اعتبرنا أنه أجود الروايات عن رسول الله ﷺ قبل البدء في التفسير ، ونذكر هنا رواية يرويها ابن جرير بسنده عن ابن عباس ، ولا يرفعها إلى رسول الله ﷺ ونحن ننقلها لما فيها من حكمة ونجتزىء منها بما اجتزأ ابن كثير : .

قال ابن عباس : سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال : أي رب أيّ عبادك أحب إليك ؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني . قال : فأيّ عبادك أقضى ؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى . قال : أي رب أيّ عبادك أعلم ؟ قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى ، أو ترده عن ردى . قال : أي رب هل في أرضك أحدٌ أعلم مني ؟ قال : نعم . قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال : وأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت . قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلّم كل واحد منهما على صاحبه ، فقال له موسى : إني أحب أن أصحبك . قال : إنك لن تطيق صحبتي . قال : بلى . قال : فإن صحبتني ﴿ **فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ قال : فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه . قال : وبعث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره ، فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء ؟ قال : ما أقل ما رزأ . قال : يا موسى فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء . وكان موسى قد حدّث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه – أو تكلم به – فمن ثَم أُمر أن يأتي الخضر ، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك » .

١١ ـــ روى ابن جرير عن أبي بن كعب قال : كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه . فقال ذات يوم : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ، ولكنه قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً » .

ملاحظة مهمة :

يلاحظ أن الأفعال الثلاثة التي فعلها الخضر عليه السلام غير جائزة شرعاً – ولا مندوبة شرعاً – ولكن حيث علم الخضر من الخفايا التي تقتضي الإباحة أو الندب ما لم يعلمه موسى فعلها الخضر ، وأنكرها موسى عليه السلام . ومع أن موسى قد علم بإعلام الله أن الخضر أعلم منه في جوانب ، وأنه ذهب ليتعلم ، ومع ذلك أنكر إذ رأى الأمر من زاوية المخالفة مع كافة ما اشترط عليه الخضر ، ولا شك أن القصة مربية ومعلمة . تربينا على أدب الصحبة ، ولنا في الخضر قدوة ، ولنا في موسى أسوة ، وقدوتنا بموسى إن لم يكن الخضر نبياً هي الأولى لأن الله قال لرسوله ﷺ : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ . ومن ثم فإنه لا يسع المسلم إذا رأى ما ظاهره منكر ، إلا أن ينكره كائناً من كان فاعله . ولكنه في حالة كون الفاعل صالحاً فإن الإنكار ينبغي أن يكون مرافقاً للأدب ، لاحتمال أن يكون للمسألة وجه ، هذا في المسائل التي يمكن أن يكون لها أكثر من وجه .

نقول هذا ونؤكده لأن هناك ناساً من الشيوخ يطالبون تلاميذهم بالأدب الذي طالب به الخضر موسى ، ومريدوهم إذا رأوهم على منكر لم يعاملوهم كما عامل موسى الخضر ، بل يأوّلون حتى الأمور التي ليس لها إلا وجه واحد في الشريعة ، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن قال : بقرآني بآياتي لو أمرني الشيخ أن أسجد لِلّات لفعلت . وبلغ الأمر ببعضهم أنه لو رأى شيخه يشرب الخمر ، فإنه يحسن الظنّ به ، ويعتبر أن لذلك وجهاً ، فأي ضلال مشترك ما بين هذا النوع من الشيوخ ، وهذا النوع من التلاميذ ، وكيف يبقى دين الله بمثل هذا ؟ والله عز وجل يقول لرسوله ﷺ : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها** ﴾ (الجاثية : ١٨) .

وقد رأينا في عصرنا من البلايا بسبب مثل هذه التصورات الفاسدة الشيء العجيب الغريب ، حتى لقد تجد أن بعض الشيوخ أضل بمواقفه عشرات الآلاف من التلاميذ نتيجة لمثل هذه الاستنباطات الفاسدة .

إن شريعتنا كاملة ، وكل وضع له في شريعتنا حكم . وعلى الداعية إلى شيء أن يقيم الدليل ، وإلا فاتّباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو الأوْلى .

☆ ☆ ☆

كلمة في السياق :

رأينا في القصة أن الحكم أثر العلم . فبدون علم يصعب على الإنسان أن يعطي حكم الله مراعى فيه كل شيء ، وبقدر إحاطة العلم يكون الإدراك لحكم الله في الموضوع المطروح أصح ، ورأينا في القصة من أدب الرسالة والنبوة والولاية ومن أدب الصحبة والخدمة الكثير . ورأينا كيفية العلاقة الراقية التي يكون عليها أحباب الله دون مجاملة على حساب دين الله . ورأينا حكمة الله إذ يختار لنبوته ورسالته وولايته من ليس لهم حظوظ نفسية أو دنيوية . ورأينا عطاء الله الذي لا نهاية له . فكم أعطى الله موسى مما قد يتصور ناس أنه لا مزيد عليه ، وإذا به يعطي خضراً في جوانب أكثر مما أعطاه موسى . وفي ذلك يكمن سر السياق : بعث الله محمداً ﷺ بالإسلام ، واجتناب خطوات الشيطان ، وطالب البشرية كلها بذلك ، والذي يصرف الناس عن الدخول في الإسلام هو زينة الحياة الدنيا . واحتقار أهل الإيمان . ولو أنهم فطنوا إلى أن الله يرزق من يشاء بغير حساب لما احتقروا أهل الإيمان ، ولا صرفتهم الدنيا عن الدخول في الإسلام ، إن في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام درساً بليغاً ، فإذا كان الله لا يعجزه أن يجعل عبداً زمن موسى أعلم من موسى في جوانب ، أفيعجزه أن يجعل محمداً ﷺ أعلم من موسى وأرق ، وأن يعطيه ختم النبوة ويكرمه بالإسلام الناسخ لكل دين ، وبالقرآن الذي هو أشرف من كل كتاب . تعالى الله أن يعجزه شيء من ذلك .

إذا عرفت هذه الحقيقة تعرف محل هذه القصة في السياق ، ومحلها في خدمة محور السورة من البقرة . ﴿ **زُيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقَوْا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ فقصة الخضر مع موسى عليه السلام تفصيل لنوع من رزق الله . كيف أنه يرزق من يشاء بغير حساب .

وأن هذا كله يخدم قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السِّلْم كافَّة** ﴾ أي في الإسلام كله . أي في دين محمد ﷺ . ولا تفتنكم الدنيا عن ذلك ، فتحتقروا أهل الإيمان وتذكّروا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب . فآمنوا بمحمد ﷺ الذي آتاه الله ما لم يؤت أحداً من العالمين ، ولا تكونوا جاهلين في الله ، فتستعظموا أن يرزق الله محمداً ﷺ ما رزقه من الهداية والكرامة والرشد بما جعله قدوة للعالمين . والآن فلننتقل إلى المقطع الخامس .

وهو نوع تفصيل لقوله تعالى : ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ .

المقطع الخامس

ويمتد من الآية (٨٣) إلى نهاية الآية (٩٨) وهذا هو :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى
ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ
ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ
إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ
يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾
كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ
ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا
ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن
تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ
ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن

يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ *

بين يدي هذا المقطع :

للمفسرين تحقيقات طويلة حول شخصية ذي القرنين من هو ؟ وحول يأجوج ومأجوج من هم ؟ ونحن سنذكر لك في هذه المقدمة ، وأثناء التفسير ، وفي الفوائد أمهات الاتجاهات ، ونبدأ هنا بذكر نُقول ثلاثة نعتبرها من أهم ما ذكر : نقلان عن الظلال ، ونقل عن الأستاذ الندوي في رسالته (تأملات في سورة الكهف) .

١ ــ بمناسبة الكلام عن ذي القرنين قال صاحب الظلال : (إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه ، وهذه هي السِّمة المطردة في قصص القرآن. فالمقصود هو العبرة المستفادة من القصة. والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان .

والتاريخ المدوَّن يعرف ملِكاً اسمه الإسكندر ذو القرنين ، ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن . فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً . وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحّد معتقد بالبعث والآخرة .

ويقول أبو الريحان البيروني المنجم في كتاب : (الآثار الباقية عن القرون الخالية) إن ذا القرنين المذكور في القرآن كان من حمير مستدلاً باسمه . فملوك حمير كانوا يلقبون بذي ، كذي نواس ، وذي يزن ، وكان اسمه أبا بكر بن أفريقش . وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومراكش وغيرها . وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه ، وسمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس .

وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه . ذلك أنه لا يملك البحث في التاريخ المدوّن عن ذي القرنين الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته ، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن ، كقصص قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وغيرهم . فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية . وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئاً . فليس هو الذي يُستفتىٰ فيها .

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يعتمد عليه في شيء

من تلك الأحداث ، ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير . وشحنت كذلك بالروايات التي لاشك في أنها مزيدة على الأصل الموحىٰ به من الله ، فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي .

وإذن فلم يبق إلا القرآن . الذي حُفِظ من التحريف والتبديل ، هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي .

ومن البديهي أنه لا يجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين : أولهما : أن التاريخ مولود حديث العهد ، فاتته أحداث لا تحصىٰ في تاريخ البشرية ، لم يعلم عنها شيئاً . والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها .

وثانيهما : أن التاريخ - وإن وعى بعض هذه الأحداث - هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف ، ونحن نشهد في زماننا هذا - الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر إليه من زوايا مختلفة ، ويفسر تفسيرات متناقضة ومن مثل هذا الركام يُصنع التاريخ ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق .

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل . وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء . إنما هو مراء) .

٢ ــ وبمناسبة الكلام عن ذي القرنين قال الأستاذ الندوي : (وذهب بعض الفضلاء المعاصرين (أشهرهم مولانا أبو الكلام آزاد الزعيم المسلم والكاتب الإسلامي ووزير المعارف سابقاً في الجمهورية الهندية) إلى أنه (أي ذي القرنين) الشخص الذي يسميه اليونان « سائرس » وتسميه اليهود « خورس » ويذكره المؤرخون العرب بـ « كيخسرو » « وقد لخص الأستاذ الندوي في حاشية كتابه ما ذكره الأستاذ أبو الكلام آزاد عن هذا الرجل فقال : « ظهر سائرس في سنة ٥٥٩ ق . م . وقد جمع بين مملكتين فارسيتين عظيمتين ، كانتا قد انفصلتا منذ زمان ، وهما : (ميديا) الجزء الشمالي الذي قد يعبر عنه المؤرخون العرب بـ « ما هات » (وفارس) الجزء الجنوبي ، فكون منهما إمبراطورية فارسية عظمى ، ثم امتدت فتوحه التي اتسمت بالعدل والكرم ، والانتصار

للضعيف المظلوم ، فلم ينقض اثنا عشر عاماً حتى خضعت له البلاد والدول ما بين البحر الأسود إلى باختر Bactria وقد ثبت تاريخياً أنه غزا الغرب مرة ، فأوغل فيه إلى غرب آسيا الصغرى ، وفتح دولة ليديا التي كانت عاصمتها ساردس Sardis حتى وصل إلى البحر في أقصى الغرب ، فوجده يموج ، وتراءت له الشمس تغرب فيه ، فتوقف هناك لعدم وجود البوارج الحربية ، ولا يستغرب إذا كان قد وصل إلى ساحل من سواحل بحر إيجه Agean Sea الواقع في جوار « سمرنا » والبحر يتراءى هناك بحيرة ، وقد تمثلت له الشمس في الأصيل تغيب في الوحل الذي نشأ على ساحلها . وهو الذي يصوره القرآن بقوله : ﴿ **وجدها تغرب في عين حمئة** ﴾ .

وغزا ثانية الشرق ، فوصل في هذه الغزوة إلى مكران وبلخ ، وأخضع القبائل الهمجية التي ليست لها وقاية من الشمس لبعدها من المدينة ﴿ **وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً** ﴾ ثم ذهب إلى بابل العاصمة المنيعة ، فأنقذ اليهود « بني إسرائيل » من الذل والأسر . والاضطهاد الذي سلّطه عليهم ملك بابل « بختنصر » فأصبح بذلك منقذ اليهود ، ولهجوا بذكره والثناء عليه ، والتساؤل عنه ، وبذلك حقق نبوءات بني إسرائيل الواردة في التوراة .

وكانت له غزوة ثالثة في الشمال . وقد ترك بحر خزر Caspian Sea عن يمينه ، حتى وصل إلى جبال القفقاس ، فوجد فجوة واقعة في هذه الجبال كان يدخل منها يأجوج ومأجوج ، ويعيشون في البلاد ، وهنا أقام السد ، وقد مات سائرس سنة ٥٢٩ ق . م فوجد في سنة ١٨٣٨ م تمثال من رخام في أنقاض اصطخر Passar Gadae ظهر في رأسه قرنان مثل قرني الكبش ، يمثلان مملكتي ميديا وفارس اللتين جمع بينهما سائرس ، وبذلك سُمي ذو القرنين . وقد شهد المؤرخون العصريون بكرم سائرس وشخصيته العادلة الفاضلة ، ومن أراد التوسع في ذلك فليقرأ مقالة البروفسور B.Grundi راجع المجلد الثاني من Universal History Of The World. لمؤلفه «J.A.Hammerton» .

٣ ــ وبمناسبة الكلام عن يأجوج ومأجوج قال صاحب الظلال : « وبعد فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ! كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن ، وفي بعض الأثر الصحيح . والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين : ﴿ **فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً** ﴾ .

وهذا النص لا يحدد زماناً . ووعد الله بمعنى : وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار ، وانساحوا في الأرض ، ودمروا الممالك تدميراً .

وفي موضع آخر في سورة الأنبياء : ﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون** ﴾ **واقترب الوعد الحق** ... ﴾ (الآية : ٩٦)

وهذا النص كذلك لايحدد زماناً معيناً لخروج يأجوج ومأجوج ، فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - ﷺ - فجاء في القرآن : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر . فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون ، يراها البشر طويلة مديدة ، وهي عند الله ومضة قصيرة .

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح في الفترة ما بين : ﴿ **اقتربت الساعة** ﴾ ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج .

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري عن عروة عن زينب بنت أم سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، عن أمها حبيبة ، عن زينب بنت جحش - زوج النبي ﷺ قالت : استيقظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول : « ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وحلّق (بإصبعيه السبابة والإبهام) . قلت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » .

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن . وقد وقعت غارات التتار بعدها ، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين . وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول - ﷺ - وعلم ذلك عند الله . وكل ما نقوله ترجيح لا يقين) اهـ كلام صاحب الظلال .

التفسير :

﴿ **ويسألونك** ﴾ السائلون هم كفار مكة امتحاناً بإيحاء من اليهود كما مَرّ معنا في سبب نزول سورة الكهف ﴿ **عن ذي القرنين** ﴾ أي عن خبره ﴿ **قل سأتلوا عليكم منه** ﴾ أي من ذي القرنين ﴿ **ذكراً** ﴾ ثم بدأ يذكر شيئاً عنه ﴿ **إنا مَكّنا له في**

الأرض ﴾ أي جعلنا له فيها مكانة واعتلاءً ، قال ابن كثير : (أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكّناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين ، والجنود وآلات الحرب والحصارات . ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك البلاد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم) . ﴿ **وآتيناه من كل شيء** ﴾ أراده من الأغراض والمقاصد ﴿ **سبباً** ﴾ أي طريقاً موصلاً إليه ، إذ السبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة ، آتاه الله علم كل ما يلزمه مما يحتاجه الفتح ، وتقتضيه السياسة ، وغير ذلك ، كما آتاه الوسائل. قال ابن كثير : يسّر الله له الأسباب أي الطرق ، والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي ، وكسر الأعداء ، وكبت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك ، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه سبباً ﴿ **فأتبَعَ سبباً** ﴾ أي لحق سبباً ، أي سار في عالم الأسباب ، وكأن في هذا إشارة إلى أن تمكينه وأفعاله كلها في عالم الأسباب ، وليست من باب الخوارق ﴿ **حتى إذا بلغ مغرب الشمس** ﴾ اتبع الأسباب التي توصله إلى المغرب ، واتباعه الأسباب للوصول إلى المغرب ، باتباعه منازل الأرض ومعالمها ، واستقصائه المعلومات اللازمة لذلك قال ابن كثير : فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب . قال النسفي : أي منتهىٰ العمارة نحو المغرب » حيث ترى الشمس هناك ساعة الغروب وكأنها تغرب في عين حمئة . ﴿ **وجدها تغرب في عين حمئة** ﴾ قال ابن كثير : أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه .... والحمئة : مشتقة .... من الحمأة وهو الطين . أقول : فالآية تتحدث عن ما تشاهده العين ، إذ ترى الشمس وهي تغرب من جهة البحر ، فهو تصوير لرؤية ومشاهدة . ومن رأى الشمس وهي تغرب في المحيط الأطلسي ، رأى دقة الوصف ، هذا على القول أنه وصل إلى شاطىء المحيط . ويكون ذكر العين الحمئة تشبيهاً للبحر في لحظة غروب الشمس بالعين الطينية المائلة إلى السواد ، وهناك احتمال أن يكون وصل إلى أرض مستنقعية واسعة جداً كانت موجودة في يوم من الأيام جهة المغرب . وقد وصل إليها ، ويحتمل أنه وصل إلى أرض بركانية كانت في أقصى المغرب ، وكانت لازالت تقذف بحممها عند وصوله ، والجزم بشيء من ذلك صعب ، ولنا عودة في الفوائد على الموضوع ، والعبرة حاصلة على أي نوع من أنواع الفهم . إذ الوصول إلى جهة المغرب لم يكن إلا بعالم الأسباب كنموذج على عطاء الله من شاء من أمر الدنيا بغير حساب ﴿ **ووجد عندها** ﴾ أي عند العين الحمئة ، أو عند مغرب

الشمس ﴿ **قوماً** ﴾ أي أمّة من الأمم ﴿ **قلنا ياذا القرنين إما أن تُعذّب وإما أن تتخذ فيهم حُسْناً** ﴾ هذا القول الموجّه لذي القرنين ، هل كان إلهاماً فيكون ولياً ؟ أو كان وحياً له فيكون نبياً ؟ أو يكون وحياً بواسطة نبي معه فيكون صديقاً ؟ ليس عندنا ما نستطيع الجزم به . والآية تفيد أنه خُيّر بين أن يعذبهم بالقتل إن أصرّوا على أمرهم ، وبين أن يتخذ فيهم حسناً بإكرامهم وتعليمهم الشرائع إن آمنوا ، وقد يُراد بالتعذيب القتل ، وباتخاذ الحسن الأسر ، لأنه بالنظر إلى القتل إحسان . قال ابن كثير : معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم ، وحكّمه فيهم ، وأظفره بهم . وخيّره إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء منّ وهدى . فكان موقفه ﴿ **قال** ﴾ أي ذو القرنين ﴿ **أما مَن ظَلَم فسوف نعذبه** ﴾ أي بالقتل ﴿ **ثم يُرَدّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكْراً** ﴾ أي عذاباً ذا نكارة ، وأي عذاب أفظع من النار ، يعني أما مَن دَعَوته إلى الإسلام فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذي هو الشرك ، فذاك هو المعذَّب في الدارين ﴿ **وأما مَن آمن وعمل صالحاً** ﴾ أي عمل ما يقتضيه الإيمان ﴿ **فله جزاءً الحسنى** ﴾ أي فله الحسنى أي الجنة جزاءً عند ربه ﴿ **وسنقول له من أمرنا يُسراً** ﴾ أي ذا يسر ، أي لانأمره بالصعب الشاق ، ولكن بالسهل المتيسّر من الزكاة والخراج وغير ذلك . دلّ ذلك على إيمانه بالله واليوم الآخر ، كما دلّ على عدله ، وعلى أن القوة لم تخرجه إلى البطر ، بل كانت قوته في خدمة دين الله ودعوته. كما دلّ على كمال رحمته وشفقته برعيته المؤمنة. فهو نموذج للملك المسلم الذي عنده من عالم الأسباب غاينه ، فهو لا يفرط في الآلات ولا في الوسائل ، ويستخدم ذلك كله في الجهاد ، ويعامل أعداء الله بما يستحقون ، ويعامل رعيته المسلمة بكمال الرحمة والشفقة ﴿ **ثم أتْبَعَ سبباً** ﴾ أي ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها . والظاهر أنه كلما مَرّ بأمّة قهرهم وغلبهم ، ودعاهم إلى الله عز وجل . وفعل بهم فعله الأول ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم . فهذا كله يمكن أن يفهم من السياق ﴿ **حتى إذا بلغ مطلع الشمس** ﴾ أي حتى إذا بلغ أقصى الشرق ﴿ **وجدها** ﴾ أي الشمس ﴿ **تطلع على قوم** ﴾ أي على أمة ﴿ **لم نجعل لهم من دونها ستراً** ﴾ أي من دون الشمس ، وهذا يحتمل أنهم ليس لهم بناء يكنّهم ، ولا أشجار تظلهم ، وتسترهم من حر الشمس ، فكأن الأرض صحراوية ، ويحتمل أنهم كانوا عراة فهم كانوا متخلفين جداً . فإذا كان المراد بهؤلاء القوم من هم في أقصى الشرق وهم الصينيون ، فينبغي أن يكون زمن ذي القرنين سحيقاً في القدم ، إذ الشعب

الصيني عريق في مدنيته . فإذا كان الحديث عنهم قبل دخولهم عالم المدنية ، فهذا يشير إلى أن الزمن الذي كان فيه ذو القرنين متقدم جداً ﴿ **كذلك** ﴾ أي كذلك أمر ذي القرنين كذلك الوصف كان كما وصفناه في الفخامة والمقام ﴿ **وقد أحطنا بما لديه** ﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿ **خُبْراً** ﴾ أي علماً ، أي نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض ﴿ **ثم أتبَعَ سبباً** ﴾ أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿ **حتى اذا بلغ بين السَّدَّين** ﴾ قال النسفي : (أي بين الجبلين وهما جبلان سَدَّ ذو القرنين ما بينهما .... وهذا المكان في منقطع أرض الترك مما يلي المشرق) وقال ابن كثير ، وهما جبلان متناوحان (أي متقابلان) بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فساداً ، ويهلكون الحرث والنسل . ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام . كما ثبت في الصحيحين : « إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك . فيقول : ابعث بعث النار فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها . فقال : إن فيكم أمتين ، ما كانتا في شيء إلا أكثرتاه يأجوج ومأجوج » ﴿ **وجد من دونهما قوماً** ﴾ أي حتى إذا بلغ بين السدين وجد ذو القرنين من دون السدّين قوماً ﴿ **لا يكادون يفقهون قولاً** ﴾ أي لا يكادون يفهمون قولاً لاستعجام كلامهم ، وبُعْدهم عن الناس . وهذا يفيد أنهم كانوا في عزلة عن الأمم المجاورة ، وأن لغتهم كانت غريبة ، ولغات من حولهم عنهم غريبة ﴿ **قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض** ﴾ قتلاً وإهلاكاً ﴿ **فهل نجعل لك خَرْجاً** ﴾ أي خراجاً أي أجراً ﴿ **على أن تجعل بيننا وبينهم سداً** ﴾ يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه ؛ حتى يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً ، فقال ذو القرنين بعفة وصلاح ، وقصد للخير ﴿ **قال ما مكّنّي فيه ربي خير** ﴾ أي ما جعلني فيه مكيناً من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لي من الخراج ، فلا حاجة لي إليه ﴿ **فأعينوني بقوّة** ﴾ أي ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء ﴿ **أجعل بينكم وبينهم ردماً** ﴾ أي حاجزاً حصيناً موثقاً . قال النسفي : والردم أكبر من السد ﴿ **آتوني زُبَرَ الحديد** ﴾ أي قطع الحديد ، والزبرة : القطعة الكبيرة ﴿ **حتى إذا ساوى بين الصَدَفين** ﴾ أي جانبي الجبلين لأنهما يتصادفان أي يتقابلان . أي وضع بعضه على بعض من الأساس ، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولًا وعرضاً ﴿ **قال انفخوا** ﴾ أي قال ذو القرنين للعملة : انفخوا في الحديد .

وهذا يفيد أنه أجج عليه النار . وهذا يفيد أنه كان عنده من الوسائل الكثير ، إذ النفخ اللازم لتأجيج السد ناراً يلزمه وسائل كثيرة ، ويبدو أنه كان بين قطع الحديد أشياء قابلة للاحتراق الطويل المدى ﴿ **حتى إذا جعله ناراً** ﴾ أي حتى إذا جعل المنفوخ فيه ناراً وهو الحديد أي جعله كتلاً نارية ﴿ **قال آتوني أفرغ عليه قِطْراً** ﴾ أي أعطوني أصب عليه نحاساً مذاباً ، إذ القطر : هو النحاس المذاب ؛ لأنه يقطر ، وهذا يفيد أنه كان يملك من الآلات الشيء الهائل إذ إذابة النحاس والقدرة على صبّه على سد ضخم كله حديد محمر من الحرارة يحتاج إلى آلات وأسباب كثيرة ، فإذا عرفنا هذا عرفنا معنى ﴿ **وآتيناه من كل شيء سبباً** ﴾ ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾ أي إن يأجوج ومأجوج ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ﴿ **وما استطاعوا له نقباً** ﴾ أي ولا قدروا على نقبه من أسفله ﴿ **قال** ﴾ ذو القرنين ﴿ **هذا** ﴾ أي السد ، أو هذا الإقدار والتمكين من تسوية السد ﴿ **رحمة من ربي**﴾ أي بالناس حيث جعل بين هؤلاء القوم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من الاعتداء على هؤلاء القوم ﴿ **فإذا جاء وعد ربي** ﴾ قال ابن كثير : أي إذا اقترب الوعد الحق . وقال النسفي : فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي ﴿ **جعله دكاء** ﴾ أي ساواه بالأرض . قال النسفي : وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندكّ ﴿ **وكان وَعْد ربي حقاً** ﴾ أي كائناً لا محالة ، هذا آخر قول ذي القرنين وآخر قصته .

كلمة في السياق :

هذه قصة مسلم آتاه الله عز وجل من الملك الكثير ، ومكّنه في الأرض تمكيناً كبيراً ، وجعله يسخِّر الأسباب كلها . فإذا تذكرنا أن هذه القصة : تفصّل قوله تعالى : ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ رداً على من يتركون الإسلام ويسخرون من أهله من أجل زينة الحياة الدنيا فإننا نفهم من القصة ما يلي :

لايظنن ظـان أن الدخول في الإسلام لا يعنى التمكين في الأرض ، بل على العكس من ذلك ، فإن التمكين يكون أكبر .

ولا يظنن ظان أن الدخول في الإسلام يعني ترك الأسباب والبعد عنه ، بل على العكس من ذلك ، فإن الدخول في الإسلام يعنى اتباع الأسباب كلها ، مع التوفيق الرباني لاستعمالها في محلها

ولا يظنن ظان أن الدخول في الإسلام يحرم الإنسان رزقاً ، بل على العكس من ذلك

فإن الدخول في الإسلام يرافقه الرزق الحسن .

ولايظنن ظان أن الدخول في الإسلام ينقص من قدر الإنسان بل يكمله . وقد مر معنا من قبل مما له علاقة في محل هذه القصة من السياق ما فيه كفاية .

بحث مهم في فقه العمل للإسلام :

إن المسلمين مكلّفون بإقامة الإسلام ضمن عالم الأسباب ، قد يمدهم الله بالخوارق ، ولكن التكليف على أساس عالم الأسباب ، وهذا يقتضي من المسلمين أن يوجدوا كلّ الأسباب اللازمة والمستطاعة لإقامة الشيء الذي كلفوا به ، فهم مكلّفون أن تكون كلمة الله هي العليا في العالمين ، فعليهم أن يعملوا من أجل إيجاد الأسباب التي توصل إلى ذلك ، وإذا جرّت فريضة على المسلمين في مكان أو زمان ، فعليهم أن يبحثوا ، وأن يوجدوا الأسباب اللازمة لإقامتها

لقد رأينا من خلال عرضنا لقصة ذي القرنين أن الله آتاه من كل شيء سبباً ، وقد رأينا أنه قد اتبع الأسباب الموصلة إلى الغايات فسلكها . وهناك قراءة متواترة بتشديد التاء من قوله تعالى ﴿ **فأتْبَعَ** ﴾ فصارت الآية بذلك ﴿ **فاتّبع سبباً** ﴾ إن هذه القضية يغفل عنها المسلمون كثيراً في عصرنا فلا يسيرون في كثير من الأحيان في الطريق الموصلة إلى الغاية المفروضة ، بأخذ كل الوسائل المتاحة والمستطاعة ، يدخل في ذلك التقصير في الأخذ بالأسباب نحو إزالة الأوضاع الشاذة ، ويدخل في ذلك التقصير في الأخذ بالأسباب نحو إقامة الدولة الإسلامية العالمية إلى غير ذلك .

نُقول :

١ ــ عند قوله تعالى ﴿**حتى إذا بلغ مغرب الشمس**﴾ قال صاحب الظلال : (ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق . وهو يختلف بالنسبة للمواضع . فبعض المواضع يرى الرائي الشمس تغرب خلف جبل . وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء ، كما في المحيطات الواسعة والبحار . وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر .

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسي – وكان يسمى بحر الظلمات ، ويظن أن اليابسة تنتهي عنده – فرأى الشمس تغرب فيه .

والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار . حيث تكثر الأعشاب ، ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ . وتوجد البرك وكأنها عيون الماء ، فرأى الشمس تغرب هناك و ﴿ **وجدها تغرب في عين حمئة** ﴾ .. ولكن يتعذر علينا تحديد المكان ، لأن النص لا يحدده وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده . وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح .) .

٢ ـ وعند قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ بين السدين** ﴾ قال صاحب الظلال : (ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين ﴿ **بين السدين** ﴾ ولا ماهما هذان السدان . كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين ، تفصلهما فجوة أو ممر . فوجد هنالك قوماً متخلفين : ﴿ **لا يكادون يفقهون قولاً** ﴾ . وعندما وجدوه فاتحاً قوياً ، وتوسَّموا فيه القدرة والصلاح .. عرضوا عليه أن يقيم لهم سدّاً في وجه يأجوج ومأجوج ، الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويُغِيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في أرضهم فساداً ، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدّهم .. وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم .»

٣ ـ وعند قوله تعالى ﴿ **قال آتوني أفرغ عليه قِطراً** ﴾ قال صاحب الظلال : (وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد ، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته . وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله في كتابه الخالد سبقاً للعلم البشري الحديث ، بقرون لا يعلم عددها إلا الله) .

٤ ـ وبمناسبة الكلام عن سد يأجوج ومأجوج قال صاحب الظلال : (كُشف سد بمقربة من مدينة « ترمذ » عرف بباب الحديد . وقد مَرّ به في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي العالم الألماني (سيلد برجر) وسجله في كتابه ، كذلك ذكره المؤرخ الأسباني (كلافيجو) في رحلته سنة ١٤٠٣م وقال : إن سد مدينة باب الحديد على الطريق بين سمرقند والهند ... وقد يكون هو السد الذي بناه ذو القرنين .) أقول : وذهب بعضهم إلى أنّ السدّ هو سدُّ الصين العظيم ، ولقد حدثني بعض فضلاء المعاصرين ممّن زار الصين ، أن بعض أهل الصين حدّثه عن قبائل لازالت معروفة في الصين باسم يأجوج ومأجوج ، وذهب بعضهم إلى أن السدّ كان موجوداً في منطقة معروفة في الهند الآن تفصل شرقي آسيا عن غربها ، ولازالت هناك آثار وبقايا حديدية

على صدفي الجبلين ، وكل ذلك لا يصلح لأن يعتمد منه شيء في هذا الموضوع .

الفوائد :

١ ــ مما ورد في أسباب النزول ندرك أن الإخبار عن قصة ذي القرنين يعتبر علامة عند أهل الكتاب على رسالة الرسول ﷺ . ومن ثَم فذكر القصة فيه إقامة حجة على أن محمداً ﷺ رسول الله ، وكون المسألة كذلك فهي إذاً من الغوامض ، فأنْ نجد في هذا المقام الكلام الكثير عن تفصيلات كثيرة مما له علاقة في الموضوع فهذا وحده يدلنا على أن أكثره من سقط القول ، واختلاق القصّاصين ، وخرافات أهل الكتاب التي ينبغي أن ننزه القرآن عن أن نذكر باطلها بجانب الحق فيه ، وفي مقام من المقامات عند عرض هذه القصة قال ابن كثير : (وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب ، واختلاق زنادقتهم وكذبهم) . فالبقاء عندما يعطينا إياه النص ، أو يكشفه لنا العلم الدقيق ،هو الأولى في مثل هذه المقامات . فإنك تجد من الكلام المنقول عن أهل الكتاب ، حتى مَن أسلم منهم مالا يقبل التصديق من تأثرهم بما كانوا عليه . يذكر ابن كثير أن معاوية رضي الله عنه قال لكعب الأحبار منكراً عليه : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ؟ فقال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن الله قال :

﴿ **وآتيناه من كل شيء سبباً** ﴾ ألا ترى أن استدلال كعب بالآية على هذه الفكرة يشكك في فهمه . وأستغفر الله من زلة لسان ، إلا أن طرح هذه الأفكار وإلصاقها في القرآن والإسلام ، من أكبر الجنايات على الإسلام فهي لا يطرحها إلا عدو للإسلام حاقد ، أو صديق للإسلام جاهل . ونحن لا نرى في كعب الأحبار أكثر ما يراه ابن كثير . فلا يحملن أحد كلامنا الآنف على أنه طعن في إسلام كعب . قال ابن كثير بعد أن ذكر إنكار معاوية على كعب : (وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب ، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار ، فإنّ معاوية كان يقول عن كعب : إن كنا لنبلو عليه الكذب يعني فيما ينقله ، لا أنه كان يتعمّد نقل ما ليس في صحفه ، ولكن الشأن في صحفه أنها من الإسرائيليات التي غالبها مُبدّل ، مصحّف ، محرّف مختلق ، ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسول الله ﷺ إلى شيء منها بالكلية ؛ فإنه دخل منها على الناس شيء كثير ، وفساد عريض . وتأويل كعب قول الله ﴿ **وآتيناه من كل شيء سبباً** ﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحفه ، من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ، ولا مطابق ، فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك) .

٢ ـــ رأينا في الفائدة السابقة كيف أن الخرافات دخلت إلى كتبنا من خلال روايات موجودة عند أهل الكتاب تليق بباطلهم ، ولاتليق بحقّنا . وفي سبب تسمية ذي القرنين ، وفي زمانه ، وفي عمله ، وفي أفعاله ، وفي صفات الأقوام الذين رآهم ، وغير ذلك أقاويل ليس لها أي سند يمكن الاتكاء عليه . وقد نقل ابن كثير بعضها وأنكره ، وأنكر على من نقله . ونقل بعضها فلم ينكره ، مع أن مجرد ذكره من غير أصل يمكن الاتكاء عليه ، فيه بُعْدٌ عن الروح الإسلامية المستمدة من قوله تعالى : ﴿ **ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم** ﴾ فمما يذكره ولا ينكره : وأنّ الخضر كان وزيراً لذي القرنين ،أن ذا القرنين طاف بالكعبة مع إبراهيم ، ونحن ننكر ذلك أشد الإنكار ، لأن تحديد زمن لم يحدده الله ، عن الأنبياء وأحوالهم لا يكفي فيه قول القصاصين .

٣ ـــ يظن بعض الناس أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني تلميذ أرسطاطاليس ، وينفي ابن كثير ، وكثيرون من المفسرين ، أن يكون المراد به هذا . لأن هذا وثني ، وذاك رجل صالح ، والذي أوصل إلى هذا اللبس كون الإسكندر المقدوني له فتوحاته الكثيرة في المشرق والمغرب ، مما جعل الألوسي يرجّح أنه هو ذو القرنين ، ويحتمل أن التآريخ ذكرت وثنيته أو كفره خطأ .

٤ ـــ يرجح ابن كثير أن سبب تسمية ذي القرنين بهذا الاسم هو بلوغه المشارق والمغارب . لأن العرب تسمي مشرق الشمس قرنها .

٥ ـــ وكما أحاطت خرافات القصاصين وأهل الكتاب بقصة ذي القرنين ، فقد أصابت كذلك موضوع يأجوج ومأجوج ، سواء أصلهم ، أو من هم ، أو ما هي أوصافهم ، وبعد أن ينقل ابن كثير واحدة من هذه الخرافات يقول : وهذا قول غريب جداً ، ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل ، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب ؛ لما عندهم من الأحاديث المفتعلة ، والذى نلخصه في هذا الموضوع ما يلي :

١ ـــ أن يأجوج ومأجوج من أبناء آدم ، وأنهم يشكلون أكثرية بالنسبة لأهل الأرض في كل العصور . كما رأينا في الحديث الصحيح الذي ذكرناه في صلب التفسير .

٢ ـــ قال ابن كثير : وفى مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « ولد نوح ثلاثة : سام أبو العرب . وحام أبو السودان . ويافث أبو الترك » قال بعض

العلماء : هؤلاء أي يأجوج ومأجوج من نسل يافث أبي الترك . وقال إنما سُميَّ هؤلاء تركاً لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة . وإلا فهم أقرباء أولئك ، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة » .

٣ ـــ من الحديث المتفق على صحته عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو مُحْمر وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق قلت : يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ . قال : نعم إذا كثر الخبث » من هذا الحديث فهم بعضهم أن المغول والتتار بل الجنس الآري كله من يأجوج ومأجوج . راجع ما كتبه عبد الله بن سعدي النجدي في ذلك . لأن سيول التتار والمغول والصليبيين كلها كانت في مرحلة واحدة ، أصيب بسببها العرب بشر هائل وقتذاك .

٤ ـــ رأينا أن ابن كثير والنسفي فسّرا قوله تعالى : ﴿**فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء**﴾ أي إذا اقترب وعد ربي ؛ أخذاً من قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون** * **واقترب الوعد الحق**﴾ فجعل السدّ دكّاً إنما يكون قبل يوم القيامة ، وذلك يدلّ على اقترابها ، والذي نقوله : إن بعثة رسولنا ﷺ علامة على اقتراب يوم القيامة ، فذلك السد إذن ، ليس شرطاً أن يكون قبل يوم القيامة مباشرة . وإنما انفتاح يأجوج ومأجوج وسَيحهما في الأرض ، ووصولهما إلى أرض الشام زمن المسيح عليه السلام ، يكون قبيل الساعة بقليل . فما فهمه بعضهم أن السدّ نفسه لا يفتح إلا ساعتئذ فهم خاطىء . ولنا عودة على هذا الموضوع في سورة الأنبياء إن شاء الله .

٥ ـــ لا نعرف أحداً من علماء عصرنا كأبي الكلام آزاد رحمه الله أكثرنا تأهيلاً للتحقيق في المعضلات التاريخية بما اجتمع له من ثقافة موسوعية دينية وتاريخية ، وقد أقدم على تحقيق المراد بذي القرنين وبسده وبيأجوج ومأجوج فقدم دراسة تعتبر أعظم دراسة في بابها حول هذا الموضوع ، وقد نشرت دراسته دار الشعب المصرية تحت عنوان « ويسألونك عن ذي القرنين » ، وبلغت دراسته حوالى مائة صفحة وإذا صح ما توجه إليه في دراسته فإن قصة ذي القرنين في القرآن تكون من أعظم معجزات هذا القرآن ، التي تقوم بها الحجة على كل إنسان .

يبدأ أبو الكلام دراسته بتحديد الجهة التي ينبغي أن يبدأ منها التحقيق ، فما دام اليهود

هم وراء السؤال عن ذي القرنين فبدء التحقيق يكون من كتبهم ، ومن خلال دراسة مستوعبة لكتبهم يصل إلى أن ذا القرنين مذكور في سفر أشعياء باللفظ نفسه ، ومن خلال استعراضه لكتب اليهود كلها ، ومن خلال استعراضه للمراد بذى القرنين في سفر أشعيا ، يصل إلى أنّ ذا القرنين هو كورش الذى وجد في القرن السادس قبل الميلاد والذى عثر له في إيران على تمثال له قرنان وجناحان وذلك يطابق وصفه في كتب العهد القديم ، ثم مضى في الدراسة فأثبت أن كل ماذكره القرآن في حق ذي القرنين ينطبق على كورش فهو على الدين الصحيح لزرادشت ، القائم على التوحيد والإيمان باليوم الآخر وعلى النية الصادقة والقول الصادق والعمل الصادق ، وهو الذي توجه في الفتح نحو المشرق حتى بلغ صحراء بلخ وتوجه في الفتح نحو المغرب حتى وصل إلى بحر إيجه قريباً من إزمير ، وتوجه في الفتح نحو الشمال وبنى السد الذي بقي معروفاً باسمه في المكان الذي يسمى الآن بمضيق داريال والموجود الآن في جبال القوقاز ، وأثبت الشيخ أبو الكلام أن كل ما ورد عن السد في القرآن ينطبق على هذا المكان ، وخطأ من قال بأن السد هو السد المعروف بباب دربند أو باب الأبواب والممند من بحر الخزر إلى سلسلة جبال القوقاز ، كما خطّأ من ذهب إلى أنه سد الصين العظيم ، وكتب تحقيقاً نفيساً بهذه المناسبة عن يأجوج ومأجوج استشرف في هذه الدراسة كل ما ورد في الكتب اليهودية وما عرف في التاريخ وفي اللغات عن هذا الموضوع ، وخلص إلى أن يأجوج ومأجوج هم التتار والمغول الذين كانت تقذف بهم منغوليا مرة بعد مرة ، وأن إغلاق مضيق داريال هو الذي قطع الطريق على تحركاتهم نحو الغرب ، وذكر أن آثار سدّ ذي القرنين لازالت موجودة على نفس الوصف الذي وصفها به القرآن ، بينما لا تنطبق هذه الأوصاف على أي سد حاول المفسرون أن يعتبروه هو سد ذي القرنين ، ومع أننا لا نستطيع الجزم بما أوصل إليه هذا التحقيق لكنه يبقى التحقيق الأقوى في التاريخ الإسلامي حول ذي القرنين .

☆ ☆ ☆

المقطع السادس

ويمتد من الآية (٩٩) إلى نهاية الآية (١١٠) وهي نهاية السورة وهذا هو :

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾
وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ
عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا
عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ
هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ
بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ
عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ
أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

التفسير :

﴿ **وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض** ﴾ قال الألوسي « وقال أبو حيان : الأظهر كون الضمير ليأجوج ومأجوج : أي وتركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم حين يخرجون من السدّ مزدحمين في البلاد ، وذلك بعد نزول عيسى عليه السلام » وقال الألوسي في الآية : أي جعلنا بعض الخلائق (يومئذ) أي يوم إذ يضطربون اضطراب البحر .. ولعلّ ذلك لعظائم تقع قبل النفخة الأولى .. » وقال النسفي في تفسيرها : وجعلنا بعض الخلق يومئذ يختلط في بعض ﴿ **ونُفِخ في الصور** ﴾ أي النفخة الثانية ﴿ **فجمعناهم جمعاً** ﴾ أي فأحضرنا الجميع للحساب . والمعنى : فجمعنا جميع الخلائق للثواب والعقاب ، ويحتمل أن يكون المعنى : وجمعنا كل إنسان جمعاً بعد إذ كان متفرقاً ﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً** ﴾ أي وأظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها ، ثم وصف حال الكافرين في الدنيا : ﴿ **الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري** ﴾ أي عن آياتي التي تذكّر بي ، فأذكر بالتعظيم ، أو عن القرآن وتأمل معانيه ، أي تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق ﴿ **وكانوا لا يستطيعون سمعاً** ﴾ أي غير قادرين على سماع الحق .

كلمة في السياق :

بدأت السورة بالمقدمة التي استقرت على قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيُّهم أحسن عملاً * وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرزاً** ﴾ .

وبعد أن مضى الحديث عن أصحاب الكهف ، وصاحب الجنتين ، والحياة الدنيا ، وقصة موسى والخضر عليهما السلام وقصة ذي القرنين وصاحب الجنتين وما تخلل ذلك من أوامر ونواه وعظات . جاء هنا قوله تعالى : ﴿ **وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً * وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً * الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً** ﴾ فكأن هذه المجموعة استمرار لما استقرت عليه المقدمة ، وكأن كل ما جاء في الوسط تمثيل وتفصيل لكل ما يخدم ويذكّر في أمر الدنيا وزوالها ، وزوال ما فيها من صالحين وطالحين ، وملوك وأولياء وغير ذلك . فليحدد الإنسان بصره نحو اليوم الآخر ، وليخف ما فيه . وهذه الخاتمة في الوقت نفسه تعليق على قصة ذي القرنين من حيث ما أعده الله لكل كافر من يأجوج

وغيرهم ، ولنذكر أن محور السورة هو : ﴿ **زُيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتَّقَوْا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ وواضح أن المقطع يعطينا تصوراً عن يوم القيامة ، وعن فوقية المؤمنين على الكافرين فيه ، وكما أن آية البقرة خدمت قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ فإن سورة الكهف خدمت ذلك الأمر وذلك النهي ، والآن قد آن الأوان ليُخَاطَب الكافرون الذين زُيِّنت لهم الحياة الدنيا ، ويسخرون من الذين آمنوا ، خطابين صريحين يشكلان جزءاً من خاتمة سورة الكهف .

الخطاب الأول :

﴿ **أَفَحَسِبَ الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء** ﴾ هذا الخطاب يحتمل معنيين الأول : لا يظن الكفار أن اتخاذهم عبادي أي : الملائكة وعيسى وغيرهم أولياء من دوني أن ذلك نافعهم . والمعنى الثاني : لا يظن الكافرون وهم قد رفضوا الدخول في الإسلام ، واتبعوا خطوات الشيطان ، ويسخرون من الذين آمنوا ، أن يكون عبادي لهم أولياء ، إن عباد الله لا يكونون أولياء للكافرين ، وكيف يوالونهم وهم يرفضون الدخول في الإسلام ، ويستهزؤون بالإيمان وأهله ، وهذا الخطاب مُهِم هنا ، فمن زينة الحياة الدنيا الاتباع ، والله عز وجل حرّم على المؤمنين أن يعطوا الكافرين ولاءهم ، وفي ذلك إيئاس للكافرين من أن يكون لهم جاه على حساب أهل الإيمان ، فما أضل من يعطي كافراً ولاءه . ثم قال تعالى : ﴿ **إنا أعتدنا** ﴾ أي إنا أعددنا ﴿ **جهنَّم للكافرين نزلاً** ﴾ أي ضيافة ومنزلاً . جزاؤهم في الدنيا ألا يواليهم أهل الإيمان ، وجزاؤهم في الآخرة النار ؛ على سلوكهم ، ومحبتهم للدنيا ، وسخريتهم من أهل الإيمان ، ورفضهم الدخول في الإسلام ، وعلى اتّباعهم خطوات الشيطان .

الخطاب الثاني :

﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً** ﴾ خاطبهم بمنطق الربح والخسارة ؛ لأنهم في طلبهم للحياة الدنيا يبتغون الربح ﴿ **الذين ضَلَّ** ﴾ أي ضاع وبطل ﴿ **سعيهم** ﴾ أي عملهم ﴿ **في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً** ﴾ الآية عامة في كل من لم يدخل في الإسلام كله ، وهو يحسب أنه مصيب ، فهذا أكثر الناس خسارة ﴿ **أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه** ﴾ أي جحدوا آيات الله ، وبراهينه التي أقامها على

وحدانيته ، وصدق رسله ، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿ **فحبطت أعمالهم** ﴾ بكفرهم فلا يثابون عليها ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ أي فلا يكون لهم عندنا وزن ولا مقدار ، أي لا تثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير ﴿ **ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هُزُواً** ﴾ أي جزاؤهم جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ، لاحظ صلة ذلك بآية المحور ﴿ **ويسخرون من الذين آمنوا** ﴾ .

ثمّ ختم الله السورة بقوله ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلاً** ﴾ أي ضيافة ، الفردوس كما ورد في الحديث : « الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها » . ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿ **لا يبغون عنها حولاً** ﴾ أي لا يطلبون عنها تحوّلاً إلى غيرها رضاً بما أعطوا ، أي لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم ما هو أجمع لأغراضهم وأمانيهم . وهذا غاية ما توصف به الجنة ، لأن الإنسان في الدنيا في أي نعيم كان فهو طامح ، مائل الطرف إلى أرفع منه . قال ابن كثير : تنبيه (أي هذا تنبيه) على رغبتهم فيها ،وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله . فأخبر أنهم - مع هذا الدوام والخلود السرمدي - لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ، ولا انتقالًا ، ولا ظعناً ولا رحلة ولابدلاً .

كلمة في السياق :

الآية التي هي محور السورة : ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ وفي خاتمة السورة يقررّ الله أن الكافرين يهزؤون من الرسل وآيات الله ، ويذكر جزاءهم على ذلك ، كما يذكر ما أعد للمؤمنين بما يفهمنا به أن المؤمنين فوق الكافرين يوم القيامة .

....

﴿ **قل لو كان البحر** ﴾ أي ماؤه ﴿ **مِدَاداً** ﴾ أي حبراً ؛ إذ المداد ما يكتب به ﴿ **لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى** ﴾ أي لو كتبت الكلمات التي تعبّر عن علم الله وحكمته ، وكان البحر مداداً لها ، لنفد البحر قبل نفاد كلمات الله ﴿ **ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر ، وهلم جرا بحور تمده ، ويكتب بها ، لما نفدت كلمات الله ؛ إذ كلمات الله لا تتناهى ، فجل جلاله ولا إله غيره . فإذا كان هذا علم الله ، فكيف لا يسلم الإنسان له وجهه! وكيف لا يدخل في دينه!

وكيف لا يخدم أولياءه ، وكيف لا يخاف شأنه ، وكيف لا يحب آخرته ويزهد فيما يكره ، إن التنبيه على علم الله في هذا المقام يضيء على السورة كلها وعلى معانيها وعلى محورها وحيّزه .

....

﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾ فمن زعم أنّي كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإني لا أعلم الغيب ، فما كنت لأخبركم عمّا سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذي القرنين ، مما هو مطابق في نفس الأمر لولا ما أطلعني الله عليه ، فأنا بشر ، ولكن خصّني الله بالرسالة ، وأكرمني بالوحي ، وشرّفني بالدعوة لدينه ﴿ **يُوحىٰ إليَّ** ﴾ فهذا الذي شرّفني الله به ، وكلفكم باتباعي من أجله ﴿ **أنما إلهكم إلهٌ واحد** ﴾ هذا محور ما أدعو إليه ، وما أوحي إليّ ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ أي فمن كان يأمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضاً وقبول . أي فمن كان يرجو ثوابه وجزاءه الصالح ﴿ **فَلْيعمل عملاً صالحاً** ﴾ أي عملاً موافقاً لشرع الله ﴿ **ولا يشركْ بعبادة ربه أحداً** ﴾ بألا يريد بعبادته إلا وجه الله وحده لا شريك له .

وهكذا بعد أن زهّد الله في الدنيا ، دلّ على الطريق إليه وإلى الآخرة . ودلّ على أن محور الإسلام التوحيد . وأن العمل الصالح الملتبس بالإخلاص هو الطريق إلى الآخرة ولنلاحظ أن مقدمة السورة كانت : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً** ﴾ وأن السورة قد ختمت بقوله تعالى : ﴿ **فَلْيعمل عملًا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ والملاحظ أن السورة كلها كالقرآن كله – كانت تبشيراً وإنذاراً ، ولنتذكر في هذا المقام أن السورة تفصّل في حيّز الأمر بالدخول في الإسلام كله ، وعلى هذا فخاتمتها تشير إلى طريق الدخول في الإسلام : العمل الصالح الخالص لله . قال ابن كثير : وهذان ركنا العمل المتقبّل ، لابد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

فوائد المقطع الأخير :

١ – هناك اتجاه في قوله تعالى : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً** ﴾ أنها في الخوارج ، والتحقيق أنها ليست فيهم خاصة قال ابن كثير : روى البخاري ... عن مصعب قال : سألت أبي – يعني سعد بن أبي وقاص – عن قول الله : ﴿ **قل هل**

نبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أهم الحرورية ؟ (أي الخوارج) قال : لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذّبوا محمداً ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين ، وقال علي بن أبي طالب ، والضحاك وغير واحد ، هم الحرورية ، ومعنى هذا عن عليّ رضي الله عنه : أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية ، كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ، ولا هؤلاء ، بل هي أعمّ من هذا ، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى ، وقبل وجود الخوارج بالكلية ، وإنما هي عامة في كل من عَبَد الله على غير طريقة مرضية ، يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطيء وعمله مردود .

٢ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ نذكر هذه الأحاديث :

أ ـ روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة – قال – اقرءوا إن شئتم ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ .

ب ـ وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤتى بالرجل الأكول ، الشروب ، العظيم ، فيوزن بحبة فلا يزنها » . قال : وقرأ : ﴿ **فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ .

ج ـ وأخرج البزار عن بريدة قال : كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش ، يخطر في حلة له ، فلما قام على النبي ﷺ قال : « يا بريدة هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً »

٣ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كانت لهم جنات الفردوس نزلاً** ﴾ . نذكّر بما ورد في الصحيحين : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ؛ فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة » .

٤ ـ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولوجئنا بمثله مدداً** ﴾ نذكّر بما فصّلناه في كتابنا (الرسول) أثناء الكلام عن المعجزة القرآنية ، كيف أن من مظاهر الإعجاز في القرآن أنك تجد فيه صوراً لا يمكن أن تخطر بقلب بشر ، ومن ذلك هذه الصورة في تصوير علم الله غير المتناهي ،

فهل يمكن لعاقل أن يتصور أن مثل هذه الصورة يمكن أن تخطر بقلب إنسان ، اللهم إنا نشهد أن هذا الكتاب كتابك ، وأن محمداً ﷺ رسولك .

٥ ــ أخرج ابن جرير بسنده إلى عمرو بن قيس الكندي : أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية وقال إنها آخر آية نزلت من القرآن ، وهذا أثر مشكل فإن هذه الآية آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ، ولا تغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة ، فروى بالمعنى على ما فهمه والله أعلم .

٦ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ يذكر ابن كثير مجموعة أحاديث وآثار ننقلها كلها : « وقد روى ابن أبي حاتم من حديث معمر عن عبد الكريم الجزري عن طاووس قال : قال رجل : يا رسول الله : إني أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يُرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ وهكذا أرسل هذا مجاهد وغير واحد ، وقال الأعمش ... عن شهر بن حوشب قال جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال : أنبئني عما أسألك عنه : أرأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ، ويحب أن يُحمد ، ويصوم ويبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويتصدق ويبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويحج يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، فقال عبادة : ليس له شيء إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه . وروى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ ، فنبيت عنده تكون له الحاجة ، أو يطرقه أمر من الليل ، فيبعثنا ، فكثر المحتسبون (أي الضيوف) وأهل النوب ، فكنا نتحدث ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « ما هذه النجوى ؟ » ألم أنهكم عن النجوى ؟ قال : فقلنا تبنا إلى الله أيْ نبي الله ، إنما كنا في ذكر المسيح (وهو الدجال) وفرقنا منه فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي ؟ » قال : قلنا : بلى . قال : « الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل» وروى الإمام أحمد عن ابن غنم قال : لما دخلنا مسجد الجابية ، أنا وأبو الدرداء ، لقينا عبادة بن الصامت ، فأخذ يميني بشماله ، وشمال أبي الدرداء بيمينه ، فخرج يمشي بيننا ، ونحن نتناجى ، والله أعلم بما نتناجى به ، فقال عبادة بن الصامت : إن طال بكما

عمر أحدكما ، أو كليكما ، لتوشكان أن تريا الرجل من ثَبَج المسلمين (يعني من وسطهم) قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبدأه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، ونزله عند منازله لا يَجوز فيكم إلا كما يَجوز رأس الحمار الميت(١) . قال : فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضي الله عنه ، وعوف بن مالك فجلسا إلينا . فقال شداد : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من الشهوة الخفية والشرك » فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء: اللهم غفراً ، أَوَ لم يكن رسول الله ﷺ قد حدّثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب ، أما الشهوات الخفية فقد عرفناها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذي تخوفنا يا شداد ؟ فقال شداد : أرأيتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل ، أو يصوم لرجل ، أو يتصدق له ، أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم والله إن من صلى لرجل أو صام أو تصدق له فقد أشرك ، فقال شداد : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك » قال عوف بن مالك : فعند ذلك أفلا يعمد الله إلى ما أبتغي به وجهه من ذلك العمل كله ، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به ؟ فقال شداد عند ذلك ؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، من أشرك بي شيئاً فإنّ عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به ، أنا عنه غني » . (طريق أخرى لبعضه) روى الإمام أحمد ... عن عبادة بن نُسَي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية » قلت : يارسول الله أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ، ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراءون بأعمالهم ؛ والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » . (حديث آخر) روى الحافظ أبو بكر البزار ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله يوم القيامة أنا خير شريك ، فمن أشرك بي أحداً فهو له كله » وروى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك » .

---

(١) أي : هم يشمئزون منه إذ مرّ فضلاً عن أن ينتفعوا به .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد ... عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » . (حديث آخر) روى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد ... عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمّع سَمّعَ الله به ، ومن راءى ، راءى الله به » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « من يرائي يرائي الله به ، ومن يسمِّع ، يسمِّع الله به » (حديث آخر) روى الإمام أحمد ... عن عمرو بن مرة قال : سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من سَمَّع الناس بعمله ، سَمَّع الله به ، مسامع خلقه ، وصغّره وحقّره » فذرفت عينا عبد الله . وروى الحافظ أبو بكر البزار .... عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختمة ، فيقول الله : ألقوا هذا ، واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : يارب والله ما رأينا منه إلا خيراً ، فيقول : إن عمله كان لغير وجهي ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أُريد به وجهي » وأخرج أبو يعلى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة استهان بها ربه عزّ وجل » ومما ذكره ابن كثير في هذا المقام حديث عن عبد الله بن قيس الخزاعي أنّ رسول الله ﷺ قال : « من قام رياء وسمعة لم يزل في مقت الله حتى يجلس » .

كلمة في موضوع السير إلى الله :

في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) أبرزنا أن القدوة برسول الله ﷺ طريقها رجاء الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ، لأن الله تعالى قال : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ وبيّنا هناك أن

الإنسان مالم يرجُ الله واليوم الأخر ، ويذكر الله كثيراً ، فإن حظه من الاقتداء برسول الله ﷺ يكون معدوماً ، وبقدر رجاء الله واليوم الآخر ، والذكر الكثير ، يكون الاقتداء برسول الله ﷺ ، وذكرنا هناك : أن الذكر الكثير هو البداية ، لأن الله عز وجل جعله بصيغة الماضي ، وجعل الرجاء بصيغة المضارع ، مما يشعر بأنه حتى الرجاء ينميه الذكر الكثير ، ويحييه ، وههنا في سورة الكهف ختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ وعلى هذا فإننا نفهم أن علامة الرجاء العمل الصالح الخالص لوجه الله ، وعلى هذا فإن المربين عليهم أن يلاحظوا هذا في التربية ، يبدأون مع مريد وجه الله بالذكر والعلم ، ويدفعونه نحو أنواع العمل الصالح كلها ، مع ملاحظة الإخلاص لله تعالى ، فإنه إذا اجتمع لمريد وجه الله ذلك فإنه يكون سائراً على قدم رسول الله ﷺ ، أو إن هذا يُسهّل له أمر السير على قدم رسول الله ﷺ ، الذي هو القدوة العليا في حمل الإسلام ، والدخول فيه وتطبيقه كله . كما هو القدوة العليا في اجتناب خطوات الشيطان ، كما هو القدوة العليا في موقفه من الدنيا ، أخذاً منها لله ، وزهداً فيها لله ، وتواضعاً للمؤمنين ، ومعرفة بالله . فليلاحظ المربون والسالكون إلى الله ذلك .

كلمة في سورة الكهف :

بدأت سورة الكهف بتعليمنا الحمد على نعمة هذا القرآن ، فمن لم يصل إلى الشعور بنعمة الله عليه بهذا القرآن ، فهو لم يأخذ درسها الأول ، ثم بينت لنا بعض خصائص القرآن ، وخاصة موضوع براءته من العوج واستقامته . فمن لم يستشعر هذا المعنى في القرآن كله فاته درسها الثاني . ثم بينت أن أسلوب هذا القرآن في العرض هو التبشير والإنذار ، فمن لم يذق هذا المعنى ، ويتفاعل معه ، ويعرف حكمة الله فيه ، فاته درسها الثالث ، ثم بينت الحكمة في تزيين الحياة الدنيا ، وهي الاختبار ، فمن لم ينجح في الاختبار ، بأن يحسن العمل بالدخول في الإسلام ، واجتناب خطوات الشيطان ، فاته درسها الرابع ، ومن لم يعرف قصة أهل الكهف ومحلّها بالنسبة لمجموع آيات الله ، فاته درسها الخامس ، ومن لم يتأدب مع الله ، ومع خَلْقه ، ومع الحق ، فاته درسها السادس ، ومن لم يشكر الله على ما أعطاه من نعم الدنيا ، ويتعامل مع أهل الدنيا بمنطق المذكّر الواعظ ، فاته درسها السابع ، ومن لم يزهد في الدنيا ، ويعرف حقيقتها ، فاته درسها الثامن ، ومن لم يجتنب خطوات الشيطان ، فاته درسها التاسع . ومن لم يتأدب

مع الله ، بالأدب مع أنبيائه ، وأوليائه ، بأن يعرف كرم الله في العطاء ، فلا يحتقر مَن أنعم الله عليه بنعمة علم لدنّي ، بل يحترمه ويستفيد منه ، فمن لم يفعل ذلك فاته درسها العاشر . ومن لم يعرف أن الله يعطي الدنيا لمن شاء ، فيسخّر له ما شاء ، فاته درسها الحادي عشر ، ومن لم يعرف أنه لا ولاية بين الكافرين والمؤمنين ، وأن المنحرفين عن أمر الله هم الأخسرون ، وأن علم الله لا يتناهى ، وأن الرجاء يحتاج إلى العمل الصالح ، والإخلاص ، فقد فاتته دروس السورة الأخيرة .

إن السورة تربي مشاعر أهل الإيمان في أهم قضية تواجههم ليلاً ونهاراً قضية ما على هذه الأرض من زينة الحياة الدنيا ، وكيفية التعامل مع الخلق في هذا الموضوع ، وكل ما له علاقة فيه .

....

وقد كرّرنا الكلام عن صلة سورة الكهف بمحورها من سورة البقرة ، ونظن أن هذه الصلة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى إعادة كلام فيها ، وهذا أوان الانتقال إلى السورة الأخيرة من المجموعة الثانية ، من قسم المئين وهي سورة مريم عليها السلام .

☆ ☆ ☆

سورة مريم

وهي السورة التاسعة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة والأخيرة من المجموعة
الثانية من قسم المئين ، وآياتها
ثمان وتسعون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال الألوسي في تقديمه لسورة مريم : (المشهور تسميتها بذلك ، ورويت عن رسول الله ﷺ فقد أخرج الطبراني . وأبو نعيم . والديلمي من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده قال : أتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام فقلت : ولدت لي الليلة جارية فقال : «والليلة أنزلت عليّ سورة مريم» ، وجاء فيما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تسميتها بسورة (كهيعص) وهي مكية كما روي عن عائشة وابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم ، وقال مقاتل : هي كذلك إلا آية السجدة فإنها مدنية ، نزلت بعد مهاجرة المؤمنين إلى الحبشة ، وفي الإتقان استثناء قوله تعالى ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ أيضاً وهي عند العراقيين والشاميين ثمان وتسعون آية ، وعند المكيين تسع وتسعون ، وللمدنيين قولان .

ووجه مناسبتها لسورة الكهف : اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من الأعاجيب ، كقصة ولادة يحيىٰ . وقصة ولادة عيسىٰ عليهما السلام ، ولهذا ذكرت بعدها . وقدم ابن كثير للكلام عن سورة مريم بهذه الفائدة روى محمد بن إسحق في السيرة من حديث أم سلمة . وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر سورة مريم على النجاشي وأصحابه) .

كلمة في سورة مريم ومحورها :

لاحظنا أن القسم الأول من القرآن توجد فيه سورة الأعراف التي تبتدىء بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓصٓ** ﴾ ونلاحظ الآن أن سورة مريم مبدوءة بـ ﴿ **كٓهيعٓصٓ** ﴾ وسنجد في القسم الثالث سورة مبدوءة ، بالحرف (ص) وحده .

ولاحظنا أن سورة (الأعراف) لم يأت بعدها في قسمها إلا سورتا (الأنفال وبراءة) .

وسنرى أن سورة (طه) التي تأتي بعد سورة (مريم) بداية جديدة لمجموعة جديدة كما سنرى أن سورة (ص) هي نهاية مجموعة .

فكأن (ص) عندما تأتي في سورة تشير إما إلى نهاية مجموعة ، أو أنها قنطرة إلى معنى بعيد في سياق سورة البقرة .

وإذ كان ما بعد سورة (مريم) يشير إلى بداية مجموعة جديدة فإن (ص) الواردة في سورة (مريم) تشير إلى نهاية مجموعة . ومن قبل كنا ذكرنا أن المجموعة الثانية من القسم الثاني من أقسام القرآن تنتهي بسورة مريم .

وقد رأينا أن هذه المجموعة مؤلفة من خمس سور : (الحجر) التي هي مقدمة لتفصيل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّة ....** ﴾ .

و (النحل) التى فصّلت الآية : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ....** ﴾ و (الإسراء) التي فصّلت الآية ﴿ **سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** ﴾ .

و (الكهف) التي فصّلت الآية ﴿ **زُيِّن للذين كفروا ...** ﴾ والآن تأتي سورة (مريم) لتفصل الآية ﴿ **كان الناس أمة واحدة ...** ﴾ وكل ذلك بما يخدم الأمر في الدخول في الإسلام كافة . وعلى هذا فالسور الأربع المتتابعة تفصّل في آيات أربع متتابعة.

....

وإذن فسورة مريم تفصّل قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

وإنما دلنا على أن سورة مريم تفصّل هذه الآية ، أو بعض معانيها ، ما سبقها من سور تفصل الآيات التي قبل هذه الآية وكونها تكمل هذه السور والمعاني الواردة فيها ، كما دلنا على ذلك المعاني .

....

إن آية البقرة تبين أن الناس قد أصبحوا في لحظة ما كافرين جميعاً . فاقتضى ذلك إرسال الرسل مبشِّرين ومنذرين ، وأنزل الله معهم الوحي حاكماً في كل خلاف ، ولكن الكتاب الذي جاء حاسماً لكل خلاف أصبح محل اختلاف بسبب بغي الناس . ولكن جرت سنة الله أنه رغم الاختلاف فإنه يهدي بالكتاب المؤمنين الخالصين إلى الصراط المستقيم ، فالآية تبيِّن حكمة بعثة الرسل ، وتبيِّن حكمة إنزال الكتاب ، وتبيِّن رحمة الله بأهل الإيمان الذين لا بغي عندهم . وهي بهذا تخدم الأمر بالدخول في الإسلام كله : فإذ بعث الله محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً ، أنزل معه الكتاب حاسماً لكل خلاف ، فالدخول في الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ هو الطريق الوحيد للبشرية لتحسم خلافاتها بالحق وبالوحي وبالكتاب .

لقد اختلف اليهود والنصارى حول المسيح . قال اليهود عليهم اللعنة إنه ابن زنى وقالت النصارى إنه ابن الله وغير ذلك . فجاءت سورة مريم تحسم هذا الخلاف .

واختلف العرب واليهود والنصارى في دين إبراهيم . فجاءت السورة تحسم هذا الخلاف . وتحدثت السورة عن مجموعة من الرسل وعن عبوديتهم لله .

وعما خلفهم أقوامهم به من المخالفة . وعن كون الملائكة لا تنزل إلا بأمر الله .

وعن موقف الكافرين من اليوم الآخر . وعن ادّعائهم أن لله ولداً .

وختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ **فإنما يَسّرناه بلسانك لتبشِّر به المتقين وتنذر به قوماً لُداً * وكم أهلكنا ...** ﴾ فمحمد ﷺ يبشر وينذر بهذا القرآن ككل رسول ، والقرآن ككل كتاب أنزله الله ، يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

فسورة مريم نموذج على التبشير والإنذار ، والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بغياً .

وعندما تحدث الاختلافات فإن الله يهدي أهل الإيمان بواسطة الرسل ، وفي ذلك رحمة لهم . ومن ثمّ يذكّر الله في سورة مريم برحمة الله للخلق بإرساله الرسل ؛ فتجد السورة تقول :

﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا** ﴾ . ﴿ **واذكر في الكتاب مريم** ﴾ . ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم** ﴾ . ﴿ **واذكر في الكتاب موسى** ﴾ . ﴿ **واذكر في الكتاب إسماعيل** ﴾ . ﴿ **واذكر في الكتاب إدريس** ﴾ . فهؤلاء رسل مبشرون ومنذرون ، وهؤلاء مؤمنون هداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، وهدى الخلق بهم . وهؤلاء اختلف قومهم من بعدهم بغياً .

ومن ثم أرسل الله محمداً ﷺ بالقرآن ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

هذا مظهر من مظاهر صلة سورة مريم - عليها السلام - بمحورها من سورة البقرة ، ويمكن أن نعرض المسألة بشكل آخر : أصبح العرب كلهم كفاراً . وهذا يقتضي أن يُبعَث فيهم رسول يبشر وينذر ومعه كتاب يحسم كل خلاف ، كما فعل الله للبشرية يوم صارت كلها كفاراً .

واختلف أهل الكتاب في الكتاب ، وهذا يقتضي أن يبعث الله رسولاً بكتاب يحسم الخلاف .

فكان هذا القرآن . إلا أن الخالصين من البغي وحدهم هم الذين يهتدون بهذا القرآن .

....

إن سورة مريم تذكّر برحمة الله لزكريا ولمريم ولإبراهيم ولموسى ولإسماعيل ولإدريس ولكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وفي هذا التذكير تفصيل لموضوع بعثة الأنبياء ، وموقف الناس منهم ، واختلاف الناس بعدهم .

وتذكّر بالحال الذي عليه العرب والناس بعد الرسل ، وتبشّر وتنذر .

....

فلنتأمل بدقة ما سنذكره من ارتباط معاني سورة مريم بمحورها :

﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبين مبشّرين ومنذرين** ﴾ آية البقرة ، وسورة مريم تعرض لمجموعة من الرسل بُعثوا .

﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم** ﴾ آية البقرة ، والسورة تعرض لاختلاف الناس في شأن المسيح عليه السلام . وهي القضية التي ضل بها أكبر قطاع من البشر ، ولإنكار الناس لليوم الآخر وهي القضية التي ضل بها أكثر البشر .

﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ آية البقرة ، بأن أنزل هذا القرآن ومنه سورة مريم التي هدت الناس لبعض ما اختلف فيه الناس .

﴿ **والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ آية سورة البقرة . وسورة مريم تتعرض لموضوع الهداية إلى الصراط المستقيم

....

إن الدخول في الإسلام هو الذي يحقق حكمة بعثة الرسل ، وبه يرتفع الخلاف ، وكل خلاف بعد الإسلام سببه البغي ، ومهما ضل الناس فإن سنة الله أن يهتدي أهل الإيمان إلى الصراط المستقيم ، الذي هو الإسلام . وسورة مريم تذكّر بهذه المعاني ، ومن ثم فهي تفصيل لمحورها من سورة البقرة ، الآتي في خدمة الأمر بالدخول في الإسلام كله .

تتألف السورة من مقطعين ، كل مقطع يتألف من مجموعات ، وسنعرض السورة ، وأثناء العرض نتحدّث عن سياقها ، ونسأل الله أن يجيرنا من الزلل ، والتكلف والتعسُّف في فهم كتابه ، وأن يفتح علينا ، وأن يحفظنا ، وأن يختم لنا بالإيمان ، إنه على ما يشاء قدير .

كهيعص

كنا ذكرنا من قبل أن أحداً لا يستطيع الجزم بمراد الله من هذه الأحرف . وذكرنا أن كل من تكلّم في هذه الأحرف إنما يسجّل ملاحظات حولها. وذكرنا إحدى هذه الملاحظات وهي أن هذه الأحرف تعين على فهم الوحدة القرآنية العامة من خلال كونها تشير إلى بداية مجموعة أو نهايتها ، أو تشير إلى محل سورة ضمن مجموعة ، أو إلى صلة سورة ضمن السياق الكلي، وأمثال هذا .

وهذه سورة مريم مبدوءة بما رأينا . وقد استفدنا من كون آخر حرف في بدايتها (ص) أنها نهاية مجموعة . ومما نلاحظه أنها مبدوءة بالحرف (ك) وهو الحرف نفسه المبدوءة به الآية التي ذكرنا أنها محور سورة مريم من البقرة ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾ .

ونلاحظ أن الحرف (ها) آت في السورة بعدها (طه) . ثم لا يرد مرة أخرى ، فهل فيه إشارة إلى أن سورته بداية مجموعة لورود الهاء في (كهيعص) كأول حرف بعد الهاء . ثم نلاحظ أن الحرف (يا) يأتي مرة واحدة في سورة (يس) وأن الحرف (عين) يرد بعد ذلك مرة واحدة في سورة الشورى ﴿**حمٓ عٓسٓقٓ**﴾ والملاحظ : أن ها ، يا ، عين ، جاءت على هذا التسلسل .

كما أن طه ، و ياسين ، وحم عسق ، جاءت على نفس التسلسل .

إن (كهيعص) كبقية الأحرف من مفاتيح فهم الوحدة الكلية للقرآن ، ومن ثَم فإن في هذه الأحرف في القرآن سراً هو وحده آية على أن هذا القرآن من عند الله المحيط علماً بكل شيء .

وقد سجّل المفسّرون كثيراً من الأقوال حول هذه الأحرف أشرنا إليها من قبل ، ولا يخرج كلامهم عن كونه محاولات للعثور على تفسير أو تسجيلاً لملاحظة فلا نعيده .

☆ ☆ ☆

المجموعة الأولى
من المقطع الأول من سورة مريم

وتشمل قصة زكريا ويحيى عليهما السلام من الآية (٢) إلى نهاية الآية (١٥) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾
وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ
اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ
وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ
أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ
إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ
صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا

عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

التفسير :

﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا** ﴾ أي هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴿ **إذ نادىٰ ربه نداءً خفياً** ﴾ أي سراً ﴿ **قال** ﴾ أي في دعائه الخفي ﴿ **رب إني وَهَن العظم مني** ﴾ أي ضعف ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾ فشا في رأسي لشيب ﴿ **ولم أكن بدعائك** ﴾ أي بدعائي إياك ﴿ **ربّ شقياً** ﴾ أي غير سعيد ، أي كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم ، سعيداً به . والمعنى أنني ضعفت ، وخارت قواي ، واضطرم المشيب في السواد ، ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط فيما سألتك . والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة التوسُّل إلى الوصول إلى المطلوب ، مع الاعتراف إلى الله بإحسانه السابق استدراراً للإجابة إلى ما يدعوه . ثم بين ماذا يريد ولماذا فقال : ﴿ **وإني خِفْت الموالي** ﴾ أي العصبة من قومي ﴿ **من ورائي** ﴾ أي من بعد موتي . أي خافهم أن يغيّروا الدين ، وألا يحسنوا الخلافة على أمته ، فطلب عقباً صالحاً من صلبه يقتدى به في إحياء الدين ﴿ **وكانت امرأتي عاقراً** ﴾ أي عقيماً لا تلد ﴿ **فهب لي من لدنك** ﴾ أي من عندك أي منك بلا سبب ، لأن امرأتي لا تصلح للولادة ﴿ **ولياً** ﴾ أي ابناً يلي أمرك بعدي . ﴿ **يرثني** ﴾ أي يرث مني ميراث العلم والنبوة ﴿ **ويرث من آل يعقوب** ﴾ النبوة . أي يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب . ومعنى وراثة النبوة : أنه يصلح لأن يوحى إليه ، ولم يرد أن نفس النبوة تورث ﴿ **واجعله ربّ رضيّاً** ﴾ أي مرضياً عندك ، وعند خلقك تحبه وتُحببه إلى خلقك في دينه وخلقه أو راضياً عنك وعن حكمك . دعا بالولد من خشيته أن يتصرف قومه من بعده في الناس تصرفاً سيئاً ، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ، بما يوحى إليه ، فأجيب في ذلك كما سنرى ؛ رحمة من الله به ، سجّلها ربنا في كتابه القرآن ، وذكرها ﴿ **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيىٰ** ﴾ تولى الله تسميته تشريفاً ﴿ **لم نجعل له من قبل سَمِيّاً** ﴾ أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم . قال النسفي : وهذا دليل على أن الاسم الغريب جدير بالأثرة . أقول : إذا كان هذا الاسم فيه معنى جميل وفسّر مجاهد السمي بالشبيه . والمعنى . لم نجعل له من قبل شبيهاً ومثلاً في مجموع خصائصه في كونه لم يعص ولم يهمّ بمعصية ، وأنه بين شيخ وعجوز وأنه كان حصوراً . والمعنى الأول هو الذي رجّحه

ابن جرير ، فلما أجيب زكريا إلى ما سأل ، وبُشّر بالولد ، تعجّب وفرح فرحاً شديداً ، وسأل عن الكيفية والوجه الذي يأتيه فيه الولد مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومن ثم قال : ﴿ **قال ربِّ أنىٰ يكون لي غلام** ﴾ أي كيف يكون لي غلام ! وليس هذا باستبعاد وإلا لما دَعا ؛ بل هو استكشاف أنه بأي طريق يكون ؟ أيوهب له وهو وامرأته بتلك الحال . أم يحوّلان شابين ؟ ﴿ **وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكِبَرَ عتياً** ﴾ العتي : هو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام ، كالعود اليابس . أي بلغت هذه الحال من الكبر والطعن في السن العالية . ومَن المبشِّر لزكريا هل هو الله مباشرة إلهاماً ، أو بالواسطة ؟ يدل كلام المفسرين على أن التبشير كان بواسطة الملك ﴿ **قال** ﴾ قال ابن كثير : أي الملك مجيباً لزكريا عما تعجّب منه ﴿ **كذلك** ﴾ أي الأمر كذلك في إيجاد الولد منك ، وأنت في هذه الحال ، ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿ **قال ربك هو عليَّ هَيِّن** ﴾ أي يسير سهل . ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال : ﴿ **وقد خلقتك من قبل** ﴾ أي أوجدتك من قبل يحيىٰ ﴿ **ولم تكُ شيئاً** ﴾ أليس أصلك ذرات متفرقة جمعها الله بكامل قدرته فكانت إنساناً ﴿ **قال رب اجعل لي آية** ﴾ أي علامة أعرف بها حبل امرأتي ﴿ **قال آيتك** ﴾ أي علامتك ﴿ **ألا تُكلِّم الناس ثلاث ليالٍ سوياً** ﴾ مع كونك سوي الأعضاء واللسان ، أي علامتك أن يحتبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي ، من غير مرض ولا علة . قال النسفي : يعني علامتك أن تُمنع الكلام فلا تطيقه ، وأنت سليم الجوارح ، مابك خرس ولابكم . ودلّ ذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن إذ ذكر الأيام يتناول ما بإزائها من الليالي ، وكذا ذكر الليالي يتناول ما بإزائها من الأيام عرفاً . ﴿ **فخرج على قومه من المحراب** ﴾ الذي بُشِّر فيه بالولد والمحراب : هو موضع الصلاة . ﴿ **فأوحى إليهم** ﴾ أي أشار إشارة خفية سريعة ﴿ **أن سبّحوا بكرةً وعشياً** ﴾ . قال ابن كثير : أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة ، زيادة على أعماله ؛ شكراً لله على ما أولاه ﴿ **يا يحيىٰ خذ الكتاب** ﴾ أي التوراة ﴿ **بقوّة** ﴾ أي بجِدٍ واستظهار بالتوفيق والتأييد ، والتقدير : وهبنا له يحيىٰ وقلنا ليحيىٰ بعد ولادته وأوان الخطاب ذلك ﴿ **وآتيناه الحكم** ﴾ أي فهم التوراة والفقه في الدين والقدرة على الفتوى ﴿ **صبياً** ﴾ أي وهو صبي . قال ابن كثير : وهذا ... تضمّن محذوفاً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيىٰ عليه السلام ، وأن الله علّمه الكتاب وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها ، ويحكم بها النبيون الذين

أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سِنّه إذ ذاك صغيراً ، فلهذا نوّه بذكره ، وبما أنعم عليه وعلى والديه فقال : ﴿ **يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوّة** ﴾ أي تعلّم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ﴿ **وآتيناه الحكم** ﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه ﴿ **صبياً** ﴾ أي وهو صغير حدث ﴿ **وحناناً** ﴾ أي : وشفقة ورحمة لأبويه وغيرهما ﴿ **من لدنّا** ﴾ أي من عندنا ﴿ **وزكاة** ﴾ أي وطهارة وصلاحاً ، فلم يعمد إلى ذنب ﴿ **وكان تقياً** ﴾ أي مسلماً مطيعاً ، والتقدير وآتيناه الحكم ، وآتيناه حناناً من لدنا وزكاة ، وجعلناه ذا حنان وذا زكاة . والحنان : هو المحبة في شفقة وميل ، والزكاة : الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ، وكان مع هذا كله تقياً ومقبلًا على الله في طاعة الأمر واجتناب النهي ﴿ **وبَرّاً بوالديه** ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقىً ، عطف بذكر طاعته لوالديه وبرّه بهما ، ومجانبته لعقوقهما ، قولاً ونهياً . ولهذا قال : ﴿ **ولم يكن جباراً** ﴾ أي متكبراً ﴿ **عصياً** ﴾ أي عاصياً لربه . ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاءً له على ذلك ﴿ **وسلام عليه** ﴾ أي وأمان من الله ﴿ **يوم ولد** ﴾ من أن يناله الشيطان ﴿ **ويوم يموت** ﴾ من فتنة القبر ، ووحشة البرزخ ﴿ **ويوم يبعث حَيّاً** ﴾ أي له الأمان في هذه الأحوال الثلاثة .

قال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم فأكرم الله فيها يحيىٰ بن زكريا ، فخصّه بالسلام عليه فقال : ﴿ **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً** ﴾ رواه ابن جرير .

الفوائد :

١ ــ جاء في صحيح البخاري عن زكريا عليه السلام : «أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة » . وفي ذلك درس في العمل والكسب ، وأنه لا يتنافى مع أرقى المقامات .

٢ ــ علّق قتادة على قوله تعالى : ﴿ **إذ نادىٰ ربه نداءً خفياً** ﴾ فقال : إن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي . وقال النسفي : وهو [أي الدعاء الخفي] أبعد عن الرياء وأقرب إلى الصفاء . وقال : أي عن الدعاء سراً : هو المأمور به . ويفهم من كلامه أنه إذا لم يكن الدعاء مشتركاً فالسنة في الدعاء الإسرار .

٣ ــ من مظاهر الإعجاز في القرآن أن كل كلمة من كلماته في محلها لا يمكن أن

يكون أفصح منها ، ولا أبلغ ، وهذا شيء مشترك بين كل لفظة وكل آية ، إلا أن المفسرين أو المؤلفين في إعجاز القرآن يختارون للتدليل على ذلك ما هو أظهر . وللنسفي وقفة عند قوله تعالى : ﴿ **قال إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً** ﴾ يفصح فيه عما قلناه . قال : « ولا ترى كلاماً أفصح من هذا ، ألا ترى أن أصل الكلام: يارب قد شخت ؛ إذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن ، وشيب الرأس ، المتعرض لهما ، وأقوى منه ، ضعف بدني ، وشاب رأسي ففيه مزيد التقرير للتفصيل ، وأقوى منه : وهنت عظام بدني ففيه عدول عن التصريح إلى الكناية ، فهي أبلغ منه وأقوى منه : وأنا وهنت عظام بدني . وأقوى منه : إني وهنت عظام بدني . وأقوى منه : إني وهنت العظام من بدني . ففيه سلوك طريقي الإجمال والتفصيل ، وأقوى منه : إني وهنت العظام مني . ففيه ترك توسيط البدن . وأقوى منه : إني وهن العظم مني لشمول الوهن العظام فرداً فرداً ، باعتبار ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد ، ولهذا تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ ، وهي الاستعارة فحصل : اشتعل شيب رأسي . وأبلغ منه : اشتعل رأسي شيباً لإسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ، ومنبته . وهو الرأس لإفادة شمول الرأس ؛ إذ وِزَان اشتعل شيب رأسي واشتعل رأسي شيباً وِزَان اشتعل النار في بيتي ، واشتعل بيتي ناراً ، والفرق نيّر ولأن فيه الإجمال والتفصيل كما عرف في طريق التمييز ، وأبلغ منه : واشتعل الرأس مني شيباً وأبلغ منه : واشتعل الرأس شيباً ففيه اكتفاء بعلم المخاطب أنّه رأس زكريا بقرينة العطف على وهن العظم) .

٤ ـــ ذهب بعضهم إلى أن قول زكريا : ﴿ **يرثني** ﴾ إلى أنّ زكريا يريد وراثة المال وقد نفى ابن كثير هذا نفياً باتاً . ودلل على أن مراده الوراثة في منصب الدين واستدل على ذلك بثلاثة أدلة :

١ ـــ أن زكريا كان نجاراً يأكل من كسب يديه ، ومثله لا يجمع مالًا ، كيف وهو نبي ومثله يكون أزهد الناس في الدنيا .

٢ ـــ إن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، وأن يأنف من وراثة عصباته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم .

٣ ـــ أنه قد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركنا صدقة » . وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح « نحن معشر الأنبياء لا نورث » . وبعد أن برهن ابن كثير على ذلك ذكر ما استدل به الآخرون ثم قال عن

أدلتهم : وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح .

٥ ــ وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **لم نجعل له من قبل سمياً** ﴾ نقل ابن كثير قول ابن عباس في ذلك وهو : (أي لم تلد العواقر قبله مثله » . ثم بين الفارق بين حمل زوجة زكريا ، وحمل زوجة إبراهيم عليه السلام . قال : وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له ، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها ، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام ، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرها ، ولهذا قال : ﴿ **أبشرتموني على أن مسني الكبر فَبِمَ تبشرون** ﴾ (الحجر : ٥٤) مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة . وقالت امرأته ﴿ **يا ويلتىٰ أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾ (هود : ٧٢ ، ٧٣) .

٦ ــ في قوله تعالى : ﴿ **وحناناً من لدنا** ﴾ يستدل الضحاك بقوله : ﴿ **من لدنا** ﴾ على أن ذلك لا يقدر عليه غير الله ، وهي لفتة بديعة ؛ فإن وجود الأخلاق في النفس البشرية دليل على وجود الله . وقد ذكرنا ذلك في كتابنا (الله جل جلاله) وفي النص تصريح بفضيلة الحنان ، ويكفى أنه من أخلاق النبوة .

٧ ــ مما فسّر به الحكم في قوله تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكم صبياً** ﴾ : بأنه الحكمة ، والحكمة موافقة التصرف لمقتضى الحال على ضوء الحكم الشرعي ، ومن المواقف التي يذكرها المفسرون ليحيىٰ ما يرويه عبد الله بن المبارك عن معمر : قال الصبيان ليحيىٰ بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال : ماللعب خلقت .

٨ ــ ما ذكره الله من خصائص يحيىٰ يعتبر نقاط علام في تربية الأطفال ، فأن تربي طفلك على مجموع هذه الخصائص هي الغاية التي ما بعدها غاية : ﴿ **يا يحيىٰ خذ الكتاب بقوّة** ﴾ ربِّ ولدك على أخذ الكتاب بجدّ وعزم .

﴿ **وآتيناه الحكم صبياً** ﴾ ربِّ ولدك على فهم الحكمة والتحقق بها كي يكون حكيماً .

﴿ **وزكاة** ﴾ ربّه على التقوى والطهارة في الأخلاق والسلوك .

﴿ **وكان تقياً** ﴾ ربّه على التقوى والإسلام والطاعة .

﴿ **وبرّاً بوالديه** ﴾ . ربّه على البر وجَنّبه العقوق .

﴿ **ولم يكن جباراً عصياً** ﴾ ربّه على التواضع والطاعة .

٩ ــ يذكر المفسرون أن يحيىٰ عليه السلام لم يعمل معصية ، ولم يهم بها قط . ويأخذ بعضهم هذا إما من قوله تعالى : ﴿ **وزكاة** ﴾ و ﴿ **ولم يكن جباراً عصياً** ﴾ . أو من أحاديث واردة في الموضوع . وابن كثير يذكر الأحاديث التي يرويها هؤلاء ويضعّفها جميعاً . لارداً لعصمة يحيىٰ التامة ، ولكن لأنها تذكر مع ذلك معاني أخرى تنفي أن يكون غيره مثله . وهذا كلامه :

« وروى عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله : ﴿ **جباراًعصياً** ﴾ قال : كان ابن المسيّب يذكر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيىٰ بن زكريا » . قال قتادة : ما أذنب ولا هَمّ بامرأة . مرسل . وقال محمد بن إسحاق عن يحيىٰ بن سعيد عن سعيد بن المسيب حدثني ابن العاص أنه سمع النبي ﷺ قال : « كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيىٰ بن زكريا »

وروى الإمام أحمد ... عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ ، أو همّ بخطيئة ، ليس يحيىٰ بن زكريا ، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » . وهذا أيضاً ضعيف لأن علي بن زيد بن جدعان – أحد رجال الإسناد – له منكرات كثيرة ، والله أعلم . وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيىٰ وعيسى عليهما السلام التقيا . فقال له عيسى : استغفر لي ، أنت خير مني فقال الآخر : أنت خير مني . فقال له عيسى أنت خير مني ، سلّمت على نفسي وسلّم الله عليك ، فعرف والله فضلهما »

كلمة في السياق :

جاءت قصة زكريا مقدمة لقصة مريم ، فالله الذي هو قادر على أن يخلق يحيىٰ من امرأة عاقر ، قادر على أن يخلق عيسى من غير أب . فمن المقاصد الرئيسية في السورة إبطال بنوة عيسى لله ، ورفع الاختلاف في هذه القضية . ومن جملة حِكَم إنزال رفع الاختلاف بين الناس . ومن أهم ما وقع فيه الاختلاف قضية مريم وابنها ، وعلى هذا فقصة زكريا تمهيد للحدث الكبير حدث قصة مريم . ولكنها مقدمة علمتنا الكثير : علمتنا كيف يحرص الرسول على استمرار الهدى .

وعلمتنا أن الجيل اللاحق قد ينحرف فيحتاج إلى نبي جديد ، وبعد محمد ﷺ لا نبوّة ولكنه التجديد.

وعلمتنا كيف ينبغي أن يؤخذ الكتاب.

وعلمتنا كيف تكون خصائص وأخلاق الأنبياء .

وعلمتنا كيف يدعو الرسول.

وقصت علينا قصة رسولين .

فلنر مكان هذه القصة في السياق الكلي للقرآن .

إن الآية التي هي محور سورة مريم من سورة البقرة هي :

﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ . وهذا القرآن أنزله الله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومن ثَم يقص علينا قصة زكريا ويحيىٰ وعيسى . وهم ممن وقع الاختلاف في شأنهم ، يدلنا على ذلك أن بداية قصة زكريا هي : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا ....** ﴾ وأن قصة مريم بعده مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب مريم** ﴾ .

وقصة زكريا ويحيىٰ قصة رسولين مبشرين ومنذرين ، وذكرهما للقدوة بهما ولرفع الخلاف في شأنهما ، ومقدمة للوصول إلى قصة مريم التي وقع في شأن ابنها الاختلاف الأكبر.

فلنر المجموعة الثانية من السورة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية من المقطع الأول

وتمتد من الآية (١٦) إلى نهاية الآية (٤٠) وهذه هي :

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ
مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ
لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ
بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾
فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا
مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ
إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ
فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ
إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾
يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟
كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ

وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ
﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ
﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ
مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ
يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ
قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

بين يدي قصة مريم عليها السلام :

قال صاحب الظلال رحمه الله :

(وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلًا وإنشائه على هذه الصورة ، فإن حادث ولادة عيسى بن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله ، ويكون حادثاً فذاً لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها، لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم ، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث ، فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب ، على غير السُّنة التي جرت منذ وُجد الإنسان على هذه الأرض ، ليشهدها البشر ، ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال ، إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان .

لقد جرت سنّة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء ، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث .. جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة ، ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى بن مريم – عليه السلام – ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة ، وأنها لا تحبس داخل النواميس التي تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله ، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره . وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلماً بارزاً على حرية المشيئة ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ .

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته ، وأن تدرك الحكمة في إبرازه ، فجعلت تضفي على عيسى بن مريم – عليه السلام – صفات الألوهية ، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب – وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد – تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد .

والقرآن في هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ، ويبرز دلالتها الحقيقية ، وينفي تلك الخرافات والأساطير) .

التفسير :

﴿ **واذكر** ﴾ يا محمد ﴿ **في الكتاب** ﴾ القرآن ﴿ **مريم** ﴾ أي قصة مريم ﴿ **إذ انْتبذَت** ﴾ أي اعتزلت . أي اذكر وقت اعتزالها ﴿ **من أهلها مكاناً شرقياً** ﴾ أي تخلت للعبادة في مكان ما شرقي بيت المقدس ، أو شرقي دارها معتزلة عن الناس ﴿ **فاتخذت من دونهم حجاباً** ﴾ أي جعلت بينها وبين أهلها حجاباً . أي استترت منهم وتوارت ﴿ **فأرسلنا** ﴾ المرسِل هو الله ﴿ **إليها روحنا** ﴾ أي جبريل عليه السلام وإضافة الروح إلى الله للتشريف . وإنما سمي روحاً لأن الدين يحيا به وبوحيه ﴿ **فتمثّل لها بشراً سوياً** ﴾ فتمثل لها جبريل على صورة إنسان تام كامل مستوى الخلْق . **قال** النسفي : وإنما مُثِّل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على الاستماع ﴿ **قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً** ﴾ أي إن كنت

تخاف الله أي إن كان يرجىٰ منك أن تتقي الله فإني عائذة به منك ، لمّا تبدىٰ لها الملَك في صورة بشر ، وهي في مكان منفرد ، وبينها وبين قومها ستر ، خافته وظنّت أنه يريدها على نفسها فذكّرته بالله . وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل ، فخوّفته أولًا بالله عز وجل ﴿ **قال** ﴾ جبريل ﴿ **إنما أنا رسول ربك** ﴾ أمّنها بهذا مما خافت ، وأخبر أنه ليس بآدمي بل هو رسول مَنْ استعاذت به . ثمّ بيّن لها حكمة إرساله ﴿ **لأهَبَ لكِ** ﴾ بإذن الله ، أو لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع أي في الثوب ﴿ **غلاماً زكيّاً** ﴾ أي طاهراً من الذنوب ، أو نامياً على الخير ، فتعجّبت مريم من هذا و ﴿ **قالت أنّىٰ** ﴾ أي كيف ﴿ **يكون لي غلام** ﴾ أي ابن ﴿ **ولم يمسسني بشر** ﴾ أي زوج بالنكاح ﴿ **ولم أكُ بغياً** ﴾ أي زانية فاجرة تبغي الرجال ، أي تطلب الشهوة من أي رجل كان ، ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين ، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج ؟ ولا يتصور مني الفجور ؟ ﴿ **قال** ﴾ أي جبريل ﴿ **كذلك** ﴾ أي الأمر كما قلت لم يمسسك رجل نكاحاً ولا سفاحاً ، ولكنّ الله قادر ﴿ **قال ربك هو عليّ هين** ﴾ أي إعطاء الولد بلا أب عليَّ سهل ﴿ **ولنجعله آيةً للناس** ﴾ أي فعلنا ذلك لنبيّن لهم قدرتنا ، ولنجعله للناس آية أي عبرة وبرهاناً على قدرتنا . قال ابن كثير :(أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم ، الذي نوّع في خلقهم فخلق أباهم من غير ذكر أو أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه من أنثى ، بلا ذكر . فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه . فلا إله غيره ، ولا رب سواه) وكما هو آية فكذلك هو رحمة . ومن ثم قال : ﴿ **ورحمة منّا** ﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء ، يدعو إلى عبادة الله وتوحيده ﴿ **وكان** ﴾أي خلق عيسى ﴿ **أمراً مقضياً** ﴾ أي مقدّراً مسطوراً في اللوح ، أي قد قضى الله هذا فليس منه بد . قال ابن كثير : (يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم ، يخبرها أن هذا أمر مقدّر في علم الله تعالى . وقَدَرِه ومشيئته . ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنّى بهذا عن النفخ فيها » . ﴿ **فحملته** ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿ **فانتبذت به** ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها ﴿ **مكاناً قصيّاً** ﴾ أي بعيداً من أهلها . ﴿ **فأجاءها المخاض** ﴾ أي فجاء بها المخاض ، أوفألجأها المخاض أي الطلق ﴿ **إلى جذع النخلة** ﴾ أي إلى أصلها . أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحّت إليه ﴿ **قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا** ﴾ أي قبل هذا اليوم ، قالت ذلك جزعاً مما أصابها ، وخوفاً من كلام الناس

﴿ **وكنت نسياً منسياً** ﴾ أي شيئاً متروكاً لا يُعرَف ، ولا يذكر . والنسي هو الشيء الذي حقه أن يطرح وينسى لحقارته . قال ابن كثير : (فيه دليل على تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها . وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية) . ﴿ **فناداها** ﴾ جبريل أو عيسى ﴿ **من تحتها** ﴾ إن كان عيسى فإنه خاطبها من تحت ذيلها ، وإن كان جبريل فقد خاطبها من مكان منخفض عنها ﴿ **ألا تحزني** ﴾ أي لشدة ما لقيت ، هذا تسلية لها في وحدتها وجوعها ، واحتمالات كلام الناس عليها . ﴿ **قد جعل ربك تحتك سرياً** ﴾ أي جدولاً صغيراً على القول الراجح ، أو سيداً كريماً على القول المرجوح ﴿ **وهزّي إليك بجذع النخلة** ﴾ أي وخذي إليك بجذع النخلة ، وحرّكيه ﴿ **تساقط عليك رطباً** ﴾ أي تمراً ﴿ **جنياً** ﴾ أي طريّاً ﴿ **فكلي** ﴾ من التمر ﴿ **واشربي** ﴾ من الجدول. دلّ هذا على مناسبة التمر للنفساء ﴿ **وقرّي عيناً** ﴾ أي بالولد الرضي ، أي وطيبي نفساً بعيسى ، وارفضي عنك ما أحزنك ﴿ **فإما ترّين من البشر أحداً** ﴾ . أي مهما رأيت من أحد ﴿ **فقولي إني نذرت للرحمن صوماً** ﴾ أي صمتاً وإمساكاً عن الكلام . وكان صوم الصمت مشروعاً عندهم ، ونسخ في شريعتنا ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع ﴿ **فلن أكلّم اليوم إنسياً** ﴾ أي آدمياً . قال ابن كثير : المراد بهذ القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي ﴿ **فلن أكلم اليوم إنسياً** ﴾ وقال النسفي : وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة . وقد تُسمى الإشارة كلاماً وقولًا . وقيل : كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام ، أو سوّغ لها هذا القدر بالنطق . ﴿ **فأتت به** ﴾ مريم بعيسى ﴿ **قومَها تحمله** ﴾ أي أقبلت نحوهم حاملة إياه . فلما رأوه معها ﴿ **قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً** ﴾ . أي . أمراً عظيماً عجيباً ، والفريّ : القطع . أي أمراً قاطعاً للعادة ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ أي في الصلاح ، شبهوها بهارون في الصلاح . ولنا عودة على الموضوع ﴿ **ما كان أبوك امرأ سوءٍ** ﴾ أي زانياً ﴿ **وما كانت أمّك بغيّاً** ﴾ أي زانية ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أي أشارت إليهم إلى خطاب عيسى فغضبوا أو تعجبوا و ﴿ **قالوا كيف نكلّم مَنْ كان في المهد صبياً** ﴾ أي من هو موجود في مهده حال صغره كيف يتكلم : ﴿ **قال إني عبد الله** ﴾ أول شيء تكلّم به أن نزّه جناب ربه تعالى وبرّأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه ﴿ **آتاني الكتاب** ﴾ أي قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى ﴿ **وجعلني نبيّاً** ﴾ أي فيما يأتي ، جعل الآتي لا محالة كأنه وجد ﴿ **وجعلني مباركاً أينما كنت** ﴾ أي جعلني نفّاعاً

حيث كنت ، أو معلّماً للخير حيث كنت ﴿ **وأوصاني بالصلاة والزكاة** ﴾ أي أمرني بهما ﴿ **ما دمت حيّاً** ﴾ أي مدة حياتي ﴿ **وبرّاً بوالدتي** ﴾ أي باراً بها أكرمها وأعظّمها ﴿ **ولم يجعلني جباراً** ﴾ أي متكبراً ﴿ **شقيّاً** ﴾ أي عاقاً ﴿ **والسلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً** ﴾ أي جنس السلام عليّ في هذه المواطن الثلاثة ، وفيه تعريض باللعنة على متهميّ مريم وأعدائها ، إذ المقام مقام مناكرة وعناد ، فكان مئنة لمثل هذا التعريض ، وفي كل ما قاله إثبات لعبوديته لله عز وجل ، وأنه مخلوق مأمور ، وهو خلق من خلق الله الذي يحيي ويميت ، كما أنّه يُبعَث كسائر الخلائق ، وفي نطقه المعجز هذا في صغره قدّم الدليل على براءة أمه ﴿ **ذلك** ﴾ أي الذي قال إني عبد الله ... ﴿ **عيسى ابن مريم** ﴾ لا كما قالت النصارى إنه إله ، أو ابن الله ﴿ **قول الحق** ﴾ أقول قول الحق ، أي هو ابن مريم وليس بإله كما يدّعونه ﴿ **الذي فيه يمترون** ﴾ أي يشكّون أو يختلفون . فقالت اليهود : ساحر كذاب ابن زانية . وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة ﴿ **ما كان لله** ﴾ أي ما ينبغي له ﴿ **أن يتخذ من ولد سبحانه** ﴾ نزّه ذاته عن اتخاذ الولد ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أي كما قال لعيسى كن فكان من غير أب ، ومن كان متّصفاً بهذا كان منزهاً أن يكون والداً ﴿ **وإن الله ربي وربكم** ﴾ يعني كما أنا عبده فأنتم عبيده ، وعليّ وعليكم أن نعبده ، وهو من كلام عيسى ﴿ **فاعبدوه** ﴾ أي ولا تشركوا به شيئاً ﴿ **هذا** ﴾ أي الذي ذكرته في كوني عبد الله ، وأن الله ربي وربكم ، وأن عليكم أن تعبدوه ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ أي طريق لا عوج له ﴿ **فاختلف الأحزاب** ﴾ أي فاختلفت الفرق ﴿ **من بينهم** ﴾ من بين النصارى ، أو من بين الناس ، أو من بين قومه ، فمنهم من قال : إنه ابن الله ، ومنهم من قال : إنه الله ، ومنهم من قال : ثالث ثلاثة ومنهم من قال : هو عبد الله ورسوله ﴿ **فويل للذين كفروا** ﴾ من الأحزاب ، إذ أحدهم كان على الحق وهم الذين يعترفون أنه رسول الله ﴿ **من مَشهَد يوم عظيم** ﴾ هو يوم القيامة ، أو من شهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم ، أو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وجوارحهم بالكفر ، أو من مكان الشهادة أو وقتها ﴿ **أَسْمِع بهم وأبصر** ﴾ أي إن عموا وصمُّوا عن الحق في الدنيا ، فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين** ﴾ أي في ضلال عن الحق ظاهر واضح ، أي لكنهم في الحياة الدنيا - بسبب ظلمهم أنفسهم - في ضلال ظاهر ، وهو اعتقادهم أن عيسى إله معبود ، مع ظهور آثار

الحدوث فيه ، ولذلك هم في ضلال ظاهر ؛ حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدي ، ووضعوا العبادة في غير موضعها ، وفي ذلك إشعار بأنه لا ظلم أشد من ظلمهم ﴿ **وأنذرهم** ﴾ أي وخَوِّفهم ﴿ **يوم الحسرة** ﴾ أي يوم القيامة ، لأنه يقع فيه الندم على ما فات ﴿ **إذ قُضِيَ الأمر** ﴾ أي فرغ من الحساب ، وصير إلى الجنة أو النار ﴿ **وهم في غفلة** ﴾ أي في الدنيا عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة . أي في غفلة هنا عن الاهتمام بذلك المقام ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ أي لا يصدقون . أي وأنذرهم على هذه الحال التي هم عليها غافلون غير مؤمنين ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومَنْ عليها** ﴾ متفردين بالملك والبقاء عند تعميم الهلك والفناء ﴿ **وإلينا يرجعون** ﴾ أي يُردون فيجازون جزاءً وفاقاً . أخبر تعالى في مقام وعظ هؤلاء أنه الخالق المالك المتصرّف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى وتقدّس ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم ، الحاكم فيهم ، فلا تظلم نفس شيئاً ، ولا جناح بعوضة ، ولا مثقال ذرة .

كلمة في السياق :

الصلة بين قصة مريم وما قبلها واضحة ،قال ابن كثير : (لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً مباركاً ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها ، من غير أب فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة . ولهذا ذكرهما في آل عمران ، وههنا وكذا في سورة الأنبياء يقرن القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ؛ ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه وأنه على ما يشاء قدير) .

هذا ما له علاقة في السياق الخاص للسورة .

وأمّا صلة القصة بالسياق العام للقرآن فهي على النحو التالي :

لقد ذكرت الآية التي هي محور هذه السورة: ﴿**فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ .

وهذا القرآن أنزله الله على محمد ﷺ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وقد حكمَ إذ عرض قصة مريم وابنها، وعلّق عليها، وهي من أعظم القضايا التي اختلف فيها البشر، فأعطى فيها قول الحق، ووعظ الناس وذكرهم وأنذرهم أن يثوبوا إلى الحق، مقرراً عبودية المسيح وبراءة أمه .

وتأتي بعد ذلك قصة إبراهيم عليه السلام لتبرهن أن كل رسول لله كان مقامه العبودية لله ، وكانت دعوته لذلك

نقل :

عند قوله تعالى : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾ قال صاحب الظلال :

(ولقد جمع الإمبراطور الروماني قسطنطين مجمعاً من الأساقفة - وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة - بلغ أعضاؤه ألفين ومئة وسبعين أسقفاً ، فاختلفوا في عيسى اختلافاً شديداً ، وقالت كل فرقة فيه قولًا . قال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء . وقال بعضهم : هو ابن الله ، وقال بعضهم : هو أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والإبن وروح القدس . وقال بعضهم : هو ثالث ثلاثة : الله إله وهو إله وأمه إله . وقال بعضهم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته . وقالت فرق أخرى أقوالًا . ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مئة وثمانية اتفقوا على قول . فمال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين وشَرَّد المعارضين وبخاصة الموحِّدين .

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن السياق هنا ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله ، وينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر ، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين : ﴿ **فويل للذين كفروا من مَشْهَد يوم عظيم * أَسْمِع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ .

فوائد :

١ ـــ في مراجعة للأناجيل الأربعة المعتمدة عند نصارى اليوم يجد الإنسان أن هذه الأناجيل لا تصلح لأن تعتمد في تحقيق أي مسألة . وذلك لأنها كلها من مدرسة بولس ، وليس فيها إنجيل واحد متلقى عن المسيح مباشرة . وكنا ذكرنا من قبل أن بولس قد ذكر في رسائله أنه اختلف مع بطرس حواريّ المسيح ، ومع برنابا التلميذ المكمل للاثنى عشر . ومن ذلك ندرك حاله وحال تلامذته واتجاهه ، إذ يختلف فكراً وسلوكاً مع الممثلين الحقيقيين للديانة المسيحية . ثم في هذه الأناجيل الأربعة ما يدل على أنها روايات لحياة المسيح ، كما وصلت إلى أصحابها ، ومن ثم لا تجدها تسير على نسق واحد ، فليست هي إذن تسجيلًا للوحي الذي أنزله الله على عيسى ثم هي مختلفة مع بعضها اختلافاً كبيراً . خذ مثلًا نسب يوسف النجار الذي يزعمون أنه زوج مريم عليها السلام . ففي إنجيل متى ما بين يوسف النجار وإبراهيم عليه السلام أربعون رجلًا . وفي إنجيل لوقا ما بين يوسف النجار وبين إبراهيم (٥٤) رجلًا . ثم تجد فارقاً كبيراً بين رجال من النسبين حتى ليكاد الالتقاء يكون نادراً .

فإذا كانت المسألة هكذا ، وإذا كان حال الأناجيل الأربعة كذلك . والمفروض أن تكون حقاً خالصاً فما حال غيرها ، ومن ثم تعرف الروايات المذكورة في الأناجيل لا تساوي شيئاً من حيث قيمتها التاريخية ، فهي تسجيل لوجهة نظر بعد أن حدث الاختلاف الهائل في شأن المسيح وأمه عليهما السلام . ووجهة النظر المسجلة وجهة نظر بولس ومدرسته التي هي على نقيض كامل لما كان عليه تلاميذ المسيح الحقيقيين . ومن ثم نجد أن بولس نفسه في رسائله المعتمدة عند نصارى اليوم يذكر أنه اختلف مع أكبر تلاميذ المسيح وهاجمه ، كما اختلف مع برنابا نفسه الرجل الصالح ، وللأسف فمدرسة بولس هي المدرسة التي انتصرت في تاريخ النصرانية ، وأتلفت وثائق كل وجهة نظر أخرى تختلف مع وجهتها . ومن ثم فإن هذه المدرسة ورجالها ورواياتها مرفوضة ممروضة ، وجاء القرآن ليوضّح الحق ويقرره في شأن المسيح وأمه عليهما السلام

٢ ـــ تتحدث الأناجيل المحرفة الحالية عن يحيىٰ عليه السلام . وإنجيل لوقا من بينها يتحدث عن زكريا وزوجته العاقر وحملها بيحيىٰ وما رافق ذلك من احتباس لسانه ، والصلة بين زكريا ومريم . وبين مريم وزوجة زكريا مع اختلاف وزيادات ونقص عما ورد . وقد جعل الله عز وجل لنا في القرآن غنية عما سواه . فما ورد في الكتاب والسنة هو الحكم الفصل ، وهو وحده الكافي ، وهو وحده الحق .

٣ ـــ أخرج ابن جرير بسنده إلى ابن عباس . قال :«إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله تعالى : ﴿ **فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً** ﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة » .

٤ ـــ قال ابن كثير في شأن مريم عليها السلام :

ذكر غير واحد من علماء السلف أن الملَك وهو جبرائيل عليه السلام في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج ، فحملت بالولد بإذن الله تعالى ، فلما حملت ضاقت ذرعاً ، ولم تدر ماذا تقول للناس ، فإنها تعلم أن الناس لايصدقونها فيما تخبرهم به ، غير أنها أفشت سرّها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا ، وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك . فحملت امرأته فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها وقالت أشعرت يا مريم أنيّ حبلى ؟ فقالت لها مريم وهل علمت أيضاً أني حبلى وذكرت لها شأنها وما كان خبرها ، وكانوا بيت إيمان وتصديق ، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجد الذي في بطنها يسجد

للذي في بطن مريم ، أي يعظمه ويخضع له ، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعاً ، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته ، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام ، ولكن حرم في ملتنا هذه تكميلًا لتعظيم جلال الرب تعالى ، روى ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين قال : قُرىء على الحارث بن مسكين وأنا أسمع أخبرنا عبد الرحمن ابن القاسم قال : قال مالك رحمه الله : بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة ، وكان حملهما جميعاً معاً ، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم إني أرى أن ما بطني يسجد لما في بطنك » قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله جعله يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص .

أقول : في إنجيل لوقا الإصحاح الأول : « فلما سمعت أليصَابات (زوجة زكريا) سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها ، وامتلأت أليصابات من الروح القدس ، وصرخت بصوت عظيم وقالت : مباركة أنت في النساء وهي - مباركة ثمرة بطنك ... فهو ذا حين صار صوت سلامك في أذني ارتكض الجنين بابتهاج في بطني ، فطوبى للتي آمَنت أن يتم ما قيل لها من قِبَل الرب » .

٥ ــ هناك خلاف بين المفسرين حول مدة حمل مريم بعيسى عليه السلام هل كان الحمل والولادة في زمن قصير أو هو حمل عادي ؟ قال ابن كثير : « فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها ، وكان معها في المسجد رجل صالح من قرابتها يخدم معها البيت المقدس ، يقال له يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمّل ما هي فيه ، فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه على أن عرّض لها في القول فقال: يامريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليّ .قالت: وما هو ؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حب ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت : نعم وفهمت ما أشار إليه،أما قولك : هل يكون شجر من غير حب ، وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب ، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصدّقها وسلم لها حالها . ولما استشعرت من قومها اتهامها بالريبة ، انتبذت منهم مكاناً قصياً » .

أقول: وفي إنجيل متى في الإصحاح الأول : « لما كانت مريم أمة مخطوبة ليوسف قبل

أن يجتمعا ، وجدت حبلى من الروح القدس ، فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً ، ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور ، إذ ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلًا يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس .... فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب وأخذ امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر » . وهذا الكلام لا نجده في بقية الأناجيل ولا نستطيع اعتماده وإنما نذكره للاستئناس .

٦ ــ هل كانت النخلة التي هزتها مريم يابسة في الأصل أو مثمرة ، وكان الحدث خارقاً أو عادياً ؟ أقوال للمفسرين . إلا أن الظاهر أن إكرامها بالجدول والتمر كان خارقاً هذا إذا فسرنا (السري) بالنهر الصغير وهو الراجح ، ومن إكرام الله مريم بالنخلة وهي نفساء . فهم عمرو بن ميمون وغيره أن أجود شيء للنفساء التمر . قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب . ثم تلا الآية الكريمة ﴿ **وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً** ﴾ .

٧ ــ هل الصوم الذي أمرت به مريم كان صوماً كاملًا عن الطعام والشراب وكان جزءاً من الصوم عندهم الامتناع عن الكلام ؟ أو أنه كان صوم صمت فقط ؟ أقوال للمفسرين . والمهم أن صوم الصمت في شريعتنا غير جائز . قال ابن إسحق عن حارثة قال : كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلّم أحدهما ولم يسلّم الآخر فقال: ما شأنك ؟ قال أصحابه: حلف أن لا يكلم الناس اليوم . فقال عبد الله بن مسعود: كلّم الناس وسلّم عليهم فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج ، يعني بذلك مريم عليها السلام ليكون عذراً لها إذا سئلت . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

٨ ــ في تصوير لحظة اللقاء الأول بعد الولادة بين مريم والناس . يروي ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم عن نوف البكالي قال : وخرج قومها في طلبها ، قال : وكانت من أهل بيت نبوة وشرف ، فلم يحسوا منها شيئاً فلقوا راعي بقر ، فقالوا : رأيت فتاة كذا وكذا نعتها . قال : لا ، ولكني رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط . قالوا : وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادي. قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال : رأيت نوراً ساطعاً فتوجهوا حيث قال لهم فاستقبلتهم مريم فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها فجاءوا حتى قاموا عليها ﴿ **وقالوا يا مريم لقد جئت**

شيئاً فرياً ﴾ أمراً عظيما ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ أي: شبيهة هارون في العبادة ﴿ **ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمك بغياً** ﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة ، فكيف صدر هذا منك قال علي بن أبي طلحة قيل لها : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ أي أخي موسى وكانت من نسله . كما يقال للتميمي يا أخا تميم . وللمضري يا أخا مضر » .

أقول : ولم يزل النصارى يشوّشون على قوله تعالى : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ .

وفي ذلك يروي الإمام أحمد والترمذي ومسلم والنسائي عن المغيرة بن شعبة قال: « بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ماتقرؤون ﴿**يا أخت هارون**﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال: «ألا أخبرتهم أنهم يسمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم» .

وكلام الرسول ﷺ يحتمل أن لها أخاً اسمه هارون ، ويحتمل أنهم سموها بذلك لقباً .

٩ – قال النسفي تعليقاً على ماأمرت به مريم من القول : ﴿**فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسياً** ﴾ : وإنما أمرت أن تنذر السكوت لأن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرىء به ساحتها ، ولئلا تجادل السفهاء ، وفيه دليل على أن السكوت عن السفيه واجب ، وما قُدِع سفيه بمثل الإعراض ولا أطلق عنانه بمثل العِراض .

١٠ – في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأنّ الجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

١١ – عند قوله تعالى : ﴿**وجعلني مباركاً أينما كنت**﴾ يذكر ابن كثير ما رواه ابن جرير عن وهيب بن الورد مولى مخزوم قال: « لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم فقال له : يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده » وقد قال العلماء في قوله الله تعالى ﴿ **وجعلني مباركاً أينما كنت** ﴾ أن بركته هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان .

١٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿**فاختلف الأحزاب من بينهم**﴾ قال ابن كثير : (أي

اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصمَّمت طائفة منهم - وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله - على أنه ولد زِنْية ، وقالوا : كلامه هذا سحر ، وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله . وقال آخرون : بل هو ابن الله ، وقال آخرون : ثالث . وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين . وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف . روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى : ﴿**ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون**﴾ قال : اجتمع بنو إسرائيل ، فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع ، فقال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض ، فأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية . فقال الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قُل أنت فيه . قال هو ابن الله وهم النسطورية . فقال الاثنان : كذبت . ثم قال أحد الاثنين : قل فيه . فقال : هو ثالث ثلاثة . الله إله ، وهو إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى عليهم لعائن الله . قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله ورسوله ، وروحه وكلمته ، وهم المسلمون . فكان لكل رجل منهم أتباع على ماقالوا، فاقتتلوا وظهر على المسلمين. فذلك قول الله تعالى: ﴿**ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس**﴾ (آل عمران : ٢١) وقال قتادة: وهم الذين قالوا الله : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾ قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً . وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وعن عروة بن الوبير وعن بعض أهل العلم قريباً من ذلك ، وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم ، أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً ، فاختلفوا في عيسى بن مريم عليه السلام اختلافاً متبايناً ، فقالت كل شرذمة فيه قولًا ، فمائة تقول فيه قولًا ، وسبعون تقول فيه قولًا آخر ، وخمسون تقول شيئاً آخر ، ومائة وستون تقول شيئاً ، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم ، اتفقوا على قول وصمَّمُوا عليه ، فمال إليهم الملك ، وكان فيلسوفاً ، فقدّمهم ونصرهم ، وطرد من عداهم ، فوضعوا له الأمانة الكبيرة ، بل هي الخيانة العظيمة ، ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء ، وابتدعوا بدعاً كثيرة ، وحرّفوا دين المسيح ، وغيّروه فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها : بلاد الشام ، والجزيرة ، والروم . فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة ،

وَبَنَت أمه هيلانة قمامة (أي ديراً) على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي يزعم اليهود أنه المسيح ، وقد كذبوا، بل رفعه الله إلى السماء) .

١٣ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه الإمام أحمد . ورواه البخاري ومسلم بلفظ قريب من ذلك . وهذه رواية الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيؤمر فيذبح. قال: ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت» ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ وأشار بيده ثم قال : « أهل الدنيا في غفلة الدنيا » .

كلمة في السياق :

في الآية التي قلنا إنها محور سورة مريم نجد قوله تعالى : ﴿ **فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

وفي سياق قصة عيسى ومريم عليهما السلام يقول الله عز وجل على لسان المسيح : ﴿ **وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ .

فدلّ ذلك على أن هداية المؤمنين هي في كونهم عرفوا لله حقه في الربوبية ، وواجبهم له في العبودية ، وهذا هو الصراط المستقيم . ومن ثمّ نلاحظ أن قصة إبراهيم عليه السلام التي تأتي مباشرة بعد قصة عيسى عليه السلام تتحدث عن معنى العبودية التي دعا إليها إبراهيم أباه وتحقق بها عملاً . فالسورة حديث عن الأنبياء ، وحديث عن إنزال الله الكتاب بما يرفع الاختلاف . وحديث عن هداية الله المؤمنين إلى الصراط المستقيم . وحديث عن الاختلاف الظالم والانحراف الغاشم ، وحديث عن كل ما تقتضيه قضية الاعتراف لله بالربوبية

....

ونلاحظ أن قصة مريم بدأت بقوله تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب مريم** ﴾ وأن قصة إبراهيم بعدها بدأت بقوله تعالى ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم** ﴾ وبين ذلك ورد قوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة** ﴾ .

فإذا تذكرنا أن الآية التي هي محور سورة مريم وصفت النبيين بالتبشير والإنذار ، ووصفت الكتاب بأنه ينزل ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، عرفنا سورة مريم بمحورها فههنا يأمر الله رسوله بالإنذار ، ويأمره بذكر هذه القصص التي ترفع الخلاف .

وإذا تذكّرنا أن الصراط المستقيم هو العبودية لله رب العالمين ، وأن هذا المعنى ركزته السورة . وستركزه ، ندرك كيف تخدم هذه السورة موضوع الدخول في الإسلام كله ، إذ الدخول في الإسلام كله هو العبودية لله ، وهو الصراط المستقيم .

وبعد ما مرّ تأتي قصة إبراهيم ليتأكد بها أن دعوة الرسل عليهم السلام هي العبودية لله التي هي نفسها دعوة عيسى عليه السلام ، لا كما يزعم النصارى . وبعد قصة إبراهيم يأتي ذكر موسى وهارون . ثم ذكر إسماعيل . ثم ذكر إدريس . ثم آية جامعة تتحدث عن عبودية الرسل جميعاً لله . وفي ذلك تأكيد لكون عيسى رسولاً كبقية الرسل ، وكونه عبداً لله وليس غير ذلك . وفي ذلك تعريف على الرسل الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة والأخيرة من المقطع الأول

وتمتد من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٥٨) وهذه هي :

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ
تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ
ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ
لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ
بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ
بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ
عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾
وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ
هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا
نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا
﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ
نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

التفسير :

﴿ **واذكر** ﴾ يا محمد ﴿ **في الكتاب** ﴾ أي في القرآن ﴿ **إبراهيم** ﴾ **أي قصته مع** أبيه ﴿ **إنه كان صدّيقاً نبياً** ﴾ أي كان مصدقاً لجميع الأنبياء وكتبهم ، وكان نبياً في نفسه ﴿ **إذ قال لأبيه** ﴾ أي أنه عندما قال لأبيه ما سيقصه الله علينا ، كان جامعاً لخصائص الصدّيقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات . والمراد بقول الله تعالى لرسوله : (واذكر) هو أن يتلو الرسول ﷺ ذلك على الناس ، ويبلغه إياهم ، وإلا فالله عز وجل هو ذاكره ومورده في تنزيله ، والحكمة في إيراد قصة إبراهيم في هذ المقام واضحة . فإبراهيم جد عيسى الأعلى وجد العرب . وهو الذي تعترف بنبوته ورسالته أكثر الأمم ، فإذا خاطب أباه هذه المخاطبات ، وجعلها الله له أعلى المقامات ، فذلك دليل على أن الدعوة إلى ربوبية الله وعبودية الإنسان هي سنة كل رسول لله دعوة وتحققاً ، فكيف يدعو الرسل جميعاً إلى هذا ، ويستقيم في عقل الإنسان أن يكون عيسى مع الله رباً ، أو تكون الأصنام مع الله شركاء ؟ وهذه مخاطبات إبراهيم ﴿ **يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً** ﴾ أي لم تعبد أصمّ أعمى ، وهو في الوقت نفسه لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً ، إنك تضع العبادة في غير محلها ﴿ **ياأبت إني قد جاءني من العلم** ﴾ أي من الوحي ومعرفة الله ﴿ **ما لم يأتك فاتبعني أهدك** ﴾ أي أرشدك ﴿ **صراطاً سوياً** ﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب ، والنجاة من المرهوب ، وإن كنتُ من صلبك ، وتراني أصغر منك لأني ولدك . فإني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿ **ياأبت لا تعبد الشيطان** ﴾ أي لا تطعه فتعبد غير الله ؛ فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به ﴿ **إن الشيطان كان للرحمن عصياً** ﴾ أي عاصياً مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه لذلك طرده

وأبعده ، فلا تتبعه فتصير مثله ﴿ **يأبت إني أخاف أن يَمَسَّك عذاب من الرحمن** ﴾ أي على شركك وعصيانك لما أمرك ﴿ **فتكون للشيطان ولياً** ﴾ أي قريناً في النار ، تليه ويليك يعني : فلا يكون لك يومئذ مولى ولا ناصر ولا مغيث إلا إبليس ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء ، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك ، أعلَمه بذلك أن دعوته له ونصحه من كمال شفقته عليه ورحمته به . قال النسفي : فانظر في نصيحته كيف راعى المجاملة والرفق والخلق الحسن .... فطلب منه أولاً العلة في خطئه ، طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ، لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة وهم الأنبياء ، كان محكوماً عليه بالغي المبين ، فكيف بمن يعبد حجراً أو شجراً ، لا يسمع ذكر عابده ولا يرى هيئات عبادته ، ولا يدفع عنه بلاء ولا يقضي له حاجة ، ثم ثنى بدعوته إلى الحق ، مترفّقاً متلطّفاً ، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال إن شيئاً من العلم ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي . فهب أني وإياك في مسير ، وعندي معرفة بالهداية دونك ، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه ، ثم ثلّث بنهيه عما كان عليه ، بأن الشيطان الذي عصى الرحمن - الذي جميع النعم منه - أوقعك في عبادة الصنم ، وزينها لك ، فأنت عابده في الحقيقة ، ثم ربّع بتخويفه بسوء العاقبة ، وما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال ، مع مراعاة الأدب ؛ حيث لم يصرِّح بأن العقاب لاحق به ، وأن العذاب لاصق به ، بل قال أخاف أن يمسك عذاب ، بالتنكير المشعر بالتقليل ، كأنه قال إني أخاف أن يصيبك نفثات من عذاب الرحمن ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب ، كما أن رضوان الله أكبر من الثواب في نفسه ، وصدر كل نصيحة بقوله : يأبت ، توسلاً إليه واستعطافاً وإشعاراً بوجوب احترام الأب وإن كان كافراً) .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن عيسى عليه السلام قال : ﴿ **وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾

وأن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ **يأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً** ﴾ وما دعاه إليه هو اتباعه في عبادة الله وترك عبادة غير الله ، فدل ذلك على أن طريق الأنبياء واحد وهو عبادة الله وحده ، وأنه هو الصراط المستقيم ، فالانحراف عن هذا الصراط ، انحراف عن اتباع إبراهيم وعيسى وبقية الأنبياء عليهم السلام .

فالسياق يحرر الإنسان - وثنياً كان أو نصرانياً - من عبادة الصنم أو البشر .

....

﴿ **قال** ﴾ أي آزر توبيخاً لابنه إبراهيم ﴿ **أراغب أنت عن آلهتي** ﴾ أي عن عبادتها ﴿ **يا إبراهيم** ﴾ لم يقل يا بني في مقابلة قول إبراهيم (يا أبت) ممّا يدلّ على أنّه كان مغتاظاً ﴿ **لئن لم تنته** ﴾ عن سب الأصنام وشتمها وعيبها ﴿ **لأرجمنّك** ﴾ أي لأقتلنك بالرجام- أي بالحجارة- أو لأضربنك بها، حتى تتباعد أو لأشتمنّك ﴿**واهجرني ملياً**﴾ أي زماناً طويلاً فاحذرني واهجرني فإني ناقم عليك ﴿**قال**﴾ إبراهيم ﴿**سلام عليك**﴾ هذا جوابه على تهديد أبيه ومعناه: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة ﴿**سأستغفر لك ربي**﴾ أي ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك. أي سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة؛ بأن يهديك للإسلام . وسلم عليه تسليم توديع ومتاركة ، أو تقريب وملاطفة ، ووعده بالاستغفار ، ثم علّل لذلك ﴿ **إنه** ﴾ أي الله عز وجل ﴿ **كان بي حفياً** ﴾ أي معوّداً لي على الإجابة ، محيطاً إياي بالنعم . والحفاوة : الرأفة والرحمة والكرامة ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون** ﴾ أي وما تعبدون ﴿ **من دون الله** ﴾ . ﴿ **وأدعو ربي** ﴾ أي: وأعبده وحده ﴿ **عسى** ﴾ قال ابن كثير: (هذه موجبة لا محالة) أقول: هي وكل ما رجانا الله به ورسله كذلك ﴿ **ألّا أكون بدعاء ربي شقياً** ﴾ كشقاوتكم أنتم بعبادة الأصنام ، أفاد تعبيره تواضعاً وهضماً للنفس ، وتعريضاً بشقاوتهم ، ولقد كان اعتزالهم بالبراءة منهم ومما يعبدون ، وبالهجرة بعد ذلك من أرضهم بدليل الآية الآتية التي جعلت هبة إسحق ويعقوب مكافأة على الاعتزال وإنما جاء إسحق ويعقوب بعد الهجرة ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله** ﴾ أي فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله؛ أبدله الله مَنْ هو خير منهم ﴿ **وهبنا له إسحٰق** ﴾ ﴿ **ويعقوب** ﴾ ابن إسحق ﴿ **وكلاً** ﴾ أي وكل واحد منهما ﴿ **جعلنا نبياً** ﴾ لما ترك الكفار الفجار لوجهه تعالى عوّضه أولاداً مؤمنين أنبياء ﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا** ﴾ زيادة على النبوة من مال وولد وأهل وتمكين ورعاية وغير ذلك من مظاهر الرحمة ﴿ **وجعلنا لهم لسان صدق** ﴾ أي ثناء حسناً ، عبّر باللسان عما يوجد باللسان . فالكلام الصادق في حقهم ، وهو الثناء عليهم ، هو اللسان الصدق ، ثم وصف الله هذا اللسان الصدق بقوله ﴿ **علياً** ﴾ أي رفيعاً مشهوراً. قال ابن جرير: وإنما قال (علياً) لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم.

أقول : ومن الثناء عليهم ما قصّه الله لنا عنهم ، ومن الثناء عليهم أننا ندعو في الصلاة لإبراهيم وآل إبراهيم ، وكل ذلك ببركة اعتزال إبراهيم أباه وقومه في الله .

كلمة في السياق :

دلّت قصة إبراهيم عليه السلام على أن المواقف الراقية عند الله اعتزال الكافرين قولًا وفعلاً بعد استنفاد الوسع . وأن من فعل ذلك يكافئه الله المكافآت الكبيرة الكثيرة دنيا وأخرى ، كما دلّتنا على أن الهداية إلى الصراط المستقيم إنما هي بالهداية إلى عبادة الله وحده ، كما أعطتنا نموذجاً على دعوة الرسل إلى الله بالتبشير والإنذار . في ذلك كله نوع تفصيل لمعان في الآية التي هي محور سورة مريم من البقرة ، وخدمة للحيّز الذي وردت فيه وهو الدخول في الإسلام كله بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في دعوته ، واعتزاله قومه وما يعبدون .

وبعد أن قصّ الله علينا قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه يذكر لنا موسى عليه السلام ، وفي ذكر موسى في هذا السياق تذكير برسالته ، وأنه من سلسلة الرسل المبشرين والمنذرين ، وتذكير بشأنه وحاله ، فقد كان يدعو إلى عبادة الله وحده ، وهو شيء يعرفه العام والخاص من بني إسرائيل وغيرهم ، فكيف يزعم من يزعم أن لله ولداً هو عيسى فيعبده ، إن التذكير بموسى في هذا السياق وبصفاته تعريض بمن ينتسب إليه ، ولا يوحد الله كما وحده ، كأن يجعل المسيح ابناً لله ، وموسى لا يعلم ذلك ولا يعرفه ، ولا يدعو إليه ، كما في ذكر موسى وما وهبه الله له من نبوة هارون المؤيدة له إشارة إلى ما يعطيه الله لعباده المخلصين من مؤيدات وإنعامات هي فوق كل ما يطمح إليه أهل الدنيا وأتباع الشيطان ، وذكر موسى الذي هو من ذرية إبراهيم ، ثم ذكر إسماعيل بعد ذلك ، إشارة إلى أن ما أعطيه إبراهيم بسبب موقفه لم يكن إسحق ويعقوب فقط ، بل هو أكثر من ذلك . فيا عباد الله إلى الله .

....

﴿ **واذكر** ﴾ يا محمد ﴿ **في الكتاب** ﴾ أي في القرآن ﴿ **موسى** ﴾ فإنه كذلك ممّن بعث الله من النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، فلست أنت بدعاً من الرسل ، وليس إرسالك إلا جزءاً من سنة الله في إرسال الرسل ، وليس إنزال الكتب عليك إلا جزءاً من سنة الله في إنزال الكتب ، لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأي حال من الاختلاف هي أشد من الحال التي بعثت والناس عليها من الاختلاف ، حتى أصحاب الكتاب ﴿ **إنه** ﴾ أي موسى ﴿ **كان مخلَصاً** ﴾ أي أخلصه الله واصطفاه بمالَهُ من السعادة بأصل الفطرة

﴿ **وكان رسولاً نبيّاً** ﴾ قال النسفي : الرسول: الذي معه كتاب من الأنبياء .والنبي: الذي ينبيء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب ... (وقد عرّف غيره الرسول والنبي بغير ذلك) وقد جمع الله لموسى الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة . وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ فهو رسول نبي مخلَص ، كما كان إبراهيم . وكما كان عيسى ، فأين يذهب بالنصارى ، إذ يقولون على الله ما لا يليق بجلاله ، أفلا يكفي أن يوصف عيسى بأنه رسول نبي مخلص ، وقد وصف من هو أرق منه وأفضل كذلك وإنما فهمنا هذا المعنى من السياق لأننا نلاحظ أن السورة في بدايتها ونهايتها تركز على نقض أن يكون عيسى ابناً لله عز وجل ، وهي مع هذا تؤكد في سياقاتها موضوع ربوبية الله وحده ، ووجوب معرفته ، والإخلاص في العبادة له وحده ، كما تتعرض لقضايا أخرى مما خالف فيه الناس الحق ﴿ **وناديناه** ﴾ أي ودعوناه وكلّمناه ﴿ **من جانب الطور الأيمن** ﴾ الطور معروف وهو جبل في سيناء ، والجمهور على أن المراد بجانبه الأيمن بالنسبة لموسى عليه السلام ، لأن الجبل لا يمين له ، والمعنى أنه حين أقبل من مدين يريد مصر نودي من الشجرة وكانت في جانب الجبل على يمين موسى ﴿ **وقرّبناه** ﴾ تقريب منزلة ومكانة ﴿ **نجيّاً** ﴾ أي مناجياً ، فهذا موسى الذي هذا شأنه ، وصفه الله أنه رسول نبي ، وذلك إبراهيم وصفه أنه صدّيق نبي ، فلِمَ تغلون بعيسى فتصفونه بغير ما يوصف به إبراهيم وقد أعطاه الله ما أعطاه ، وبغير ما يوصف به موسى وقد أعطاه الله ما أعطاه ، ألا إنها الضلالة العمياء ﴿ **ووهبنا له** ﴾ أي لموسى ﴿ **من رحمتنا** ﴾ أي من رحمتنا له وترؤفنا عليه ﴿ **أخاه هارون نبيّاً** ﴾ أي أجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبياً . قال بعض السلف : ماشفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً ، وإذن فأن يستجاب لموسى فيهب الله لهارون النبوة بشفاعته فذلك دليل على أن موسى في المكان العظيم عند الله ، ومع هذا فإنه نبي رسول ، فلماذا تَغْلُون في عيسى وتصفونه بالألوهية .

﴿ **واذكر** ﴾ يا محمد ﴿ **في الكتاب** ﴾ أي القرآن ﴿ **إسماعيل** ﴾ ابن إبراهيم الأكبر عليهما السلام ﴿ **إنه كان صادق الوعد** ﴾ أي وافيه ﴿ **وكان رسولاً نبيّاً** ﴾ قال ابن كثير :(في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه ، لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ... » . وذكر تمام الحديث فدل على صحة ما قلناه) ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة** ﴾ يحتمل أنه إنما خصت هاتان العبادتان

لأنهما أمّا العبادات البدنية والمالية ، وهل المراد بأهله أمته كلها ، لأن النبي أب لأمته ، أو المراد بذلك أهل بيته فقط ؟ قولان ، والثاني أقوى . قال النسفي : (وفيه دليل على أنه لم يداهن) . وصفه الله بالنبوة ، والرسالة ، وصدق الوعد ، وأمر الأهل بالصلاة والزكاة ، وتلك أمهات من الأخلاق العظيمة ثم قال ﴿ **وكان عند ربه مرضياً** ﴾ إذ اجتمع له جمال العمل وقبوله ، والاجتباء والاصطفاء .

ذكرت هاتان الآيتان رسالة جديدة ، ونبياً مبعوثاً قائماً بالعبودية لله ، فهذا منتهى غاية كل رسول أن يكون عبداً لله .

وبعد أن ذكرت السورة من ذكرتهم من الرسل ، ممن هم من ذرية إبراهيم ، يأتي ذكر رسول قديم سابق في الزمان على إبراهيم ونوح : ﴿ **واذكر** ﴾ يا محمد ﴿ **في الكتاب** ﴾ القرآن ﴿ **إدريس** ﴾ هو الذي يسميه أهل الكتاب أخنوخ ، ويذكرون أنه أول مرسل بعد آدم عليه السلام ﴿ **إنه كان صِدّيقاً نبيّاً** ﴾ وصفه بالصدّيقية والنبوة ، كما وصف إبراهيم عليه السلام ﴿ **ورفعناه مكاناً علياً** ﴾ قال النسفي :هو شرف النبوة ، الزلفى عند الله . ولنا عودة على هذا الموضوع في الفوائد .

وبعد أن ذكر الله عز وجل هؤلاء الرسل عليهم السلام قال : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس ﴿ **الذين أنعمَ الله عليهم من النبيين** ﴾ وكل النبيين مُنعَم عليهم وتخصيص هؤلاء بالذكر لا ينفي الإنعام على غيرهم ، وإنما ذكرهم هنا وحدهم لحكمة يقتضيها سياق السورة ومكانها من القرآن عامة ﴿ **من ذرية آدم** ﴾ فكلهم من ذرية آدم ﴿ **وممن حملنا مع نوح** ﴾ وكل مذكور في هذه السورة منهم ما عدا إدريس ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ دخل في ذلك بشكل مباشر إسماعيل وإسحق ﴿ **وإسرائيل** ﴾ هو يعقوب وهو ابن إسحٰق ، فهو من ذرية إبراهيم ، ومن ذرية إسرائيل : موسى ، وهارون ، وزكريا ، وعيسى ، ويحيىٰ وغيرهم ﴿ **وممن هدينا** ﴾ أي للمحاسن ﴿ **واجتبينا** ﴾ من الأنام كل هؤلاء ﴿ **إذا تُتلىٰ عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكيّاً** ﴾ أي سقطوا على وجوههم ساجدين رغبة باكين رهبة ، أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم ؛ خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة . والبكي جمع باك ، وقد أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداءً بهم واتباعاً لمنوالهم . قال سفيان الثوري .... عن أبي معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد وقال : هذا السجود فأين البكي يريد البكاء رواه ابن أبي حاتم .

كلمة في السياق :

استقر السياق - كما رأينا - على تسجيل حال الأنبياء في الخضوع لله والسجود له والرهبة منه ، وعيسى كان هذا دأبه ، فكيف يزعمون أنه غير عبد لله ، وهكذا من خلال عرض حال الأنبياء تستقر الأدلة على أن عيسى عبد الله ، وهي القضية الرئيسية التي حكمت فيها سورة مريم حتى نهاية لمقطع الأول مما اختلف فيه الناس .

لقد عرض لنا المقطع الأول حال الأنبياء ، ودعوتهم ، وأخلاقهم التي من جملتها خضوعهم لله ، وخشوعهم وسجودهم ، فإذا استقر هذا يصل السياق إلى الحديث عما خلفهم به أقوامهم كما سنرى ﴿ **فخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً** ﴾ .

فلنلاحظ الآن ما يلي :

إن محور سورة مريم هو قوله تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ . وقد قص الله علينا قصص عدد من هؤلاء النبيين في سورة مريم .

وبعد أن قص علينا قصتهم قال : ﴿ **فخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** ... ﴾

وقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ .

وهذا القرآن أنزله الله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . ومن ثم تأتي سورة مريم لتقول لرسول الله ﷺ : ﴿ **واذكر في الكتاب** ﴾ ... ﴿ **واذكر في الكتاب** ﴾ فيا أيها الناس اقبلوا حكم القرآن ، فإذا تذكرنا أن آية البقرة واردة في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كافة ، فهذا يفيد أن على الخلق أن يحتكموا إلى كتاب الله في كل شيء ، وذلك هو الدخول في الإسلام كافة ، وقد حكمت السورة في أهم قضية مختلف فيها ، وهي رسالة المسيح وعبوديته وبراءة أمه ، فليتبع حكم الله في ذلك وليحذر من يرفض حكمه.

وقال تعالى في آية البقرة : ﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم** ﴾ كما حدث لأتباع عيسى دلّ ذلك على أن بولس ومدرسته باغية ظالمة إذ خالفت المؤمنين الحقيقيين من أتباع عيسى محرّفة لكتاب الله ، وفي ذلك درس لهذه الأمة ألا تختلف في فهم الكتاب بغياً .

فسورة مريم تقدم لنا نموذجاً على الخلاف بعد إنزال الكتاب كأثر عن البغي .

﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ وتلك بشارة لأهل الإيمان ولهذه الأمة بأن الله هداها إلى الحق في كل قضية اختلفت فيها البشرية .

﴿ **والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ وقد هدى هذه الأمة إلى الصراط المستقيم الذي دعا إليه عيسى وإبراهيم وغيره من رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وذلك هو الإسلام ، فادخلوا فيه كله أيها المؤمنون . ومن خلال آية البقرة ، ومن خلال تفصيلها في سورة مريم ، نفهم أن حكمة بعثة الرسل هي كفر الناس أولاً ، ثم اختلافهم في فهم الكتاب بعد إرسال الرسل ثانياً . ثم في انحراف الناس عن التطبيق والاقتداء ثالثاً ، أما الحكمة الأولى فإنا نفهمها من قوله تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ وأما الحكمة الثانية فنفهمها من قوله تعالى ﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا ....** ﴾ ومن قوله تعالى في سورة مريم ﴿ **ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذي فيه يمترون** ﴾ .

وأما الحكمة الثالثة فنفهمها من المجموعة الآتية معنا والمبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً** ﴾ .

وهكذا من خلال السياق القرآني تتكامل معنا المعاني في القضية الواحدة .

فوائد :

١ ـــ بمناسبة قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿ **سلام عليك سأستغفر لك ربي** ﴾ قال ابن كثير : « وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله ﴿ **ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ (إبراهيم : ٤١) وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام ؛ وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك ، حتى أنزل الله تعالى ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله** ﴾ إلى قوله – ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء** ﴾ الآية (الممتحنة : ٤) ، يعنى إلا في هذا القول فلا تتأسوا به ، ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ، ورجع عنه فقال

تعالى : ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾ إلى قوله - ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾ (التوبة :١١٣، ١١٤) .

٢ ــ هناك تعريفات كثيرة للصدِّيق والمخلص والمخلصَ منها :

أ ــ الصادق : هو المستقيم في الأفعال ، والصدِّيق يزيد على ذلك باستقامته على الأحوال .

ب ــ المخلِص : هو الذي يعمل لله ولا يحب أن يحمده الناس .

جـ ــ والمخلَص : من أخلصه الله له فلم يبق فيه حظ لغير الله .

ومن رزقه الله قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين على الخير لم يخزن عنه من الخير شيئاً .

٣ ــ في الكلام عن إسماعيل عليه السلام وكونه متصفاً بأنه صادق الوعد ، يحاول المفسرون أن يذكروا سبب وصفه بذلك . فبعضهم كابن جريج يقول : السبب في ذلك أنه لم يعد ربه عدة إلا أنجزها ، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ، ووفّاها حقها . وقال بعضهم : إنما قيل له (صادق الوعد) لأنه قال لأبيه : (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) فصدق في ذلك . ويقص بعضهم قصة عنه في هذا المقام هي سبب تسميته بذلك ، وفيها وفاؤه بوعده بما شقّ عليه ، والقولان الأولان أقوى . ويقصُّ ابن كثير في هذا المقام قصة يرويها الخرائطي في صدق الوعد فيقول :

« عن عبد الله بن أبي الحمساء قال : بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له علي بقية ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك . قال : فنسيت يومي والغد ، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك ، فقال لي : « يا فتى لقد شققت علي فأنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » ورواه ابن مَنْده

ومن كلام ابن كثير في هذا المقام :

(فصدق الوعد من الصفات الحميدة ، كما أن خلفه من الصفات الذميمة قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كَبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ (الصف : ٢ ، ٣) وقال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » ولما كانت هذه صفات المنافقين كان

التلبس بضدها من صفات المؤمنين ، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد ، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً ، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به ، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال : « حدثني فصدقني ووعد فوفى لي » ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتني أنجز له ، فجاءه جابر بن عبد الله فقال : إن رسول الله ﷺ قد قال: لو كان جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا ، يعني ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين أمر الصديقُ جابراً فغرف بيده من المال ثم أمره بعدّه فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها) .

٤ ـــ وبمناسبة الكلام عن قول الله في إسماعيل عليه السلام ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً** ﴾ قال ابن كثير :

« هذا أيضاً من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والخلة السديدة ، حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل ، آمراً بها لأهله ، كما قال تعالى لرسوله ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ الآية (طه : ١٣٢) . وقال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (التحريم : ٢٦) أي مروهم بالمعروف ، وانهوهم عن المنكر ، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة ، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ، وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ، وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء » أخرجه أبو داود وابن ماجه . وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا استيقظ الرجل من الليل ، وأيقظ امرأته ، فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له) .

٥ ـــ رأينا أن النسفي فسّر المكان العلي الذي رفع الله إليه إدريس بأنه شرف النبوة والزلفى . وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ مرّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة . ويذكر المفسرون روايات فيه أكثرها عن أهل الكتاب ، وإدريس هو أخنوخ كما مر معنا من قبل وقد ورد ذلك في حديث ، ويرد اسم أخنوخ في الإصحاح الخامس من سفر التكوين على أنه الجد الرابع لنوح . فنوح بن لامك بن متوشالح بن

أخنوخ . يقول هذا الإصحاح :

(فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مائةٍ وخمساً وستين سنة ، وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه) . وهذا الكلام هو أصل ما يذكره المفسرون من أن إدريس رفعه الله إلى السماء الرابعة وقبض روحه هناك . وفي رواية عن ابن عباس : رفع إلى السماء السادسة فمات بها ، وليس عندنا عن رسولنا شيء نقف عنده . والنص القرآني يحتمل أكثر من معنى . منها ما ذكرناه ، ومنها أن المكان العلي هو الجنة ، كما ذهب إليه الحسن وغيره .

ولننتقل إلى المجموعة الأولى من المقطع الثاني في سورة مريم .

المجموعة الأولى من المقطع الثاني

وهي من الآية (٥٩) إلى نهاية الآية (٦٥) وهذه هي

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ
غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾
تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا
بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ
سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

التفسير :

﴿ **فخلف من بعدهم خلْف** ﴾ أي فجاء من بعد هؤلاء الرسل خَلْف : أي ذرية سوء ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ المفروضة وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد ﴿ **واتبعوا الشهوات** ﴾ أي ملاذّ النفوس ، أي أقبلوا على شهوات الدنيا وملاذّها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴿ **فسوف يلقْون غياً** ﴾ أي خساراً يوم القيامة . أي فسوف يلقون شراً لأن كل شر عند العرب غي . أي جزاء شرهم ﴿ **إلا من تاب** ﴾ أي رجع عن كفره ﴿ **وآمن وعمل صالحاً** ﴾ بعد إيمانه ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً** ﴾ أي لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ، ولا يمنعونه ، بل يضاعف لهم ، أو لا يظلمون أدنى

شيء من الظلم . والمعنى : إلا من رجع عن ترك الصلوات واتّباع الشهوات فإنّ الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، وذلك لأن التوبة تجبُّ ما قبلها . ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً ، ولا يقابلون بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدراً ، من كرم الكريم وحلم الحليم ﴿ **جنات عَدْنٍ** ﴾ أي إقامه، وهي الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم ﴿ **التي وعد الرحمن عباده** ﴾ أي التائبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما سبق ذكرهم ﴿ **بالغيب** ﴾ أي وعدهم إياها بظهر الغيب ، أو وعدها وهي غائبة غير حاضرة ، أو وهم غائبون عنها لا يشاهدونها ﴿ **إنه** ﴾ أي الرحمن أو إن الشأن ﴿ **كان وعده** ﴾ أي موعوده وهو الجنة ﴿ **مأتياً** ﴾ أي هم يأتونها أي العباد صائرون إليها وسيأتونها ، وقد يراد بالمأتي الآتي ، وهو سائغ في لغة العرب . فيكون المعنى : إنه كان وعده آتياً .

﴿ **لا يسمعون فيها** ﴾ أي في الجنة ﴿ **لغواً** ﴾ أي فحشاً أو كذباً أو ما لا طائل تحته من الكلام ، وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه ، حيث نزه الله عنه داره التي لا تكليف فيها ﴿ **إلا سلاماً** ﴾ إلا قولاً يسلمون فيه من العيب ﴿ **ولهم رزقهم فيها بُكْرَةً وعشياً** ﴾ أي على مقدار طرفي النهار من الدنيا إذ لا ليل ولا نهار ثَمَّ ؛ لأنّهم في النور أبداً ، وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجُب ، ومقدار الليل بإرخائها ، والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش فوصف الله جنته بذلك . وقيل أراد دوام الرزق ، والذي يبدو أن ما شاؤوه من الرزق كان ، ولهم مع ذلك رزق خاص بالبكور والعشي ﴿ **تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً** ﴾ أي من كان من المتحققين بصفات المتقين . ومعنى نورث : أي نجعل ثمرتها وما فيها ميراث أعمالهم . وقيل معناها أنهم يرثون المساكن التي كانت لأهل النار ، لو آمنوا لأن الكفر موت حكماً .

كلمة في السياق :

وهكذا عرفتنا هذه الآيات أنه بعد كل رسول كانت أمته يضل منها الكثير ، فيتركون الواجبات ، ويتبعون الشهوات ، ولأمتنا نصيب من ذلك وقد هدّد الله هؤلاء بالنار ، ثم هيّج على التوبة والإيمان والعمل الصالح ؛ بذكر ما أعد الله لأهل ذلك ، ومن الأدلة على أن كل رسول كانت أمته من بعده تقسو قلوبها قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ (الحديد : ١٦) .

وإذ انحرفت أمة قبل رسولنا عليه الصلاة السلام بترك الصلوات واتباع الشهوات ، فإن الله كان يرسل لها رسولاً جديداً يجدّد دين الله ، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في الآيتين اللاحقتين :

﴿ **وما نتنزّل إلا بأمر ربك** ﴾ جاء هذا الكلام في القرآن على لسان الملائكة يعني أن نزولنا في الأحايين وقتاً دون وقت ليس إلا بأمر الله فإذا كان هذا في حق محمد ﷺ فهو في حق الزمان والمكان على المدى كله كذلك ، وهذا - والله أعلم - سر مجيء هاتين الآيتين في هذا السياق ﴿ **له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك** ﴾ أي له ما قدامنا وما خلفنا من الأماكن ، وما نحن فيها ، فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلا بأمر الله ومشيئته ، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون ، وما يحدث من الأحوال ، لا تجوز عليه الغفلة والنسيان ، فأنى لنا أن نتقلّب إلا إذا أذن لنا فيه ؟ ومن ثم قال : ﴿ **وما كان ربك نسياً** ﴾ أي فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، وإذا كان الشأن كذلك فإن وحيه ورسالاته وتنزيله كل ذلك في غاية الحكمة ، كيف لا وهو رب السمٰوات والأرض ؟ قال تعالى : ﴿ **رب السمٰوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته** ﴾ أي لما عرفت أنه متصف بهذه الصفات فاثبت على عبادته ، واصبر على جحد الجحود لعبادة المعبود ، واصبر على المشاق لأجل عبادة الخلاق . أي لتتمكن من الإتيان بها ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾ أي شبيهاً ومثلاً ، أو هل يسمى أحد باسم الله غيره ؟ لأن اسم الجلالة « الله » مخصوص بالمعبود بالحق ، أي إذا صح أن لا معبود يوجه إليه العباد العبادة إلا هو ، لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها . وإذ كان هو رب السمٰوات والأرض ، لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها ، وإذ كان هو منزل الملائكة بالحق وبالحكمة لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها ، وإذ كان الله لا ينسى ولا يغفل فلابد من عبادته والاصطبار عليها .

كلمة في السياق :

١ ـــ رأينا أنّ الحكمة في إرسال الرسل إما لإرجاع الناس عن الكفر ، وإما للفصل في اختلافاتهم ، وإما لتجديد حيوية السير إلى الله بالعودة إلى الصلاة ، وبترك الشهوات المحرمة ، وقد كفر الناس قبل بعثة رسول الله ﷺ واختلفوا اختلافات كثيرة ، وتركوا الصلوات واتبعوا الشهوات ، فبعث الله محمداً ﷺ وأنزل معه الكتاب ، فدعا إلى الإيمان ، وحكم في الاختلاف ، وربى الناس على إقامة الصلوات ، وترك الشهوات

المحرمة ، إن هذا كله يشار إليه في سورة مريم ، فإذا أدركنا ذلك أدركنا صلة سورة مريم بمحورها : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين ...** ﴾

٢ ـــ بعد أن قصّ الله علينا من أحوال النبيين وأخبارهم ، وعبادتهم لله ، ودعوتهم لتوحيده ، وخشوعهم وسجودهم ، وبكائهم ، قصّ علينا خبر أقوامهم من بعدهم ، واحتياجهم إلى وحي جديد ، وكان هذا الوحي هو ما أنزله الله على محمد ﷺ إذا أدركنا هذا نكون قد أدركنا صلة هذه المجموعة بما قبلها.

فوائد :

١ ـــ اختلف المفسرون في المراد بإضاعة الصلاة في قوله تعالى ﴿ **فخلف من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة** ﴾ هل المراد في ذلك تركها كلية ، أو المراد بذلك تأخيرها عن مواقيتها وإضاعة وقتها؟ وما حكم إضاعتها؟ هل هو كفر ، أو فسوق؟ على قولين في هذا كله .

٢ ـــ رأينا أن قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ إشارة إلى كل رسول، ورأينا أن من حكمة ورودها في محلها في السياق لتدخل فيها هذه الأمة أيضاً ، بدليل أنه يأتي بعد ذلك ﴿ **وما نتنزَّل إلا بأمر ربك ....** ﴾ ففي مجيء قوله تعالى ﴿ **وما نتنزَّل إلا بأمر ربك** ﴾ في هذا السياق إشارة إلى النبوة التي تجدد ما أوهى الناس من خلال عرض التنزلات المقدرة على رسول الله محمد ﷺ ، ويتساءل متسائل إذا كانت الأمم السابقة تخلف رسلها بمثل ما رأينا . وتأتي الرسالات اللاحقة لتقوّم فمن يقوِّم أمر هذه الأمة ؟ . نقول : إن هذه الأمة لا تحتاج إلى نبوة جديدة ؛ لحفظ الله القرآن ، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . ومن ثم كان محمد رسول الله ﷺ وخاتم النبيين . فأمتنا لا تحتاج إلى نبوة جديدة لأن هذا القرآن فيه تبيان كل شيء والذي تحتاجه فقط إلى مجددين لهذا الدين . وقد جرت سنة الله أن يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن مَنْ يجدّد لها ما وَهَى من أمر دينها . كما ورد في الحديث .

٣ - أورد ابن كثير كلاماً بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ يدل على أن هذه الآية تشمل هذه الأمة .

ومن كلامه : (وقال ابن نجيح عن مجاهد ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** ﴾ قال هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ، ولا يستحيون من الناس في الأرض ، وروى ابن أبي

حاتم .... عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يكون خَلْف بعد ستين سنة ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً ، ثم يكون خَلْف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر » وقال بشير قلت للوليد : ما هؤلاء الثلاثة ؟ قال : المؤمن مؤمن به ، والمنافق كافر به ، والفاجر يتأكل به ، وهكذا رواه أحمد عن أبي عبد الرحمن المقري .

وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل : شرّابين للقهوات ترّاكين للصلوات ، لعّابين بالكعبات ، رقادين عن العتمات ، مفرّطين في الغدوات ، ترّاكين للجماعات . قال ثم تلا هذه الآية ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً** ﴾ وقال الحسن البصري : عطلوا المساجد ، ولزموا الضيعات ، وقال أبو الأشهب العطاردي : أوحى الله إلى داود عليه السلام يا داود حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة ، وإنّ أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه من طاعتي) .

٤ ــ في تفسير النسفي في قوله تعالى ﴿ **فسوف يلقون غياً** ﴾ قولان أحدهما ما ذكرناه وهو الخسارة والشر ، والثاني : أنه واد في جهنم بعيد القعر ، خبيث الطعم ، وهو منقول عن ابن مسعود ، ومثله عن أبي عياض قال : واد في جهنم من قيح ودم .

٥ ــ عند قوله تعالى : ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً** ﴾ يقول ابن كثير : أي في مثل البكرات ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلاً أونهاراً ، ولكنهم في أوقات تتعاقب ، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صُوَرهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يتمخَّطون فيها ولا يتغوطون ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة (العود الذي يتبخر به) ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً » أخرجاه في الصحيحين ، وروى الإمام أحمد ... عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً » . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً** ﴾ قال : مقادير الليل والنهار . وروى ابن جرير عن الوليد بن

مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً** ﴾ قال: ليس في الجنة ليل هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم عن خليد عن الحسن البصري، وذكر أبواب الجنة فقال: أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم فَتَهَمْهِم: انفتحي انغلقي، فنفعل. وقال قتادة في قوله ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً** ﴾: فيها ساعتان بكرة وعشي، ليس ثَمَّ ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: كانت العرب الأنْعَم فيهم من يتغدى ويتعشى، فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم فقال تعالى ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً** ﴾ وقال ابن مهدي عن حماد بن زيد عن هشام عن الحسن ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً** ﴾ قال: البكور يرد على العشي والعشي يرد على البكور ليس فيها ليل).

٦ ـــ في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **وما نتنزّل إلا بأمر ربك** ... ﴾ ينقل ابن كثير الروايات التالية: روى الإمام أحمد ... عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ » قال: فنزلت: ﴿ **وما نتنزّل إلا بأمر ربك** ﴾ إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري وقال العوفي عن ابن عباس احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن فأتاه جبريل وقال: يا محمد ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ الآية. وقال مجاهد لبث جبريل عن محمد ﷺ اثنتي عشرة ليلة، ويقولون أقل، فلما جاءه قال: يا جبريل لقد رثت عليّ (أي أبطأت) حتى ظن المشركون كل ظن فنزلت ﴿ **وما نتنزّل إلا بأمر ربك** ﴾ الآية. قال وهذه الآية كالتي في الضحى وكذلك قال الضحاك بن مزاحم، وقتادة والسدي، وغير واحد أنها نزلت في احتباس جبريل، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة قال: أبطأ جبريل النزول على النبي ﷺ أربعين يوماً ثم نزل فقال له النبي ﷺ: « ما نزلت حتى اشتقت إليك » فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق، ولكني مأمور، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له ﴿ **وما نتنزّل إلا بأمر ربك** ﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم .... عن مجاهد قال: أبطأت الرسل على النبي ﷺ ثم أتاه جبريل فقال له: « ماحبسك يا جبريل؟ » فقال له جبريل: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تنقون

براجمكم [1] ولا تأخذون شواربكم ، ولا تستاكون ؟ ثم قرأ ﴿ **وما نتنزَّل إلا بأمر ربك** ﴾ إلى آخر الآية. وقد روى الطبراني .... عن ابن عباس عن النبي ﷺ أن جبريل أبطأ عليه فذكر له ذلك فقال : وكيف وأنتم لا تستنون ، ولا تقلمون أظفاركم ، ولا تقصون شواربكم ، ولا تنقون رواجبكم[2] ؟. وروى الإمام أحمد ... عن أم سلمة قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « أصلحي لنا المجلس ، فإنه ينزل ملك إلى الأرض لم ينزل إليها قط » .

٧ ـــ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وما كان ربك نسياً** ﴾ يذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرّمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وما كان ربك نسياً** ﴾ .

كلمة في السياق :

رأينا سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما نتنزّل إلا بأمر ربك ...** ﴾

ورأينا أن قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة ...** ﴾ أنه في الأصل كلام عن الأمم السابقة بعد أنبيائها ، ولكنه ينطبق على هذه الأمة ، وفهمنا من السياق أن حكمة الله أن يبعث الرسل ؛ ليرجع الناس عن الانحراف ، كما يبعثهم ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، كما يبعثهم ليدعوا إلى الله ابتداءً ، كل ذلك رأيناه ، ومن خلال ما ذكرناه عند قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خَلْف** ﴾ ومن خلال ما ذكرناه عند قوله تعالى : ﴿ **وما نتنزَّل إلا بأمر ربك** ﴾ ندرك أن كل آية في كتاب الله وجودها في محلها معجز .

....

ومما مرّ معنا في السورة ندرك أن السورة قد قرّرت في جملة ما قرّرت :

١ ـــ أن محمداً رسول الله فهو بشير ونذير كبقية الرسل .

٢ ـــ أن الله أنزل كتابه على محمد ﷺ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

٣ ـــ أن هذه الأمة عليها أن تحذر ما وقعت به غيرها من الأمم بعد رسلها

(١) البراجم : هي العقد التي في ظهر الأصابع .
(٢) الرواجب : هي ما بين عقد الأصابع من الباطن .

وإذ تتقرر هذه المعاني فإن تتمة السورة تنذر وتبشّر ، وترد وتحكم ، وتأتي خاتمتها لتقول : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً * فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً** ﴾ .

إن هذا الختام للسورة يأتي بعد ردود وإنذارات - كما سنرى - فلنتذكر الآن محور سورة مريم من البقرة : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ أصبحوا كفاراً فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

ويوم بعث محمد ﷺ لم يبق على وجه الأرض مسلم ، كما هو معلوم من قصة سلمان الفارسي فبعث الله محمداً بالقرآن بشيراً ونذيراً والسورة تقرر هذه الحقيقة .

﴿ **وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾

وقد أنزل الله القرآن على محمد ﷺ بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم** ﴾ .

فلتحذر هذه الأمة ذلك ، وخاصة الظلم ، وترك الصلوات ، واتباع الشهوات .

﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** ﴾ وهذه بشارة لأهل الإيمان ﴿ **والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ والصراط المستقيم هو العبودية لله ، وذلك بالدخول الكامل في الإسلام .

والسورة تسير من الآن فصاعداً مبشرة ومنذرة ، والأمر الذي سبق ذلك هو ﴿ **فاعبده واصطبر لعبادته** ﴾ وهو الأمر اللازم لعملية التبشير والإنذار ، فبدون عبادة لله لا يستطيع الإنسان أن يقوم بواجب التبشير والإنذار فليعلم الدعاة إلى الله ذلك .

....

تتألف السورة من مقطعين : المقطع الأول يتألف من ثلاث مجموعات مترابطة ، والمجموعة التي عرضناها آنفاً هي بداية المقطع الثاني ، ورأينا ارتباطها بما قبلها

وسنعرض بقية المقطع الثاني عرضاً واحداً مع ملاحظة أن الآية الأولى في التتمّة هي :
﴿ **ويقول الإنسان أإذا ما متُّ لسوف أُخرج حياً أوَ لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً** ﴾ .

فما حكمة ورود هذا المعنى بعد ما مر ؟

إن الاختلاف في الكتاب ، وقبل ذلك الكفر ، وبعد ذلك إضاعة الصلوات ، واتباع الشهوات ، كل ذلك علته الأساسية الكفر باليوم الآخر . ومن ثم يأتي الآن هذا الموضوع ، ليجتمع في السورة أنها مبشرة ومنذرة وحاكمة في خلاف ، ورادّة على ما استقر في أذهان الناس من كفر .



تتمة المقطع الثاني

وتمتد من الآية (٦٦) إلى نهاية الآية (٩٨) وهي خاتمة السورة وهذه هي:

المجموعة الثانية

وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا
خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)
ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)
قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ
اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
مَّرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ
أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ
مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)

المجموعة الثالثة

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا
﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ
وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ
اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

المجموعة الرابعة

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ
مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا
يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي
الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا
يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن
قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

ملاحظة :

قلنا : إن الله بعث محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً ، وليس على وجه الأرض إلا كافر .

ونلاحظ أن هذه الآيات تعرض لأمهات من الكفر :

﴿ **ويقول الإنسان أإذا ماَمتُّ لسوف أُخرَج حياً** ﴾ ،

﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزّاً** ﴾ ،

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدّاً** ﴾ وترد عليها وتبشر وتنذر

فهذه الآيات في الصميم من التبشير والإنذار ، والردّ على الكفر ، وقد مَرّ معنا أن سنة الله في الإرسال إما لعموم كفر ، وإما لاختلاف ظالم ، وإما لتضييع وتفريط . وقد عالج ما مر معنا من السورة موضوع الاختلاف ، وموضوع التفريط والتضييع ، ويعالج ما يمر الآن الأفكار العامة للكفر .

ومن ثم ندرك أن هذا القرآن قد عالج كل قضايا البشر ، وكانت بعثة محمد ﷺ مسك الختام، فقد عالجت كل الأمراض البشرية، سواء كان مرضاً ناتجاً عن كفر أصلي أو مرضاً ناتجاً عن ظلم لفهم كتاب سابق ، أو مرضاً ناشئاً عن تضييع وتفريط ، كما ندرك أن الدخول في الإسلام كله هو العلاج والدواء لكل مرض أصلي أو عارض ؛ لأن الإسلام هو وحده الطريق المستقيم

تفسير المجموعة الثانية من المقطع الثاني :

﴿ **ويقول الإنسان** ﴾ الكافر ﴿ **أإذا ماِمتُّ لسوف أُخرج حيّاً** ﴾ هذا استبعاد وتعجب من الإنسان أن يعود بعد موته ، والاستفهام هنا يفيد الإنكار . فهم يستنكرون أن يكون ما بعد الموت حياة والمعنى : أحقاً أنّا سنخرج من القبور أحياءً حين يتمكن فينا الموت والهلاك؟ يقولون هذا على وجه الاستنكار والاستبعاد والجواب ﴿ **أوَلَا يَذْكُر الإنسان أنا خلقناه من قبل**﴾ أي من قبل الحالة التي هو فيها ، وهي حالة وجوده واستمراره ﴿ **ولم يَكُ شيئاً** ﴾ يعني : أيقول الإنسان ذلك ولا يتذكر النشأة الأولى ، حتى لا ينكر النشأة الأخرى ، فإن تلك أدلُّ على قدرة الخالق ، والخلق الأول أدلّ حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود ، وأما الثانية بعد الموت فليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة وردّها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق ، يذكّر الله الإنسان بالبداءة كدليل على الإعادة يعني : أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً أفلا يعيده وقد صار شيئاً وفي قوله تعالى ﴿**أوَ لَا يذكر**﴾ إشارة إلى أن موضوع الإيمان باليوم الآخر من البداهة بحيث يكفي حتى بتيقنه الإنسان أن يتذكر

بدهيات قريبة جداً. ومن ثم لم يذكر الله عز وجل إلا آية واحدة في الرد، ثم انتقل السياق إلى الإنذار ثم التبشير: ﴿ **فوربك لنحشرنهم** ﴾ أي: الكفار المنكرين للبعث ﴿ **والشياطين** ﴾ أي مع الشياطين أي يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم قال النسفي: يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ **ثم لنُحضرنّهم حول جهنم جثياً** ﴾ أي باركين على الركب، أي يُعْتلون من المحشر إلى شاطىء جهنم عتلاً، على حالهم التي كانوا عليها في الموقف، جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم ﴿ **ثم لننزعنّ من كل شِيعةٍ** ﴾ أي طائفة شايعت أي تبعت غاوياً من الغواة ﴿ **أيُّهم أشدّ على الرحمن عتياً** ﴾ أي جرأة أو فجوراً، أي لنخرجن من كل طائفة من طوائف الغي أعتاهم فأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب، نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم. قال ابن مسعود: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وقال قتادة: ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم، ورؤساءهم في الشر ﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولىٰ بها صلياً** ﴾ أي أحق بالنار، أي إنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يُصْلىٰ بنارجهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، أنه فاعل بهم ذلك، وفي إقسام الله باسمه مضافاً إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله ﷺ ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ أي وما منكم يا بني الإنسان أحد إلا داخلها ﴿ **كان على ربك حتماً مقضياً** ﴾ أي كان ورودكم كائناً محتوماً ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر** ﴾ أي وندع ﴿ **الظالمين فيها جثياً** ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط مَنْ سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجّىٰ الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم.

وفي الآية دليل على ورود الكل لأنه قال (ونذر) ومذهب أهل السنّة والجماعة أن صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لا محالة، لا كما قالت المرجئة: إن صاحب الكبيرة لا يعاقب لأنّ المعصية في زعمهم لا تضر مع الإسلام عندهم، ولا كما قالت المعتزلة: إن مرتكب الكبيرة يخلد. قال ابن كثير: فجوازهم على الصراط، وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم، وهي مواضع السجود، وإخراجهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه حتى يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار

من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله ، وإن لم يعمل خيراً قط ، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ .

كلمة في السياق :

رأينا في هذه الآيات موقفاً للكافرين ، ورداً عليه ، وإنذاراً لهم ، وتبشيراً للمتقين ، ومجيء هذه الآيات بعد ما مرّ من السورة فيه إشارة إلى أن سبب الكفر والظلم ، وترك الواجبات ، واتباع الشهوات هو الكفر باليوم الآخر ، فإذا تذكرنا محور السورة : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾

رأينا واحداً من المواقف التي كان عليها الناس ، والآن تسجل السورة علة أخرى من علل البشرية الصادة لها عن دين الله ، إنّها تسجّل حالة عجيبة للنفس البشرية عندما تقام عليها الحجة فتفر من الحق ، إلى ما سواه ، والعجيب أن الكافرين يزعمون أن المؤمنين لا يحكِّمون عقولهم

﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أي القرآن أو الحجج والبراهين ﴿ **بينات** ﴾ أي ظاهرات الإعجاز ، أو واضحات الحجج والبراهين ، فبدلاً من أن يؤمنوا بها يفرون منها ، ويعارضونها لا بالحجة بل بالاستدلال الفاسد ، بأن حال الكافرين في الدنيا خير من حال المؤمنين ﴿ **قال الذين كفروا للذين آمنوا** ﴾ أي عن الذين آمنوا ﴿ **أيّ الفريقين** ﴾ المؤمنين أو الكافرين ﴿ **خير مقاماً** ﴾ أي أحسن منازل وأرفع دوراً ﴿ **وأحسن نَدِياً** ﴾ وأحسن مجلساً يجتمع القوم فيه للمشاورة . والندي : هو مجتمع الرجال للحديث ، يفتخرون بناديهم أنه أعمر وأكثر وارداً أو طارقاً ، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ؟! وأولئك الأقل والأفقر على حق ؟! كأن ذلك هو العلامة على الحق والباطل ، وليس الأمر كذلك . ولذلك قال تعالى في الرد عليهم : ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ أي أهل عصر ، أي كثيراً من القرون أهلكنا ﴿ **هم أحسن أثاثاً** ﴾ أي متاعاً ﴿ **ورئياً** ﴾ أي منظراً وهيئة . أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً ، وأمتعة ومناظر وأشكالاً ، فلو كان متاع الدنيا ونعيمها علامة على رضى الله ، أو علامة على كون الإنسان على حق لما أخذ أولئك . فالدنيا يعطيها الله من أحب ومن لا يحب ، وقد يمنعها مَن يحب ، ويعطيها من لا يحب . وبعد أن يرد الله عز وجل على منطق الكافرين هذا يأمر رسوله ﷺ أن يذكر سنته في الكافرين والمؤمنين ، في صيغة إنذار

للكافرين وتبشير للمؤمنين :

﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم ، المدّعين أنهم على حق ، وأنكم على الباطل ﴿ **من كان في الضلالة فليمدُدْ له الرحمن مدّاً** ﴾ فهذا دعاء على الضال من الفريقين أي : فليمدّه في طغيانه ، هكذا قرّر ذلك ابن جرير . فهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه ، هذا اتجاه . والاتجاه الآخر في الآية تقديره : من كفر مدَّ له الرحمن أي : أمهله وأملى له في العمر ليزداد طغياناً ، وإنما أخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة ، وعلى الاتجاه الثاني يكون ذلك تهديداً للكافرين ، وإنذاراً لهم ، وإقامة حجة عليهم ، بأن إعطاء الدنيا لا يعني شيئاً في موضوع الحق والضلال ، ولذلك فمن سنة الله أن يمدّ لأعدائه ثم بيّن الله ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون** ﴾ إذن وقتذاك يكون العلم الحقيقي ، مَنْ هم أهل الباطل ، ومَنْ هم أهل الحق ﴿ **من هو شرٌّ مكاناً** ﴾ أي منزلاً ﴿ **وأضعف جنداً** ﴾ أي أعواناً وأنصاراً ، هم أو المؤمنون؟ والعذاب الذي أوعد به الكافرين هو العذاب الرباني المباشر لهم في الدنيا ، أو العذاب بأيدي المؤمنين قتلاً أو أسراً ، كما قال تعالى ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم** ﴾ (التوبة : ١٤) والمراد بالساعة : القيامة ، وما ينالهم فيها من الخزي والنكال ، فعند العذاب ، أو الساعة يعلمون أن الأمر على عكس ما قدّروه ، وأنهم شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً ، لا خير مقاماً وأحسن ندياً . والمعنى : إن الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم ، لا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين ، أو يشاهدوا الساعة ، وعندئذ يعلمون أن موازينهم خاطئة ، وأفكارهم ضالة . ثم بيّن تعالى أنه كما يمد الضالين في ضلالتهم عقوبة ، يزيد في هداية المهتدين مكافأة ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ أي ثباتاً على الاهتداء ، أو يزيدهم يقيناً وبصيرة بتوفيقه . ثم قرر تعالى خلاف ما زعموه وما تصوروه ﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ أي أعمال الآخرة كلها ، أو الصلوات الخمس أو سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ﴿ **خير عند ربك ثواباً** ﴾ مما يفتخر به الكفار ﴿ **وخير مرداً** ﴾ أي مرجعاً وعاقبة ، وهو رد لمزاعم الكفار إذ يقولون للمؤمنين ﴿ **أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً** ﴾ .

ملاحظة :

هذا المنطق للكافرين هو منطق أكثر الناس اليوم ؛ إذ يحتج كثير من الناس بما عليه الشعوب الأوربية والأمريكية من رخاء على كفرهم ، كدليل على أن الإسلام ليس

حقاً ، فمنطق الكافرين في كل زمان ومكان واحد .

كلمة في السياق :

العلّة الأساسية في الانحراف : هي الكفر باليوم الآخر ، فإذا أقيمت الحجة على الناس به ، فروا من الحجة ، ورفضوا الإسلام بحجة أن الكفر وأهله أجود عيشاً وأعظم جاهاً ، وهو منطق أعوج ، إذ الغنى والفقر لا يتعلّقان بحق أو باطل . فاللص والغشاش والمرابي قد يكونون أكثر الناس مالاً وجاهاً ، فهل يعطي ذلك أفعالهم قيمة عليا ؟ فمنطق الكافرين هذا منطق سفه لا منطق عقل وعلم.وإذ يبطل الله حجتهم وكلامهم فيما مرّ فإنه سيبطل دعوى أخرى لهم فيما سيأتي ، إذ يرى بعضهم أن إمداد الله له في الدنيا دليل على كرامته على الله ، ومن ثَم فإنه حتى في حالة وجود يوم آخر فإنه يزعم أن له كرامة عند الله فيه ، وبمثل هذا المنطق يعرض عن الإسلام ، ويحارب أهله ، ويرفض القرآن . ومن ثَم قال تعالى :

....

﴿ **أفرأيت الذي كفر بآياتنا** ﴾ أي أخبِر أيضاً بقصة هذا الكافر بالقرآن ، واذكر حديثه عقيب أولئك ، ونموذج هذا النوع من الناس : العاص بن وائل كما سنرى ﴿ **وقال لأوتينَّ مالاً وولداً** ﴾ أي في الآخرة ، إن كان هناك آخرة ، فردّ الله عليه ﴿ **أطّلع الغيب** ﴾ أي أنَظَر في اللوح المحفوظ فرأى ما زعم ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ أي موثقاً أن يؤتيه ذلك ، أي أم له عند الله عهد بخطاب مباشر من الله أنه سيؤتيه ذلك ، أو له عهد على لسان رسول بأن فعل ما هو عند الله عهد لأهله كالشهادتين والصلاة ﴿ **كلّا** ﴾ كلمة ردع وتنبيه على الخطأ ، أي هو مخطىء فيما تصوّره لنفسه ، فليرتدع عنه ﴿ **سنكتب ما يقول** ﴾ أي من حكمه لنفسه بما يتمناه ، وكفره بالله العظيم ، وآياته ورسله ﴿ **ونمد له من العذاب مداً** ﴾ أي نزيده من العذاب كما زاد في الافتراء والاجتراء ﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ أي من مال وولد ، أي يرث الله ماله وولده ، أي يسلبهما منه عكس ما قال : إنه يؤتى في الدار الآخرة مالاً وولداً ،بل في الآخرة يُسلب منه الذي كان له في الدنيا ﴿ **ويأتينا** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **فرداً** ﴾ أي لا مال له ولا ولد .

☆ ☆ ☆

كلمة في السياق :

انتهت المجموعة الثانية من المقطع الثاني بعد أن أقامت الحجة على وجود اليوم الآخر ، وأقامت الحجة على منطق الكافرين في زعمهم أن الدنيا هي الميزان ، وأقامت الحجة على الزعم بأن الإكرام الدنيوي علامة على إكرام الله الأخروي . وكل ذلك بصيغة التبشير والإنذار

والآن تأتي مجموعة ثالثة لتتحدث عن اتخاذ المشركين آلهة مع الله . فتنذرهم وتحذرهم وتبشر المتقين ، ثم تأتي مجموعة رابعة تتحدث عن نسبة الولد إلى الله ، فتنذر وتحذر كما سنرى . إن الكفر باليوم الآخر ، والشرك بالله ، ونسبة الولد إليه ، هي محاور الكفر والانحراف الرئيسية التي تعالجها هذه المجموعات وتنذر أصحابها ، ومن قبل في المجموعة الأولى من المقطع الثاني عولج ترك الصلوات واتباع الشهوات .

إن هذه القضايا من أهم ما بعث الرسل من أجله ، وأنزلت الكتب للحكم فيه . وهذا القرآن يحكم فيه وكل ذلك بصيغة التبشير والإنذار

تفسير المجموعة الثالثة :

﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة** ﴾ أي أصناماً وشركاء يعبدونهم من دون الله ﴿ **ليكونوا لهم عزاً** ﴾ أي ليعتزوا بآلهتهم في الدنيا ، ويكونوا لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من العذاب في الآخرة . ثم أخبر تعالى أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا فقال : ﴿ **كلّا** ﴾ كلمة ردع تردعهم عما ظنوا ﴿ **سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أي ستجحد يوم القيامة هذه التي اتخذوها آلهة عبادَتهم وينكرونها ﴿ **ويكونون عليهم ضداً** ﴾ ويكون المعبودون على المشركين خصماً على خلاف ما رجوا منهم ، ثم عجّب الله رسوله ﷺ من غلبة الشياطين على الكافرين ، وسيطرتهم عليهم ، مما يشير إلى أنه لا شرك إلا بإغواء الشياطين ﴿ **ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين** ﴾ أي خليناهم وإياهم ، أو سلّطناهم عليهم بالإغواء ﴿ **تؤزُّهم أزّاً** ﴾ أي تغريهم على المعاصي إغراءً والأز والهز أخوان ومعناهما التهييج وشدة الإزعاج . ثم قال تعالى : ﴿ **فلا تعجل عليهم إنما نَعُدُّ لهم عدّاً** ﴾ أي إنما نعد لهم أعمالهم للجزاء ، وأنفاسهم للفناء ، حتى إذا أتموا العدد المقدر كان الأخذ ، أي إنما نؤخّرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله . قال السدي فيها : إنما نعد لهم عداً : السنين ، والشهور ،

والأيام ، والساعات . وقال ابن عباس فيها : نعدُّ لهم أنفاسهم في الدنيا ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾.قال ابن كثير : والوفد هم القادمون ركباناً ، ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه ، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم فإنهم يُساقون عنفاً إلى النار عطاشاً . قال تعالى : ﴿ **ونسوق المجرمين** ﴾ أي الكافرين ، وفي ذكر السَوق إشارة إلى أنهم كالأنعام يُساقون ﴿ **إلى جهنم وِرْدًا** ﴾ أي عطاشاً ، لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش ، وحقيقة الورد : المسير إلى الماء ، فيسمى به الواردون فالورد جمع وارد ، ذكر المتقون بأنهم يفدون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته ، كما يفد الوفود على الملوك تبجيلاً لهم ، والكافرون بأنهم يساقون إلى النار كأنهم نَعَم عطاش تساق إلى الماء ، استخفافاً بهم ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾ أي لا يجدون من يشفع لهم ، ولا يستطيعون أن يشفعوا لغيرهم ، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، ﴿ **إلا مَن اتّخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ بأن آمن وشهد ألا إله إلا الله ، فهذا يملك أن يشفع بإذن الله أو يُشفع له بإذن الله .

تفسير المجموعة الرابعة :

﴿ **وقالوا** ﴾ أي النصارى ، وكذلك من زعم أن عزيراً ابن الله ، ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿ **اتخذ الرحمن ولداً** ﴾ وهو قول لا يقوم عليه دليل ، وهو في منتهى الفظاعة ؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **لقد جئتم شيئاً إدّاً** ﴾ أي عجيباً عظيماً منكراً ﴿ **تكاد السمٰوات يتفطّرن منه** ﴾ أي يتشققن ﴿ **وتنشق الأرض** ﴾ أي من فظاعة هذا القول ، تكاد تنخسف ، وتنفصل أجزاؤها ﴿ **وتخرُّ** ﴾ أي تسقط ﴿ **الجبال هدّاً** ﴾ أي كسراً أو قطعاً ، أو هدماً ، أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فَجَرة بني آدم ؛ إعظاماً للرب وإجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو وأنه لا شريك له ، ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولاصاحبة له ، ولا كفء له ، بل هو الأحد الصمد ، ومن ثم فإنهن يكدن يحدث لهن ما وصف لفظاعة هذا القول : ﴿ **أن دَعَوْا للرحمن ولداً** ﴾ أي لأن سمّوا لله ولداً ﴿ **وما ينبغي** ﴾ أي وما يصلح وما يتأتى ﴿ **للرحمن أن يتخذ ولداً** ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به ؛ لجلاله وعظمته أن يتخذ ولداً ، وهذا لأن اتخاذ الولد لحاجة ، ومجانسة وهو منزه عنهما . قال النسفي : وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان أنه الرحمن وحده ، لا يستحق هذا الاسم غيره ،

لأن أصول النعم وفروعها منه ، فلينكشف عن بصرك غطاؤه ، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه ، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه ، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن . ﴿ **إنْ كل مَنْ في السمٰوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً** ﴾ أي كل من في السموات والأرض من الملائكة ، والناس والجن ، إلا وهو يأتي الله يوم القيامة ، مقراً له بالعبودية . والعبودية والبنوّة تتنافيان ، حتى جعل الله من شريعته أن الأب لو ملك ابنه يعتق عليه فإذا كانت نسبة الجميع إليه العبودية فلا بنوّة ﴿ **لقد أحصاهم** ﴾ أي حصرهم بعلمه وأحاط بهم ﴿ **وعدّهم عداً** ﴾ أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ذكرهم وأنثاهم ، وصغيرهم وكبيرهم ﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً** ﴾ أي كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً بلا مال ، أو بلا معين ، ولا ناصر ، وإذ كان هذا شأنه ، وإذ كان كل الخلق هذا حالهم ، فكيف ينسبون إلى الله الولد .

وهكذا عالجت السورة أهم قضايا الضلال بأسلوب التبشير والإنذار . ثمّ تأتي آية تبشر المؤمنين ببشارة عظيمة : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّاً** ﴾ أي مودة في قلوب العباد . قال ابن كثير : (أي يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وهذا أمر لابد منه ، ولا محيد عنه ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه) . وسنراها في الفوائد وبعد أن بشّر الله المؤمنين هذه البشارة ، تأتي آية لتذكر أن حكمة إنزال القرآن هي التبشير والإنذار : ﴿ **فإنما يسّرناه** ﴾ أي سهّلنا هذا القرآن ﴿ **بلسانك** ﴾ أي بلغتك ﴿ **لتبشّر به المتقين** ﴾ المؤمنين ﴿ **وتنذر به قوماً لُدّاً** ﴾ أي قوماً شداداً في الخصومة بالباطل ثم أنذرهم بآية أخيرة في السورة : ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذّبوا رسله ﴿ **هل تحسّ منهم من أحد** ﴾ أي هل تجد أو ترى أو تعلم ، إذ الإحساس الإدراك بالحاسة ﴿ **أو تسمع لهم رِكْزاً** ﴾ أي صوتاً خفياً أي لمّا أتاهم عذابنا لم يبق شخص يُرىٰ ، ولا صوت يُسمع ، يعني هلكوا كلهم : فليحذر هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك أن يصيبهم ما أصاب غيرهم . وهكذا أكّدت السورة أن هذا القرآن أنزله الله مبشراً ومنذراً ، وأرتنا السورة أنواعاً من التبشير ، وأنواعاً من الإنذار .

☆ ☆ ☆

كلمة في السياق :

رأينا أن سورة مريم محورها آية البقرة ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ....** ﴾

فلنر كيف فصلت السورة هذا المحور ، وكيف خدمت حيّزه ، وهو موضوع الدخول في الإسلام كله :

١ ــ ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ أي أصبح الناس كفاراً فبعث الله مبشرين ومنذرين . وقد أصبح الناس كفاراً قبل بعثة محمد ﷺ فبعث الله محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً بالقرآن المبشر المنذر ، فسورة مريم فصلت لنا قصص نبيين بشروا وأنذروا ، ولقد بشرت وأنذرت من كفر باليوم الآخر ، ومن أشرك ، ومن جعل لله ولداً ،ومن أضاع الصلوات واتبع الشهوات ، وبشرت المتقين بكرامتهم يوم يحشرون ، وبخروجهم من النار يوم يعبرون بالمودة لهم في قلوب المؤمنين ، أنذرت بالنار ، وبالإهانة والذلة يوم القيامة وأنذرت بعذاب الله في الدنيا .

٢ ــ ﴿ **وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم** ﴾ . وهذا القرآن أنزله الله بالحق ، ليحكم بين الناس جميعاً في كل قضية حدث فيها خلاف ، ومن ذلك اختلاف أهل الكتاب .

٣ ــ ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ فمن اهتدى بهذا القرآن فقد اهتدى إلى الصراط المستقيم .

فسورة مريم نموذج لبعثة الله الرسل وأسبابها وأحوالها والحاجة إليها .

ملاحظة :

إن أهم ما نلفت إليه نظر المسلم هو أن كثيراً من هذه الأمة وقع فيما وقعت فيه الأمم الأخرى ، من ترك الصلوات ، واتباع الشهوات ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** ﴾

وهم مع ذلك يعيشون على الدعوى والادعاء والأماني . وقد فتح الله لأمثال هؤلاء باب الرحمة إذا تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات . وفي قوله تعالى بعد هذه الآيات :

﴿ وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيّاً ۝ رب السمٰوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ .

ما يفيد التسليم لله في أمر الوحي مع الإقبال عليه في العبادة ، فإن ذلك هو الشيء المكافىء لمواقف المشركين والكافرين والملحدين والمنحرفين .

....

والآن فلنتساءل كيف خدمت سورة مريم حيّز ما ورد فيه محورها من سورة البقرة وهو موضوع الدخول في الإسلام كافة .

إن السورة خدمت هذا الموضوع : من خلال عرض حال المنحرفين وتقويمهم ، ومن خلال عرض علل الانحراف وتسفيهها ومن خلال الوعد بأن الذين يلتزمون بالإسلام سيجعل الله لهم القبول ، ومن خلال التبشير والإنذار .

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى : **﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوف أخرج حياً ﴾** يذكر ابن كثير الحديث الصحيح القدسي وهو :

« يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني ، أما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره وأما أذاه إياي فقوله : إن لي ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُواً أحد » .

٢ ــ وبمناسبة قوله تعالى : **﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾** يذكر ابن كثير آثاراً عن السلف في معناها وأحاديث توضحها :

ومما ذكره :

روى الإمام أحمد ... عن ابن مسعود **﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾** قال رسول الله ﷺ : « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم » . وقد رواه أسباط ، عن السدي عن مرة ، عن عبد الله بن مسعود قال : « يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر

كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مرًّا نوره على موضع إبهامي قدميه ، يمر فيتكفأ به الصراط ، والصراط دحض مزلة ، عليه حسك كحسك القتاد حافتاه ملائكة ، معهم كلاليب من النار يخطفون بها الناس » وذكر تمام الحديث . وروى ابن جرير .. عن عبد الله قوله ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال « الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون ، والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم » ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس ، وأبي سعيد ، وأبي هريرة ، وجابر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ..

وروى الإمام أحمد ... عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن لا يدخل النار – إن شاء الله – أحد شهد بدراً والحديبية » قالت : فقلت : أليس يقول : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قالت : فسمعته يقول : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ . وروى أحمد أيضاً ... عن أم مبشر – امرأة زيد بن حارثة – قالت : كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال : « لا يدخل النار أحد شهد بدراً أو الحديبية » قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾ الآية . وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسّه النار إلا تحلة القسم » .

وروى عبد الرزاق ... عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ومن مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعني الورود . وروى أبو داود الطيالسي .. عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فتمسّه النار إلا تحلة القسم » قال الزهري كأنه يريد هذه الآية ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً** ﴾ ...

وروى الإمام أحمد ... عن أنس الجهني عن رسول الله ﷺ : « من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة » فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : « الله أكثر وأطيب » . وقال رسول الله ﷺ : « من قرأ ألف آية في سبيل الله ، كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً – إن شاء الله – ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا بأجر لم ير النار إلا تحلة القسم » . قال الله تعالى ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ وإن الذكر في سبيل

الله يضاعف فوق النفقة بسبعمائة ضعف ، وفي رواية بسبعمائة ألف ضعف ، وروى أبو داود ... عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ : « إن الصلاة عليّ ، والصيام والذكر ، يضاعف النفقة في سبيل الله ، بسبعمائة ضعف » . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال هو المَمرُّ عليها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها ، ومرور المشركين أن يدخلوها وقال النبي ﷺ : « الزالون والزالات يومئذ كثير ، وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سَلِّم سَلِّم » .

٣ ــ وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً** ﴾ قال قتادة ومجاهد والضحاك : لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة ، وفيهم قشافة ، فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿ **أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً** ﴾ .

٤ ــ مر معنا في سور الكهف فائدة طويلة حول تفسير الباقيات الصالحات وبمناسبة قوله تعالى في سورة مريم : ﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردّاً** ﴾ . ذكر ابن كثير ما أخرجه عبد الرزاق قال :

روى عبد الرزاق ... عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : جاء رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه ثم قال : « إن قول لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح ، خذهنّ يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن ، الباقيات الصالحات ، وهن من كنوز الجنة » قال أبو سلمة فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهلِّلَنَّ الله ، ولأكبرنّ الله ، ولأسبحنّ الله ، حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون وهذا ظاهره أنه مرسل ، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة عن أبي الدرداء والله أعلم ، وهكذا وقع في سنن ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن عمر ابن يحيىٰ عن أبي سلمة عن أبي الدرداء فذكر نحوه .

٥ ــ وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولداً** ﴾ ذكر ابن كثير ما يلي :

« روى الإمام أحمد ... عن خباب بن الأرتّ قال : كنت رجلًا قيناً ، وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ، ثم تبعث ، قال : فإني إذا مت ثم

بعثت جئتني ولي ثَمّ مال وولد فأعطيتك . فأنزل الله ﴿ **أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً** ﴾ إلى قوله ﴿ **ويأتينا فرداً** ﴾ أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما من غير وجه عن الأعمش به ، وفي لفظ البخاري كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً فجئت أتقاضاه . فذكر الحديث ، وقال ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ قال: موثقاً .

وروى عبد الرزاق ... عن مسروق قال : قال خباب بن الأرتّ: كنت قيناً بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل ، فاجتمعت لي عليه دراهم ، فجئت لأتقاضاه ، فقال لي : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا أكفر بمحمد حتى تموت ، ثم تبعث ، قال : فإذا بعثت كان لي مال وولد قال : فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ **أفرأيت الذي كفر بآياتنا** ﴾ الآيات ، وقال العوفي عن ابن عباس : إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بديْن ، فأتوه يتقاضونه فقال : ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ، ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى . قال : فإن موعدكم الآخرة ، فوالله لأوتين مالاً وولداً ، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به ، فضرب الله مَثَله في القرآن فقال : ﴿ **أفرأيت الذي كفر بآياتنا** ﴾ إلى قوله ﴿ **ويأتينا فرداً** ﴾ وهكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم إنها نزلت في العاص بن وائل » .

٦ ــ وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾ ذكر ابن كثير آثاراً كثيرة : قال :

« روى ابن أبي حاتم ... عن ابن مرزوق ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيّب ريحك وحسّن وجهك فيقول : أنا عملك الصالح وهكذا كنت في الدنيا ، حسن العمل طيبه ، فطالما ركبتك في الدنيا ، فهلم اركبني فيركبه فذلك قوله ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾ قال : ركباناً ، وروى ابن جرير ... عن أبي هريرة ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾ قال : على الإبل . وقال ابن جريج على النجائب ، وقال الثوري على الإبل النوق ، وقال قتادة ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾ قال: إلى الجنة وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه ... عن النعمان بن سعيد قال : كنا جلوساً عند عليّ رضي الله عنه فقرأ هذه الآية ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على

أرجلهم ولكن نوق ، لم ير الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها ، حتى يضربوا أبواب الجنة وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير من حديث عبد الرحمن ابن إسحاق المدني به ، وزاد : عليها رحائل الذهب وأزمتها الزبرجد . والباقي مثله .

٧ ـــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾

يذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبن حاتم بسنده عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله يعني ابن مسعود هذه الآية ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلّمنا قال : قولوا : اللهم فاطر السموٰات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، أنك إن تكلني إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد .

قال المسعودي : فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن : أخبرنا ابن مسعود وكان يلحق بهنّ : خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك . ثم رواه من وجه آخر عن المسعودي بنحوه .

٨ ـــ يلاحظ أن سورة مريم بدأت بقصة زكريا ، التي هي مقدمة لقصة مريم ، التي قرر الله تعالى فيها عبودية عيسى عليه السلام ، وكونه خَلَق عيسى من مريم بلا أب ، وبعد سياق طويل ، وقبيل ختم السورة ، أنكر الله عز وجل أشد الإنكار على من نسب لله الولد فقال : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً** ... ﴾ وكأن هذا يفيد أن القضية الرئيسية في السورة هي هذه القضية .

٩ ـــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً** ﴾ يذكّر ابن كثير بحديثين : الأول رواه ابن جرير وهو : قال رسول الله ﷺ : « لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة » . فقالوا : يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال تلك أوجب وأوجب ، ثم قال : « والذي نفسي بيده لو جي بالسموٰات والأرضين وما فيهن ، وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن » .

والثاني رواه الإمام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه - وهو في الصحيحين - قال :

قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، أن يشرك به ، ويجعل له ولد ، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم » .

١٠ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً** ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الذي رواه أحمد والبخاري ومسلم « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء ، إن الله يحب فلاناً فأحبوه قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادي في أهل السماء ، إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض » .

وبعد مجموعة روايات حول المعنى نفسه يذكر رواية أخرى ويتبعها بأقوال للسلف حول هذا الموضوع . قال :

روى ابن أبي حاتم ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادى في السماء ، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً** ﴾ رواه مسلم والترمذي كلاهما عن عبد الرحمن عن قتيبة عن الدراوردي به ، وقال الترمذي حسن صحيح ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ **سيجعل لهم الرحمن وداً** ﴾ قال : حباً . وقال مجاهد عنه سيجعل لهم الرحمن وداً . قال : محبة في الناس في الدنيا . وقال سعيد بن جبير عنه : يحبهم ويحببهم يعني إلى خلقه المؤمنين ، كما قال مجاهد أيضاً والضحاك وغيرهم ، وقال العوفي عن ابن عباس أيضاً : الودّ من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق ، وقال قتادة : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً** ﴾ إي والله في قلوب أهل الإيمان ، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ، وقال قتادة : وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول : ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عز وجل رداء عمله ، وروى ابن أبي حاتم رحمه الله ... عن الحسن البصري رحمه الله قال : قال رجل والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها ، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي ، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج ، فكان لا يعظم ، فمكث بذلك سبعة

أشهر ، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا : انظروا إلى هذا المرائي ، فأقبل على نفسه فقال : لا أراني أذكر إلا بِشَر ، لأجعلن عملي كله لله عز وجل ، فلم يزد على أن قلب نيته ، ولم يزد على العمل الذي كان يعمله ، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون : رحم الله فلاناً الآن ، وتلا الحسن ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً** ﴾ وقد روى ابن جرير أثراً « أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف » وهو خطأ فإن هذه السورة بكمالها مكية ، لم ينزل منها شيء بعد الهجرة ، ولم يصح سند ذلك والله أعلم .

كلمة في سورة مريم ومجموعتها :

رأينا أنه بسورة مريم اختتمت المجموعة الثانية من القسم الثاني من أقسام القرآن ، ورأينا أن هذه المجموعة تألفت من خمس سور : الأولى منها كالمقدمة للسور الأربع الأخيرة . ورأينا أن السور الأربع الأخيرة قد فصّلت الآيات الواردة في حيّز قوله تعالى ﴿ **ادخلوا في السِّلم كافّة** ﴾ ففصّلتها ، وخدمت موضوع الدخول في السلم كافة .

فإذا تذكّرنا أن سورة البقرة نزلت في المدينة ، وأن هذه السور الخمس نزلت في مكة ، ثمّ رأينا مثل هذا الترتيب العجيب ، والتفصيل المدهش ، والتناسق الكامل . والتنسيق بين سور القرآن بما يخدم بعضه بعضاً ، أدركنا أن مثل هذا لا يمكن أن يكون ، لولا أن هذا القرآن كتاب الله رب العالمين .

وبهذا نختتم الكلام عن المجموعة الثانية من القسم الثاني من أقسام القرآن ، ولننتقل إلى المجموعة الثالثة والأخيرة من القسم الثاني من قسم المثين .

☆ ☆ ☆

فهرس المجلد السادس

الموضوع — الصفحة



☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆



☆ ☆ ☆